



عناصر الموضوع

مفهوم الامثال	٨
الأمثال في الاستعمال القرآني	٩
الالفاظ ذات الصلة	١٠
أنواع الأمثال	١٢
ميادين ضرب الأمثال	٢٢
مقاصد ضرب المثل	٣٧
أثار ضرب الامثال	٤٦

المجلد الخامس

مفهوم الأمثال

أولًا: المعنى اللغوي:

(مثل): الميم والثاء واللام: أصلٌ صحيحٌ يدل على مناظرة الشيء للشيء، وهذا مثل هذا: أي نظيره وشبيهه، والمثل: الشيء الذي يضرب لشيء مثلًا، فيجعل مثله، ويطلق على الصفة والعبرة والآية والأنموذج الذي يحتذى به[(١)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرف الراغب الأصفهاني المثل بقوله: «والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة؛ ليبين أحدهما الآخر ويصوره»[(٢)].

ونلاحظ مما سبق أن هناك ارتباطًا بين المعنى اللغوي والاصطلاحي في كون المثل يضرب في المشابهة في القول، ولكنه يتضمن معانٍ أخرى كالصفة والعبرة والآية.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ٦١٠.

(٢) المفردات، ص ٧٥٩.



الأمثال في الاستعمال القرآني

وردت مادة (مثل) في القرآن (١٦٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ١٧﴾ [مريم:١٧]
اسم التفضيل	٢	﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا ١٠٤﴾ [طه:١٠٤]
صفة مشبهة	٧٥	﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡبَيۡعُ مِثۡلُ ٱلرِّبَوٰاْ﴾ [البقرة:٢٧٥]
اسم بمعنى الصفة	٨٨	﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٥٩﴾ [آل عمران:٥٩]
اسم على وزن فعلات	١	﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ [الرعد:٦]

وجاءت الأمثال في القرآن على أربعة أوجه[٢]:

أحدها: السنن، ومنه قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُم﴾ [البقرة:٢١٤]. يعني سنن الذين خلوا من قبلكم.

الثاني: العبرة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ سَلَفٗا وَمَثَلٗا لِّلۡأٓخِرِينَ ٥٦﴾ [الزخرف:٥٦]. يعني: عبرة لمن بعدهم.

الثالث: الصفة والشبه، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ﴾ [الفتح:٢٩]. يعني: صفتهم.

الرابع: العقوبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾ [الرعد:٦]. يعني: العقوبات.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٥٩-٦٦١.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤١٥-٤١٦.

الألفاظ ذات الصلة

١ المثل:

المِثْل لغة:

فالمَثَل والمِثْل يدلان على معنى واحد، وهو كون شيء نظيرًا للشيء، وفي القاموس: «المثل -بالكسر والتحريك- الشبه»[(١)].

المثل اصطلاحًا:

عرفه الإمام السيوطي بقوله: «المساوي من كل وجه»[(٢)].

الصلة بين المَثَل المِثْل:

المثل في دلالته اللغوية الأصلية يعني (المشابهة) بين شيء وشيء، ولكن لفظ (المثل) أوسع من لفظ (التشبيه) يقول الراغب الأصبهاني: «المثل عبارة عن المشابهة لغيره في معنى من المعاني، أي معنىً كان، وهو أعم الألفاظ الموضوعة للمشابهة»[(٣)]، يعني أنه أعم من (المثل).

٢ الشبيه:

الشبيه لغة:

قال ابن منظور: «الشبه والشبه والشبيه: المثل، والجمع أشباه، وأشبه الشيء الشيء: ماثله»[(٤)].

الشبيه اصطلاحًا:

قال محمد الغزي الشافعي: «هو عبارة عن محاولة الإنسان أن يكون شبه المتشبه به، وعلى هيئته وحليته ونعته وصفته»[(٥)].

الصلة بين المثل والشبيه:

المثل أعم من الشبيه؛ لأن المثل ما تكافأ في الذات، أما الشبيه لا يستعمل إلا في المتجانسين، فالشبيه يأخذ بعض صفات الذات، أما المثل فيأخذ كل الصفات[(٦)].

(١) القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ٤ / ٤٩.
(٢) الحاوي للفتاوى، ٣/ ٤١٠.
(٣) المفردات، ص٤٦٢.
(٤) لسان العرب، ١٣/ ٥٠٣.
(٥) الأعياد وأثرها على المسلمين، ص ٩٩.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص ١٥٣.



٣ النظير:

النظير لغة:

المماثل والشبيه، يقال: فلان نظير فلان إذا كان مثله، وشبيهه (نظير) الشيء مثله[١].

النظير اصطلاحًا:

ما قابل نظيره في جنس أفعاله وهو متمكن منها [٢].

الصلة بين المثل والنظير:

المثل ما تكافأ في الذات على ما ذكرنا، والنظير ما قابل نظيره في جنس أفعاله وهو متمكن منها؛ كالنحوي نظير النحوي وإن لم يكن له مثل كلامه في النحو أو كتبه فيه، ولا يقال: النحوي مثل النحوي؛ لأن التماثل يكون حقيقة في أخص الأوصاف، وهو الذات [٣].

(١) انظر: مختار الصحاح، ص ٣١٣.
(٢) الفروق اللغوية، العسكري، ص ٤٨٠.
(٣) انظر: المصدر السابق، ص ١٥٥.

أنواع الأمثال

يعتمد المثل القرآني في بنيته الأسلوبية على لفظ (المثل) مفردًا أو مجموعًا، وهذا هو الشائع في صياغته.

وقد يقدر تقديرًا، ويدل عليه حرف العطف، كقوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩].

وقد يفهم من السياق، كقوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

وقد توسع الزركشي في تقسيماته للمثل القرآني، فعد كل تشبيه في القرآن كقوله: ﴿كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٣]، من قبيل الأمثال، فعنده (الأمثال الصريحة المعتمدة على لفظ (المثل)، و(الأمثال الكامنة) التي تفهم من السياق من غير تصريح بلفظ (المثل).

والأمثال الواردة في القران الكريم على أنواع، هي: الأمثال الحسية، والأمثال المعنوية، والأمثال الافتراضية العقلية.

وتفصيلها فيما يأتي:

أولًا: الأمثال الحسية:

ضرب الله تعالى في القرآن الكريم الكثير من الأمثال الحسية التي تقرب المراد للعقل وتصوره بصورة المحسوس، يقول البيضاوي: «فإن التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه، وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس؛ ليساعد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه، فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم؛ لأن من طبعه الميل إلى الحس وحب المحاكاة»[(١)].

وقال أبو السعود: «فإن التمثيل ليس إلا إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهور، وتحلية المعقول بحلية المحسوس، وتصوير أوابد المعاني بهيئة المأنوس؛ لاستمالة الوهم، واستنزاله عن معارضته للعقل، واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية، وفهم الدقائق الأبية؛ كي يتابعه فيما يقتضيه، ويشايعه إلى ما لا يرتضيه؛ ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية، والكلمات النبوية، وذاعت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء ....، فالتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع سورة الجامح الأبي، كيف لا وهو

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ١/ ٢٥٤.

رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازه لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشي في هيئة المألوف»[(١)].

والمقصود أن في القرآن الكريم آيات كثيرة جاء التمثيل فيها بالأشياء الحسية؛ لإبراز المعاني المعقولة الخفية، وجعلها كالمشاهد المحسوس، ومن ذلك:

ما ضربه الله مثلًا لحال المنفق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، قال تعالى: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

ففي هذا الآية ضرب الله مثلًا للمنفق رياءً بالصفوان، وهو شيء حسي، فالصفوان: اسم جنس جمعي، واحده: صفوانة، وهو الحجر الكبير الأملس ...، و(الوابل): المطر الشديد، و(الصلد): هو الشيء الأجرد النقي من التراب الذي كان عليه.

والمعنى: يا أيها المؤمنون لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى فيكون مثلكم كمثل المنافق الذي ينفق ماله من أجل الرياء، لا من أجل رضا الله، وإن مثل هذا المنافق في انكشاف أمره، وعدم انتفاعه بما ينفقه رياء وحبًا للظهور مثل حجر أملس لا ينبت شيئًا، ولكن عليه قليل من التراب الموهم للناظر إليه أنه منتج، فنزل المطر الشديد، فأزال ما عليه من تراب، فانكشفت حقيقته، وتبين للناظر إليه أنه حجر أملس صلد، لا يصلح لإنبات أي شيء عليه[(٢)].

ومن ذلك: ما ضربه الله مثلًا لحال الدنيا بالماء الذي ينزل من السماء -وهو شيء حسي-، فيختلط به نبات الأرض، فيصبح هشيمًا تذروه الرياح، فقال: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ ۗ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

يصور الله تعالى زوال الدنيا ونعيمها، وعدم خلودها كي لا يغتر بها المغترون والمتمسكون بها، بالماء الذي ينزل من السماء فيختلط بنبات الأرض فتنسفه الرياح وتطيره، وهذا مثل على أن الدنيا زائلة، مثلما يزول النبات والمطر وغيرهما من مخلوقات الله في الأرض، مما لا يدع مجالًا للاغترار بشيء يزول بعد حين.

ويشبه هذا المثل قوله تعالى في مثل آخر: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ۖ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ۚ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٧٢.

(٢) التفسير الوسيط، طنطاوي ١/ ٦٠٨.

﴿مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ٢٠﴾ [الحديد: ٢٠].

ما ضربه الله مثلًا لحال المؤمنين وتشبههم بالزرع -وهو شيء حسي- الذي يعجب الزراع؛ ليغيظ بهم الكفار، فقال: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

فهذا المثل المضروب لهم، يهدف إلى الثناء عليهم ومدحهم، فكان التركيز فيه على صفاتهم الحسية والمعنوية، من صفات العبادة، والسجود البارزة في قسمات الوجه والنواصي، وصفات الخير المجسدة في سلوكهم وأفعالهم، ثم جاء مثلهم في الإنجيل معتمدًا على تشبيههم بالزرع النامي الملتف؛ لإبراز التفافهم حول الرسول صلى الله عليه وسلم، ومؤازرتهم له حتى قوي الإسلام، واشتد عوده، وتكاثرت الأمة، ونمت في كيانٍ موحد، كالزرع الذي أخرج شطأه فنمت أعواده الصغيرة على جانبيه، فتكاثرت وتآزرت حتى قوي الزرع، واستوى قائمًا شديدًا، وصورة هذا الزرع في مراحل نموه تشبه صورة المؤمنين، ومراحل نموهم من الضعف إلى القوة، ومن القلة إلى الكثرة حتى قوي وجوده واشتد متحديًا العواصف والرياح، وهذا الوجود يعجب الزراع الذين أسهموا في نموه وحراسته، ويغيظ الكفار الذين لا يريدون للإسلام هذا الوجود القوي[1].

وبعد بناء صورة هذا المثل، واستعراض عناصره، واستحضار صورة الممثل له في الذهن، جاء التعقيب بقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾[الفتح: ٢٩].

فكأن هذا التعقيب بيانٌ للغرض من التمثيل، وهذه هي الطريقة الأسلوبية المتبعة في الأمثال القرآنية، فبعد تصوير المثل بشكل تفصيلي، يعود التعبير من جديد إلى الممثل له ويتابع الكلام عنه.

ما ضربه الله من مثل حسي لحال اليهود الذين كلفوا العمل بالتوراة ثم لم يعملوا بها، كشبه الحمار الذي يحمل كتبًا لا يدري ما فيها، فقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

فضرب الله لهؤلاء مثلًا بحال حمار يحمل أسفارًا لا حظ له منها إلا الحمل دون علم ولا فهم؛ ذلك أن علماء اليهود أدخلوا في التوراة ما صيرها مخلوطًا بأخطاء وضلالات، ومتبعًا فيه هوى نفوسهم، وما لا يعدو نفعهم الدنيوي، ولم يتخلقوا بما تحتوي عليه من الهدى والدعاء إلى تزكية النفس، وقد كتموا ما في كتبهم من العهد

(١) البنية الأسلوبية للأمثال القرآنية، عبدالسلام الراغب ص٧.

باتباع النبي الذي يأتي لتخليصهم من ربقة الضلال، فهذا وجه ارتباط هذه الآية بالآيات التي قبلها، وبذلك كانت هي كالتتمة لما قبلها. قال في الكشاف عن بعضهم: «افتخر اليهود بأنهم أهل كتاب، والعرب لا كتاب لهم، فأبطل الله ذلك بشبههم بالحمار يحمل أسفارًا»[1].

«وهذا التمثيل مقصود منه تشنيع حالهم، وهو من تشبيه المعقول بالمحسوس المتعارف؛ ولذلك ذيل بذم حالهم: ﴿بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٥].

و(بئس) فعل ذم، أي: ساء حال الذين كذبوا بكتاب الله، فهم قد ضموا إلى جهلهم بمعاني التوراة تكذيبًا بآيات الله، وهي القرآن»[2].

ثانيًا: الأمثال المعنوية:

الأمثال المعنوية هي الأمثال التي تتعلق بالأمور المعنوية، أو الغيبية، ومن أمثلتها:

قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

يمثل الله ضيق الصدر -وهو أمر معنوي- الذي يصيب الكفار حينما يدعون إلى الإسلام بضيق الصدر الذي يحصل للمتسلق إلى الأعلى في الجبال؛ إذ تتناقص كمية الأكسجين اللازمة والكافية للتنفس، فضيق صدر المتسلق يكاد يخنقه، كذلك الكافر الذي تحجزه أهواؤه وبدعه وكفره عن انشراح صدره.

ومن الأمثال المعنوية قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فالمثل في هذه الآية معنوي، وفيه تمثيل حال من أسلم وتخلص من الشرك بحال من كان ميتًا فأحيي، وتمثيل حال من هو باقٍ في الشرك بحال ميت باقٍ في قبره، ولقد جاء التشبيه بديعًا؛ إذ جعل حال المسلم بعد أن صار إلى الإسلام بحال من كان عديم الخير عديم الإفادة كالميت، فإن الشرك يحول دون التمييز بين الحق والباطل، ويصرف صاحبه عن السعي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف؟ فإذا هداه الله إلى الإسلام تغير حاله، فصار يميز بين الحق والباطل، ويعلم الصالح من الفاسد، فصار كالحي، وصار يسعى إلى ما فيه الصلاح، ويتنكب عن سبيل الفساد، فصار في نور يمشي به في الناس، وقد تبين بهذا التمثيل تفضيل أهل استقامة

(١) انظر: الكشاف، الزمخشري ٧/ ٥٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٢١٤.

العقول على أضدادهم[1].

ومن الأمثال المعنوية أيضًا: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

فالشرك بالله أمر معنوي، والمشرك عندما يقترف شركه يسقط من المرتبة العالية التي وضعها الله للمؤمنين، فيعيش هذا المشرك في اضطراب وقلق وعدم طمأنينة، فيمثل الله لهذه الحالة بمن يخر من السماء فتخطفه الطير، وهو تصوير لحالة التمزق النفسي الذي يعتري المشرك، الذي هو أشبه بحال من يقع من السماء، فتخطفه الطير، أو تهوي الريح به في مكان سحيق، وهي كناية عن أن المؤمن يرفعه إيمانه إلى المكانة العالية في الجنة، بدل قعر جهنم السحيق المعد للكافرين.

والمقصود أن القرآن قد يستخدم بعض العناصر غير الحسية التي لا توجد في بيئة الإنسان المخاطب أو الممثلات المعنوية المعروفة لدى الناس، لكنها لا تدرك بالحواس الخمس، وإنما بالشعور والوجدان، وهي في القرآن قليلة جدًا، ومنها ضرب المثل بالشيطان أو بصفاته، وقد تقرر في عقل كل إنسان بشاعة الشيطان ومظهره وصفاته؛ لذا فضرب المثل به، وإن كان لا يدرك بالحواس إلا أنه مما يمكن تخيل بشاعته، وهذا هو المراد، كما قال الله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الحشر: ١٦].

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ۝٦٤ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الصافات: ٦٤ - ٦٥].

وكقوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٧٧].

ثالثًا: الأمثال الافتراضية:

ضرب الله العديد من الأمثلة الافتراضية -التقديرية- التي لم تقع، وإنما هي أمثلة افتراضية؛ لقصد التوضيح والتقريب، والغرض منها تقريب المراد للعقل، وتصويره بصورة المحسوس؛ ليحصل بها التذكر والاتعاظ.

ومن هذه الأمثال الافتراضية:

١ - ما ضربه الله مثلًا للمشرك والموحد.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

حيث ضرب الله هذا المثل الافتراضي؛ لبيان حال من يشرك بالله ومن يوحده، فشبه المشرك بمملوك بين جماعة من الشركاء،

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٤٥.

يتنازعون فيه، والمملوك بينهم في أسوأ حال، وشبه من يوحد الله بمملوك لرجل واحد[(١)].

و(الشكس): السيئ الخلق، يقال: شركاء متشاكسون، أي: متشاجرون لشكاسة خلقهم، و(سلمًا) أي: خالصًا لا يملكه إلا شخص واحد ولا يخدم إلا إياه، وهذه الآية تمثل حالة الكافر والمؤمن، فهناك مشبه ومشبه به، أما المشبه به فهو عبارة عن عبد مملوك له شركاء سيئو الخلق، متنازعون فيه، فواحد يأمره، وآخر ينهاه، وكل يريد أن يتفرد بخدمته، في مقابل عبد مملوك لرجل يطيعه ويخدمه، ولا يشرك في خدمته شخصًا آخر، فهذان المملوكان لا يستويان.

وأما المشبه فحال الكافر هو حال المملوك الذي فيه شركاء متشاكسون، فهو يعبد آلهة مختلفة لكلٍ أمره ونهيه وخدمته، ولا يمكن الجمع بين الآراء والأهواء المختلفة بخلاف المؤمن، فإنه يأتمر بأمر الخالق الحكيم القادر الكريم.

وهذا المثل وإن كان مثلًا واضحًا مفهومًا لعامة الناس، ولكن له معنى لا يقف عليه إلا أهل التدبر في القرآن، فهو سبحانه بصدد البرهنة على توحيده الذي أشار إليه في قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩].

والمراد من المثل: تصوير استراحة الموحد وانجماعه على معبوده، وتعب المشرك وتشتيت باله، وخصوصًا مع فرض التعاكس من الشركاء، فيصير متحيرًا، وفي عنتٍ كبير من الجمع بين أغراضهم، بل ربما يتعذر ذلك ويستحيل للتضاد في الأغراض والتناقض، مع فرض التخالف والتنازع بينهم، واعتبر ذلك بحال الوالدين، إذا اختلفا على الولد فإنه يعسر إرضاؤهما إلا بمشقة واحتيال، وكذلك عابد الأوثان فإنه معذب الفكر بها، وبحراسة حاله منها، ومتى توهم أنه أرضى واحدًا في زعمه تفكر فيما يصنع مع الآخر، فهو أبدًا في تعب وضلال، وكذلك هو المصانع للناس، الممتحن بخدمة الملوك[(٢)].

وجعل الممثل به حالة رجل ليس للاحتراز عن امرأة أو طفل، ولكن لأن الرجل هو الذي يسبق إلى أذهان الناس في المخاطبات والحكايات؛ ولأن ما يراد من الرجال من الأعمال أكثر مما يراد من المرأة والصبي؛ ولأن الرجل أشد شعورًا بما هو فيه من الدعة أو الكد، وأما المرأة والصبي فقد يغفلان ويلهيان[(٣)].

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٤٦٨.

(٢) انظر: البحر المديد، ابن عجيبة ٥/ ٣١٦.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٤٠١.

ويتضح من هذا حال المشرك في تقسم عقله بين آلهة كثيرين، فهو في حيرة وشك من رضا بعضهم عنه، وغضب بعض، وفي تردد عبادته إن أرضى بها أحد آلهته لعله يغضب بها ضده، فرغباتهم مختلفة، وبعض القبائل أولى ببعض الأصنام من بعض، ويقابله تمثيل حال المسلم الموحد يقوم بما كلفه ربه، عارفًا بمرضاته، مؤملًا رضاه وجزاءه، مستقر البال بحال العبد المملوك الخالص لمالك واحد، قد عرف مراد مولاه، وعلم ما أوجبه عليه، ففهمه واحد، وقلبه مجتمع، وكذلك الحال في كل متبع حق ومتبع باطل، فإن الحق هو الموافق لما في الوجود والواقع والباطل، مخالف لما في الواقع فمتبع الحق لا يعترضه ما يشوش عليه باله، ولا ما يثقل عليه أعماله، ومتبع الباطل يتعثر به في مزالق الخطى، ويتخبط في أعماله بين تناقص وخطأ[1].

وهذا يعد من أبلغ الأمثال، فإن الخالص لمالك واحد يستحق من معونته وإحسانه والتفاته إليه، وقيامه بمصالحه، ما يستحق صاحب الشركاء المتشاكسين[2].

٢. ما ضربه الله مثلًا له سبحانه ولمن يعبد من دونه.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

ففي هذه الآية ضرب الله تعالى مثلين افتراضيين له ولمن يعبد من دونه، أحدهما عبد مملوك، أي: رقيق لا يملك نفسه ولا يملك من المال والدنيا شيئًا، والثاني: حرٌّ غنيٌّ، قد رزقه الله منه رزقًا حسنًا، من جميع أصناف المال، وهو كريم، محب للإحسان، فهو ينفق منه سرًا وجهرًا، هل يستوي هذا وذاك؟! لا يستويان مع أنهما مخلوقان غير محال استواؤهما، فإذا كانا لا يستويان فكيف يستوي المخلوق العبد الذي ليس له ملك ولا قدرة ولا استطاعة، بل هو فقير من جميع الوجوه بالرب الخالق المالك لجميع الممالك القادر على كل شيء؟![3].

فيكون المثل في الآية: مضروبًا لله سبحانه وللأوثان، فالله سبحانه هو المالك لكل شيء، ينفق كيف يشاء على عبيده سرًا وجهرًا، وليلًا ونهارًا، يمينه ملأى لا يغيضها نفقة، سحاء الليل والنهار، والأوثان مملوكة

---

(١) المصدر السابق ٢٣/ ٤٠٢.
(٢) التفسير القيم، ابن القيم ٢/ ١١٠.
(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٤٤.

عاجزة، لا تقدر على شيء، فكيف يجعلونها شركاء لي، ويعبدونها من دوني، مع هذا التفاوت العظيم، والفرق المبين.

وقيل: هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، ومثل المؤمن في الخير الذي عنده، ثم رزقه منه رزقًا حسنًا، فهو ينفق منه على نفسه، وعلى غيره سرًا وجهرًا، والكافر بمنزلة عبد مملوك عاجز لا يقدر على شيء؛ لأنه لا خير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء؟!

والقول الأول أشبه بالمراد، فإنه أظهر في بطلان الشرك، وأوضح عند المخاطب، وأعظم في إقامة الحجة، وأقرب نسبًا بقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ۝٧٣ فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٣ – ٧٤].

ثم قال: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٧٥].

ومن لوازم هذا المثل وأحكامه أن يكون المؤمن الموحد كمن رزقه منه رزقًا حسنًا، والكافر المشرك كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، فهذا ما نبه عليه المثل، وأرشد إليه، فذكره ابن عباس منبهًا على إرادته، لا أن الآية اختصت به فتأمله، فإنك تجده كثيرًا في كلام ابن عباس وغيره من السلف في فهم القرآن، فيظن الظان أن ذلك هو معنى الآية التي لا معنى لها غيره، فيحكيه قولًا[1].

ووصف ﴿عَبْدًا﴾ هنا بقوله: ﴿مَّمْلُوكًا﴾ تأكيد للمعنى المقصود، وإشعارًا لما في لفظ عبد من معنى المملوكية المقتضية أنه لا يتصرف في عمله تصرف الحرية، وجملة: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ صفة ﴿عَبْدًا﴾ أي: عاجزًا عن كل ما يقدر عليه الناس، كأن يكون أعمى وزمنًا وأصم، بحيث يكون أقل العبيد فائدة[2].

والثاني وصف بالرزق الحسن، فهو ينفق منه سرًا وجهرًا، أي: كيف شاء، وهذا من تصرفات الأحرار؛ لأن العبيد لا يملكون رزقًا في عرف العرب.

﴿سِرًّا وَجَهْرًا﴾ حالان من ضمير ﴿يُنفِقُ﴾، وهما مصدران مؤولان بالصفة، أي: مسرًا وجاهرًا بإنفاقه، والمقصود من ذكرهما تعميم الإنفاق كناية عن استقلال التصرف، وعدم الوقاية من مانع إياه عن الإنفاق، وهذا مثل لغنى الله تعالى وجوده على الناس، وجملة ﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾ بيان لجملة ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ فبين غرض التشبيه بأن المثل مراد منه عدم تساوي الحالتين؛ ليستدل به على عدم مساواة أصحاب الحالة الأولى لصاحب

(١) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ٢/ ١٥.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ٢٢٤.

الصفة المشبهة بالحالة الثانية، والاستفهام مستعمل في الإنكار، والمقصود من هذه الجملة أنه تبين من المثل اختصاص الله بالإنعام، فوجب أن يختص بالشكر، وأن أصنامهم لا تستحق أن تشكر[1].

ثم ضرب مثلًا آخر لنفسه الكريمة والأصنام، فقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

وهذا مثال افتراضي ضربه الله تعالى لإبطال المشاركة بينه وبين الأصنام، وقيل: للكافر والمؤمن، والأصوب: كون المثلين معًا في الله مع الأصنام؛ لتكون الآية من معنى ما قبلها، وما بعدها في تبيين أمر الله، والرد على أمر الأصنام، كذا قال ابن عجيبة[2]. وتقريره: أنه لما تقرر في العقول أن الأبكم العاجز لا يساوي في الفضل والشرف الناطق القادر الكامل مع استوائهما في البشرية، فلأن يحكم بأن الجماد لا يكون مساويًا لرب العالمين في المعبودية أولى[3].

فالأصنام التي لا تسمع ولا تنطق ولا تعقل هي كلٌّ على عابدها، يحتاج الصنم إلى أن يحمله عابده، ويضعه ويقيمه ويخدمه، فكيف يسوونه في العادة بالله الذي يأمر بالعدل والتوحيد، وهو قادر متكلم غني، وهو على صراط مستقيم في قوله وفعله، فقوله صدق ورشد ونصح وهدًى، وفعله حكمة وعدل ورحمة ومصلحة، هذا أصح الأقوال في الآية، وهو الذي لم يذكر كثير من المفسرين غيره، ومن ذكر غيره قدمه على الأقوال، ثم حكاها بعده، كما فعل البغوي، فإنه جزم به، وجعله تفسير الآية.

وقيل: إن المثل مضروب لمعبود الكفار، ومعبود الأبرار، والقولان متلازمان، فبعضهم ذكر هذا، وبعضهم ذكر هذا، وكلاهما مراد من الآية، وقيل: كلاهما للمؤمن والكافر[4].

وقد قرن في التمثيل هنا حال الرجلين ابتداء، ثم فصل في آخر الكلام، مع ذكر عدم التسوية بينهما بأسلوب من نظم الكلام بديع الإيجاز؛ إذ حذف من صدر التمثيل ذكر الرجل الثاني؛ للاقتصار على ذكره في استنتاج عدم التسوية تفننًا في المخالفة بين أسلوب هذا التمثيل وأسلوب سابقه الذي في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥].

ومثل هذا التفنن من مقاصد البلغاء كراهية التكرير؛ لأن تكرير الأسلوب بمنزلة

---

(١) انظر: التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٥.
(٢) انظر: البحر المديد ٣/ ٢٨٦.
(٣) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ١٦٨.
(٤) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ١٦.

تكرير الألفاظ[1].

وبذلك نرى أن الآيتين الكريمتين قد ساقتا مثلين واضحين؛ لبيان الفرق الشاسع بين ذات الله تعالى الخلاق العليم، الرزاق الكريم، وبين تلك المعبودات الباطلة التي أشركها الضالون في العبادة مع الله عز وجل.

والمقصود من قوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦] أن الرب سبحانه على صراط مستقيم، وذلك بمنزلة قوله: ﴿قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ﴾[آل عمران: ١٨].

فإن الاستقامة والاعتدال متلازمان، فمن كان قوله وعمله بالقسط كان مستقيمًا، ومن كان قوله وعمله مستقيمًا كان قائمًا بالقسط[2].

ومن الأمثال القرآنية ما هو مختلف فيها هل هي حقيقية أم افتراضية؟

ومنها: قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢].

يقول الشيخ ابن عثيمين في تفسير قصة (صاحب الجنتين) في سورة الكهف: «إن هذا المثل الذي ضربه الله في هذه الآيات هل هو مثل حقيقي أو تقديري؟ يعني هل هذا الشيء واقع أو إنه شيء مقدر؟ والجواب: من العلماء من قال: إنه مثل تقديري، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [النحل: ٧٦].

وكقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

وما شابه ذلك، فيكون هذا مثلًا تقديريًا وليس واقعيًا، ولكن السياق وما فيه من المحاورة والأخذ والرد يدل على أنه مثل حقيقي واقع، فهما رجلان أحدهما أنعم الله عليه، والثاني لم يكن مثله»[3].

(١) التحرير والتنوير ١٤/ ٢٢٧.

(٢) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية التفسير ٢/ ٤٩٥.

(٣) تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٦/ ٦٠.

ميادين ضرب الأمثال

تنوعت ميادين ضرب الأمثال في القرآن والتي منها: مجال العقيدة، ومجال الأعمال، ومجال الأخلاق، وهذا ما سنبينه فيما يأتي:

أولًا: ميدان العقيدة:

من المجالات المهمة التي تناولتها الأمثال القرآنية مجال العقيدة؛ فقد كانت أمور العقيدة والإيمان والغيبيات التي مثل الله لها في القرآن صعبة الإدراك على الجاهليين، بل كان كثير من المسلمين الأوائل يستصعبون إدراك تلك العقائد؛ لانغماس معظمهم -قبل إسلامهم- في عبادات مادية محسوسة، تمثلت في عبادة الأصنام والأوثان من صخور وخشب وغيرها مما يدركونه بحواسهم؛ فلذلك كانوا بحاجة إلى أمثال تبين لهم المعتقدات البعيدة عن حيز إدراكهم الحسي، كالإيمان بالله وملائكته واليوم الأخر ونعيم الجنة وعذاب النار؛ لذا كانت أغلب الأمثال القرآنية في العقائد والغيبيات، فالأمثال تلعب دورًا مهمًا في تحويل الغيبيات إلى مشاهد حاضرة أمام العيان، حتى لا يشرد الخيال بعيدًا في إدراك الحقائق كما هي، وكما يقال: بالمثال يتضح المقال، ومعلوم أن كلام الله واضح، ولكن سياق المثل يستثير في الإنسان نوعًا من التفكر وتدبر العبرة والعظة؛ لتغيير المسار الخاطئ، والاتجاه إلى الطريق الصحيح، وهذا كثير في القرآن الكريم.

وأبرز الأمثلة على ضرب الأمثال في العقيدة: قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

هذا مثل ضربه الله لكلمة (الإيمان) وهي: شهادة أن لا إله إلا الله، فمثلها بالشجرة الطيبة، والشجرة الطيبة المقصود بها (المؤمن)... فإنه كالشجرة من النخل، لا يزال يرفع له عمل صالح في كل حين ووقت، وصباح ومساء[(١)].

فشبه سبحانه وتعالى الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة؛ لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وهذا ظاهر على قول جمهور المفسرين الذين يقولون: الكلمة الطيبة هي: شهادة أن لا إله إلا الله، فإنها تثمر جميع الأعمال الصالحة الظاهرة والباطنة، فكل عمل صالح مرضي لله ثمرة هذه الكلمة. ..، والتشبيه على هذا القول أصح وأظهر وأحسن، فإنه سبحانه شبه شجرة التوحيد في القلب بالشجرة الطيبة الثابتة الأصل، الباسقة الفرع في السماء علوًا، التي لا

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٩١.

تزال تؤتي ثمرتها كل حين، وإذا تأملت هذا التشبيه رأيته مطابقًا لشجرة التوحيد الثابتة الراسخة في القلب، التي فروعها من الأعمال الصالحة الصاعدة إلى السماء، ولا تزال هذه الشجرة تثمر الأعمال الصالحة كل وقت بحسب ثباتها في القلب، ومحبة القلب لها، وإخلاصه فيها، ومعرفته بحقيقتها، وقيامه بحقوقها، ومراعاتها حق رعايتها، فمن رسخت هذه الكلمة في قلبه بحقيقتها التي هي حقيقتها، واتصف قلبه بها، وانصبغ بها بصبغة الله التي لا أحسن صبغة منها، فعرف حقيقة الإلهية التي يثبتها قلبه لله، ويشهد بها لسانه، وتصدقها جوارحه، ونفى تلك الحقيقة ولوازمها عن كل ما سوى الله، وواطأ قلبه لسانه في هذا النفي والإثبات، وانقادت جوارحه لمن شهد له بالوحدانية طائعة سالكة سبل ربه ذللًا، غير ناكبة عنها، ولا باغية سواها بدلًا، كما لا يبتغي القلب سوى معبوده الحق بدلًا، فلا ريب أن هذه الكلمة من هذا القلب على هذا اللسان لا تزال تؤتي ثمرتها من العمل الصالح الصاعد إلى الله كل وقت، فهذه الكلمة الطيبة هي التي رفعت هذا العمل الصالح إلى الرب تعالى، وهذه الكلمة الطيبة تثمر كلامًا كثيرًا طيبًا يقارنه عمل صالح، فيرفع العمل الصالح إلى الكلم الطيب.

كما قال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠][(١)].

ومثل الله الكلمة الخبيثة بالشجرة الخبيثة، فقال: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجۡتُثَّتۡ مِن فَوۡقِ ٱلۡأَرۡضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

فهذا مثل كفر الكافر، فإنه لا أصل له ولا ثبات، وشبه بشجرة الحنظل، ويقال لها: الشريان[(٢)].

والكلمة الخبيثة هي الكلمة التي تنبعث من خبث النفس أو ضلال الفكر والمعتقد، فهي على نقيض الكلمة الطيبة؛ لأنها لا تنبعث من إخلاص لله ولرسوله، ولا تكون طيبة في واقعها، ولا في نتائجها، وما يترتب عليها، وأوضحها الكذب. والكلمة الخبيثة كالشجرة الخبيثة اجتثت من فوق الأرض، أي: أنها ليس لها جذور ممتدة في باطن الأرض، بل هي على السطح، كبعض أنواع النباتات، التي ليس لها جذر تغوص في أعماق الأرض.

ولهذا قال: ﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦] أي: استقرار وثبات في باطن الأرض.

ومما يدخل في الكلمة الخبيثة دخولًا أوليًا كلمة الشرك والضلال، وكل ما يؤذي الناس في عقيدتهم الصحيحة، وفي شريعة العدل، وفي حياتهم الطيبة، فهي كشجرة

---

(١) انظر: التفسير القيم، ابن القيم ص ٥٠٠.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٤٩٣.

خبيثة لا قرار لها ولا ثمار ولا ظلال ولا أغصان، سوى الشوك الذي يؤذي؛ ولذلك فهي سهلة الاجتثاث مثل الشرك والكفر والضلال، لا يثبت، ولا يستمر، ولا يستند إلى الحق، يتهاوى في أي لحظة، ولم يتوهم المشركون والضالون أنهم أقوياء، بينما كلمة التوحيد تخاطب العقل السليم، والنفس اليقظة، والوجدان الواعي، فلا يستطيع أحد مهما أوتي من قوة وسلطان أن يحرفها؛ لأنها الحق من عند الله.

والمؤدى من هذا التشبيه أن الكلمة الخبيثة لا تدوم في الوجود، بل إنها تنتهي بانتهاء زمانها، كالسعاية والنميمة والكذب والخديعة والغيبة، ليس لها وجود إلا بمقدار زمانها، وقد تضر، لكن عاقبتها وخيمة، وطعامها موبيء، ولا تبقى إلا الكلمة الطيبة، وما يكون لله، وللحق وحده[1].

وختم الله هذا المثل بقوله: ﴿وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٥].

أي: الأمور المتشابهة بين بعضها البعض، فيبين المعنوي بالحسي حتى يصير كأنه محسوس مرئي، ويبين الله سبحانه وتعالى ذلك البيان عسى أن يتذكروا ويعتبروا.

والمقصود أن الكلمة الطيبة هي التوحيد وهو كالشجرة، والأعمال ثمارها في كل وقت، والكلمة السيئة هي الشرك، والأعمال السيئة ثمارها.

ومن ضرب المثل القرآني في مجال العقيدة: أن الله تعالى ضرب مثلًا لنوره في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [: ٣٥].

والضمير في قوله: ﴿نُورِهِۦ﴾ عائد إلى اسم الجلالة، أي: مثل نور الله، أو الدين الذي اختاره، أي: مثله في إنارة عقول المهتدين، فالكلام تمثيل لهيئة إرشاد الله المؤمنين بهيئة المصباح الذي حفت به وسائل قوة الإشراق، وإنما أوثر تشبيهه بالمصباح الموصوف بما معه من الصفات دون أن يشبه نوره بطلوع الشمس بعد ظلمة الليل؛ لقصد إكمال مشابهة الهيئة المشبه بها بأنها حالة ظهور نور يبدو في خلال ظلمة، فتنقشع به تلك الظلمة في مساحة يراد تنويرها، ودون أن يشبه بهيئة بزوغ القمر في خلال ظلمة الأفق؛ لقصد إكمال المشابهة؛ لأن القمر يبدو ويغيب في بعض الليلة بخلاف المصباح الموصوف، وبعد هذا فلأن المقصود ذكر ما حف بالمصباح من

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٤٠٢٠.

الأدوات؛ ليتسنى كمال التمثيل بقبوله تفريق التشبيهات وذلك لا يتأتى في القمر.

وقوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾[: ٣٥].

المقصود: كمصباح في مشكاة، وإنما قدم (المشكاة) في الذكر؛ لأن المشبه به هو مجموع الهيئة؛ فاللفظ الدال على المشبه به هو مجموع المركب المبتدئ بقوله: ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ والمنتهي بقوله: ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾[: ٣٥].

فلذلك كان دخول كاف الشبه على كلمة (مشكاة) دون لفظ (مصباح) لا يقتضي أصالة لفظ (مشكاة) في الهيئة المشبه بها دون لفظ (مصباح) بل موجب هذا الترتيب مراعاة الترتيب الذهني، في تصور هذه الهيئة لمتخيله حين يلمح الناظر إلى انبثاق ، ثم ينظر إلى مصدره، فيرى مشكاة، ثم يبدو له مصباح في زجاجة[١].

والمشكاة هي الكوة غير النافذة تكون في الحائط، ويكون المصباح فيها شديد الإضاءة، وقيل: المشكاة العمود الذي يكون المصباح على رأسه، والأول أصح وأشهر، والمعنى صفة نور الله في وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة، وإنما شبه بالمشكاة -وإن كان نور الله أعظم-؛ لأن ذلك غاية ما يدركه الناس من الأنوار، فضرب المثل لهم بما يصلون إلى إدراكه[٢].

وقوله: ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ﴾[: ٣٥].

المعنى أنه في قنديل من زجاج؛ لأن الضوء فيه أزهر؛ لأنه جسم شفاف، ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾[: ٣٥].

شبه الزجاجة في إنارتها بكوكب دري؛ وذلك يحتمل معنيين: إما أن يريد أنها تضيء بالمصباح الذي فيها، وإما أن يريد أنها في نفسها شديدة الضوء؛ لصفائها ورقة جوهرها، وهذا أبلغ لاجتماع نورها مع نور المصباح.

﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ﴾ [: ٣٥] المعنى: توقد من زيت شجرة مباركة، ووصفها بالبركة؛ لكثرة منافعها، أو لأنها تنبت في الأرض المباركة وهي الشام، ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾[: ٣٥].

قيل: يعني أنها بالشام، فليست من شرق الأرض ولا من غربها، وأجود الزيتون زيتون الشام، أو يكون المراد أنها منكشفة تصيبها الشمس طول النهار، فليست خالصة للشرق، فتسمى شرقية، ولا للغرب فتسمى غربية، بل هي غربية شرقية؛ لأن الشمس تستدير عليها من الشرق والغرب، أو المراد: أنها في وسط دوحة لا في جهة الشرق من الدوحة ولا في جهة الغرب، أو أنها من شجرة الجنة، ولو كانت في الدنيا لكانت

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٨/ ٢٣٥.

(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٦٣.

شرقية أو غربية.

وقوله: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [: ٣٥].

مبالغة في وصف صفاته وحسنه ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [: ٣٥].

يعني: اجتماع نور المصباح وحسن الزجاجة وطيب الزيت، والمراد بذلك كمال الممثل به، وقوله: ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ [: ٣٥].

أي: يوفق الله من يشاء لإصابة الحق[١].

ومن ضرب الأمثلة القرآنية في مجال العقيدة: أن الله تعالى ضرب ببيت العنكبوت مثلًا لضعف آلهة الكفار ووهنها، وهو من أحسن الأمثال، وأدلها على بطلان الشرك، وخسارة صاحبه، وحصوله على ضد مقصوده، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

فهذا مثل ضربه الله لمن عبد معه غيره، يقصد به التعزز والتقوي والنفع، وأن الأمر بخلاف مقصوده، فإن مثله كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا يقيها من الحر والبرد والآفات ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾: أضعفها وأوهاها ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾، فالعنكبوت من الحيوانات الضعيفة، وبيتها من أضعف البيوت، فما ازدادت باتخاذه إلا ضعفًا، كذلك هؤلاء الذين يتخذون من دونه أولياء، فقراء عاجزون من جميع الوجوه، وحين اتخذوا الأولياء من دونه يتعززون بهم ويستنصرونهم، ازدادوا ضعفًا إلى ضعفهم، ووهنًا إلى وهنهم.

فإنهم اتكلوا عليهم في كثير من مصالحهم، وألقوها عليهم، وتخلوا هم عنها، على أن أولئك سيقومون بها، فخذلوهم، فلم يحصلوا منهم على طائل، ولا أنالوهم من معونتهم أقل نائل، فلو كانوا يعلمون -حقيقة العلم- حالهم، وحال من اتخذوهم لم يتخذوهم، ولتبرءوا منهم، ولتولوا الرب القادر الرحيم، الذي إذا تولاه عبده وتوكل عليه كفاه مئونة دينه ودنياه، وازداد قوة إلى قوته، في قلبه وفي بدنه وحاله وأعماله[٢].

ومن أبلغ الأمثال التي تبين أن المشرك قد تشتت شمله واحتار في أمره: ما بينه تعالى بقوله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

فهذا مثل ضربه الله تعالى للمشرك والموحد، فالمشرك لما كان يعبد آلهة شتى

(١) المصدر السابق ٢/ ٢٦٤.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣١.

شبه بعبد يملكه جماعة متنازعون مختلفون، سيئة أخلاقهم، يتنافسون في خدمته، لا يمكنه أن يبلغ رضاهم أجمعين، فهو في عذاب.

والموحد لما كان يعبد الله وحده لا شريك له فمثله كمثل عبد لرجل واحد، قد سلم له، وعلم مقاصده، وعرف الطريق إلى رضاه، فهو في راحة من تشاحن الخلطاء فيه واختلافهم، بل هو سالم لمالكه من غير تنازع فيه، مع رأفة مالكه به، ورحمته له، وشفقته عليه، وإحسانه إليه، وتوليه لمصالحه، فهل يستوي هذان العبدان؟ والجواب: كلا، لا يستويان أبدًا[1].

والمقصود أن الله تعالى يضرب الأمثال في كتابه من أجل بيان التوحيد، أو من أجل بيان أعداء التوحيد، كما قال الله: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ [التحريم: ١٠].

فالله جعل حالة هاتين المرأتين عظة، وتنبيهًا للذين كفروا، أي: ليذكرهم بأن الله لا يصرفه عن وعيده صارف، فلا يحسبون أن لهم شفعاء عند الله، ولا أن مكانهم من جوار بيته، وعمارة مسجده، وسقاية حجيجه تصرف غضب الله عنهم، فإن هم أقلعوا عن هذا الحسبان أقبلوا على التدبر في النجاة من وعيده بالنظر في دلائل دعوة القرآن، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، فلو كان صارف يصرف الله عن غضبه لكان أولى الأشياء بذلك مكانة هاتين المرأتين من زوجيهما رسولي رب العالمين[2].

أو يضرب الأمثال في كتابه في الذين ثبتوا على مبدأ التوحيد، كما قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم: ١١].

فلما ضرب المثل للذين كفروا أعقب بضرب مثل للذين آمنوا؛ لتحصل المقابلة، فيتضح مقصود المثلين معًا، وجريًا على عادة القرآن في إتباع الترهيب بالترغيب، وجعل المثل للذين آمنوا بحال امرأتين لتحصل المقابلة للمثلين السابقين، فهذا مراعاة النظير في المثلين، وجاء أحد المثلين للذين آمنوا لإخلاص الإيمان، والمثل الثاني لشدة التقوى، فكانت امرأة فرعون مثلًا لمتانة المؤمنين، ومريم مثلًا للقانتين؛ لأن المؤمنين تبرءوا من ذوي قرابتهم الذين

(١) انظر: نور التوحيد وظلمات الشرك، سعيد القحطاني ص١٨.

(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٣٧٤.

بقوا على الكفر بمكة[1].

ومن ضرب الأمثال في ميدان العقيدة:

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: 75].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [هود: 24].

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: 17].

وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: 28].

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: 171].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59].

وهي أمثال غاية في البلاغة والتأثير، وغاية فيما تحويه من نهاية في العظة والعبرة، ونهايةٍ في البلاغة، وإيجاز اللفظ، وحسن التشبيه، وقوة الكناية.

ثانيًا: ميدان الأعمال:

ومن المجالات المهمة التي تناولتها الأمثال القرآنية مجال الأعمال؛ أعمال المؤمنين، وأعمال الكافرين.

فكثرت الأمثال التي توضح بطلان أعمال الكافرين، وتجسم أعمالهم بالرماد المتجمع بعضه فوق بعض، ثم تذروه الرياح، فتتناثر ذراته في كل اتجاه.

يقول تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم: 18].

فيصور الله في هذا المثل أعمال الكفار في مقاومة رسل الله، ومحاربة دينه، بالرماد المتجمع في مكان ما، لكن لا تماسك بين ذراته، وهو خفيف جدًا، فاشتدت به الريح في يوم عاصف، فنسفت ذلك الرماد، وبددته في كل مكان، حتى لم يعد له وجود حقيقي، كذلك أعمال الكافرين في مواجهة الرسول، وأولياء الله، فهي كالرماد متفرقة مشتتة في كل مكان، ويوم القيامة يجعل تلك الأعمال هباء منثورًا، وهي كناية عن أن أعمال الكافرين لا تقوى على مقاومة قدرة

(1) انظر: المصدر السابق.

الله وقوته.

وفي مثلٍ آخر يتخذ من (الريح) أيضًا أداة التدمير، كما كانت في المثل السابق أداة البعثرة للرماد، ونثره في كل مكان، فيقول الله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

فيصور الله لنا أعمال أهل الكفر التي يظنون أنها تفيدهم بأنها مثل السراب في صحراء قاحلة، تظهر من بعيد للظمآن ماء، لكنه إذا اقترب منه لم يجده شيئًا، فينخدع من بعيد، وعند الحاجة تنكشف له الحقيقة، بأنه مجرد سراب لا يسمن ولا يغني من جوع، كذلك الكفار يظنون أن أعمالهم في الدنيا تغنيهم شيئًا يوم القيامة، لكن هذا الزعم الخادع ينكشف لهم يوم القيامة.

فالمثلان مترابطان في بيان ضياع أعمال الكافرين، والتركيز فيهما على أعمالهم لا على ذواتهم، كما يلاحظ اتحاد المثلين في الإفناء والضياع.

ولكن القرآن الكريم يركز في مثلٍ آخر على شخصية الكافر وآماله بما يتناسب مع السياق، مع تغييرٍ في البنية الأسلوبية، ففي المثلين السابقين كان التركيز على الرماد والزروع والنبات والرياح، وفي المثل الآتي يتم التركيز على بنية أسلوبية جديدة، مادتها الماء والسراب والظلام، فيقول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [: ٣٩ – ٤٠].

فالمثل هنا يجمع بين الأعمال وأصحابها في الضياع؛ إذ نلحظ التركيز أيضًا على شخصية الكافر في المثل المعروض إلى جانب أعماله، فأعماله سراب خادع، وهو ظمآنٌ يظنه ماء، فيجري وراء ظنه، فيكتشف حقيقة السراب الخادع، وجاء التعقيب هذه المرة بقوله: ﴿وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ﴾[: ٣٩].

لإبراز الغرض الديني من تصوير المثل؛ ولبيان تلك الحياة التي عاشها الكافر في وهم وظنون وخداع، حتى جاء اليوم الموعود في الحساب والجزاء.

ثم عقب على هذا المثل بمثل آخر زيادةً في الإيضاح والتنويع في البنى الأسلوبية، ففي المثل الثاني يركز على الصحراء وما يتراءى فيها من سراب خادع، والمثل الثاني يركز على ظلمات البحر تتلاطم أمواجه، وتغطيه السحب الكثيفة، كما تغطيه ظلمات الليل، فتنعدم الرؤية البصرية في هذه

الظلمات المركبة المتراكمة، ويبرز التقابل في المثلين بين عناصر التعبير والتصوير؛ لاستيفاء تفصيلات المعاني الدينية المطلوبة، فالسراب في المثل الأول يوحي بالأوهام والخراب، والكافر يجري وراء السراب والأوهام، والظلمات المتراكمة من البحر والسحاب وظلمات الليل توحي بانعدام الرؤية، والكفر ظلمات يحجب ما أنفقته يد الخير فلا تفيد صاحبها شيئًا.

ويأتي التعقيب متناسقًا مع جو الليل والظلمات: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [: ٤٠].

ويبرز نور الله من خلال ذلك هو الوحيد الذي ينير للإنسان طريقه في ظلمات الحياة المتراكمة.

وفي الجانب الآخر يضرب الله تعالى الأمثال لأعمال المؤمنين الصالحة، فيقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

فشبه سبحانه إنفاق المنفق في سبيله سواء كان المراد به الجهاد أو جميع سبل الخير من كل بر بمن بذر بذرًا فأنبتت كل حبة سبع سنابل، اشتملت كل سنبلة على مائة حبة، والله يضاعف بحسب حال المنفق وإيمانه وإخلاصه وإحسانه ونفع نفقته وقدرها ووقوعها موقعها، فإن ثواب الإنفاق يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبت عند النفقة، وهو إخراج المال بقلب ثابت، قد انشرح صدره بإخراجه، وسمحت به نفسه، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده، فهو ثابت القلب عند إخراجه غير جزع ولا هلع، ولا متبعه نفسه، ترجف يده وفؤاده، ويتفاوت بحسب نفع الإنفاق ومصارفه، وبحسب طيب المنفق ونيته[(١)].

ونظير المثل السابق قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

وتحت هذا المثل من الفقه أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره يبذر ماله في أرض زكية، فمغله[(٢)] بحسب بذره، وطيب أرضه، وتعاهد البذر بالسقي، ونفي الدغل والنبات الغريب عنه، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ولا لحقته جائحة جاء أمثال الجبال،

(١) التفسير القيم، ابن القيم: ١٥٢.
(٢) الغلة والمغل: الدخل، من كراء دار، وأجر غلام، وفائدة أرض، وأغلت الضيعة: أعطت الغلة.
انظر: المحكم، ابن سيده ٢/ ٣٨٩.

وكان مثله كمثل جنة بربوة، وهي المكان فيه نصب الشمس والرياح، فتربى الأشجار هناك أتم تربية، فتنزل عليها من السماء مطر عظيم القطر متتابع فرواها ونماها، فآتت أكلها ضعفي ما تؤتيه غيرها بسبب ذلك الوابل، وإن لم يصبها وابل فطل، والطل: مطر صغير القطر، يكفيها لكرم منبتها تزكو على الطل، وتنمى عليه، مع أن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق الكثير والقليل، فمن الناس من يكون إنفاقه وابلًا، ومنهم من يكون إنفاقه طلًا، والله لا يضيع مثقال ذرة[1].

ثالثًا: ميدان الأخلاق:

جاءت الأمثال القرآنية ترغب في كثير من الأخلاق والسلوكيات الحسنة، وتحذر من غيرها، مستعينة بالترغيب والترهيب والإقناع العقلي.

ففي جانب الأخلاق الحسنة، قال تعالى -وهو يشبه حال المخلص في النفقة في سبيل الله-: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

والربوة: هي التل المرتفع، والطل: المطر الخفيف، فشبه سبحانه في التمثيل السابق عمل المنفق لمرضاة الله تبارك وتعالى بجنة خضراء يانعة تقع على أرض مرتفعة خصبة، تستقبل النسيم الطلق، والمطر الكثير النافع، وقيد المشبه به ببستان مرتفع عن الأرض؛ لأن تأثير الشمس والهواء فيه أكمل، فيكون أحسن منظرًا، وأزكى ثمرًا، أما الأماكن المنخفضة التي لا تصيبها الشمس في الغالب إلا قليلًا فلا تكون كذلك.

ووجه التمثيل في هذا المثل أن المنفق ابتغاء مرضاة الله هو في إخلاصه وسخاء نفسه وإخلاص قلبه كالجنة الجيدة التربة الملتفة الشجر، العظيمة الخصب في كثرة بره وحسنه، فهو يجود بقدر سعته، فإن أصابه خير كثير أغدق ووسع في الإنفاق على ذوي الحاجات، وإن أصابه خير قليل أنفق منه بقدره، فخيره دائم، وبره لا ينقطع؛ لأن الباعث عليه ذاتي لا عرضي كأهل الرياء، وأصحاب المن والإيذاء، فـ(الوابل) و(الطل) على هذا عبارة عن سعة الرزق، وما دون السعة.

ولك أن تقول: إن وجه التمثيل هنا أن النية الصالحة في الإنفاق كالوابل للجنة، فبها تكون النفقة نافعة للناس؛ لأن أصحابها يتحرون مواضعها، فيضعون نفقتهم موضع الحاجة، لا يبذرون بغير روية، وأن أمثال هؤلاء المخلصين لا يخيب قاصدهم؛ لأن

(١) الأمثال في القرآن الكريم، ابن القيم ص٥١.

رحمة قلوبهم لا يغور معينها، فإن لم تصبه بوابل من عطائها لم يفته طله، فهم كالجنة التي لا يخشى عليها اليبس والزوال.

وهذا التمثيل يفيد أن إنفاق المؤمن قد يكون إنفاقًا كثيرًا مثل المطر الغزير، وقد يكون إنفاقًا قليلًا مثل المطر القليل، وفي كلِ خير، وهو يعبر عن اهتمام المؤمن بغيره، والعمل على النهوض بأمته قدر استطاعته، وبحسب إمكاناته.

وضرب الله تعالى مثلًا في الإنجيل لعباده المؤمنين أنهم كالزرع، يظهر في أول أمره رقيقًا ضعيفًا متفرقًا، ثم ينبت بعضه حول بعض، ويغلظ ويتكامل حتى يقوى ويشتد، وتعجب جودته أصحاب الزراعة العارفين بها؛ فكذلك النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا في أول الأمر في قلة وضعف، ثم لم يزالوا يكثرون ويزدادون قوة، فقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ٢٩].

فبعد أن ذكر الله وصفهم في التوارة ذكر مثلهم في الإنجيل، فهم موصوفون فيه بوصف آخر، فهم في كمالهم وتعاونهم ﴿كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ﴾ أي: أخرج فراخه، فوازرته فراخه في الشباب والاستواء، ﴿فَاسْتَغْلَظَ﴾ ذلك الزرع، أي: قوي وغلظ ﴿فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ﴾: جمع ساق، ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾ من كماله واستوائه وحسنه واعتداله، كذلك الصحابة رضي الله عنهم هم كالزرع في نفعهم للخلق، واحتياج الناس إليهم، فقوة إيمانهم وأعمالهم بمنزلة قوة عروق الزرع وسوقه، وكون الصغير والمتأخر إسلامه قد لحق الكبير السابق وآزره وعاونه على ما هو عليه من إقامة دين الله والدعوة إليه، كالزرع الذي أخرج شطأه فآزره فاستغلظ؛ ولهذا قال: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ حين يرون اجتماعهم وشدتهم على دينهم، وحين يتصادمون معهم في معارك النزال ومعامع القتال[1].

إنها صورة عجيبة يرسمها القرآن الكريم بأسلوبه البديع، صورة مؤلفة من عدة لقطات لأبرز حالات هذه الجماعة المختارة، حالاتها الظاهرة والمضمرة، فلقطة تصور حالتهم مع الكفار ومع أنفسهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ ولقطة تصور هيئتهم في عبادتهم ﴿تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ ولقطة تصور قلوبهم، وما يشغلها ويجيش بها

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٩٥.

﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ ولقطة تصور أثر العبادة والتوجه إلى الله في سمتهم وسحنتهم وسماتهم ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ وهذه صفتهم فيها، ولقطات متتابعة تصورهم كما هم في الإنجيل[1].

وفي جانب الأخلاق السيئة:

ضرب الله مثلًا لحال المنفق رياءً حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَـٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٦٤].

فقد مثل حال المرائي في إنفاقه بحال الحجر الأملس يكون عليه تراب، فيصيبه مطر غزير، فيذهب بما عليه من تراب، فأعمال المرائي مثل التراب الذي كان على الحجر، فإنها تذهب هباء، ولا يجد لها ثوابًا، وفي هذا المثل تقرير لخيبة المرائي على وجه أبلغ ما يكون.

ومن ذلك تشبيه المتنكس بالكلب في كثرة مساوئه:

حيث ضرب الله مثلًا لحال العالم المنحط في أهوائه بحال الكلب الذي هو أخبث الحيوانات وأخسها نفسًا؛ ذلك أن المنحط في أهوائه شديد اللهف على الدنيا، قليل الصبر عنها، فلهفه نظير لهف الكلب الدائم في حال إزعاجه وتركه، فقال: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَـٰهُ ءَايَـٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَـٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَـٰهُ بِهَا وَلَـٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ - ١٧٦]. وهذه الآيات وإن نزلت بسبب رجل من بني إسرائيل[2] إلا أنه كما يقول المحققون من أهل العلم: العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، والله أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يخبرنا ويقول: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ﴾ أخبر أمتك يا محمد! بنبأ ذلك الرجل الذي آتيناه آياتنا؛ آتيناه العلم، وآتيناه الآيات والدلالات الواضحات على عظمة الله، فبدل أن يعمل بها ويستمر عليها، انسلخ منها، والانسلاخ عن الشيء هو: تركه مع عدم الرغبة في العودة إليه، أي: انسلخ منها كما تنسلخ الحية من جلدها، والمراد أنه خرج منه بالكلية، بأن كفر بها، ونبذها وراء ظهره، ولم ينتفع بما اشتملت عليه من عظات وإرشادات، وحقيقة السلخ: كشط

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٤٨٦.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٥٠٩.

الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه، ويقال لكل شيء فارق شيئًا على أتم وجه: انسلخ منه، وفي التعبير به ما لا يخفى من المبالغة[1].

فالانسلاخ حقيقته خروج جسد الحيوان من جلده حينما يسلخ عنه جلده، والسلخ: إزالة جلد الحيوان الميت عن جسده، واستعير في الآية للانفصال المعنوي، وهو ترك التلبس بالشيء، أو عدم العمل به، ومعنى الانسلاخ عن الآيات الإقلاع عن العمل بما تقتضيه؛ وذلك أن الآيات أعلمته بفساد دين الجاهلية[2].

وقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥].

أي: فلحقه الشيطان وأدركه فصار هذا الإنسان بسبب ذلك من زمرة الضالين الراسخين في الغواية، مع أنه قبل ذلك كان من المهتدين، وفي التعبير بقوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ مبالغة في ذم هذا الإنسان وتحقيره، جعل كأنه إمام للشيطان، والشيطان يتبعه، فهو على حد قول الشاعر[3]:

وكنت أرى من جند إبليس فارتقى
بي الدهر حتى صار إبليس من جندي
فلو مات قبلي كنت أدركت بعده
دقائق كفرٍ ليس يدركها بعدي

ورتبت أفعال الانسلاخ والاتباع والكون من الغاوين بفاء العطف على حسب ترتيبها في الحصول، فإنه لما عاند ولم يعمل بما هداه الله إليه حصلت في نفسه ظلمة شيطانية، مكنت الشيطان من استخدامه وإدامة إضلاله، فالانسلاخ عن الآيات أثر من وسوسة الشيطان، وإذا أطاع المرء الوسوسة تمكن الشيطان من مقاده، فسخره وأدام إضلاله، وهو المعبر عنه بـ(أتبعه) فصار بذلك في زمرة الغواة المتمكنين من الغواية[4].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

أفاد أن تلك الآيات شأنها أن تكون سببًا للهداية والتزكية لو شاء الله له التوفيق، وعصمه من كيد الشيطان وفتنته، فلم ينسلخ عنها، وهذه عبرة للموفقين؛ ليعلموا فضل الله عليهم في توفيقهم، فما ألطف نسبة إتيان الآيات والرفع إليه تعالى، ونسبة الانسلاخ والإخلاد إلى العبد، مع أن الكل من الله تعالى؛ إذ فيه من تعليم العباد حسن الأدب ما فيه.

(١) الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ١٧٣٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١/ ١٦٧٣.
(٣) البيتان في ديوان محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني ص ١٣١ من قصيدته الدالية التي مطلعها:
سلامي على نجد ومن حل في نجد
وإن كان تسليمي على البعد لا يجدي

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٧٦.

فالمعنى: ولو شئنا لزاد في العمل بما آتيناه من الآيات، فلرفعه الله بعمله، والرفعة مستعارة لكمال النفس وزكائها؛ لأن الصفات الحميدة تخيل صاحبها مرتفعًا على من دونه، أي: ولو شئنا لاكتسب بعمله بالآيات فضلًا وزكاء وتميزًا بالفضل، فمعنى ﴿لَرَفَعْنَٰهُ﴾ ليسرنا له العمل بها الذي يشرف به، وقد وقع الاستدراك على مضمون قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦].

بذكر ما يناقض تلك المشيئة الممتنعة، وهو الاستدراك بأنه انعكست حاله، فأخلد إلى الأرض، أي: ركن ومال إلى الأرض، والكلام تمثيل لحال المتلبس بالنقائص والكفر بعد الإيمان والتقوى بحال من كان مرتفعًا عن الأرض فنزل من اعتلاء إلى أسفل، فبذكر الأرض علم أن الإخلاد هنا ركون إلى السفل، أي: تلبس بالنقائص والمفاسد، واتباع الهوى ترجيح ما يحسن لدى النفس من النقائص المحبوبة على ما يدعو إليه الحق والرشد، فالاتباع مستعار للاختيار والميل، والهوى شاع في المحبة المذمومة الخاسرة عاقبتها[(١)].

وقوله: ﴿فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

فهو دائم اللهث في الحالين؛ لأن اللهث طبيعة فيه، وكذلك حال الحريص على الدنيا المعرض عن الآيات بعد إيتائها إن وعظته فهو لإيثاره الدنيا على الآخرة لا يقبل الوعظ، وإن تركت وعظه فهو حريص أيضًا على الدنيا وشهواتها.

فهذا الضال تحمل كلفة اتباع الدين الصالح، وصار يطلبه في حين كان غير مكلف بذلك في زمن الفترة، فلقي من ذلك نصبًا وعناء، فلما حان حين اتباع الحق ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم تحمل مشقة العناد والإعراض عنه في وقت كان جديرًا فيه بأن يستريح من عنائه لحصول طلبته، فكانت حالته شبيهة بحالة الكلب الموصوف باللهث، فهو يلهث في حالة وجود أسباب اللهث من الطرد والإرهاب والمشقة، وهي حالة الحمل عليه، وفي حالة الخلو عن ذلك السبب، وهي حالة تركه في دعة ومسالمة، والذي ينبه على هذا المعنى هو قوله: ﴿أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾.

ونلحظ أنه ليس لشيء من الحيوان حالة للتشبيه بها في الحالتين غير حالة الكلب اللاهث؛ لأنه يلهث إذا أتعب وإذا كان في دعة، فاللهث في أصل خلقته، وهذا التمثيل من بلاغة القرآن، فإن اللهث حالة تؤذن بحرج الكلب من جراء عسر تنفسه عن اضطراب باطنه، وإن لم يكن لاضطراب باطنه سبب آتٍ من غيره، فمعنى ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ﴾ إن تطارده وتهاجمه.

(١) المصدر السابق ٩/ ١٧٧.

فهذا تشبيه تمثيل مركب منتزعة فيه الحالة المشبهة والحالة المشبه بها من متعدد، ولما ذكر ﴿إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث﴾ في شق الحالة المشبه بها تعين أن يكون لها مقابل في الحالة المشبهة، وتتقابل أجزاء هذا التمثيل بأن يشبه الضال بالكلب، ويشبه شقاؤه واضطراب أمره في مدة البحث عن الدين بلهث الكلب في حالة تركه في دعة تشبيه المعقول بالمحسوس، ويشبه شقاؤه في إعراضه عن الدين الحق عند مجيئه بلهث الكلب في حالة طرده وضربه تشبيه المعقول بالمحسوس[(١)].

وتأمل ما في هذا المثل من الحكم والمعاني، فمنها قوله: ﴿ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا﴾ فأخبر سبحانه أنه هو الذي آتاه آياته، فإنها نعمة، والله هو الذي أنعم بها عليه، فأضافها إلى نفسه، ثم قال: ﴿فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ أي: خرج منها كما تنسلخ الحية من جلدها، وفارقها فراق الجلد يسلخ عن اللحم، ولم يقل: فسلخناه منها؛ لأنه هو الذي تسبب إلى انسلاخه منها باتباع هواه، ومنها قوله سبحانه: ﴿فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: لحقه وأدركه...، وكان محفوظًا محروسًا بآيات الله، محمي الجانب بها من الشيطان، لا ينال منه شيئًا إلا على غرة وخطفة، فلما انسلخ من آيات الله ظفر به الشيطان ظفر الأسد بفريسته ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾ العاملين بخلاف علمهم، الذين يعرفون الحق ويعملون بخلافه، كعلماء السوء.

ومنها: أنه سبحانه قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا﴾ فأخبر سبحانه أن الرفعة عنده ليست بمجرد العلم، فإن هذا كان من العلماء، وإنما هي باتباع الحق، وإيثاره وقصد مرضاة الله، فإن هذا كان من أعلم أهل زمانه، ولم يرفعه الله بعلمه، ولم ينفعه به، فنعوذ بالله من علم لا ينفع، وأخبر سبحانه أنه هو الذي يرفع عبده إذا شاء بما آتاه من العلم، وإن لم يرفعه الله فهو موضوع لا يرفع أحد به رأسًا، فإن الخافض الرافع هو سبحانه، والمعنى: لو شئنا فضلناه وشرفناه ورفعنا قدره ومنزلته بالآيات التي آتيناه.

وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ المخلد من الرجال هو الذي يبطئ مشيته، ومن الدواب التي تبقى ثناياها إلى أن تخرج رباعيتها[(٢)].

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) التفسير القيم، ابن القيم ص٤٤٥.

مقاصد ضرب المثل

مقاصد ضرب الأمثال في القرآن لا تنحصر، لكنها ترد في جملتها إلى مقصد واحد، وهو بيان الحق الذي جاءت به الرسل لهداية الخلق، ودعوتهم إلى عبادة الله وحده، والانقياد لطاعته؛ وذلك بوضع منهج متكامل روعيت فيه مصالح العباد في العاجل والآجل[1].

وقد جمع الزركشي عددًا من فوائد ضرب الأمثال في القرآن فذكر: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، وترتيب المراد للعقل، وبيان تفاوت الأجر، والمدح والذم، والثواب والعقاب، وعلى تفخيم أمر أو تحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله، فامتن الله علينا بذلك لما تضمنت هذه الفوائد، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨].

«ومن حكمته تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة، والمثل أعون شيء على البيان»[2].

وتأتي أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر، وعلى المدح والذم، وعلى الثواب والعقاب، وعلى تفخيم الأمر وتحقيره، وعلى تحقيق أمر أو إبطاله.

وإذا كان العلماء قد أظهروا أهمية المثل البيانية والفنية الإبداعية، وأثر ذلك في النفس وفاعليته، فإن هناك أمورًا أخرى شرعية تستفاد من ضرب الأمثال في القرآن، وقد ذكر الإمام الماوردي أن «من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه؛ لاشتغالهم بالأمثال، وإغفالهم الممثلات، والمثل بلا ممثل كالفرس بلا لجام، والناقة بلا زمام»[3].

فالأمثال القرآنية جاءت شاملة متضمنة كل ما تقدم، ولها من القدرة ما يمكنها من تحقيق أغراضها وغاياتها عبر صور بيانية، ومشاهد فنية، تلقي بظلالها وآثارها الفاعلة في النفس البشرية، والتي ما سيقت هذه الأمثال إلا لها ومن أجلها؛ بغية خيرها وصلاحها في حالها ومآلها.

وعلى هذا يمكننا القول: إن الأمثال القرآنية تعد مقاييس عقلية، وقواعد عامة، وكليات شاملة، وعلامات هادية شاخصة ومنتصبة، تصلح أن يقاس عليها ما يؤكد علوها على الحصر، مما يمكن أن يكون حسيًا أو عقليًا أو نفسيًا، حقيقة أو مجازًا، وهي تدور حول محور واحد، متمثل في هذا الإنسان بعناصره المختلفة، وأبعاده المتجاورة والمتآلفة: العقل، والروح،

(١) انظر: دراسات في علوم القرآن، محمد بكر إسماعيل ص ٣٦١،٣٥٤.

(٢) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ١/ ٤٨٧.

(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢/ ١٠٤١.

والحس، والوجدان، تحقيقًا لتطلعاته إلى سعادته في معاشه ومعاده.

وعلى هدي هذا المفهوم للمثل القرآني نستطيع الوقوف على معنى قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

أولًا: التوضيح والتقريب:

التوضيح والتقريب أبرز مقاصد الأمثال.

فيقرب صورة المُمَثَّل له إلى ذهن المخاطب؛ وذلك بأن يكون المخاطب جاهلًا بحقيقة الشيء الممثل له فيأتي المثل القرآني لرفع هذه الجهالة، وإزالة هذا الغموض.

قال ابن القيم: «وقد ضرب الله ورسوله الأمثال للناس؛ لتقريب المراد، وتفهيم المعنى، وإيصاله إلى ذهن السامع، وإحضاره في نفسه بصورة المثال الذي مثل به، فقد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه واستحضاره له باستحضار نظيره، فإن النفس تأنس بالنظائر والأشباه، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير، ففي الأمثال من تأنيس النفس، وسرعة قبولها، وانقيادها لما ضرب لها مثله من الحق أمر لا يجحده أحد، ولا ينكره، وكلما ظهرت الأمثال ازداد المعنى ظهورًا ووضوحًا، فالأمثال شواهد المعنى المراد، وهي خاصية العقل ولبه وثمرته»[(١)].

ويقول رحمه الله: «إن النفس تأنس بالنظائر والأشباه الأنس التام، وتنفر من الغربة والوحدة وعدم النظير، وبالأمثال يزداد المعنى ظهورًا ووضوحًا، فالأمثال شواهد المعنى المراد، ومزكية له، فهي كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه، وهي خاصة العقل ولبه وثمرته»[(٢)].

وقد أشار الزمخشري أيضًا إلى هذا المقصد من الأمثال، حيث قال: «ولضرب العرب الأمثال، واستحضار العلماء المثل والنظائر شأنٌ ليس بالخفي في إبراز خبيات المعاني، ورفع الأستار عن الحقائق، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد، وفيه تبكيت للخصم الألد، وقمعٌ لسورة الجامح الأبي، ولأمرٍ ما أكثر الله في كتابه المبين وسائر كتبه أمثاله»[(٣)].

وقال أبو السعود: «إن التمثيل ليس إلا إبراز المعنى المقصود في معرض الأمر المشهور، وتحلية المعقول بحلية المحسوس، وتصوير أوابد المعاني بهيئة

(١) أعلام الموقعين ١/ ٢٩١.
(٢) المصدر السابق ١/ ٢٤٠.
(٣) الكشاف، الزمخشري ١/ ١٩٥.

المأنوس لاستمالة الوهم واستنزاله عن معارضته للعقل، واستعصائه عليه في إدراك الحقائق الخفية، وفهم الدقائق الأبية؛ كي يتابعه فيما يقتضيه، ويشايعه إلى ما لا يرتضيه؛ ولذلك شاعت الأمثال في الكتب الإلهية، والكلمات النبوية، وذاعت في عبارات البلغاء، وإشارات الحكماء ....، فالتمثيل ألطف ذريعة إلى تسخير الوهم للعقل، واستنزاله من مقام الاستعصاء عليه، وأقوى وسيلة إلى تفهيم الجاهل الغبي، وقمع سورة الجامح الأبي، كيف لا وهو رفع الحجاب عن وجوه المعقولات الخفية، وإبرازها لها في معرض المحسوسات الجلية، وإبداء للمنكر في صورة المعروف، وإظهار للوحشي في هيئة المألوف»[(١)].

هكذا يأتي المثل لزيادة الإفهام والتوضيح والتذكير؛ ولتصوير المعنوي بالمحسوس والمشهد بالغائب، فيكون وقعه بذلك أمكن في النفوس، وأشد علقة بالقلوب، وهذا من شأنه أن يبعد الحيرة والشكل عن المترددين، وضعاف الإرادة.

ومن الأمثلة القرآنية التي جاءت لهذا الغرض -وهو التوضيح والتقريب-: ما ضربه الله تعالى من مثلٍ لحال الدنيا، وركون الناس إليها، والإعراض عن الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٢٤].

فالمثل المضروب هنا لتقريب وتوضيح حال الدنيا، وهو مثل قصير موجز، يتناسق مع حال الدنيا في سرعة زوالها، وقد أسهمت البنية الأسلوبية له في إلقاء ظل الفناء في حس الإنسان وذهنه، وهو يتابع الماء النازل بسرعة ممتزجًا بنبات الأرض، ثم يغدو هشيمًا تذروه الرياح من غير تصوير للنبات النامي بثماره وأزهاره، فيبقى الإنسان مشدودًا إلى صورة النهاية للحياة لا إلى بهجتها ولذاتها.

يقول ابن القيم معلقًا على هذا المثل: «شبه سبحانه الحياة الدنيا في أنها تتزين في عين الناظر، فتروقه بزينتها، وتعجبه فيميل إليها ويهواها اغترارًا منه بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها قادر عليها سلبها بغتة أحوج ما كان إليها، وحيل بينه وبينها، فشبهها بالأرض التي ينزل الغيث عليها فتعشب، ويحسن نباتها، ويروق منظرها للناظر، فيغتر به، ويظن أنه قادر عليها، مالك لها، فيأتيها أمر الله، فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن قبل، فيخيب ظنه، وتصبح يداه صفرًا

(١) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ١/ ٧٢.

منها، فكذا حال الدنيا والواثق بها سواء، وهذا من أبلغ التشبيه والقياس»[(١)].

وتشبيه الحياة الدنيا بالنبات يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن عاقبة هذه الحياة التي ينفقها المرء في هذه الدنيا كعاقبة هذا النبات الذي حين عظم الرجاء في الانتفاع به وقع اليأس منه؛ لأن المتمسك بالدنيا إذا عظمت رغبته فيها يأتيه الموت، وهو معنى قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةً﴾ [الأنعام: ٤٤].

وثانيها: أنه تعالى بين أنه كما لم يحصل لذلك الزرع عاقبةٌ تحمد، فكذلك المغتر بالدنيا المحب لها لا يحصل له عاقبة تحمد.

وثالثها: أن هذا التشبيه كقوله تعالى: ﴿وَقَدِمۡنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنۡ عَمَلٖ فَجَعَلۡنَٰهُ هَبَآءٗ مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣].

أي: لما صار سعي هذا الزرع باطلًا بسبب حدوث المهلك فكذلك سعي المغتر بالدنيا.

ورابعها: أن مالك هذا البستان لما أتعب نفسه في عمارته، وكذلك الروح، وعلق قلبه بالانتفاع به، فإذا حدث السبب المهلك صار العناء الشديد الذي تحمله في الماضي سببًا لحصول الشقاء الشديد له في المستقبل، وهو ما يحصل في قلبه من الحسرات.

فكذلك حال من أحب الدنيا، وأتعب نفسه في تحصيلها، فإذا مات وفاته كل ما نال صار العناء الذي تحمله في تحصيل الدنيا سببًا لحصول الشقاء العظيم له في الآخرة.

وخامسها: لعله تعالى إنما ضرب هذا المثل لمن لا يؤمن بالمعاد؛ لأنا نرى الزرع الذي انتهى إلى الغاية في الحسن، ثم إن ذلك الحسن يزول بالكلية، ثم تصير تلك الأرض موصوفة بتلك الزينة مرة أخرى، فذكر تعالى هذا المثال؛ ليدل على أن من قدر على ذلك كان قادرًا على إعادة الأحياء في الآخرة؛ ليجازيهم على أعمالهم[(٢)].

وقد قامت (الفاء العاطفة) في قوله: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ٢٤].

في تسريع حركة التصوير لأطوار النبات التي هي في حقيقتها أطوار الحياة، وجاء التعقيب على المثل في الآية الأخرى بقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥]؛ لترسيخ معنى القدرة الإلهية على الإحياء بعد الإماتة، كي لا تكون صورة الفناء هي الصورة النهائية للإنسان بعد المثل المضروب.

وقوله: ﴿فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [يونس: ٢٤].

فلو قلنا: بأن الباء للمصاحبة يكون معناه أي: اختلط مع ذلك الماء نبات الأرض؛ لأن

---

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص٤٧٠.

(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٤٥١.

المطر ينفد في خلل النبات، وإن كانت الباء للسببية يكون المراد أنه اختلط بسبب الماء بعض النبات ببعض، حيث إن الماء صار سببًا لرشده، والتفاف بعضه ببعض.

وقوله: ﴿إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ﴾ [يونس: ٢٤].

تعبير رائع حيث جعلت الأرض آخذة زخرفها على التمثيل بالعروس؛ إذا أخذت الثياب الفاخرة من كل لون، فاكتستها وتزينت بغيرها من ألوان الزينة، وقوله: ﴿قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ [يونس: ٢٤].

أي: متمكنون من استثمارها والانتفاع بثبوتها، وقوله: ﴿أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا﴾ [يونس: ٢٤].

كناية عن نزول بعض الآفات على الجنات والمزارع حيث يجعلها ﴿حَصِيدٗا﴾ شبيهًا بما يحصد من الزرع في استئصاله.

وقوله: ﴿كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ﴾ [يونس: ٢٤] بمنزلة قوله: كأن لم ينبت زرعها، على وجه يلتف بعضه ببعض، يروق الإنسان منظره، فلم يزل على تلك الحال إلى أن يتنقل إلى حالة لا نجد فيها غضاضة، وهذا ما يعبر عنه القرآن بقوله: ﴿فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا﴾ [الكهف: ٤٥].

أي: كثيرًا مفتتًا، تذروه الرياح، فتنقله من موضعه إلى موضع، فانقلاب الدنيا كانقلاب هذا النبات.

ثانيًا: الترغيب:

ومن مقاصد ضرب المثل في القرآن الترغيب بالأعمال الصالحة والأخلاق الحسنة التي تهذب النفوس وترقق الطباع.

فنجد المثل القرآني يحث النفس الجموح على إنفاق المال في سبيل الله، ويعد المتقين وعدًا حسنًا على ذلك، ويضاعف لهم الأجر في صورة اعتمد فيها التشبيه صيغة تهيىء المناخ النفسي للبر بتفاعلها مع الجو الداخلي عند الإنسان، حيث يجد إنفاقه مضاعفًا بإمدادٍ غير مترقب مما يدفعه عن طيب خاطر، وتسليم لأمر الله إلى الإنفاق بيد مبسوطة، يقول تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

وقد يطنب المثل القرآني في الأمور الترغيبية، ويوالي ضرب الأمثال لها، ويحذر من مخالفتها، ويريدها خالصة لله وحده، ويستقصي المعاني على أكمل وجه، ويأتي بجميع لوازمها ومتعلقاتها، وهو ما يسمى عند البلاغيين (الاستقصاء)، وهو نوع من أنواع الإطناب بذكر محاسن ما يرغب فيه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا كَلِمَةٗ طَيِّبَةٗ كَشَجَرَةٖ طَيِّبَةٍ أَصۡلُهَا ثَابِتٞ وَفَرۡعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٢٤ تُؤۡتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينِۭ بِإِذۡنِ رَبِّهَاۗ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ

﴿لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝٢٥ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٦].

يقول الرازي: «إن المقصود من ضرب الأمثال أنها تؤثر في القلوب ما لا يؤثره وصف الشيء في نفسه؛ وذلك لأن الغرض في المثل تشبيه الخفي بالجلي، والغائب بالشاهد، فيتأكد الوقوف على ماهيته، ويصير الحس مطابقًا للعقل، وذلك في نهاية الإيضاح، ألا ترى أن الترغيب إذا وقع في الإيمان مجردًا عن ضرب مثل له لم يتأكد وقوعه في القلب كما يتأكد وقوعه إذا مثل ب، وإذا زهد في الكفر بمجرد الذكر لم يتأكد قبحه في العقول، كما يتأكد إذا مثل بالظلمة، وإذا أخبر بضعف أمر من الأمور وضرب مثله بنسج العنكبوت كان ذلك أبلغ في تقرير صورته من الإخبار بضعفه مجردًا؛ ولهذا أكثر الله تعالى في كتابه المبين، وفي سائر كتبه أمثاله، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ [العنكبوت: ٤٣]»(١).

واتخذها المربون وسيلة للترغيب، ويستطيع معلم التربية الإسلامية أن يستخدم ضرب الأمثال للترغيب ولتقريب المعاني المجردة التي ترد في القرآن والسنة إلى أذهان التلاميذ؛ ويمكنه أن يستخدم هذا الأسلوب كوسيلة للتهذيب الخلقي من حثه على الخير أو دفع للشر، فالأمثال بما فيها من تجسيد للمعاني المجردة أقرب إلى النفوس في إحداث الترغيب والترهيب من الوعظ المباشر.

ومن الأمور التي رغب فيها المثل القرآني: الجنة.

قال تعالى: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد: ٣٥]

والإشارة إلى الجنة بصفاتها بحيث صارت كالمشاهدة ترغيبًا فيها، أي: صفة الجنة التي وعد الله بها الذين يخشونه أنها تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول ولا ينقص، تلك المثوبة بالجنة عاقبة الذين خافوا الله، فاجتنبوا معاصيه، وأدوا فرائضه، وعاقبة الكافرين بالله النار.

ونظيره: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ۖ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

فهذا المتاع والاسترواح، ومشهد الظل الدائم، والثمر الدائم، والأنهار المتنوعة،

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١/ ٣٤٥.

مشهدٌ تطمئن له النفس وتستريح وترغب، وتشتاق إليه.

ومن الأمور التي رغب فيها المثل القرآني: الإيمان والإسلام.

قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

فقد جاء هذا التشبيه بديعًا مشوقًا؛ إذ جعل حال المسلم بعد أن صار إلى الإسلام بحال من كان عديم الخير عديم الإفادة، كالميت، فإن الشرك يحول دون التمييز بين الحق والباطل، ويصرف صاحبه عن السعي إلى ما فيه خيره ونجاته، وهو في ظلمة لو أفاق لم يعرف أين ينصرف؟ فإذا هداه الله إلى الإسلام تغير حاله فصار يميز بين الحق والباطل، ويعلم الصالح من الفاسد، فصار كالحي، وصار يسعى إلى ما فيه الصلاح، ويتنكب عن سبيل الفساد فصار في نور يمشي به في الناس[1].

ثالثًا: التنفير:

ومن مقاصد ضرب المثل في القرآن التنفير من الأعمال السيئة والأخلاق القبيحة، كقوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ۚ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ۚ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ – ١٧٦].

يكشف هذا المثل الأبعاد النفسية التي اشتملت عليها شخصية الذي يتخلى تمامًا عن آيات الله، ويعرض عنها ابتغاء عرض زائل، ومتاع قليل، وقد استعار كلمة (انسلخ) وعبر بها تعبيرًا دقيقًا عن مدى التصميم في الإعراض والتخلي، وصور بذلك حالة النزاع الشديد في مفارقتها، فهذا التجرد من عناصر الخير يوحي بكيفية تجرد الشاة عن أهابها، ونزعها لردائها أثناء السلخ في مشهد أليم، حتى عادت سنحًا آخر في الهيكل والصورة والتحول، وكذلك أمر هذا الرجل؛ إذ استحال إلى حقيقة أخرى، جوفاء مترهلة، وتأتي الصور متقاطرة العبارات والعبائر، مجلجلة الوقع، فيعقب صورة الانسلاخ صورة الكلب اللاهث في حالتيه، وإخلاده إلى الأرض، وهي شديدة الأثر في

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٤٥.

تحقيرها لشأن المشبه، وإظهارها لضياعه، وتشرده وضلاله.

فقد ضرب الله عز وجل هذا المثل لمن لا يعمل بعلمه على سبيل التبكيت والتشنيع والتنفير؛ حتى لا يصير الإنسان مثل الحمار حينما يكون له علم ولا يعمل به.

وكقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

ضرب الله هذا المثل للتنفير من تعاطي الربا، بعد الترغيب في بذل الصدقة لمستحقيها.

والآية الكريمة تصور المرابي بتلك الصورة المرعبة المفزعة التي تحمل كل عاقل على الابتعاد عن كل معاملة يشم منها رائحة الربا، وهنا ينبغي توضيح أمرين:

الأول: أن جمهور المفسرين يرون أن هذا القيام المفزع للمرابين يكون يوم القيامة، حين يبعثون من قبورهم، فقيام المرابي يوم القيامة كذلك مما نطقت به الآثار، وهو مما لا يحيله العقل ولا يمنعه؛ ولعل الله تعالى جعل ذلك علامة له يعرف بها يوم الجمع الأعظم عقوبة له.

أو يكون المراد: تشبيه المرابي في حرصه وتحركه في اكتسابه في الدنيا بالمتخبط المصروع، كما يقال لمن يسرع بحركات مختلفة: قد جن، ولا يخفى أن هذا تأويل مصادم لما عليه سلف الأمة؛ ولما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من غير داعٍ، سوى الاستبعاد الذي لا يعتبر في مثل هذه المقامات.

والصواب: أنه لا مانع من أن تكون الآية تصور حال المرابين في الدنيا والآخرة، فهم في الدنيا في قلق مستمر، وانزعاج دائم، واضطراب ظاهر، بسبب جشعهم وشرههم في جمع المال، ووساوسهم التي لا تكاد تفارقهم، وهم يفكرون في مصير أموالهم، ومن يتتبع أحوال بعض المتعاملين بالربا يراهم أشبه بالمجانين في أقوالهم وحركاتهم، أما في الآخرة فقد توعدهم الله تعالى بالعقاب الشديد، والعذاب الأليم[(١)].

وجمهور المفسرين يرون أيضًا أن التشبيه في الآية الكريمة على الحقيقة، بمعنى أن الآية تشبه حاله بحال المجنون الذي مسه الشيطان؛ لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالصرع والجنون، ولا عبرة بمن أنكر ذلك، قال القرطبي: «وفي هذه الآية دليل على فساد إنكار من أنكر الصرع من جهة الجن، وزعم أنه من فعل الطبائع، وأن

(١) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ١/ ٥١٠.

الشيطان لا يسلك في الإنسان، ولا يكون منه مس»[١]، فالذي عليه جمهور العلماء من أن التشبيه على الحقيقة هو الحق؛ لأن الشيطان قد يمس الإنسان فيصيبه بالجنون.

وكذلك ضرب الله مثلًا للتنفير من الركون إلى الدنيا فقال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾ [الكهف: ٤٥].

يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم أصلًا ولمن قام بوراثته بعده تبعًا-: اضرب للناس مثل الحياة الدنيا؛ ليتصوروها حق التصور، ويعرفوا ظاهرها وباطنها، فيقيسوا بينها وبين الدار الباقية، ويؤثروا أيهما أولى بالإيثار، وأن مثل هذه الحياة الدنيا كمثل المطر ينزل على الأرض فيختلط نباتها، تنبت من كل زوج بهيج، فبينا زهرتها وزخرفها تسر الناظرين وتفرح المتفرجين، وتأخذ بعيون الغافلين إذ أصبحت هشيمًا تذروه الرياح، فذهب ذلك النبات الناضر، والزهر الزاهر، والمنظر البهي، فأصبحت الأرض غبراء ترابًا، قد انحرف عنها النظر، وصدف عنها البصر، وأوحشت القلب، كذلك هذه الدنيا، بينما صاحبها قد أعجب بشبابه، وفاق فيها على أقرانه وأترابه، وحصل درهمها ودينارها، واقتطف من لذته أزهارها، وخاض في الشهوات في جميع أوقاته، وظن أنه لا يزال فيها سائر أيامه؛ إذ أصابه الموت أو التلف لماله، فذهب عنه سروره، وزالت لذته وحبوره، واستوحش قلبه من الآلام، وفارق شبابه وقوته وماله، وانفرد بصالح أو سيئ أعماله، هنالك يعض الظالم على يديه، حين يعلم حقيقة ما هو عليه، ويتمنى العود إلى الدنيا لا ليستكمل الشهوات بل ليستدرك ما فرط منه من الغفلات، بالتوبة والأعمال الصالحات، فالعاقل الجازم الموفق يعرض على نفسه هذه الحالة، ويقول لنفسه: قدري أنك قد مت ولابد أن تموتي، فأي: الحالتين تختارين؟ الاغترار بزخرف هذه الدار، والتمتع بها كتمتع الأنعام السارحة، أم العمل لدار أكلها دائم وظلها، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين!! فبهذا يعرف توفيق العبد من خذلانه، وربحه من خسرانه[٢].

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٣٥٥.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧٨.

آثار ضرب الأمثال

لضرب الأمثال آثار تربوية، وآثار دعوية، وآثار جمالية وفنية، نبينها فيما يأتي:

أولًا: آثار تربوية:

ضرب الأمثال أسلوب من أساليب التربية يحث النفوس على فعل الخير، ويحضها على البر، ويدفعها إلى الفضيلة، ويمنعها عن المعصية والإثم، وهو في نفس الوقت يربي العقل على التفكير الصحيح، والقياس المنطقي السليم؛ لما فيه من تقريب وتسهيل للمعاني البعيدة، أو الغامضة عن طريق عرض أمثالها، وما يشابهها من المعاني المحسوسة والواضحة.

فالأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوى في الإقناع، ولأهمية الأمثال وفعاليتها استخدمها القرآن الكريم في مواضع كثيرة، وقد أخبر سبحانه وتعالى أنه لا يعقلها ولا يعيها إلا العالمون، فقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فالأمثال القرآنية ذات مدلولاتٍ تربوية عميقة التأثير، عظيمة الفائدة، تتضافر مع غيرها من وسائل التربية القرآنية، كالقصة، والحوار، وأساليب الإقناع وغيرها في تكوين النظرية التربوية الإسلامية الرائدة، يقول عبد الرحمن النحلاوي ما ملخصه: «لم تكن الأمثال القرآنية والنبوية مجرد عمل فني يقصد من ورائه الرونق البلاغي فحسب، بل إن لها غايات نفسية تربوية، حققتها نتيجة لنبل المعنى، وسمو الغرض، بالإضافة إلى الإعجاز البلاغي، وتأثير الأداء»[1].

وهناك آثار تربوية عديدة للأمثال، منها:

١ . شحذ الذهن واستثارته للتفكير والقياس والتأمل.

وغير ذلك من العمليات الفكرية والذهنية التي يثيرها المثل، بقصد الإقناع بصحة رسالة الإسلام وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث تنطوي معظم الأمثال على قياس تذكر مقدماته ويطلب من العقل أن يتوصل إلى النتيجة التي لا يصرح القرآن بها في كثير من الأحيان، بل يشير إليها ويترك للعقل معرفتها.

ونذكر منها على سبيل المثال: المعنى الذي ضربه الله مثلًا للحق والباطل، في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

(١) التربية بضرب الأمثال، النحلاوي ص٢٠.

ففي هذا المثل استثارة العقل على التفكير والتأمل، حيث شبه الباطل بالزبد الذي يذهب جفاء، وشبه الحق بالماء الذي يمكث في الأرض، فالباطل يضمحل وينمحق، كالزبد الذي يحتمله السيل، وإن علا على الحق في بعض الأوقات، كما يعلو الزبد، والحق ثابت باقٍ، يمكن في القلب، فينتفع به المؤمن، فيثمر عملًا صالحًا، كما يمكث الماء وأسباب الإنبات في الأرض، فيثمر عشبًا وزرعًا ونخلًا وأعنابًا.

٢. تقريب ما غاب عن الذهن من المعاني بصورة بلاغية موجزة.

تنفذ إلى أعماق النفس، مثيرة للعواطف والوجدان، اعتمادًا على التصوير والتشبيه، كطريقة تربوية وتعليمية، تساعد على توضيح المقاصد، وشرح الأفكار، وتقريب المعاني للأذهان.

فضرب الأمثال من الأساليب التربوية الإسلامية التي تقرب المعاني المجردة إلى الأذهان، وتقرب المعقول إلى المحسوس فيتقبله العقل، ويدركه ويفهمه؛ وتؤثر في سلوك الأفراد، فتذكر الغافل، وتنبه المعاند، وتبرز المعقول في صورة المحسوس، كما تكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الماضي في معرض الحاضر، وتضرب الأمثال للترغيب والترهيب.

وقد تنبه علماء التربية المسلمون إلى هذا الغرض التربوي، فبينوا في دراساتهم أن القرآن يستخدم التشبيه والتمثيل كي يقرب المعاني، ويشير إلى أمور حسيةٍ لشرح أفكار مجردة، فالقرآن لا يخاطب فئة المثقفين وحدهم وإنما يخاطب مختلف الفئات التي منها أقوام أميون لا تستطيع عقولهم أن تقفز مرة واحدة إلى المعقولات، وإنما لابد لها من المرور بمرحلة الإدراك الحسي، فيكون بذلك أقرب إلى الأفهام وأرسخ.

٣. إثارة الانفعالات المناسبة للمعنى وتربية العواطف.

فنجد المثل القرآني أحيانًا يثير في النفس انفعالًا إيجابيًا، وأحيانًا يثير انفعال الاشمئزاز من الضالين والشعور بتفاهتهم وضياع عقولهم، فانظر إلى معنى قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ [الجمعة: ٥].

أي: كلفوا العمل بما فيها ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾[الجمعة: ٥].

فتشبيههم بالحمار الذي يحمل أسفارًا يثير في النفس قمة النفور والاشمئزاز من حالهم.

٤. حمل الناس على الخير وتنفيرهم من الشر، صيانة لفطرهم من الزلل، ووقاية لهم من الوقوع في الخطأ.

٥. توضيح الفضائل والترغيب فيها.

فالأمثال كما أنها وسيلة نافعة في الترغيب فهي كذلك وسيلة نافعة للتنفير من

الأشياء التي لا يرغب فيها.

٦. القدرة على التوضيح والتأثير والإقناع وعرض الحقائق والاحتجاج لها.

وذلك مع ما فيها من الإيجاز الذي يفعل فعل الإطناب، فإن ما يحمله المثل من المعاني يفوق بكثير قدرة ما يعادله في الحجم من الكلام المجرد؛ ولهذا يوصى بالتعمق في دراسة أمثال القرآن والسنة وأسلوبهما من أجل الوصول إلى ما فيهما من مناجم السبل النافعة في التعليم والتربية، وبلورتها في منهج واضح يساعد على الانتفاع بها.

كما ضرب الله مثلًا للدلالة على أنه الإله الحق، وأن الأوثان لا تستحق أن تعبد بقوله: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَمَن رَّزَقْنَاهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٧٥].

إذ دل بالمثل على عجز الأصنام عن أن تنفع عابدها بشيء؛ إذ مثل حالها بحال العبد المملوك الذي لا يقدر على شيء، ودل على كمال قدرته؛ إذ جعل في مقابلة العبد المملوك الممثل للأصنام من اتسع رزقه، وكان ينفق منه كيف يشاء، ومن له مسكة من العقل لا يتولى العاجز بالعبادة ويدع عبادة القادر على كل شيء.

٧. تختصر القول وتدرب الإنسان على جودة التفكر وسلامة القياس.

ولأهمية الأمثال في التربية جاء في كتاب: (التربية الإسلامية وتحديات العصر): «أن الأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، والباحث في التراث التربوي الإسلامي يجد إلى جانب استخدام القرآن الكريم والحديث الشريف للأمثال والأشباه طريقة للتربية والتعليم اهتمام المربين المسلمين بذلك»[(١)].

٨. إشراك أكثر من حاسة من الحواس الإنسانية في تلقي المعنى.

وتوظيف قدرة العقل الإنساني على التخيل والتصوير في تجلية الحقائق وتقريبها وفهمها، كما أنه يجعل الحقائق أعلق في النفوس، وأثبت في العقول، ويسهل استدامتها وبقاءها في الذاكرة فترة أطول، هذا بالإضافة إلى أنها تساعد في جعل المعنى واضحًا ومشوقًا وممتعًا، وتسهم في دفع الملل عن نفس المتلقي.

٩. مخاطبة النفس الإنسانية بكل أبعادها وجوانبها.

وتركيزها على العبرة والفائدة المتوخاة دون الاعتداد بالمظهر أو الشكل أو الحجم، ما لم تكن العبرة من المثل متعلقة بشيء

(١) التربية الإسلامية وتحديات العصر، عبود، عبد الغني العال، حسن إبراهيم ص٤٩٥.

منها، وهي تتميز بالدقة في اختيار اللقطة المنتقاة التي تبرز أشد جوانب المثل إثارة، وكذلك استخدامها وشمولها لمختلف مظاهر الطبيعة مما هو من أسرار خلودها، إضافةً إلى السهولة والقرب والبعد عن التعقيد والصعوبة، مما أضفى عليها الصلاحية لمخاطبة مختلف المستويات العلمية والاجتماعية.

ومن الآثار التربوية التي تثيرها الأمثال القرآنية أيضًا:

تعرية الباطل وتزييفه، وفضح مواقفه.

١٠. **كشف الحقائق وإيضاح المعنى في عبارة موجزة بليغة.**

١١. **توضيح الحق وتثبيته وإقامة حججه وبراهينه.**

١٢. **التحذير من عاقبة كفر النعمة وبطر المعيشة.**

١٣. **استخلاص سنن الله تعالى في الكون والحياة والإنسان.**

١٤. **تقريب الحقائق الغيبية للأذهان.**

١٥. **تصوير الحقائق الإيمانية المجردة بصورة محسوسة.**

١٦. **ربط عالم الشهادة بعالم الغيب.**

١٧. **فضح تناقض المشركين والمنافقين في مواقفهم.**

١٨. **تقرير حقائق للترغيب بها أو التنفير منها.**

١٩. **تفاهة مواقف الكافرين من الحقائق الكبرى**(١).

ثانيًا: آثار دعوية:

للأمثال القرآنية أثر بليغ في تلقي الدعوة بالقبول لما لها من تأثير على النفس والعقل والوجدان؛ ولما تحتويه من بلاغة وإعجاز؛ ولما فيها من تقريب وتسهيل للمعاني البعيدة أو الغامضة، عن طريق عرض أمثالها، وما يشابهها من المعاني المحسوسة والواضحة.

يقول الزركشي: «وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى؛ إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي والشاهد بالغائب، فالمرغب في الإيمان -مثلًا- إذا مثل له ب تأكد في قلبه المقصود، والمزهد في الكفر إذا مثل له بالظلمة تأكد قبحه في نفسه، وفيه أيضًا تبكيت الخصم، وقد أكثر الله تعالى في القرآن، وفي سائر كتبه من الأمثال»(٢).

ويقول العز بن عبد السلام: «إنما ضرب الله الأمثال في القرآن تذكيرًا ووعظًا، فما اشتمل منها على تفاوت في ثواب، أو على إحباط عمل، أو على مدح أو ذم أو نحوه، فإنه يدل على الإحكام»(٣).

---

(١) ضرب الأمثال في القرآن، عبد المجيد البيانوني ص٥٩.
(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٤٨٨.
(٣) الإتقان في علوم القرآن، السيوطي ٢/ ١٠٤١.

ولقد جاء القرآن الكريم داعيًا إلى الهداية والرشاد بأساليب شتى؛ فتارةً بالوعد والوعيد، وتارة بالإقناع العقلي، وتارة ثالثة بوخز الضمير والوجدان، ورابعةً بتوجيه الفطرة إلى حقيقتها، وخامسة بالإعجاز بشتى ألوانه، وأحيانًا بأسلوب ضرب المثل الذي هو أقرب الوسائل الدعوية إلى فطرة الإنسان، وأكثر العوامل النفسية تأثيرًا، لما له من الواقعية والصدق، ودقة التصوير، وله من السمات ما ليس لغيره! فيمكن أن يستخدم هذا الأسلوب كوسيلة للتهذيب الخلقي من حثه على الخير أو دفع الشر، فالأمثال بما فيها من تجسيد للمعاني المجردة أقرب إلى النفوس في إحداث الترغيب والترهيب من الوعظ المباشر.

وهناك آثار دعوية عديدة للأمثال، منها:

١. **ما تورثه في النفس من العظة والعبرة والتذكر.**

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الزمر: ٢٧].

وهو نظير قوله: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [القصص: ٥١].

وتأكيد الخبر في قوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا﴾ [الزمر: ٢٧].

بلام القسم وحرف التحقيق منظور فيه إلى حال الفريق الذين لم يتدبروا القرآن، وطعنوا فيه، وأنكروا أنه من عند الله، والتعريف في (الناس) للاستغراق، أي: لجميع الناس، فإن الله بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم للناس كافة، و(ضرب المثل): ذكره ووصفه، وتنوين (مثلٍ)؛ للتعظيم والشرف، أي: من كل أشرف الأمثال، فالمعنى: ذكرنا للناس في القرآن أمثالًا هي بعضٌ من كل أنفع الأمثال وأشرفها، والمراد: شرف نفعها.

وخصت أمثال القرآن بالذكر من بين مزايا القرآن؛ لأجل لفت بصائرهم للتدبر في ناحية عظيمة من نواحي إعجازه، وهي بلاغة أمثاله، فإن بلغاءهم كانوا يتنافسون في جودة الأمثال وإصابتها المحز من تشبيه الحالة بالحالة.

ومعنى الرجاء في ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾: منصرف إلى أن حالهم عند ضرب الأمثال القرآنية كحال من يرجو الناس منه أن يتذكر، وهذا مثل نظائر هذا الترجي الواقع في القرآن.

ومعنى التذكر: التأمل والتدبر؛ لينكشف لهم ما هم غافلون عنه، سواء ما سبق لهم به علم فنسوه، وشغلوا عنه بسفساف الأمور، وما لم يسبق لهم علم به، مما شأنه أن يستبصره الرأي الأصيل، حتى إذا انكشف له كان كالشيء الذي سبق له علمه، وذهل عنه، فمعنى التذكر معنًى بديع شامل لهذه

الخصائص[١].

ومما ضربه الله لنا من الأمثال للعظة والعبرة قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

حيث أخبر الله تعالى هنا أن هناك قرية كان أهلها في أمن واستقرار وسعادة ونعيم، تأتيها الخيرات من كل جهة، فلم يشكر أهلها ربهم على ما آتاهم من خير ورزق، فسلبهم الله نعمة الأمان والاطمئنان، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان بسبب كفرهم ومعاصيهم.

وهذا مثل أهل مكة الذين أمنهم الله بالبيت العتيق، يقصده الناس جميعًا، ولهم تجارتان، في الصيف للشام، وفي الشتاء لليمن، فلما جاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعوهم إلى الإيمان بالله كفروا به وعصوه، فإن لم يتوبوا إلى الله فجزاؤهم سيكون كجزاء أهل القرية المضروب بها المثل، حيث نزلت بها عقوبة الله، وحلت بساحتها نقمته. والمقصود أن من آثار ضرب الأمثال في القرآن حصول التذكر والاتعاظ بما فيها، والتدبر هو غاية كل ذلك ونتيجته؛ ولذلك قال الله عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩].

فجعل غاية الإنزال للقرآن التدبر والتذكر؛ ولولا التدبر لما حصل التذكر الذي هو يقظة القلب، وعمران الوجدان بالإيمان.

٢. ما تورثه من الفهم الصحيح لمراد الله ومراد رسوله.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

فقوله: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ أي: بالله وصفاته وأسمائه، وبمواقع كلامه وحكمه، أي: لا يعقل صحتها وحسنها، ولا يفهم حكمتها إلا هم؛ لأن الأمثال والتشبيهات إنما هي طرق إلى المعاني المستورة حتى يبرزها ويصورها للأفهام، كما صور هذا التشبيه الذي بين فيه حال المشرك وحال المؤمن[٢].

والعقل هنا بمعنى الفهم، أي: لا يفهم مغزاها إلا الذين كملت عقولهم، فكانوا علماء غير سفهاء الأحلام، وفي هذا تعريض بأن الذين لم يتفعوا بها جهلاء العقول، فما بالك بالذين اعتاضوا عن التدبر في دلالتها باتخاذها هزءًا وسخرية...، وهذا من بهتانهم، وإلا فقد علم البلغاء أن لكل مقام

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ٣٩٧.

(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٤/ ٤٧٧.

مقالًا، ولكل كلمة مع صاحبتها مقامًا[1].

وفي هذا مدح للأمثال التي يضربها، وحثٌّ على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين، والسبب في ذلك أن الأمثال التي يضربها الله في القرآن إنما هي للأمور الكبار، والمطالب العالية، والمسائل الجليلة، فأهل العلم يعرفون أنها أهم من غيرها؛ لاعتناء الله بها، وحثه عباده على تعقلها وتدبرها، فيبذلون جهدهم في معرفتها، وأما من لم يعقلها مع أهميتها فإن ذلك دليل على أنه ليس من أهل العلم؛ لأنه إذا لم يعرف المسائل المهمة فعدم معرفته غيرها من باب أولى وأحرى؛ ولهذا أكثر ما يضرب الله الأمثال في أصول الدين ونحوها[2].

٣. ما تورثه من التدبر والتفكر السليم في كلام الله وكلام رسوله.

قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

فالله جل وعلا ذكر تلك الأمثال للناس؛ ليتفكروا ويتدبروا فيها، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٦٥].

فهذا المثل يبين لنا مدى الخير الذي يحمله لنا الإنفاق في سبيل الله، ومدى ارتباطه الوثيق بحياتنا، فهو يجعل البركة في الرزق أضعافًا، وهذا في الدنيا، ويجعل الثواب مضاعفًا في الآخرة لمن أراد له الله في الدنيا والآخرة، كما أن هذا المثل أيضًا يعلمنا خلقًا جميلًا من مكارم الأخلاق، وهو ألا يمنن الغني صاحب المال على الفقير ذي الحاجة وألا يؤذيه بالقول أو الفعل.

٤. أنها ذات أثر عميق في تنمية القيم الأخلاقية والاجتماعية لدى المسلم.

لما لها من تأثير إيجابي في العواطف والمشاعر، وفي تحريك نوازع الخير في النفس البشرية.

يقول الماوردي: «للأمثال من الكلام موقع في الأسماع، وتأثير في القلوب لا يكاد الكلام المرسل يبلغ مبلغها، ولا يؤثر تأثيرها؛ لأن المعاني بها لائحة، والشواهد بها واضحة، والنفوس بها وامقة، والقلوب بها واثقة، والعقول لها موافقة؛ فلذلك ضرب الله الأمثال في كتابه العزيز وجعلها من دلائل رسله، وأوضح به الحجة على خلقه؛ لأنها في القلوب مقبولة، وفي العقول مقبولة»[3].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٥٦.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٣١.
(٣) أدب الدنيا والدين، ص ٢٧٥.

ومن الآثار الدعوية للأمثال القرآنية أيضًا:

١. تنبيه المخطئ إلى خطئه، والمحسن إلى إحسانه.
٢. الإعانة على فهم المعاني الرائعة بألفاظ موجزة، وتقديم أفكار غزيرة ودقيقة؛ لتدل على المراد بعبارة مختصرة.
٣. تقرير المقصود، ففيها كشف للمعاني، وتشبيه الخفي منها بالجلي، والغائب بالشاهد.
٤. الترغيب والترهيب، وذلك إما بالمدح أو التعظيم، أو بالذم أو التحقير، مما ينعكس على السلوك إقبالًا أو نفورًا.
٥. قوة وقعها على الأسماع، وتأثيرها في القلوب، فهي بالغة في الوعظ، قوية في الزجر، وإقامة الحجة والقياس والاستنباط، وأقوم على الإقناع بذكرها محاسن الحق والترغيب فيه، وذكرها قبائح الباطل والتنفير منه.
٦. إثارة المشاعر بتركيزها على محور الطمع أو الرغبة أو الخوف أو الحذر لدى الشخص المخاطب.
٧. تحريك الطاقات الفكرية، وشحذ الذهن؛ لتوجيهه للفكر والتأمل من أجل إدراك المراد.
٨. الدلالة على الحكم والفوائد العلمية والأحكام الشرعية في جوانب العقيدة.
٩. تربية النفوس بإظهار نموذج القدوة الحسنة؛ للاقتداء بها، وإظهار نموذج القدوة السيئة؛ للنفور منها، والاعتبار بها.
١٠. ترسيخ مفاهيم التوحيد والإيمان، والإبلاغ عن المغيبات، كما توجه المخاطب إلى أداء العبادات، والالتزام بالأخلاق الحسنة، وتجنب الأخلاق السيئة.
١١. تبكيت الخصم، وإقناعه، وإقامة الحجة عليه.

ثالثًا: آثار جمالية وفنية:

ضرب الأمثال في القرآن الكريم من أساليب الصياغة الفنية الرائعة الدالة على إعجاز القرآن في إبراز المعاني في قالب حسن يقربها إلى الأفهام، وفي صور حية تستقر في الأذهان؛ لما فيها من تشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس، وقياس النظير على النظير. وقد سميت الحكم القائم صدقها في العقول أمثالًا؛ لانتصاب صورها في العقول مشتقة من المثول الذي هو الانتصاب[١].

وترجع جمالية الأمثال القرآنية إلى جمالية كلام الله تعالى فهو كلام معجز،

(١) مجمع الأمثال، أبو الفضل الميداني ١/ ٦.

له رونق وجمال وحلاوة وطلاوة، يقف البليغ أمامها عاجزًا، ويصمت الناقد أمامها مندهشًا حائرًا، ومنذ قرون عدة والكتب في إعجازه وبلاغته وفصاحته تؤلف وتدرس، ولم يحط ببلاغته الأدباء والبلغاء.

وترجع جمالية المثل القرآني إلى أنه يجتمع فيه أربعة أمور لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللفظ، وإصابة المعنى، وحسن التشبيه، وجودة الكناية، فهو نهاية البلاغة[1].

يقول الزركشي رحمه الله مبينًا أهمية المثل: «ومن حكمته: تعليم البيان، وهو من خصائص هذه الشريعة، والمثل أعون شيء على البيان ...، وفي ضرب الأمثال من تقرير المقصود ما لا يخفى؛ إذ الغرض من المثل تشبيه الخفي بالجلي، والشاهد بالغائب ...، وقد أكثر تعالى في القرآن وفي سائر كتبه من الأمثال». ثم قال: «فالأمثال مقادير الأفعال، والمتمثل كالصانع الذي يقدر صناعة، وكل شيء له قالب ومقدار، وقالب الكلام ومقداره الأمثال»[2].

والمقصود أن للأمثال القرآنية القدرة في تحقيق أغراضها وغاياتها عبر صور بيانية ومشاهد فنية، تلقي بظلالها وآثارها الفاعلة في النفس البشرية، والتي ما سيقت هذه الأمثال إلا لها ومن أجلها؛ بغية خيرها وصلاحها في حالها ومآلها.

ولكي نقف على بعض الآثار الجمالية والفنية للأمثال لابد من استعراض بعض الأمثال القرآنية:

ضرب الله مثلًا للمشرك كمثل العطشان الذي يمد يديه إلى الماء من بعيد يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه: فقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۚ وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ [الرعد: ١٤].

فلو نظرت إلى مثل هذا الشخص على هذه الحالة، وفي تلك الصورة بكل أجزائها، وهو باسط يده، مفرجة الأصابع إلى ماء بعيد عنه، وهو فاغر فاه ليشرب، لقلت: وأي جدوى تعود عليه؟! ومتى يذوق الماء وهو على تلك الحالة؟! إنه يموت عطشًا ولا يذوق منه قطرة.

والمقصود من التشبيه في هذه الآية الكريمة نفي استجابة الأصنام لما يطلبه المشركون منها نفيًا قاطعًا، حيث شبه سبحانه حال هذه الآلهة الباطلة عندما يطلب المشركون منها ما هم في حاجة إليه بحال إنسان عطشان، ولكنه غبي أحمق؛ لأنه يمد يده إلى الماء طالبًا منه أن يصل إلى فمه دون أن يتحرك هو إليه؛ فلا يصل إليه شيء من الماء؛ لأن الماء لا يسمع نداء من يناديه،

(١) المصدر السابق.
(٢) البرهان في علوم القرآن ١/ ٤٨٨

ففي هذه الجملة الكريمة تصوير بليغ لخيبة وجهالة من يتوجه بالعبادة والدعاء لغير الله تعالى.

وأجرى سبحانه على الأصنام ضمير العقلاء في قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ [الرعد: ١٤]؛ مجاراة للاستعمال الشائع عند المشركين؛ لأنهم يعاملون الأصنام معاملة العقلاء، ونكر (شيئًا) في قوله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٤]؛ للتحقير، والمراد: أنهم لا يستجيبون لهم أية استجابة، حتى ولو كانت شيئًا تافهًا، والاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ [الرعد: ١٤]، من أعم الأحوال، أي: لا يستجيب الأصنام لمن طلب منها شيئًا إلا استجابة كاستجابة الماء لملهوف بسط كفيه إليه، يطلب منه أن يدخل فمه، والماء لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه، ولا يقدر أن يجيب طلبه، ولو مكث على ذلك طوال حياته، والضمير (هو) في قوله: ﴿وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾[الرعد: ١٤].

للماء، والهاء في ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾للفم: أي: وما الماء ببالغ فم هذا الباسط كفيه، وقيل الضمير (هو): للباسط، والهاء: للماء، أي: وما الباسط لكفيه ببالغ الماء فمه[1].

وضرب الله في سورة البقرة للمنافقين مثلين، مثلًا مائيًا، ومثلًا ناريًا، وكذلك ضرب لهم المثلين في سورة الرعد، أما في سورة البقرة، ففي ختام الربع الأول، قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [البقرة: ١٧].

فهذا المثل الناري، والمثل المائي في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ١٩ - ٢٠].

شبه سبحانه أعداءه المنافقين بقوم أوقدوا نارًا؛ لتضيء لهم وينتفعوا بها، فلما أضاءت لهم النار فأبصروا في ضوئها ما ينفعهم ويضرهم، وأبصروا الطريق بعد أن كانوا حيارى تائهين تركوه، فهم كقوم سفر ضلوا عن الطريق، فأوقدوا النار تضيء لهم الطريق، فلما أضاءت لهم فأبصروا وعرفوا طفئت تلك الأنوار، وبقوا في الظلمات لا يبصرون، قد سدت عليهم أبواب الهدى الثلاث، فإن الهدى يدخل إلى العبد من ثلاثة أبواب؛ مما يسمعه بأذنه، ويراه بعينه، ويعقله بقلبه، وهؤلاء قد سدت عليهم أبواب الهدى، فلا تسمع قلوبهم منه شيئًا، ولا تبصره، ولا تعقل ما ينفعها، وقيل: لما لم ينتفعوا بأسماعهم وأبصارهم وقلوبهم نزلوا بمنزلة من لا سمع له ولا بصر ولا

(١) انظر: الوسيط، سيد طنطاوي ٥/ ٢٣٧١.

عقل، والقولان متلازمان.

وقال في صفتهم: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨]؛ لأنهم قد رأوا في ضوء النهار، وأبصروا الهدى، فلما طفئت عنهم لم يرجعوا إلى ما رأوا وأبصروا، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

ولم يقل: ذهب نورهم، وفيه سر بديع؛ وهو انقطاع سر تلك المعية الخاصة التي هي للمؤمنين من الله تعالى، فإن الله تعالى مع المؤمنين، وإن الله مع الصابرين، وإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، فذهاب الله بذلك انقطاع لمعيته التي خص بها أولياءه، فقطعها فيما بينه وبين المنافقين، فلم يبق عندهم بعد ذهاب نورهم ولا معهم.

وتأمل قوله تعالى: ﴿أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧].

كيف جعل ضوءها خارجًا عنه منفصلًا، ولو اتصل ضوؤها به ولابسه لم يذهب، ولكنه كان ضوءه مجاورةً لا ملابسة ومخالطة، وكان الضوء عارضًا، والظلمة أصلية، فرجع الضوء إلى معدنه، وبقيت الظلمة في معدنها، فرجع كل منهما إلى أصله اللائق به، حجة من الله قائمة، وحكمة بالغة، تعرف بها إلى أولي الألباب من عباده.

وتأمل قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

ولم يقل: بنارهم؛ ليطابق أول الآية، فإن النار فيها إشراق وإحراق، فذهب بما فيها من الإشراق وهو ، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق وهو النارية.

وتأمل كيف قال: ﴿بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧] ولم يقل: (بضوئهم) مع قوله: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧].

لأن الضوء هو زيادة في ، فلو قيل: ذهب الله بضوئهم لأوهم الذهاب بالزيادة فقط دون الأصل، فلما كان أصل الضوء كان الذهاب به ذهابًا بالشيء وزيادته، و أيضًا فإنه أبلغ في النفي عنهم، وأنهم من أهل الظلمات الذين لا نور لهم، و أيضًا فإن الله تعالى سمى كتابه نورًا، ورسوله نورًا، ودينه نورًا، وهداه نورًا، ومن أسمائه ، والصلاة نور، فذهابه سبحانه بنورهم ذهاب بهذا كله.

وتأمل مطابقة هذا المثل لما تقدمه من قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٦].

كيف طابق هذه التجارة الخاسرة التي تضمنت حصول الضلالة والرضا بها، وبذل الهدى في مقابلتها، وحصول الظلمات التي هي الضلالة والرضا بها بدلًا عن الذي هو الهدى و، فبدلوا الهدى و، وتعوضوا عنه بالظلمة والضلالة، فيا لها من تجارة، ما أخسرها! وصفقة ما أشد غبنها!

وتأمل كيف قال الله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ

﴿بِنُورِهِمْ﴾ فوحد، ثم قال: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ فجمع الظلمة، فإن الحق واحد، وهو صراط الله المستقيم الذي لا صراط يوصل إليه سواه، وهو عبادته وحده لا شريك له، بما شرعه على لسان رسوله، لا بالأهواء والبدع وطرق الخارجين عما بعث الله به رسوله من الهدى ودين الحق، بخلاف طرق الباطل فإنها متعددة متشعبة.

ولهذا يفرد سبحانه الحق، ويجمع الباطل، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فجمع سبل الباطل، ووحد سبيل الحق، ولا يناقض هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦].

فإن تلك هي طرق مرضاته التي يجمعها سبيله الواحد، وصراطه المستقيم، فإن طرق مرضاته كلها ترجع إلى صراط واحد، وسبيل واحد، وهو سبيله التي لا سبيل إليه إلا منها...، وقد قيل: إن هذا مثل للمنافقين وما يوقدونه من نار الفتنة التي يوقعونها بين أهل الإسلام، ويكون بمنزلة قول الله تعالى: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويكون قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

مطابقًا لقوله تعالى: ﴿أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ [المائدة: ٦٤].

ويكون تخييبهم، وإبطال ما راموه هو تركهم في ظلمات الحيرة لا يهتدون إلى التخلص مما وقعوا فيه، ولا يبصرون سبيلًا، بل هم صم بكمٌ عمي، وهذا التقدير وإن كان حقًا ففي كونه مرادًا بالآية نظر، فإن السياق إنما قصد غيره، ويأباه قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ [البقرة: ١٧].

وموقد نار الحرب لا يضيء ما حوله أبدًا، ويأباه قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

وموقد نار الحرب لا نور له، ويأباه قوله تعالى: ﴿وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [البقرة: ١٧].

وهذا يقتضي أنهم انتقلوا من نور المعرفة والبصيرة إلى ظلمة الشك والكفر، قال الحسن رحمه الله: هو المنافق أبصر ثم عمي، وعرف ثم أنكر؛ ولهذا قال: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٨].

أي: لا يرجعون إلى الذي فارقوه، وقال تعالى -في حق الكفار-: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ

﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٧١].

فسلب العقل عن الكفار؛ إذ لم يكونوا من أهل البصيرة والإيمان، وسلب الرجوع عن المنافقين؛ لأنهم آمنوا ثم كفروا فلم يرجعوا إلى الإيمان[(١)].

وأيضًا في إسناد ذهب في قوله: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ [البقرة: ١٧].

إشعار بأن الذي سلب عنهم لن يستطيع أحد أن يرده عليهم؛ لأن الذي سلبه عنهم إنما هو الله الغالب على أمره. أو لأنه حصل بلا سبب من ريح أو مطر أو إطفاء مطفئ، والعرب يسندون الأمر الذي لم يتضح سببه لاسم الله تعالى.

المثل المائي:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩].

وقال تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُم مَّشَوْا فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٠].

هذا مثل آخر مائي ضربه الله سبحانه للمنافقين، فقال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩].

فشبه نصيبهم مما بعث الله تعالى به رسوله من والحياة بنصيب المستوقد النار التي طفئت عنه أحوج ما كان إليها، وذهب نوره، وبقي في الظلمات حائرًا تائهًا، لا يهتدي سبيلًا، ولا يعرف طريقًا، وبنصيب أصحاب الصيب وهو المطر الذي يصوب، أي: ينزل من علو إلى أسفل، فشبه الهدى الذي هدى به عباده بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، ونصيب المنافقين من هذا الهدي بنصيب من لم يحصل له نصيب من الصيب إلا ظلمات ورعد وبرق، ولا نصيب له فيما وراء ذلك، مما هو المقصود بالصيب من حياة البلاد والعباد والشجر والدواب، وإن تلك الظلمات التي فيه، وذلك الرعد والبرق مقصود لغيره، وهو وسيلة إلى كمال الانتفاع بذلك الصيب، فالجاهل لفرط جهله يقتصر على الإحساس بما في الصيب من ظلمة ورعد وبرق ولوازم ذلك من برد شديد، وتعطيل مسافر عن سفره، وصانع عن صنعته، ولا بصيرة له تنفذ إلى ما يؤول إليه أمر ذلك الصيب من الحياة والنفع العام.

وهكذا شأن كل قاصر النظر ضعيف العقل لا يجاوز نظره الأمر المكروه الظاهر إلى ما وراءه من كل محبوب، وهذه حال أكثر الخلق إلا من صحت بصيرته، فإذا رأى ضعيف البصيرة ما في الجهاد من التعب والمشاق والتعرض لإتلاف المهجة والجراحات الشديدة، وملامة اللوام، ومعاداة من يخاف معاداته لم يقدم عليه؛ لأنه لم يشهد ما يؤول إليه من العواقب الحميدة، والغايات التي إليها تسابق المتسابقون، وفيها تنافس المتنافسون،

(١) التفسير القيم، ابن القيم ص ١٨٠.

وكذلك من عزم على سفر الحج إلى البيت الحرام فلم يعلم من سفره ذلك إلا مشقة السفر، ومفارقة الأهل والوطن، ومقاساة الشدائد، وفراق المألوفات، ولا يجاوز نظره ويصيرته آخر ذلك السفر ومآله وعاقبته، فإنه لا يخرج إليه، ولا يعزم عليه، وحال هؤلاء حال ضعيف البصيرة والإيمان الذي يرى ما في القرآن من الوعد والوعيد، والزواجر والنواهي، والأوامر الشاقة على النفوس، التي تفطمها عن رضاعها من ثدي المألوفات والشهوات، والفطام على الصبي أصعب شيء وأشقه، والناس كلهم صبيان العقول إلا من بلغ مبالغ الرجال العقلاء الألباء، وأدرك الحق علمًا وعملًا ومعرفة، فهو الذي ينظر إلى ما وراء الصيب، وما فيه من الرعد والبرق والصواعق، ويعلم أنه حياة الوجود[1].

قال الزمخشري: «لقائل أن يقول: شبه دين الإسلام بالصيب؛ لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر، وما يتعلق به من تشبه الكفار بالظلمات، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق، وما يصيب الكفرة من الأفزاع من البلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق، والمعنى: أو كمثل ذوي صيب، والمراد: كمثل قوم أخذتهم السماء على هذه الصفة، فلقوا منها ما لقوا...» قال:

فإن قلت: أي المثلين أبلغ؟ قلت: الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأمر وفظاعته؛ ولذلك أخر، وهم يتدرجون في مثل هذا من الأهون إلى الأغلظ»[2].

بيت العنكبوت:

ومما يبين جمال الأمثال القرآنية وبلاغتها قوله تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

يقول الحق جل جلاله: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أصنامًا يعبدونها، أي: مثل من أشرك بالله الأوثان في الضعف وسوء الاختيار ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ أي: كمثل العنكبوت فيما تتخذه لنفسها من بيت، فإنه لا يدفع الحر والبرد، ولا يقي ما تقي البيوت، فكذلك الأوثان لا تنفعهم في الدنيا والآخرة، بل هي أوهى وأضعف، فإن لبيت العنكبوت حقيقةً وانتفاعًا عامًا، وأما الأوثان فتضر ولا تنفع ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ أي: أضعفها ﴿لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيت أوهن من بيته؛ إذ أضعف شيء يسقطها[3].

وهذه الهيئة المشبه بها مع الهيئة المشبهة قابلة لتفريق التشبيه على أجزائها،

---

(١) المصدر السابق ص١٨٣.

(٢) الكشاف ١/ ٤٧.

(٣) البحر المديد، ابن عجيبة ٢٠/ ٢٥٣.

فالمشركون أشبهوا العنكبوت في الغرور بما أعدوه، وأولياؤهم أشبهوا بيت العنكبوت في عدم الغناء عمن اتخذوها وقت الحاجة إليها، وتزول بأقل تحريك وأقصى ما ينتفعون به منها نفع ضعيف، وهو السكنى فيها، وتوهم أن تدفع عنهم كما ينتفع المشركون بأوهامهم في أصنامهم، وهو تمثيل بديع من مبتكرات القرآن.

وجملة: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾[العنكبوت: ٤١].

معترضة مبينة وجه الشبه، وهذه الجملة تجري مجرى المثل، فيضرب لقلة جدوى شيء، فاقتضى ذلك أن الأديان التي يعبد أهلها غير الله هي أحقر الديانات وأبعدها عن الخير والرشد، وإن كانت متفاوتة فيما يعرض لتلك العبادات من الضلالات، كما تتفاوت بيوت العنكبوت في غلظها بحسب تفاوت الدويبات التي تنسجها في القوة والضعف[(١)].

ولماذا لم يقل: أوهن الخيوط خيط العنكبوت؟ فلو كان القرآن من عند محمد صلى الله عليه وسلم لقال ذلك؛ ولكن هذا يخالف الحقيقة العلمية الثابتة بأن خيط العنكبوت أقوى من مثيله من الفولاذ، فكان التعبير الدقيق ﴿أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ﴾ [العنكبوت: ٤١][(٢)].

موضوعات ذات صلة:

التدبر، التفكر، العقل

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٠/ ٢٥٣.

(٢) انظر: المفصل في الرد على شبهات أعداء الإسلام، علي الشحود ٦/ ٢٥١.



عناصر الموضوع

مفهوم الامر	٦٢
الأمر في الاستعمال القرآني	٦٣
الالفاظ ذات الصلة	٦٤
الأمر الإلهي في القرآن	٦٦
التعامل مع الامر الإلهي وجزاؤه	٧٦
الامر الإنساني وجزاء اتباعه	٩٣
جزاء اتباع الأمر الإنساني	١٠٦
اوامر إبليس وذريته	١١١

مفهوم الأمر

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمر: الشأن، وجمعه أمور، ومصدر أمرته: إذا كلفته أن يفعل شيئًا، وهو لفظ عام للأفعال والأقوال كله[1]؛ يقال: أمر فلانٍ مستقيمٌ وأموره مستقيمةٌ، وإذا أمرت من أمر قلت: مر، وأصله أؤمر، فلما اجتمعت همزتان، وكثر استعمال الكلمة حذفت الهمزة الأصلية فزال الساكن فاستغني عن الهمزة الزائدة، والهمزة والميم والراء أصولٌ خمسةٌ: الأمر من الأمور، والأمر ضد النهي، والأمر النماء والبركة بفتح الميم، والمعلم، والعجب[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الأمر في الاصطلاح: طلب الفعل على جهة الاستعلاء، أو هو: «طلب الفعل بالقول على سبيل الاستعلاء»[3]، وعرف الجرجاني الأمر بقوله: «قول القائل لمن دونه: افعل»[4].

ومن خلال ما سبق يتضح أن العلاقة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي هي علاقة العموم والخصوص، فالأمر في اللغة ينصرف على عدة معانٍ متباينة، أما الأمر في الاصطلاح فقد أتى بمعنى اصطلاحي يقتصر عليه.

(١) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٨٨.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ١٣٧، لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٢٧.
(٣) المحصول، الرازي، ٣/ ١٧، الإحكام في أصول الأحكام، الآمدي، ٢/ ١٤٠.
(٤) التعريفات، ص ٣٧.



الأمر في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أمر) في القرآن (٢٤٨) مرة، يخص موضوعنا منها (٨٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١	﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾[الأعراف:١٢]
الفعل المضارع	٤٠	﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[هود:٨٧]
فعل الأمر	٥	﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴿١٩٩﴾﴾ [الأعراف:١٩٩]
اسم الفاعل	١	﴿الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [التوبة:١١٢]
صيغة المبالغة	١	﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ۚ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾[يوسف:٥٣]
المصدر	٧	﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾﴾ [الأنعام:٨]

وجاء الأمر الذي جمعه أوامر في الاستعمال القرآني بمعنى: استدعاء الفعل بالقول من الأعلى إلى الأدنى[٢]. ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ [النساء:٥٨].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبد الباقي ص٧٨-٧٩.

(٢) انظر: نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص١٧٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ النهي:

النهي لغة:

النهي ضد الأمر، ونهاه عن كذا ينهاه نهيًا، أي: كف. . .، ونهى صديقه عن الخيانة، منعه وحذره منها[١].

النهي اصطلاحًا:

النهي: ضد الأمر وهو: اللفظ المستعمل لطلب الترك على وجه الاستعلاء[٢].

الصلة بين الأمر والنهي:

أن النهي يشترك مع الأمر في الدلالة على الطلب، إلا أن الأمر يراد منه طلب الفعل والإتيان به، أما النهي فيراد منه النهي عن الفعل والزجر عنه، فالنهي باعتبار اشتمال متعلقه على مفسدة كان مطلوب الترك، والأمر باعتبار اشتمال متعلقه على مصلحة كان مطلوب الفعل.

٢ الخبر:

الخبر لغة:

قال ابن فارس: الخاء والباء والراء أصلان: فالأول العلم، والثاني يدل على لينٍ ورخاوةٍ وغزرٍ[٣].

الخبر اصطلاحًا:

الخبر: هو الكلام المحتمل للصدق والكذب، والخبر: العلم بالأشياء المعلومة من جهة الخبر، وفي الاصطلاح القرآني: ما يعبر به عن واقعة معينة[٤].

الصلة بين الأمر والخبر:

الأمر: طلب الفعل على وجه الاستعلاء، والخبر: الكلام المحتمل للصدق والكذب، ونلاحظ أن هناك علاقة مترابطة بين المصطلحين، فالخبر يتضمن الأمر، والأمر يشمل الخبر وغيره.

(١) انظر: المفردات، الراغب، ١/ ٨٢٧، المصباح المنير، الفيومي، ٣/ ٦٢٩.
(٢) انظر: التعريفات، الجرجاني، ١/ ٢٤٨.
(٣) مقاييس اللغة، ٢/ ٢٣٩.
(٤) انظر، المفردات، الراغب، ٢٧٣ التعريفات، الجرجاني، ١/ ٩٦.

٣ الدعاء:

الدعاء لغة:

مأخوذ من مادة (د ع و) التي تدل في الأصل على إمالة الشيء إليك بصوت وكلام يكون منك، ومن هذا الأصل الدعاء في معنى الرغبة إلى الله عز وجل، وهو واحد الأدعية، والفعل من ذلك دعا يدعو، والمصدر الدعاء والدعوى[(١)].

الدعاء اصطلاحًا:

هو سؤال العبد ربه حاجته.

وقيل: طلب الأدنى من الأعلى تحصيل الشيء[(٢)].

الصلة بين الدعاء والأمر:

الفرق بين الدعاء والأمر أن في الأمر ترغيبًا في الفعل، وزجرًا عن تركه، وله صيغة تنبئ عنه، وليس كذلك الدعاء، وكلاهما طلب، وأيضًا فإن الأمر يقتضي أن يكون المأمور دون الآمر في الرتبة[(٣)].

---

(١) انظر: الصحاح، الجوهري ٦/ ٢٣٣٧، مقاييس اللغة، ابن فارس ٢/ ٢٨٠.
(٢) انظر، نزهة الأعين، ابن الجوزي ١/ ٢٩٢.
(٣) الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٣١.

الأمر الإلهي في القرآن

بين القرآن الكريم أنواع الأمر الإلهي، وتفرد الله تعالى بالخلق والأمر، وسوف يتناول البحث ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الله سبحانه وتعالى له الخلق والأمر:

إن العقل السليم قاضٍ لا محالة بأن الموجود لابد له من موجد ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥].

وأن المخلوق لابد له من خالق، وأن الكون لابد له من مدبر، ولا محالة بأن يكون الخالق غير المخلوق في صفاته وذاته وأفعاله، وأن هذا الخالق من مقتضيات ألوهيته وربوبيته أنه له الخلق والأمر، الإيجاد والتدبير والحساب والجزاء، فهو سبحانه المتحكم في الأكوان والعقول والقلوب وسائر الموجودات والأشياء، وبالجملة فإنه ﴿لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الزمر: ٦٣].

فالله سبحانه خالق الكون ومدبره.

قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

والخلق: إيجاد الشيء من العدم، والأمر: التدبير والتصرف على حسب الإرادة لما خلقه، فهو سبحانه الخالق والمدبر للعالم على حسب إرادته وحكمته، لا شريك له في ذلك، فهو سبحانه هو الذي خلق الأشياء كلها، ويدخل في ذلك السموات والأرض وغيرهما، وهو الذي دبر هذا الكون على حسب إرادته[1].

يقول الإمام ابن عاشور: «والتعريف في الخلق والأمر تعريف الجنس، فتفيد الجملة قصر جنس الخلق وجنس الأمر على الكون في ملك الله تعالى، فليس لغيره شيء من هذا الجنس، وهو قصر إضافي معناه: ليس لآلهتهم شيء من الخلق ولا من الأمر، وأما قصر الجنس في الواقع على الكون في ملك الله تعالى فذلك يرجع فيه إلى القرائن، فالخلق مقصور حقيقة على الكون في ملكه تعالى، وأما الأمر فهو مقصور على الكون في ملك الله قصرًا ادعائيًا؛ لأن لكثير من الموجودات تدبير أمور كثيرة، ولكن لما كان المدبر مخلوقًا لله تعالى كان تدبيره راجعًا إلى تدبير الله»[2].

ففي الآية دليل على أنه لا خالق إلا الله عز وجل، ففيه رد على من يقول: إن للشمس والقمر والكواكب تأثيرات في هذا العالم، فأخبر الله أنه هو الخالق المدبر لهذا العالم لا الشمس والقمر والكواكب، وله الأمر المطلق، وليس لأحد أمر غيره، فهو الأمر

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ١٦٩.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ١٦٩.

والناهي الذي يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لا اعتراض لأحد من خلقه عليه، ويدخل في ذلك السماوات والأرض والشمس والقمر والليل والنهار دخولًا أوليًا، فهو الذي دبرها وصرفها على حسب إرادته[1].

فقوله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فيه ما يسمى (إيجاز قصر) وهو جمع المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة، فالآية أرشدت أن الله عز وجل هو المنفرد بقدرة الإيجاد، وخالق السماوات والأرض، فهو الذي يجب أن يعبد؛ ولهذا عندما سئل المشركون عن المدبر والخالق لهذا الكون بما يحويه من سماء وأرض ونجوم وجبال وشجر، فكان الجواب بدون تردد بأنه هو الحق سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١][2].

فهو يدبر أمر ملكه بما اقتضاه علمه من النظام، واقتضته حكمته من الإحكام، ولا يستنكر من رب هذا الخلق المدبر لأمور عباده أن يفيض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه، ما يهديهم به لما فيه كمالهم من عبادته وشكره؛ وبذلك تصلح أنفسهم، وتطهر قلوبهم، وتستنير أفئدتهم؛ لتتم لهم بذلك الحياة السعيدة في الدنيا، والنعيم المقيم في الآخرة، كما لا يستنكر أن هذا الوحي منه عز وجل إذ هو من كمال تقديره وتدبيره، ولا يقدر عليه سواه[3].

فالخالق المدبر له ﴿الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

يقضي في خلقه ما يشاء، ويحكم ما يريد، ويظهر من شاء منهم على من أحب إظهاره عليه، فلله الأمر من قبل ومن بعد، فإياك أن تظن أن انتصار الباطل جاء غصبًا عن إرادة الله، أو خارجًا عن مراده، إنما أراده الله وقصده لحكمة، يعني: إياكم أن تفهموا أن انتصار الفرس على الروم، أو انتصار الروم على الفرس خارج عن مرادات الله، فلله الأمر من قبل الغلب، ولله الأمر من بعد الغلب، فحين غلبت الروم لله الأمر، وحين انتصرت الفرس لله الأمر؛ لأن الحق سبحانه يهيج أصحاب الخير بأن يغلب أصحاب الشر، ويحرك حميتهم، ويوقظ بأعدائهم مشاعرهم، وينبههم إلى أن الأعداء لا ينبغي أن يكونوا أحسن منهم[4].

فقوله سبحانه: ﴿لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾ [الروم: ٤].

(١) التفسير المنير، الزحيلي ٣/ ٢٣٠.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٢٠٩.
(٣) تفسير المراغي ١١/ ٦٣.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢/ ٦٦ .

جملة معترضة لبيان قدرة الله تعالى التامة النافذة، فليس الغلبة والنصر لمجرد وجود الأسباب، وإنما هي لابد أن يقترن بها القضاء والقدر[(١)].

قال ابن كثير: «وقد كانت نصرة الروم على فارس يوم وقعة بدر، في قول طائفة كبيرة من العلماء...، فلما انتصرت الروم على فارس فرح المؤمنون بذلك؛ لأن الروم أهل كتاب في الجملة، فهم أقرب إلى المؤمنين من المجوس، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، كما هو عند جمهور المفسرين»[(٢)].

فالحق سبحانه ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾[الرعد: ٢].

فالتدبير والتفصيل متجدد متكرر بتجدد تعلق القدرة بالمقدورات، وتدبير الأمر: تصريفه على أحسن الوجوه وأحكمها وأكملها، والآيات: جمع آية، والمراد بها هنا: ما يشمل الآيات القرآنية، والبراهين الكونية الدالة على وحدانيته وقدرته سبحانه.

أي: أنه سبحانه يقضي ويقدر ويتصرف في أمر خلقه على أكمل الوجوه، ومن تدبيره لأمور خلقه، ومن تفصيله للآيات لعلكم عن طريق التأمل والتفكير فيما خلق توقنون بلقائه، وتعتقدون أن من قدر على إيجاد هذه المخلوقات العظيمة لا يعجزه أن يعيدكم إلى الحياة بعد موتكم؛ لكي يحاسبكم على أعمالكم[(٣)].

فالحق يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه، فالله سبحانه وتعالى تصير إليه جميع الأمور ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[آل عمران: ١٠٩].

وهو المجازي على الأعمال بالثواب والعقاب.

ففيه دليل على كمال القدرة والرحمة؛ لأن جميع العالم محتاجون إلى تدبيره ورحمته، داخلون تحت قهره وقضائه وقدرته ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾[الرعد: ٢].

يعني: أنه تعالى يبين الآيات الدالة على وحدانيته وكمال قدرته، ومنها الموجودات المشاهدة، وهي خلق السماوات والأرض وما فيهما من العجائب، وأحوال الشمس والقمر وسائر النجوم والموجودات الحادثة في العالم، وهي الموت بعد الحياة، والفقر بعد الغنى، والضعف بعد القوة، إلى غير ذلك من أحوال هذا العالم، وكل ذلك مما يدل على وجود الصانع، وكمال قدرته[(٤)].

---

(١) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٦/ ٣١٠.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٣٠٣.
(٣) انظر: التفسير الوسيط، طنطاوي ٧/ ٤٤٠.
(٤) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٣/ ٤.

فله تعالى القدرة المطلقة ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ [الرعد: ٣١].

أي: لو ثبت أن قرآنًا يقرأ ويتلى سيرت به الجبال، فانتقلت من أماكنها، وانفسحت عن شعابها لتتسع رقعة للزرع والغراس، أو قطعت الأرض فتشققت، لا تكون منها بحار تجري فيها المياه، أو يكلم به الموتى بمعنى أنه يحييها، ثم يكلمها، ولكن الكلام لا يسير الجبال، ومع ذلك فهو أقوى تأثيرًا، وكان يمكن أن يؤثر في قلوب المشركين بأشد من ذلك، لولا أن عنادهم حجر قلوبهم، وكما قال سبحانه: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] ولكن القلوب التي سكنها الشرك والكفر، وهي كالحجارة أو أشد قسوة، بل لله الأمر جميعًا، الإضراب للانتقال بين هذا إلى بيان أن اختيار المعجزات من أمر الله، وله وحده كل الأمر، أي: أن الإضراب متوجه إلى ما يؤدي إليه كون الأمر لله سبحانه، ويستلزمه من توقف الأمر على ما تقتضيه حكمته ومشيئته[1].

فمما لايشك فيه شاك، ولا يرتاب فيه مرتاب بأن ﴿ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

فالقضاء والقدر خيره وشره، حلوه ومره بيد الله، وجميع الأمور لله سبحانه وتعالى، فالحكم والشأن المتعلق بعموم ما يكون وما كان كله لله، مستند إليه أولًا، وبالذات بلا رؤية الأسباب والوسائل[2].

وبهذه الآيات وغيرها يثبت أن الخالق المدبر الموجد لجميع العوالم هو الحق سبحانه وتعالى القادر المقتدر، بيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر، والله وأعلم.

ثانيًا: أنواع الأمر الإلهي:

١ . الأمر القدري الكوني.

يتمثل في أمر الإنشاء والتكوين والإيجاد. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨].

يعني: فإذا قضى وقدر أمرًا يريد إنفاذه وإيجاده وإنشاءه، وإخراج المخلوق من العدم، فإنما يقول له: كن فيكون، ويوجد من غير توقف على شيء آخر، ولا معاناة ولا كلفة، أي: إن كل مخلوق يوجد بإرادة الله وحده، مما يدل على وجوده سبحانه، وبهذا يتبين أن إيجاد المخلوق يعتمد على أمرين: الأمر الإلهي بالإيجاد (أي الأمر القدري الكوني) وتلبس القدرة الإلهية بإيجاده وإظهاره، لا قبل ذلك، ففي حال العدم لا يظهر الشيء؛ إذ لا يوجد الأمر، ولا شيء بعد الإيجاد؛ لأن ما هو كائن لا يقال

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٨/ ٣٩٥٢ .

(٢) الفواتح الإلهية، الشيخ علوان ١/ ١٣٠ .

له: كن[١].

وقال عز من قائل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٣٦].

فالمراد من الأمر هنا الأمر التكويني.

أي: إنما شأنه تعالى في إيجاد الأشياء أن يقول لما يريد إيجاده: تكون فيتكون، ويحدث فورًا بلا تأخير[٢].

وعن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله يقول: يا عبادي، كلكم مذنب إلا من عافيت، فاستغفروني أغفر لكم. . .، وكلكم فقير إلا من أغنيت، فاسألوني أغنكم. . .، كذلك لا ينقص من ملكي، ذلك بأني جواد ماجد صمد، عطائي كلام، وعذابي كلام، إذا أردت شيئًا فإنما أقول له: كن، فيكون)[٣].

فالآيتان تنبهان على قدرة الله في الإحياء والإماتة، وعلى سرعة إنجاز الخلق والتكوين بمجرد إرادة الله الفعل.

٢. الأمر الشرعي الديني.

يتمثل الأمر الشرعي الديني في أمر الحق سبحانه وتعالى، وكذلك أمر النبي صلى الله عليه وسلم للعباد بالإيمان، والتوحيد، وأداء العبادات، والتكاليف الشرعية، والأمر بالتمسك بالأخلاق والقيم، فالأمر الشرعي الديني يشمل الأمر العلمي (الاعتقادي) والعملي (التكليفي) والتهذيبي (الأخلاقي).

وبالجملة يشمل كل ما هو مطلوب من العباد في جميع المجالات، وعلى كل الأصعدة، أي سواء أكانت تلك الأوامر متعلقة بمطلوب يتعلق بعلاقة العبد بربه، أو علاقته بغيره من البشر، أو علاقته بنفسه وذاته التي بين جنبيه، أم غير ذلك، فكل ما هو مطلوب من العبد يدخل تحت الأمر الشرعي[٤].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

بيان لما أمر به اليهود والنصارى من التوحيد والإخلاص لله بعد أن ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وبين الحق ما أمر به النبي من قبل الحق سبحانه وتعالى ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

---

(١) التفسير الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢٢٨٤.

(٢) تفسير المراغي ٢٢/ ٣٩.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٥/ ٢٩٤، رقم ٢١٣٦٧، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، ٤/ ٢٣٨، رقم ٢٤٩٥، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب ذكر التوبة، ٢/ ١٤٢٢، رقم ٤٢٥٧. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع ٢/ ٩٣٤، رقم ٦٤٣٧.

(٤) ويدخل في هذا النوع كل الأوامر في القرآن والتي يطلب الحق، سبحانه وتعالى، من عباده الإتيان بها سواء أكانت بلفظ الأمر ومشتقاته أو بأي صيغة أخرى تدل على طلب الفعل.

فأمر النبي بعبادة الله، والإخلاص له، وهذا الأمر تدخل فيه الأمة المحمدية أيضًا، فهذا أمر شرعي ديني علمي أو اعتقادي، وقال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَوٰةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

فهنا أمرٌ للنبي بأمر أهله بالصلاة والصبر عليها، والصلاة من التكاليف العملية، فهذا أمر شرعي ديني تكليفي.

٣. الأمر الجزائي.

يتمثل في الجزاء المترتب على اتباع الأمر أو مخالفته، سواء أكان الجزاء دنيويًا أو أخرويًا، أي: حاضرًا أو مؤجلًا.

ومنه قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾[الأنعام: ١٥٩].

أي: إنما أمرهم إلى الله يتولى جزاءهم، ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون بالعقاب، إذا وردوا للقيامة[١].

ومثله: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦].

أي: فلما جاء أمرنا بإنزال العذاب بهم في الوقت المحدد نجينا صالحًا والذين آمنوا معه برحمة عظيمة كائنة منا[٢].

فأمر الله تمثل في الجزاء الذي لحق بهم، وهو الهلاك والدمار لعدم إيمانهم بالله ورسوله، والأمر الجزائي قد يكون أخرويًا كما في المثال الأول، وقد يكون دنيويًا كما في الثاني.

هذا عن مخالفة الأمر الإلهي، أما اتباع الأمر الإلهي فيكون له جزاء (إيجابي) هو الآخر كنتيجة طبيعية لتنفيذه، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[آل عمران: ١٠٤].

يعني: ﴿وَأُولَٰئِكَ﴾ الداعون إلى الخير، الآمرون بالمعروف، الناهون عن المنكر ﴿هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فمقتضى القيام بحق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنه يؤدي إلى الفلاح في الدنيا والآخرة، ففي النص قصر، أي: نفي وإثبات، فهو يثبت الفلاح لهم، وينفي الفلاح عن غيرهم ممن لم يقم بهذا الواجب المقدس[٣].

ثالثًا: صفات الأمر الإلهي:

من خلال تتبع النصوص التي بينت الأمر الإلهي نجد أنه يتميز بعدة صفات أساسية:

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٣/ ٢١٠، أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ١٩١.

(٢) انظر: الوسيط، طنطاوي ٧/ ٢٣٦.

(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٣٤٨.

١ . القسط.

وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾[الأعراف: ٢٩].

وهذا بيانٌ للمأمور به، وهو العدل، يقول تعالى ذكره لنبيه: ﴿قُلۡ﴾ يا محمد لهؤلاء الذين يزعمون أن الله أمرهم بالفحشاء كذبًا على الله: ما أمر ربي بما تقولون، بل ﴿أَمَرَ رَبِّي بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ يعني: بالعدل، هو الوسط من كل أمر، المتجافي عن طرفي الإفراط والتفريط[١] ولهذا فـ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢، الحجرات: ٩، الممتحنة: ٨].

وفيه أن الله سبحانه يأمر بالعدل لا كما زعم المشركون والكفار من أن الله أمرهم بالفحشاء، أي: قل أمر ربي بالقسط فأطيعوه واتبعوه، فالحق سبحانه وتعالى من صفات أمره أنه يأمر عباده في هذا القرآن بالعدل والإنصاف، فيجب أن نكون نحن -من جانبنا- من العادلين في حقه بتوحيده، وعدم الإشراك به، قال أبو سليمان: العدل في كلام العرب: الإنصاف، وأعظم الإنصاف: الاعتراف للمنعم بنعمته، وفي حق عباده بإعطاء كل ذي حق حقه[٢].

فالله أمر بالفضائل، وبما تشهد العقول السليمة أنه صلاح محض، وأنه حسن مستقيم، فالقصاص من القاتل عدل بين إحلال الدماء وبين قتل الجماعة من قبيلة القاتل لأجل جناية واحد من القبيلة لم يقدر عليه، وأمر الله بالإحسان وهو عدل بين الشح والإسراف، فالقسط صفة للفعل في ذاته بأن يكون ملائمًا للصلاح عاجلًا وآجلًا، أي: سالمًا من عواقب الفساد[٣].

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النحل: ٩٠].

وإيثار صيغة المضارع في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ﴾ لإفادة التجدد والاستمرار، ولم يذكر سبحانه متعلقات العدل والإحسان؛ ليعم الأمر جميع ما يعدل فيه، وجميع ما يجب إحسانه وإتقانه من أقوال وأعمال، وجميع ما ينبغي أن تحسن إليه من إنسان أو حيوان أو غيرهما[٤].

٢ . الظهور.

ويوضحه قوله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ﴾ [التوبة: ٤٨].

قال ابن كثير: «لما قدم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة رمته العرب عن قوس

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٧٩، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ١٠.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٥٧٩.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٦.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٨/ ٢٢٠.

واحدة، وحاربته يهود المدينة ومنافقوها، فلما نصره الله يوم بدر، وأعلى كلمته، قال ابن أبي وأصحابه: هذا أمر قد توجه -أي أقبل- فدخلوا في الإسلام ظاهرًا، ثم كلما أعز الله الإسلام وأهله أغاظهم ذلك وساءهم»[1].

فالمنافقون والمشركون يكيدون المكائد، ويدبرون المؤامرات ويحيكونها ضد النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه، إلى غاية هي مجيء الحق، وهو النصر لك والتأييد، وظهر أمر الله بإعزاز دينه، وإعلاء شرعه، وقهر أعدائه، وقيل: الحق القرآن، وهم كارهون، أي: والحال أنهم كارهون لمجيء الحق، وظهور أمر الله، ولكن كان ذلك على رغم منهم، فلن تفلح مكائد البشر من منافقين ويهود ومشركين وغيرهم، ولن تقف أي قوة في الدنيا أمام إرادة الله القاهرة لإعلاء دينه، وغلبة شرعه، ونصرة نبيه صلى الله عليه وسلم[2].

٣. النفاذ.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ ءَامِنُوا۟ بِمَا نَزَّلْنَا مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُم مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعَنَّآ أَصْحَٰبَ ٱلسَّبْتِ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء:٤٧]

فهنالك وعيد لليهود، ونذير راصد لهم باللعنة من عند الله، إن لم يؤمنوا بمحمد، وبما أنزل الله عليه، وقد وصفهم القرآن بأنهم أوتوا الكتاب مع أنهم ضيعوا جزءًا منه، وحرفوا جزءًا آخر تسجيلًا عليهم بالتقصير، واستحقاق العقاب، فهم يظنون أن الله مخلف وعيده لهم؛ لأنهم - كما زعموا- أبناء الله وأحباؤه، وكيف وقد وقع هذا العقاب بآبائهم وأخذهم الله به؟ أم يظنون أن الله إذا أراد أمرًا بهم، وساق شرًّا إليهم أهناك من يدفع ما أراده الله بهم؟ فليتنظروا، وسوف يرون ما الله فاعل بهم[3].

وكان أمر الله بإيقاع شيء أو وعيده، أو ما حكم به وقضاه مفعولًا نافذًا وكائنًا، فيقع لا محالة ما أوعد وقضى به، فقوله: ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ معناه: أنه كان وما زال جميع ما أمر الله به وقضاه نافذًا لا محالة؛ لأنه سبحانه لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

فالجملة الكريمة تذييل قصد به تهديد هؤلاء الضالين المعاندين حتى يثوبوا إلى رشدهم، ويدخلوا في صفوف المؤمنين[4].

فالمراد من الأمر: الأمر التكويني المعبر عنه بقوله عز من قائل: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٦١.
(٢) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٤١٩، التفسير المنير، الزحيلي ١٠/ ٢٤٠.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٣/ ٨١١.
(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٧٧.

﴿شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أي: إنما أمره بإيقاع شيء ما[1] لابد من وقوعه، أي: ولابد أن يحدث.

٤. أمر الله له الغلبة.

ويشير إلى ذلك قوله: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: ٢١].

قيل: الهاء في ﴿أَمْرِهِۦ﴾ كناية عن الله تعالى، يقول: إن الله غالب على أمره يفعل ما يشاء، لا يغلبه شيء ولا يرد حكمه راد، يعني: غالبٌ على ما أراد من قضائه، لا يغلب غالبٌ على أمره، ولا يبطل إرادته منازعٌ.

فهو غالب على أمر نفسه فيما يريده ﴿أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

أي: إذا أراد شيئًا فلا يرد ولا يمانع ولا يخالف، بل هو الغالب لما سواه، ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١] أن الأمر كذلك فيما يأتون ويذرون زعمًا منهم أن لهم من الأمر شيئًا، وأنى لهم ذلك؟! وأن الأمر كله لله عز وجل، أو لا يعلمون لطائف صنعه، وخفايا فضله[2].

ويقول تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

يبين القرآن الكريم ما يفتري به هؤلاء المشركين على الحق سبحانه وتعالى، ونسبتهم إليه الأحكام والشرائع الباطلة، فيقول: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ قال الطبري: «كانوا يطوفون بالبيت عراة، يقولون: نطوف كما ولدتنا أمهاتنا فتضع المرأة على قبلها النسعة أو الشيء»[3].

وقيل: كان قبيلة من العرب من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا قيل: لم تفعلون ذلك؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها.

فتأويل الكلام إذًا: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله، الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء، قبيحًا من الفعل، وهو الفاحشة[4]، وذلك تعريهم للطواف بالبيت، وتجردهم له، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم، وعوتبوا عليه، قالوا: «وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستن بسنتهم، والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه».

فيقول الله -جل ذكره- لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿قُلْ﴾ يا محمد لهم: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ﴾ خلقه ﴿بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ بقبائح الأفعال ومساويها ﴿أَتَقُولُونَ﴾ أيها الناس

(١) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي ١٠/ ٢٤٠، تفسير المراغي ٥/ ٦٥.

(٢) انظر: الوجيز، الواحدي ١/ ٥٤٢، معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٢٢٦.

(٣) جامع البيان ١٨/ ٣٧٩.

(٤) انظر: تفسير الخازن ٢/ ١٩٢.

﴿عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني: أترون على الله أنه أمركم بالتعري والتجرد من الثياب واللباس للطواف، وأنتم لا تعلمون أنه أمركم بذلك؟

فإنكم لم تسمعوا كلام الله تعالى ابتداء من غير واسطة، ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه؛ لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء، فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون؟

هذه الأفعال التي كان أهل الجاهلية يفعلونها هي في أنفسها قبيحة منكرة، فكيف يأمر الله تعالى بها، والله لا يأمر بالفحشاء، بل يأمر بما فيه مصالح العباد؛ لأن عادته سبحانه وتعالى جرت على الأمر بمحاسن الأفعال، والحث على مكارم الخصال[1].

يقول الإمام الرازي: «اعلم أنه ليس المراد منه أن القوم كانوا يسلمون كون تلك الأفعال فواحش، ثم كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها، فإن ذلك لا يقوله عاقل، بل المراد أن تلك الأشياء كانت في أنفسها فواحش، والقوم كانوا يعتقدون أنها طاعات، وأن الله أمرهم بها، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين، أحدهما: إنا وجدنا عليها آباءنا، والثاني: إن الله أمرنا بها.

أما الحجة الأولى: فما ذكر الله عنها جوابًا؛ لأنها إشارة إلى محض التقليد، وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة؛ لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة، فلو كان التقليد طريقًا حقًا للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقًا، ومعلوم أنه باطل، ولما كان فساد هذا الطريق ظاهرًا جليًا لكل أحد لم يذكر الله تعالى الجواب عنه.

وأما الحجة الثانية: وهي قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا﴾ [الأعراف: ٢٨].

فقد أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ والمعنى: أنه ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكرة قبيحة، فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها؟»[2].

وبهذا الرد القرآني دحضت أقوالهم، وتبين أن الله تعالى منزه عن الأمر بالفحشاء والمنكر والمعاصي.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٨٥.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٥ .

التعامل مع الأمر الإلهي وجزاؤه

بين القرآن أصناف الخلق في التعامل مع الأمر الإلهي، سواء كانوا ملائكة، أو رسلًا، أو مؤمنين، أو كافرين، أو منافقين، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: تعامل الملائكة مع الأمر الإلهي:

تعامل الملائكة مع الأمر الإلهي يتضح فيما يلي:

١. الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦]

يقول الإمام الطبري: «يعني: على هذه النار ملائكة من ملائكة الله، غلاظ على أهل النار، شداد عليهم، لا يخالفون الله في أمره الذي يأمرهم به، وينتهون إلى ما يأمرهم به ربهم، فليست الجملتان في معنى واحد؛ إذ معنى الأولى: أنهم يتقبلون أوامره ويلتزمونها، ومعنى الثانية: أنهم يؤدون ما يؤمرون به، ولا يتثاقلون عليه، ولا يتوانون فيه»[(١)].

وقال الألوسي: «فإن الأولى لبيان القبول باطنًا؛ فإن العصيان أصله المنع والإباء، وعصيان الأمر صفة الباطن بالحقيقة؛ لأن الإتيان بالمأمور إنما يعد طاعة إذا كان بقصد الامتثال، فإذا نفي العصيان عنهم دل على قبولهم، وعدم إبائهم باطنًا، والثانية لأداء المأمور به من غير تثاقل وتوانٍ على ما يشعر به الاستمرار المستفاد من ﴿وَيَفْعَلُونَ﴾ فلا تكرار، وفي الحصول لا يعصون فيما مضى، على أن المضارع لحكاية الحال الماضية ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ في الآتي، وجوز أن يكون ذلك من باب الطرد والعكس، وهو كل كلامين يقرر الأول بمنطوقه مفهوم الثاني وبالعكس، مبالغة في أنهم لا تأخذهم رأفة في تنفيذ أوامر الله عز وجل والغضب له سبحانه»[(٢)].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَانَهُ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

فالله تعالى يثني على ملائكته الذين زعم فريق من المشركين أنهم بنات الله، فيقول: إنهم عباد أكرمهم الله واصطفاهم، يتبعون قوله، فلا يقولون شيئًا حتى يقوله تعالى، أو يأمرهم به كما هو شأن العبيد المؤدبين ﴿وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ فلا يعصونه في أمر، إشارة إلى مراعاتهم في أدب العبودية

(١) جامع البيان، ٢٣/ ٤٩٢.

(٢) روح المعاني، الألوسي ١٤/ ٣٥٢.

في الأفعال أيضًا كالأقوال[1].

ويؤكده قوله: ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ [مريم ٦٤].

٢. تقسيم أمره بين الخلائق.

قال تعالى: ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤].

والمراد بالمقسمات: الملائكة، فإنهم يقسمون أرزاق العباد وأمورهم وشؤونهم على حسب ما يكلفهم الله تعالى به من شؤون مختلفة، و﴿أَمْرًا﴾ مفعول به للوصف الذي هو المقسمات، وهو مفرد أريد به الجمع، أي: المقسمات لأمور العباد بأمر الله تعالى وإرادته[2].

فعن أبي الطفيل أنه سمع عليًا رضي الله عنه يقول وهو على منبر الكوفة: لا تسألوني عن آية في كتاب الله، ولا عن سنة رسول الله، إلا أنبأتكم بذلك، فقام إليه ابن الكواء فقال: يا أمير المؤمنين، ما معنى قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]؟ قال: الريح. ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ [الذاريات: ٢]. قال: السحاب. ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ [الذاريات: ٣]؟ قال: السفن ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤]؟ قال: الملائكة[3].

وهناك فريق من العلماء من يرى أن هذا اللفظ راجع للرياح، ومن هؤلاء الإمام الرازي، حيث قال: «هذه صفات أربع للرياح، فالذاريات: هي الرياح التي تنشئ السحاب أولًا، والحاملات: هي الرياح التي تحمل السحب التي هي بخار الماء. . .، والجاريات: هي الرياح التي تجرى بالسحب بعد حملها، والمقسمات: هي الرياح التي تفرق الأمطار على الأقطار»[4].

قال الألوسي محاولًا الجمع بين الرأيين: «ثم إذا حملت هذه الصفات على أمور مختلفة متغايرة بالذات - كما هو الرأي المعول عليه- فالفاء للترتيب في الأقسام ذكرًا ورتبة، باعتبار تفاوت مراتبها في الدلالة على كمال قدرته عز وجل، وهذا التفاوت إما على الترقي أو التنزل؛ لما في كل منها من الصفات التي تجعلها أعلى من وجه، وأدنى من آخر، وإن حملت على واحد وهو الرياح، فهي لترتيب الأفعال والصفات؛ إذ الريح تذرو الأبخرة إلى الجو أولًا، حتى تنعقد سحابًا، فتحمله ثانيًا، وتجرى به ثالثًا ناشرة وسائقة له إلى حيث أمرها الله تعالى، ثم تقسم أمطاره»[5].

يقول صاحب تفسير الوسيط: «ومع وجاهة رأى الإمام الرازي في هذه المسألة

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ١٨٩.
(٢) الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١٠.
(٣) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٢/ ٣٩٢.
(٤) مفاتيح الغيب ٧/ ٦٢٨.
(٥) روح المعاني ٧/ ٣٩١.

إلا أننا نؤثر عليه الرأي السابق؛ لأنه ثابت عن بعض الصحابة؛ ولأن كون هذه الألفاظ الأربعة لها معانٍ مختلفة أدل على قدرة الله تعالى وعلى فضله على عباده»[1].

وإنما ذكرهم بالمقسمات لأن الإنسان في الأجزاء الجسمية غير مخالف تخالفًا بينًا، فإن لكل أحد رأسًا ورجلًا، والناس متقاربة في الأعداد والأقدار، لكن التفاوت الكثير في النفوس، فإن الشريفة والخسيسة بينهما غاية الخلاف، وتلك القسمة المتفاوتة تتقسم بمقسم مختار ومأمور مختار، فقال: ﴿فَٱلْمُقَسِّمَٰتِ أَمْرًا﴾ [الذاريات: ٤][2].

قال ابن السائب: والمقسمات أربعة: جبريل، وهو صاحب الوحي والغلظة، وميكائيل، وهو صاحب الرزق والرحمة، وإسرافيل وهو صاحب الصور واللوح، وعزرائيل وهو قابض الأرواح، وإنما أقسم بهذه الأشياء لما فيها من الدلالة على صنعه وقدرته[3].

٣. تدبير الأمر بين الخلائق.

قال تعالى: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥].

يقول الإمام الطبري: يعني: فالملائكة المدبرة ما أمرت به من أمر الله، قال القشيري: أجمعوا على أن المراد: الملائكة، قال الجمل: اختلفت عبارات المفسرين في هذه الكلمات، هل هي صفات لشيء واحد أو لأشياء مختلفة؟ على أوجه:

واتفقوا على أن المراد بقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، وصف لشيء واحد، وهم الملائكة[4].

فقوله: ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ المقصود به طائفة من الملائكة، من وظائفهم تدبير شأن الخلائق، وتنظيم أحوالهم بالطريقة التي يأمرهم سبحانه بها، فنسبة التدبير إليهم إنما هي على سبيل المجاز؛ لأن كل شيء في هذا الكون إنما هو بقضاء الله وتقديره وتدبيره[5].

قال ابن عباس رضي الله عنه: هم الملائكة، وكلوا بأمور عرفهم الله عز وجل العمل بها، وقال عبد الرحمن بن سابط: يدبر الأمر في الدنيا أربعة أملاك: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، واسمه عزرائيل، فأما جبريل فموكل بالرياح والجنود، وأما ميكائيل فموكل بالقطر والنبات، وأما ملك الموت فموكل بقبض الأنفس، وأما إسرافيل فهو ينزل عليهم بالأمر من الله تعالى، وأقسم الله تعالى بهذه الأشياء لشرفها...

(١) انظر: الوسيط، طنطاوي ١٤/ ١١.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٨/ ١٦١.
(٣) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ١٦٧.
(٤) حاشية الجمل ٤/ ٤٧٧.
(٥) الوسيط، طنطاوي ٢٠/ ١٢٦.

وقال الإمام الرازي: «لم قال: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ ولم يقل: أمورًا، فإنهم يدبرون أمورًا كثيرة لا أمرًا واحدًا؟ والجواب: أن المراد به الجنس، وإذا كان كذلك قام مقام الجمع»[1].

ثانيًا: تعامل الرسل مع الأمر الإلهي:

يتمثل تعامل الرسل مع أمر الحق سبحانه وتعالى كما يلي:

١ . الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: ١٠٢].

قال مجاهد عن ابن عباس –رضي الله عنهما–: لما شب حتى بلغ سعيه سعي إبراهيم، والمعنى أن ينصرف معه ويعينه في علمه، اختبر إبراهيم فيه برؤية رآها، قال إبراهيم: يا بني إني أرى في المنام وحيًا من الله يطلب مني ذبحك، فانظر ماذا ترى؟ فقد امتثل لأمر الله سبحانه وتعالى وقال إسماعيل صابرًا محتسبًا، مرضيًا لربه، وبارًا بوالده: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢].

أي: امض لما أمرك الله؛ لأني لا أتهمك في شفقتك، وحسن نظرك، ولا أتهم الله في قضائه، ثم قال: ﴿سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ فأخبر أباه أنه موطن نفسه على الصبر، وقرن ذلك بمشيئة الله تعالى؛ لأنه لا يكون شيء بدون مشيئة الله تعالى، وإنما علق المشيئة لله تعالى على سبيل التبرك والتيمن، فإنه لا حول عن معصية الله إلا بعصمة الله، ولا قوة على طاعة الله إلا بتوفيق الله[2].

٢ . الاتباع.

قال تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

قال الإمام الرازي: قال تعالى حكاية عن عيسى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أن مفسرة، والمفسر هو الهاء في به الراجع إلى القول المأمور به، والمعنى: ما قلت لهم إلا قولًا أمرتني به؛ وذلك القول هو أن أقول لهم: اعبدوا الله ربي وربكم، واعلم أنه كان الأصل أن يقال: ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، إلا أنه وضع القول موضع الأمر، نزولًا على موجب الأدب الحسن؛ لئلا يجعل نفسه وربه أمرين

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٣١/ ٢٩، مدارك التنزيل، النسفي ٤/ ٣٩١.

(٢) انظر: اللباب في بيان الكتاب، ابن عادل ١٦/ ٣٣٠، نظم الدرر، البقاعي ١٦/ ٢٦٤، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٠٥.

معًا، ودل على الأصل بذكر أن المفسرة، ثم قال تعالى: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: كنت أشهد على ما يفعلون ما دمت مقيمًا فيهم، فلما توفيتني والمراد منه: وفاة الرفع إلى السماء، من قوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. ﴿كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: الحافظ عليهم المراقب لأحوالهم ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ من قولي وفعلي، وقولهم وفعلهم[(١)].

وفي ذلك دليل واضح على شدة الاتباع لأمر الحق من قبل سيدنا عيسى عليه السلام فيما أمره الله به من عباده من الدعوة إلى توحيد الله وعبادته.

٣. التبليغ.

قال تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

قال الضحاك: وفي قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ وجهان: أحدهما في الأحكام، الثاني في التبليغ.

وقال الإمام أبو الفرج: في ما أمر أن يعدل فيه قولان: أحدهما- في الأحكام إذا ترافعوا إليه، والثاني- في تبليغ الرسالة، وقال البيضاوي: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ أي: في تبليغ الشرائع والحكومات[(٢)].

والمعنى: أمرني ربي أن أعدل بينكم؛ وذلك بتبليغ الشرائع والأحكام، وفصل القضايا عند المحاكمة والخصام، وقيل: معناه لأسوي بيني وبينكم، ولا آمركم بما لا أعمله، ولا أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه، ولا أفرق بين أكابركم وأصاغركم[(٣)].

وعلى المعنى الآخر، قال الطبري: أي: قل لهم يا محمد: وأمرني ربي أن أعدل بينكم معشر الأحزاب، فأسير فيكم جميعًا بالحق الذي أمرني به، وبعثني بالدعاء إليه[(٤)].

٤ . طلب التيسير.

قال تعالى: ﴿وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي﴾ [طه: ٢٦].

قال الطبري: يعني: وسهل علي القيام بما تكلفني من الرسالة، وتحملني من الطاعة، أي: سهل علي ما بعثتني له، ففيها طلب الإعانة لتبليغ الرسالة؛ وذلك لأن كل ما يصدر من العبد من الأفعال والأقوال والحركات والسكنات فما لم يصر العبد مريدًا له استحال أن يصير فاعلًا له، فهذه

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٢/ ٢٢٣، مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٦٦، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٨٧.

(٢) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٥/ ١٩٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٦٢، أنوار التنزيل، البيضاوي ٥/ ٧٩.

(٣) إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٨/ ٢٧.

(٤) جامع البيان، الطبري ٢١/ ٥١٦.

الإرادة صفة محدثة، ولابد لها من فاعل، وفاعلها إن كان هو العبد افتقر في تحصيل تلك الإرادة إلى إرادة أخرى، ولزم التسلسل، بل لابد من الانتهاء إلى إرادة يخلقها مدبر العالم، ففي الحقيقة هو الميسر للأمور[1].

قال ابن كثر: هذا سؤال من موسى عليه السلام لربه عز وجل أن يشرح له صدره فيما بعثه به، فإنه قد أمره بأمر عظيم، وخطبٍ جسيم، فقد بعثه إلى أعظم ملك على وجه الأرض إذ ذاك، وأجبرهم، وأشدهم كفرًا، وأكثرهم جنودًا، وأعمرهم ملكًا، وأطغاهم وأبلغهم تمردًا، بلغ من أمره أن ادعى أنه لا يعرف الله، ولا يعلم لرعاياه إلهًا غيره.

وفي زيادة كلمة ﴿لِي﴾ مع انتظام الكلام بدونها تأكيدٌ لطلب الشرح والتيسير بإبهام الشروح والميسر أولًا وتفسيرهما ثانيًا، وفي تقديمها وتكريرها إظهار مزيد اعتناءٍ بشأن كل من المطلوبين، وفضل اهتمام باستدعاء حصولهما له، واختصاصهما به[2].

ثالثًا: تعامل المؤمنين مع الأمر الإلهي:

يتعامل المؤمن مع الأمر الإلهي، وفق النقاط الآتية:

١ . الإيمان بما أمر الله به.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١].

قال ابن عباس رضي الله عنه وسعيد بن جبير: معنى: ﴿يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ﴾ أي: الإيمان بجميع الكتب والرسل كلهم، قال القرطبي: والظاهر أنها في صلة الأرحام، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات[3].

وقال صاحب التحرير: «وما أمر الله به أن يوصل عام في جميع الأواصر والعلائق التي أمر الله بالمودة والإحسان لأصحابها، فمنها آصرة الإيمان، ومنها آصرة القرابة، وهي صلة الرحم، وقد اتفق المفسرون على أنها مراد الله هنا»[4].

وقال الإمام النسفي: «﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾ من الأرحام والقرابات، ويدخل فيه وصل قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقرابة المؤمنين الثابتة بسبب الإيمان ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠].

بالإحسان إليهم على حسب الطاقة، ونصرتهم، والذب عنهم، والشفقة عليهم،

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٩٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٥٧.
(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ٢٨٢ إرشاد العقل السليم، أبو السعود ٦/ ١٢.
(٣) انظر: الوجيز، الواحدي ص٥٧٠، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٣١٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٣/ ١٢٧.

وإفشاء السلام عليهم، وعيادة مرضاهم، ومنه مراعاة حق الأصحاب والخدم والجيران والرفقاء في السفر ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ أي: وعيده كله ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ خصوصًا فيحاسبون أنفسهم قبل أن يحاسبوا»[1].

وهكذا يتبين لنا أن المؤمن الحقيقي يؤمن بكل ما يأمر الله تعالى به ويخشاه ويخافه.

٢. طلب التيسير.

قال تعالى: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ١٠].

قال الطبري: حين أوى الفتية أصحاب الكهف إلى كهف الجبل، هربًا بدينهم إلى الله، فقالوا إذ أووه: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةً﴾ رغبة منهم إلى ربهم في أن يرزقهم من عنده رحمة، ويسر لنا بما نبتغي وما نلتمس من رضاك والهرب من الكفر بك، ومن عبادة الأوثان التي يدعونا إليها قومنا ﴿رَشَدٗا﴾ يقول: سدادًا إلى العمل بالذي تحب، أي: أرشدنا إلى ما يقرب منك، والمعنى: هيئ لنا من أمرنا ما نصيب به الرشد[2].

فقد سألوا الله أن يقدر لهم أحوالًا تكون عاقبتها حصول ما خولهم من الثبات على الدين الحق، والنجاة من مناوئة المشركين؛ وذلك طلب لتيسير أمورهم وأحوالهم، فجمعوا بين السعي والفرار من الفتنة إلى محل يمكن الاستخفاء فيه، وبين تضرعهم وسؤالهم لله تيسير أمورهم، وعدم اتكالهم على أنفسهم وعلى الخلق؛ فلذلك استجاب الله دعاءهم، وقيض لهم ما لم يكن في حسابهم[3]. فالمؤمن الحقيقي يلجأ إلى الله؛ لأن هو من بيده التيسير فهو القادر المقتدر.

٣. الهداية به.

قال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦ وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦ –١٤٧].

قال ابن القيم: «لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق، أو تجاوز لحد، وأن النصر منوط بالطاعة، قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا﴾ قال القاضي: وهذا تأديب من الله تعالى في كيفية الطلب بالأدعية عند النوائب والمحن، سواء كان في الجهاد أو غيره»[4].

---

(١) مدار التنزيل، النسفي ١/ ٤١٦.
(٢) جامع البيان، ١٧/ ٦٠٥ .
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٤٧١ .
(٤) زاد المعاد ٣/ ٢٠٢.

وهذا ما وصف به المتقين من قوله: ﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾[آل عمران: ١٣٥].

وقال الإمام الشوكاني: «قوله: ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟﴾ استثناء مفرغ، أي: ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون، أو قتل نبيهم إلا أن قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ قيل: هي الصغائر، وقوله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ قيل: هي الكبائر، والظاهر: أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنبًا من صغيرة أو كبيرة، والإسراف: ما فيه مجاوزة للحد، فهو من عطف الخاص على العام، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين: هضمًا لأنفسهم، ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ في مواطن القتال، ﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ تعالى بسبب ذلك ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾ من النصر والغنيمة والعزة ونحوها، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف، أي: ثواب الآخرة الحسن، وهو نعيم الجنة، جعلنا الله من أهلها، فهم قد ابتهلوا إليه عند نزول المصيبة بقولهم: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِىٓ أَمْرِنَا﴾ خشية أن يكون ما أصابهم جزاء على ما فرط منهم، وهكذا استعملوا الأمر في طلب الهداية، والعون من الله»[١].

٤ . الطاعة والامتثال.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

قال الشوكاني: «أي: ما صح ولا استقام لرجل ولا امرأة من المؤمنين، ولفظ ما كان وما ينبغي ونحوهما معناهما المنع والحظر من الشيء، والإخبار بأنه لا يحل أن يكون شرعًا، وقد يكون لما يمتنع عقلًا، كقوله: ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠].

ومعنى الآية: أنه لا يحل لمن يؤمن بالله إذا قضى الله أمرًا أن يختار من أمر نفسه ما شاء، بل يجب عليه أن يذعن للقضاء، ويوقف نفسه على ما قضاه الله عليه، واختاره له»[٢].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لم يكن لمؤمن بالله ورسوله، ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله في أنفسهم قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذي قضى فيهم، ويخالفوا أمر الله وأمر رسوله وقضاءهما فيعصوهما، ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا أو نهيا ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَـٰلًا مُّبِينًا﴾ يقول: فقد جار عن قصد السبيل، وسلك غير سبيل الهدي والرشاد»[٣].

وروي في سبب نزول الآية: أنها نزلت في

(١) فتح القدير ١/ ٣٨٧.

(٢) المصدر السابق ٤/ ٣٢٦.

(٣) جامع البيان ٢٠/ ٢٧١.

زينب بنت جحش، وكانت بنت عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فخطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فرضيت ورأت أنه يخطبها على نفسه، فلما علمت أنه يخطبها على زيد بن حارثة أبت وأنكرت، فأنزل الله الآية، قال: فتابعته بعد ذلك ورضيت، وهكذا هو المؤمن الحقيقي يتعامل مع أمر الحق سبحانه وتعالى بالطاعة والامتثال[1].

قال ابن كثير: «هذه الآية عامة في جميع الأمور؛ وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته، ولا اختيار لأحد ها هنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء: ٦٥]»[2].

٥. الاتباع.

قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٨٢].

قال الطبري: «يعني: وما فعلت يا موسى جميع الذي رأيتني فعلته عن رأيي واختياري، ومن تلقاء نفسي، وإنما فعلته عن أمر الله إياي به، فهو كان عبدًا مأمورًا، فمضى لأمر الله واتبعه»[3].

قال الرازي: «يعني ما فعلت ما رأيت من هذه الأحوال عن أمري واجتهادي ورأيي، وإنما فعلته بأمر الله ووحيه؛ لأن الإقدام على تنقيص أموال الناس وإراقة دمائهم لا يجوز إلا بالوحي والنص القاطع»[4].

فكل ما فعله الخضر فإنما عن أمر من له الأمر، وهو الله، وهكذا كل مؤمن لا يسير خطوة، ولا ينفذ أمرًا إلا متبعًا لأمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

٦. الصبر والتقوى.

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦].

يخبر تعالى ويخاطب المؤمنين أنهم سيبتلون في أموالهم وفي أنفسهم، وفي إخباره لعباده المؤمنين بذلك عدة فوائد، منها: أنه أخبرهم بذلك لتتوطن نفوسهم على وقوع ذلك، والصبر عليه إذا وقع؛ لأنهم قد استعدوا لوقوعه، فيهون عليهم حمله، وتخف عليهم مؤنته، ويلجئون إلى

---

(١) المصدر السابق.
(٢) تفسير القرآن الكريم، ٦/ ٤٢٣.
(٣) جامع البيان ١٨/ ٩١.
(٤) مفاتيح الغيب ٢١/ ٤٩٢.

الصبر والتقوى[(١)].

قال أبو السعود: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ﴾ أي: تتخلقوا بالصبر على تلك الشدائد والبلوى عند ورودها وتقابلوها بحسن التجمل ﴿وَتَتَّقُواْ﴾ أي: تتبتلوا إلى الله تعالى بالكلية، معرضين عما سواه بالمرة، بحيث يتساوى عندكم وصول المحبوب ولقاء المكروه ﴿فَإِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الصبر والتقوى، وما فيه من معنى البعد؛ للإيذان بعلو درجتهما، وبعد منزلتهما ﴿مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ أي: الأشياء التي هي أهل لأن يعزم على فعلها، ولا يتردد فيه، ولا يعوق عنه عائق[(٢)].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ [الشورى: ٤٣].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على إساءة إليه، ﴿وَغَفَرَ﴾ للمسيء إليه جرمه إليه، فلم ينتصر منه، وهو على الانتصار منه قادر، ابتغاء وجه الله، وجزيل ثوابه ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ﴾ يقول: إن صبره ذلك وغفرانه ذنب المسيء إليه لمن عزم الأمور التي ندب إليه عباده، وعزم عليهم العمل به»[(٣)].

فإن ترك الانتصار للنفس بالقول أو الفعل من أشق شيء عليها، والصبر على الأذى، والصفح عنه ومغفرته، ومقابلته بالإحسان أشق وأشق، ولكنه يسيرٌ على من يسره الله عليه، وجاهد نفسه على الاتصاف به، واستعان الله على ذلك، ثم إذا ذاق العبد حلاوته، ووجد آثاره، تلقاه برحب الصدر، وسعة الخلق، والتلذذ فيه[(٤)].

قال صاحب التحرير: «وهذا ترغيب في العفو والصبر على الأذى؛ وذلك بين الأمة الإسلامية ظاهر، وأما مع الكافرين فتعتريه أحوال تختلف بها أحكام الغفران، وملاكها أن تترجح المصلحة في العفو أو في المؤاخذة»[(٥)].

رابعًا: تعامل الكافرين والمنافقين مع الأمر الإلهي:

يتعامل الكافرون والمنافقون مع الأمر الإلهي بالرفض والامتناع، ويتضح ذلك كما يلي:

١ . العتو.

﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ٢٧].

قال البيضاوي: «فهذه الآية صفة للفاسقين للذم وتقرير الفسق، ثم قال مبينًا

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص١٦٠.
(٢) إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٢٤.
(٣) جامع البيان ٢١/ ٥٥١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٦٠.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٢٣.

تعامل هؤلاء مع ما أمر الله به بعد أن بين نقضهم للعهود والمواثيق فقال: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ يحتمل كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، والتفرقة بين الأنبياء عليهم السلام، والكتب في التصديق، وترك الجماعات المفروضة، وسائر ما فيه رفض خير، أو تعاطي شر، فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالمنع عن الإيمان، والاستهزاء بالحق، وقطع الوصل التي بها نظام العالم وصلاحه»[(١)].

فقوله عز وجل: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فيه ثلاثة تأويلات: قال الماوردي: أحدها: أن الذي أمر الله تعالى به أن يوصل هو رسوله، فقطعوه بالتكذيب والعصيان، وهو قول الحسن البصري، والثاني: أنه الرحم والقرابة، وهو قول قتادة، والثالث: أنه على العموم في كل ما أمر الله تعالى به أن يوصل[(٢)].

فقوله: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ عام في كل قطيعة لا يرضاها الله، كقطع الرحم، والإعراض عن موالاة المؤمنين، وترك الجماعات المفروضة، وعدم وصل الأقوال الطيبة بالأعمال الصالحة، وسائر ما فيه رفض خير، أو تعاطي شر[(٣)]. وجعل الآية عامة في كل قطيعة لا يرضاها الله هو الأولى والراجح في نظري؛ فالعبرة بعموم اللفظ كما على ذلك جمهور المفسرين.

ونظير تلك الآية قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

٢ . التكذيب.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٢٨].

قال الإمام الطبري: «كان قبيلة من العرب من أهل اليمن يطوفون بالبيت عراة، فإذا قيل: لم تفعلون ذلك؟ قالوا: وجدنا عليها آباءنا، والله أمرنا بها، فتأويل الكلام إذًا: وإذا فعل الذين لا يؤمنون بالله الذين جعل الله الشياطين لهم أولياء قبيحًا من الفعل، وهو الفاحشة، وذلك تعريهم للطواف بالبيت وتجردهم له، فعذلوا على ما أتوا من قبيح فعلهم، وعوتبوا عليه، قالوا: وجدنا على مثل ما نفعل آباءنا، فنحن نفعل مثل ما كانوا يفعلون، ونقتدي بهديهم، ونستن بسنتهم،

(١) أنوار التنزيل ١/ ٦٥.
(٢) النكت والعيون، ١/ ٨٩.
(٣) الوسيط، طنطاوي ١/ ٨٧.

والله أمرنا به، فنحن نتبع أمره فيه»[(١)].

فقيل لهم: يعني أنكم سمعتم كلام الله تعالى ابتداءً من غير واسطة، ولا أخذتموه عن الأنبياء الذين هم وسائط بين الله تعالى وبين عباده في تبليغ أوامره ونواهيه وأحكامه؛ لأنكم تنكرون نبوة الأنبياء؛ فكيف تقولون على الله ما لا تعلمون؟[(٢)].

فليس المراد أن القوم كانوا يسلمون كون تلك الأفعال فواحش، ثم كانوا يزعمون أن الله أمرهم بها، فإن ذلك لا يقوله عاقل، بل المراد أن تلك الأشياء كانت في أنفسها فواحش، والقوم كانوا يعتقدون أنها طاعات، وأن الله أمرهم بها، ثم إنه تعالى حكى عنهم أنهم كانوا يحتجون على إقدامهم على تلك الفواحش بأمرين:

أحدهما: إنا وجدنا عليها آباءنا.

والثاني: إن الله أمرنا بها...

وأما الحجة الثانية: وهي قولهم: ﴿وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ﴾ فقد أجاب عنه بقوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ﴾ والمعنى: أنه ثبت على لسان الأنبياء والرسل كون هذه الأفعال منكرة قبيحة فكيف يمكن القول بأن الله تعالى أمرنا بها؟[(٣)].

(١) جامع البيان ١٢/ ٣٧٩.
(٢) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٩٢.
(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٥.

٣. النفور.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ [الفرقان: ٦٠].

يقول تعالى منكرًا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد: اسجدوا واخضعوا وتذللوا للرحمن، فالسجود الذي أمروا به سجود الاعتراف له بالوحدانية، وهو شعار الإسلام، ولم يكن السجود من عبادة مشركي قريش، وإنما كانوا يطوفون بالأصنام، ومقصدهم من ذلك إباء السجود لله؛ لأن السجود الذي أمروا به سجود لله بنية انفراد الله به دون غيره، وهم لا يجيبون إلى ذلك، ويدل على ذلك قوله: ﴿وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا﴾ فالنفور من السجود سابق قبل سماع اسم الرحمن، وزادهم ذكر الرحمن نفورًا أي: تباعدًا من الإيمان[(٤)].

أما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم، ويفردونه بالإلهية، ويسجدون له، وكان سفيان الثوري يقول في هذه الآية: إلهي زادني لك خضوعًا ما زاد عداك نفورًا، وكأنهم يقولون: تأمرنا بألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا، وتريد أن تأمرنا أيضًا بأن نسجد لهذا الرحمن.

قال الطبري: يعني وزاد هؤلاء المشركين

(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٣٢٦.

قول القائل لهم: اسجدوا للرحمن من إخلاص السجود لله، وإفراد الله بالعبادة بعدًا مما دعوا إليه من ذلك فرارًا[1].

خامسًا: تعامل إبليس وذريته مع الأمر الإلهي:

تعامل إبليس مع الأمر الإلهي يتمثل فيما يلي:

١ . الكبر والغرور.

قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

قال العلماء: الذي أحوجه إلى ترك السجود هو الكبر والحسد، وكان أضمر ذلك في نفسه إذا أمر بذلك، وقال الإمام النسفي: «والسؤال عن المانع من السجود مع علمه به للتوبيخ ولإظهار معاندته وكفره وكبره»[2].

فقد كان أمره من قبل خلق آدم، يقول الله تعالى: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [ص: ٧١-٧٢].

فكأنه دخله أمر عظيم من قوله: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ فإن في الوقوع توضيع الواقع وتشريفًا لمن وقع له، فأضمر في نفسه ألا يسجد إذا أمره في ذلك الوقت، فلما نفخ فيه الروح وقعت الملائكة سجدًا، وبقي هو قائمًا بين أظهرهم، فأظهر بقيامه وترك السجود ما في ضميره. . .، قلت: يعني من الكبر والاستكبار لأمر الله.

ثم قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ أي: منعني من السجود فضلي عليه، فهذا من إبليس جواب على المعنى، فليس هذا عين الجواب، بل هو كلام يرجع إلى معنى الجواب ﴿خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[الأعراف: ١٢].

فرأى أن النار أشرف من الطين؛ لعلوها وصعودها وخفتها؛ ولأنها جوهر مضيء.

قال ابن عباس رضي الله عنه والحسن وابن سيرين: أول من قاس إبليس، فأخطأ القياس، فمن قاس الدين برأيه قرنه مع إبليس، قال ابن سيرين: وما عبدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس، وقالت الحكماء: أخطأ عدو الله من حيث فضل النار على الطين، وإن كانا في درجة واحدة من حيث هي جماد مخلوق[3].

فهو مما لاشك فيه أول من أسس بنيان التكبر والمعاندة والعصيان للأوامر الإلهية؛ ولأن الباعث على قوله هذا التكبر، وليس الدليل؛ لذلك قال الله تعالى له: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ

---

(١) الطبري ١٩/ ٢٨٨ وتفسير القرآن العظيم، ابن كثير ١٣/ ٦٤ وتفسير أبي زهرة ١٠/ ٥٣٠٧.

(٢) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٥٥٧.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ١٧١.

﴿مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف ١٣].

٢. الرفض والخروج على أوامر الله.

قال تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

فقوله: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ يعني: فخرج عن أمر ربه، وعدل عنه ومال، وعن مجاهد في قول الله تعالى: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ قال: في السجود لآدم، فالمعنى: أنه: عتا وعصى، وأصل الفسق: الخروج، أي: خرج عن أمر ربه، وكذلك قال القتبي: ففسق، أي: خرج عن طاعته، يقال: فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها، يعني: أنه خرج عن أمر ربه إلى معصيته في ترك السجود، وذكر هذا الزمن بأحداثه وما قيل فيه استحضار لصورته، وكيف عصى إبليس ربه، وعاند في الخضوع لأمر الله تعالى بالنسبة لآدم[1].

قال الإمام الشعراوي: «لقد جاء القرآن بالنص الصريح الذي يوضح جنسيته، فليس لأحد أن يقول: إنه من الملائكة، وما دام كان من الجن، وهم جنس مختار في أن يفعل أو لا يفعل، فقد اختار ألا يفعل: ﴿فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓ﴾ [الكهف: ٥٠].

أي: رجع إلى أصله، وخرج عن الأمر، أي: فخرج بذلك عن طاعتنا، واستحق لعنتنا وغضبنا»[2].

سادسًا: جزاء اتباع الأمر الإلهي في الدنيا والآخرة:

١. الفلاح في الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ففي الآية السابقة حثٌّ لأتباع أمة النبي محمد على الأمر بالمعروف والنهي والمنكر، والمراد بالأمة هنا الطائفة من الناس التي تصلح لمباشرة الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمعروف ما حسنه الشرع، وتعارف العقلاء على حسنه، والمنكر ضد ذلك، كما أن الآية تومئ إلى الحث على الدعوة إلى ما يصلح من شأن الناس، من خلال أمرهم بالتمسك بالتعاليم وبالأخلاق التي توافق الكتاب والسنة والعقول السليمة، ونهيهم عن المنكر الذي يأباه شرع الله، وتنفر منه الطباع الحسنة؛ ولقد أعد الله لمن يفعلون ذلك الفلاح في الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ أي:

(١) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٧/ ١٨٥.

(٢) تفسير الشعراوي ١٤/ ٨٩٣٥.

هؤلاء هم المختصون بالفلاح الكامل، فقد ختم سبحانه الآية الكريمة بتبشير هؤلاء ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ والفلاح هو الظفر، وإدراك البغية، أي: وأولئك القائمون بواجب الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هم الكاملون في الفلاح والنجاح، ولا يمكن أن يفلح سواهم ممن لم يقم بهذا الواجب الذي هو مناط عزة الجماعات والأفراد، وأساس رفعتهم وقوتهم وسعادتهم[١].

وقد روى الإمام مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان)[٢].

٢. الصلاح.

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ١١٤].

يقول الإمام النسفي: «وأولئك الموصوفون بما وصفوا به من الصالحين، أي: من المسلمين، أو من جملة الصالحين الذين صلحت أحوالهم عند الله، ورضيهم، واستحقوا رضاه وثناءه»[٣].

وهذا غاية المدح من وجهين:

الأول: أن الله مدح بهذه الصفة أكابر الأنبياء، فقال بعد ذكر إسماعيل وإدريس وذي الكفل وغيرهم: ﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٦].

وقال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التحريم: ٤].

الثاني: أن الصلاح ضد الفساد، فكل ما لا ينبغي أن يكون فهو فساد، سواء أكان ذلك في العقائد أم في الأعمال، وإذا كان كذلك كان كل ما ينبغي أن يكون صلاحًا، فكان الصلاح دالًا على أكمل الدرجات[٤].

قال القفال: ولا يبعد أن يقال: المراد: كل من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم فسماهم الله بأهل الكتاب، كأنه قيل: أولئك الذين سموا أنفسهم بأهل الكتاب حالهم وصفتهم تلك الخصال الذميمة، والمسلمون الذين سماهم الله بأهل الكتاب حالهم وصفتهم هكذا، فكيف يستويان؟ فيكون الغرض -من هذه الآية- تقرير فضيلة أهل الإسلام، تأكيدًا لما تقدم من قوله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٢/ ٢٠٢.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، ١/ ٦٩، رقم ٤٩.
(٣) مدارك التنزيل ١/ ٢٨٤.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٥/ ٤٨١.

عمران: ١١٠].

ونظيره قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨].

منهم: ﴿أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٣].

قيل: قائمة في الصلاة، يتلون آيات الله، فعبر بذلك عن تهجدهم[(١)].

٣. الفوز.

قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [: ٥٢].

يقول الإمام الطبري: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ فيما أمره ونهاه، ويسلم لحكمهما له وعليه، ويخف عاقبة معصية الله ويحذره، ويتق عذاب الله بطاعته إياه في أمره ونهيه ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ يقول: فالذين يفعلون ذلك ﴿هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ برضا الله عنهم يوم القيامة، وأمنهم من عذابه[(٢)].

وذكر أن عمر رضي الله عنه بينما هو قائم في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم وإذا رجل من دهاقين الروم قائم على رأسه، وهو يقول: أنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، فقال له عمر: ما شأنك؟ قال: أسلمت لله، قال: هل لهذا سبب؟! قال: نعم! إني قرأت التوراة والزبور والإنجيل وكثيرًا من كتب الأنبياء، فسمعت أسيرًا يقرأ آية من القرآن جمع فيها كل ما في الكتب المتقدمة، فعلمت أنه من عند الله فأسلمت: قال: ما هذه الآية؟ قال: قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ﴾ في الفرائض ﴿وَرَسُولَهُۥ﴾ في السنن ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ﴾ فيما مضى من عمره ﴿وَيَتَّقْهِ﴾ فيما بقي من عمره ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ والفائز من نجا من النار وأدخل الجنة، فقال عمر: قال النبي صلى الله عليه وسلم: (أوتيت جوامع الكلم)[(٣)].

فهذه الآية جامعة لأسباب الفوز والنجاح والفلاح، فقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ يعني: الذين فازوا بكل خير، وأمنوا من كل شر في الدنيا والآخرة[(٤)].

يقول صاحب الظلال: «وعد الله ولن يخلف الله وعده، وهم للفوز أهل، ولديهم أسبابه من واقع حياتهم، فالطاعة لله ورسوله تقتضي السير على النهج القويم الذي رسمه الله للبشرية عن علم وحكمة، وهو بطبيعته يؤدي إلى الفوز في الدنيا والآخرة، وخشية الله وتقواه هي الحارس الذي يكفل الاستقامة على النهج، وإغفال المغريات التي تهتف بهم على جانبيه، فلا ينحرفون ولا يلتفتون، وأدب الطاعة لله ورسوله، مع خشية الله وتقواه، أدب رفيع، ينبئ عن مدى

(١) المصدر السابق ٥/ ٤٨١.
(٢) جامع البيان ١٩/ ٢٠٦.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٢/ ٢٩٥.
(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٧٥.

إشراق القلب بنور الله، واتصاله به، وشعوره بهيبته، كما ينبع عن عزة القلب المؤمن واستعلائه، فكل طاعة لا ترتكن على طاعة الله ورسوله، ولا تستمد منها، هي ذلة يأباها الكريم، وينفر منها طبع المؤمن، ويستعلي عليها ضميره، فالمؤمن الحق لا يحني رأسه إلا لله الواحد القهار»[1].

٤. طيب الحياة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ففي الآية السابقة حثٌّ للمؤمنين على الاستجابة لأمر الرسول إذا دعاهم إلى شيء، فإن في الاستجابة لأمره إحياءً للنفوس، واختير في تعريفهم عند النداء وصف الإيمان ليومئ إلى أن الإيمان هو الذي يقتضي أن يثقوا بعناية الله بهم، فيمتثلوا أمره إذا دعاهم، وليس قوله: ﴿إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ قيدًا للأمر باستجابة، ولكنه تنبيه على أن دعاءه إياهم لا يكون إلا إلى ما فيه خير لهم، وإحياء لأنفسهم[2].

والمعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله حق الإيمان ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ عن طواعية واختيار، ونشاط وحسن استعداد ﴿إِذَا دَعَاكُمْ﴾ الرسول صلى الله عليه وسلم ﴿لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ أي: إلى ما يصلح أحوالكم، ويرفع درجاتكم، من الأقوال النافعة، والأعمال الحسنة، التي بالتمسك بها تحيون حياة طيبة، وتظفرون بالسعادتين الدنيوية والأخروية[3].

فأجيبوا دعوته بقوة وعزم، كما قال في آية أخرى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ﴾ [البقرة: ٦٣].

وطاعته صلى الله عليه وسلم واجبة في حياته، وبعد مماته فيما علم أنه دعا إليه دعوة عامة من أمور الدين الذي بعثه الله به، كبيانه لصفة الصلاة وعددها قولًا أو فعلًا، فقد صلى بأصحابه وقال: (صلوا كما رأيتموني أصلي)[4].

وقال: (خذوا عني مناسككم)[5].

وبيانه لمقادير الزكاة وغيرها من السنن العملية المتواترة وأقواله كذلك، فكل من ثبت لديه شيء منها ببحثه أو بحث العلماء الذين يثق بهم وجب عليه الاهتداء به[6].

والضمير في قوله: ﴿دَعَاكُمْ﴾ يعود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه هو المباشر للدعوة إلى الله؛ ولأن في الاستجابة

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ٣١١.
(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٧٣.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم، ٨/ ٩، ٦٠٠٨.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر، ٢/ ٩٤٣، رقم ١٢٩٧.
(٦) تفسير المراغي ٩/ ١٨٧.

له استجابة لله تعالى.

قال سبحانه: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا﴾ [النساء: ٨٠][1].

تكلم الإمام ابن القيم كلامًا نفيسًا حول هذه الآية فقال رحمه الله: «إن الحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ولرسوله، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أرذل الحيوانات، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله ولرسوله ظاهرًا وباطنًا، فهؤلاء هم الأحياء، وإن ماتوا، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان؛ ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول صلى الله عليه وسلم، فإن كل ما دعا إليه ففيه الحياة، فمن فاته جزء منه فاته جزء من الحياة، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول»[2].

الأمر الإنساني وجزاء اتباعه

بين القرآن الكريم أوامر الإنسان، سواء كان من الرسل أو المؤمنين أو المنافقين أو الجبابرة والمسرفين، وبين جزاء اتباع هذه الأوامر، وسوف نتناول هذه الأوامر بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أوامر الرسل عليهم السلام:

الرسل أرسلهم الحق سبحانه وتعالى لإسعاد الناس وهدايتهم؛ ولذلك يمكن إبراز أوامر الرسل كما يلي:

١. عبادة الله واجتناب عبادة الطاغوت.

قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

إن من الطبيعي أن يكون أول أمر للرسل لأقوامهم الأمر بعبادة الله وحده، وهذا ما جسده النبي صلى الله عليه وسلم.

يقول الإمام الألوسي: «﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗا﴾ جليل الشأن وهو الله سبحانه، ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه، فإن ذلك مناف

---

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ٢/ ٧٣.
(٢) التفسير القيم ١/ ٢٩٨.

لعبادته جل شأنه، وأما إطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم وسائر من أمر الله بطاعته فهي في الحقيقة إطاعة لله عز وجل، وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أربابًا من المسيح عليه السلام والأحبار والرهبان إلا ليطيعوا أو ليوحدوا الله تعالى، فكيف يصح أن يكونوا أربابًا وهم مأمورون مستعبدون مثلهم؟! ولا يخفى أن تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق إلا بتخصيص الطاعة أيضًا به تعالى، ومتى لم يخص به جل شأنه لم تخص العبادة به سبحانه ﴿سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له، أي: تنزيه عن الإشراك به في العبادة والطاعة، والمراد بالآية: اتخذ كل من الفريقين علماءهم -لا الكل- أربابًا من دون الله بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله تعالى، وتحليل ما حرمه سبحانه، وهو التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فالآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم لكلام علمائهم ورؤسائهم، والحق أحق بالاتباع، فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه»[1].

فهو اتهام لهم، وكشف عن وجه من وجوه الضلال الذي ركبوه، وهو أنهم انقادوا لأحبارهم ورهبانهم، وجعلوا لهم الكلمة فيهم، والعقل المدبر لهم، فكلمة الأحبار والرهبان لهم هي الكلمة التي لا معقب عليها عندهم، حتى لكأنها كلمات الله عند المؤمنين بالله[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾[الفرقان: ٦٠].

وكأنهم يقولون: تأمرنا بألا نعبد إلا الله، ولا نشرك به شيئًا، وتريد أن تأمرنا أيضًا بأن نسجد لهذا الرحمن، كأن المسألة بيننا وبينك ليس أمر التوحيد تدعو إليه، إنما أنت تعادي آلهتنا بآلهة أخرى، ومرماهم أنك تتحكم في عبادتنا، ولا تخالفنا في شركنا[3].

فالآية الكريمة تحكي ما جبل عليه أولئك المشركون من استهتار وتطاول وسوء أدب، عندما يدعوهم الرسول صلى الله عليه وسلم إلى إخلاص العبادة لله عز وجل، وإلى السجود للرحمن الذي تعاظمت رحماته، وتكاثرت آلاؤه، ولقد بلغ من تطاول بعضهم أنهم كانوا يقولون: ما نعرف الرحمن إلا ذاك الذي باليمامة، يعنون به مسيلمة الكذاب[4].

٢. الإخلاص.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ

(١) روح المعاني ١/ ٧٥.

(٢) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٥/ ٧٤٣.

(٣) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ٥٣٠٧.

(٤) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢١٥.

﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة: ٥].

يقول الإمام أبو الفرج الجوزي: والمعنى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ إلا أن يعبدوا الله، موحدين لا يعبدون سواه، ﴿حُنَفَاءَ﴾ على دين إبراهيم، ﴿وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ المكتوبة في أوقاتها، ﴿وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ عند وجوبها؛ وذلك الذي أمروا به هو دين القيمة، قال الزجاج: أي دين الأمة القيمة بالحق، ويكون المعنى: ذلك الدين دين الملة المستقيمة[(١)].

قال الإمام ابن العربي: «أمر الله عباده بعبادته، وهي أداء الطاعة له بصفة القربة؛ وذلك بإخلاص النية بتجريد العمل عن كل شيء إلا لوجهه؛ وذلك هو الإخلاص، وإذا ثبت هذا فالنية واجبة في التوحيد؛ لأنها عبادة، فدخلت تحت هذا العموم دخول الصلاة»[(٢)].

يقول الإمام الرازي: «فثبت أن المراد: وما أمروا إلا أن يعبدوا الله مخلصين له الدين، والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلابد وأن يكون منويًا. . .»[(٣)] ومنه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر: ١١].

﴿وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٧١].

ويقول الإمام النسفي: «والإخلاص عبارة عن النية الخالصة، وتجريدها عن شوائب الرياء، وهو تنبيه على ما يجب من تحصيل الإخلاص من ابتداء الفعل إلى انتهائه، والمخلص هو الذي يأتي بالحسن لحسنه، والواجب لوجوبه، والنية الخالصة لما كانت معتبرة كانت النية معتبرة، فقد دلت الآية على أن كل مأمور به فلابد وأن يكون منويًا، فلابد من اعتبار النية في جميع المأمورات»[(٤)].

فالإخلاص: التصفية والإنقاء، أي: غير مشاركين في عبادته معه غيره، وحنفاء: جمع حنيف، وهو لقب للذي يؤمن بالله وحده دون شريك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[الأنعام: ١٦١].

وهذا الوصف تأكيد لمعنى: ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، مع التذكير بأن ذلك هو دين إبراهيم عليه السلام الذي ملئت التوراة بتمجيده، واتباع هديه.

فمن أهم وأعظم ما بعثه الله به من الأمر بعبادته وحده لا شريك له، والنهي عن عبادة

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٢/ ٣٥٠، زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٧٦.
(٢) انظر: أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٦٤٣.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، ٢٢/ ٢٤٢.
(٤) انظر: مدارك التنزيل ٤/ ٤٥٥.

من سواه، كما أرسل به جميع الرسل قبله، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦][1].

٣. الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يبين القرآن صفة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في كتب الأنبياء الذين بشروا أممهم ببعثته، وأمروهم بمتابعته، ولم تزل صفاته موجودة في كتبهم، يعرفها علماؤهم وأحبارهم، فقال: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ ۙ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

فمن صفة الرسول صلى الله عليه وسلم في الكتب المتقدمة، وهكذا كان حاله صلى الله عليه وسلم أنه لا يأمر إلا بخير، ولا ينهى إلا عن شر، كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فارعها سمعك، فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه.

والمعروف ما تعرف العقول السليمة حسنه، وترتاح القلوب الطاهرة له لنفعه وموافقته للفطرة والمصلحة، بحيث لا يستطيع العاقل المنصف السليم الفطرة أن يرده، أو يعترض عليه إذا ورد الشرع به، والمنكر ما تنكره العقول السليمة، وتنفر منه القلوب، وتأباه على الوجه المذكور أيضًا[2].

٤ . القتال.

قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ ۖ قُل لَّا تُقْسِمُوا ۖ طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [: ٥٣].

يقول الإمام الطبري: يقول تعالى ذكره يعني: وحلف هؤلاء المعرضون عن حكم الله وحكم رسوله إذ دعوا إليه ﴿بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ يعني: بأغلظ أيمانهم وأشدها ﴿لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ﴾ يا محمد بالخروج إلى جهاد عدوك وعدو المؤمنين، أي: إذا أمرتهم بالقتال والاستعداد له ﴿لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا﴾ لا تحلفوا، فإن هذه ﴿طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ﴾ منكم فيها التكذيب، يعني: قل لهم -أيها الرسول الكريم- على سبيل السخرية والزجر، لا تقسموا على ما تقولون، فإن طاعتكم معروف أمرها، ومفروغ منها، فهي طاعة باللسان فقط.

أما الفعل فيكذبها؛ وذلك أن المنافقين

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٨١.

(٢) انظر: المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ١٩٧.

كانوا يقولون لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أينما كنت نكن معك، لئن خرجت خرجنا، وإن أقمت أقمنا، وإن أمرتنا بالجهاد جاهدنا. . .، ثم قال الحق: إن الله ذو خبرة بما تعملون من طاعتكم الله ورسوله، أو خلافكم أمرهما، أو غير ذلك من أموركم، لا يخفى عليه من ذلك شيء، وهو مجازيكم بكل ذلك[1].

٥. ثمرة الشورى.

يقول تعالى مخاطبًا النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

يقول الإمام الطبري: «اختلف أهل التأويل في المعنى الذي من أجله أمر تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاورهم، وما المعنى الذي أمره أن يشاورهم فيه؟

فقال بعضهم: أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ بمشاورة أصحابه في مكايد الحرب، وعند لقاء العدو، تطييبًا منه بذلك أنفسهم، وتألفًا لهم على دينهم؛ وليروا أنه يسمع منهم، ويستعين بهم، وإن كان الله عز وجل قد أغناه بتدبيره له أموره، وسياسته إياه وتقويمه أسبابه عنهم، فأمر الله عز وجل نبيه صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه في الأمور، وهو يأتيه وحي السماء؛ لأنه أطيب لأنفس القوم، وأن القوم إذا شاور بعضهم بعضًا، وأرادوا بذلك وجه الله، عزم لهم على أرشده»[2].

وقال آخرون: إنما أمره الله بمشاورة أصحابه فيما أمره بمشاورتهم فيه، مع إغنائه بتقويمه إياه، وتدبيره أسبابه عن آرائهم، ليتبعه المؤمنون من بعده فيما حزبهم من أمر دينهم، ويستنوا بسنته صلى الله عليه وسلم في ذلك، ويحتذوا المثال الذي رأوه يفعله في حياته من مشاورته في أموره -مع المنزلة التي هو بها من الله- أصحابه وأتباعه في الأمر ينزل بهم من أمر دينهم ودنياهم، فيتشاوروا بينهم، ثم يصدروا عما اجتمع عليه ملؤهم؛ لأن المؤمنين إذا تشاوروا في أمور دينهم متبعين الحق في ذلك لم يخلهم الله عز وجل من لطفه وتوفيقه للصواب من الرأي والقول فيه، قالوا: وذلك نظير قوله عز وجل الذي مدح به أهل الإيمان: ﴿وَأَمۡرُهُمۡ شُورَىٰ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الشورى: ٣٨].

ثم قال: وأولى الأقوال بالصواب في ذلك أن يقال: إن الله عز وجل أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بمشاورة أصحابه فيما حزبه من أمر عدوه، ومكايد حربه، تألفًا منه بذلك من لم تكن بصيرته بالإسلام البصيرة التي

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٠٦، معالم التنزيل، البغوي ٦/ ٥٧.

(٢) جامع البيان ٧/ ٣٤٤.

يؤمن عليه معها فتنة الشيطان وتعريفًا منه أمته مأتى الأمور التي تحزبهم من بعده ومطلبها؛ ليقتدوا به في ذلك عند النوازل التي تنزل بهم، فيتشاوروا فيما بينهم، كما كانوا يرونه في حياته صلى الله عليه وسلم يفعله، فأما النبي صلى الله عليه وسلم فإن الله كان يعرفه مطالب وجوه ما حزبه من الأمور بوحيه، أو إلهامه إياه صواب ذلك، وأما أمته فإنهم إذا تشاوروا مستنين بفعله في ذلك على تصادقٍ وتآخٍ للحق، وإرادة جميعهم للصواب، من غير ميل إلى هوى، ولا حيد عن هدى، فالله مسددهم وموفقهم[1].

٦. الأمر بالصلاة والزكاة.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ [مريم: ٥٥].

يقول الإمام الرازي: «قوله: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ والأقرب في الأهل أن المراد به من يلزمه أن يؤدي إليه الشرع، فيدخل فيه كل أمته من حيث لزمه في جميعهم ما يلزم المرء في أهله خاصة، هذا إذا حمل الأمر على المفروض من الصلاة والزكاة، فإن حمل على الندب فيهما كان المراد أنه كما كان يتهجد بالليل يأمر أهله، أي: من كان في داره في ذلك الوقت بذلك، وكان نظره لهم في الدين يغلب على شفقته عليهم في الدنيا، بخلاف ما عليه أكثر الناس، وقيل: كان يبدأ بأهله في الأمر بالصلاح والعبادة ليجعلهم قدوة لمن سواهم.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه: ١٣٢].

﴿قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾[التحريم: ٦].

وأيضًا فهم أحق أن يتصدق عليهم، فوجب أن يكونوا بالإحسان الديني أولى، فأما الزكاة فعن ابن عباس رضي الله عنه أنها طاعة الله تعالى والإخلاص، فكأنه تأوله على ما يزكو به الفاعل عند ربه، والظاهر أنه إذا قرنت الزكاة إلى الصلاة أن يراد بها الصدقات الواجبة، وكان يعرف من خاصة أهله أن يلزمهم الزكاة، فيأمرهم بذلك، أو يأمرهم أن يتبرعوا بالصدقات على الفقراء، ورابعها: قوله: ﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ وهو في نهاية المدح؛ لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات»[2].

ثانيًا: أوامر المؤمنين:

لاشك أن أوامر المؤمنين ستكون متفقة مع المنهج النبوي الذي يحقق السعادة لمتبعها في الدنيا والآخرة، ويمكن إيضاح أوامر المؤمنين كما يلي:

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٧/ ٣٤٤، زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٣٤١.

(٢) مفاتيح الغيب ٢١/ ٥٥٠.

١. الأمر بالمعروف.

قال تعالى متحدثًا عن صفات المؤمنين: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

يذكر الحق سبحانه أوصاف المؤمنين وأعمالهم الحسنة، وما أعد لهم من أنواع الكرامات والخيرات في الدنيا والآخرة، فمن أوصافهم: أنهم يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، فقال تعالى: ﴿يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ أي: يأمرون الناس بكل خير وجميلٍ يرضي الله، وينهونهم على كل قبيح يسخط الله، فهم على عكس المنافقين الذين يأمرون بالمنكر، وينهون عن المعروف[(١)].

وهذا ما أمر به لقمان ابنه بقوله: ﴿يَٰبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

فالمؤمن الحقيقي يتخذ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أساسًا ومنهجًا له بضوابط وأصول الشرع.

٢-٣. الصدقة والإصلاح بين الناس.

(١) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٥٠٩.

قال الحق سبحانه وتعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤].

فقوله تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ قيل المراد بهم: قوم طعمة، وقال مجاهد: الآية عامة في حق جميع الناس، والنجوى: هي الإسرار في التدبير، وقيل: النجوى ما ينفرد بتدبيره قوم سرًا كان أو جهرًا، فمعنى الآية: لا خير في كثير مما يدبرونه بينهم، والله تعالى جعل النجوى مظنة الإثم والشر غالبًا، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [المجادلة: ٩].

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: إلا في نجوى من أمر بصدقة، فالنجوى تكون فعلًا، وقيل: هذا استثناء منقطع، يعني: لكن من أمر بصدقة، وقيل: النجوى ها هنا الرجال المتناجون، كما قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٤٧].

﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ أي: حث عليها ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ أي: بطاعة الله وما يعرفه الشرع، وأعمال البر كلها معروف؛ لأن العقول تعرفها.

فينبغي لمن يقدر على إسداء المعروف أن يعجله حذار فواته، ويبادر به خيفة عجزه؛

وليعلم أنه من فرض زمانه، وغنائم إمكانه، ولا يهمله ثقة بالقدرة عليه، فكم من واثق بالقدرة، ففاتت، فأعقبت ندمًا.

ويقول الإمام الرازي: وإنما ذكر الله هذه الأقسام الثلاثة، وذلك لأن عمل الخير إما أن يكون بإيصال المنفعة، أو بدفع المضرة، أما إيصال الخير، فإما أن يكون من الخيرات الجسمانية، وهو إعطاء المال، وإليه الإشارة بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ﴾ وإما أن يكون من الخيرات الروحانية، وهو عبارة عن تكميل القوة النظرية بالعلوم، أو تكميل القوة العملية بالأفعال الحسنة، ومجموعهما عبارة عن الأمر بالمعروف، وإليه الإشارة بقوله: ﴿أَوْ مَعْرُوفٍ﴾ وأما إزالة الضرر، فإليها الإشارة بقوله: ﴿أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ فثبت أن مجامع الخيرات مذكورة في هذه الآية[1].

فلقد حض القرآن على الإصلاح بين الناس سواء أكانوا جماعات أم أفرادًا؛ لأن التخاصم والتنازع يؤدي إلى انتشار العداوات والمفاسد بين الناس، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾[الحجرات: ٢١].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصدقة والصلاة؟) قال: قلنا: بلى، قال: (إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين هي الحالقة)**[2].

٤ . ثمرة الشورى.

قال: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨].

يقول الإمام ابن عاشور: «**فإذ قد كانت الشورى مفضية إلى الرشد والصواب، وكان من أفضل آثارها أن اهتدى بسببها الأنصار إلى الإسلام؛ أثنى الله بها على الإطلاق دون تقييد بالشورى الخاصة التي تشاور بها الأنصار في الإيمان، وأي أمر أعظم من أمر الإيمان**»[3].

فمن ثمرة أمرهم بالشورى: أنه لا يستبد أحد منهم برأيه في أمر من الأمور المشتركة بينهم، وهذا لا يكون إلا فرعًا عن اجتماعهم وتوالفهم وتوادهم وتحاببهم، وكمال عقولهم، أنهم إذا أرادوا أمرًا من الأمور التي تحتاج إلى إعمال الفكر والرأي فيها اجتمعوا لها، وتشاوروا، وبحثوا فيها، حتى إذا تبينت

---

(١) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٢٨٦، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢١٨.

(٢) أخرجه أحمد ٤٥/ ٥٠٠، رقم ٢٧٥٠٨، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في إصلاح ذات البين، ٤/ ٢٨٠، رقم ٤٩١٩، والترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة، باب سوء ذات البين، ٤/ ٢٤٤، رقم ٢٥٠٩، وصححه. وصححه الألباني في صحيح الجامع ١/ ٥٠٦، رقم ٢٥٩٥.

(٣) التحرير والتنوير ٢٥/ ١١٢.

لهم المصلحة، انتهزوها وبادروها؛ وذلك كالرأي في الغزو والجهاد، وتولية الموظفين لإمارة أو قضاء أو غيره، وكالبحث في المسائل الدينية عمومًا، فإنها من الأمور المشتركة، والبحث فيها لبيان الصواب مما يحبه الله، وهو داخل في هذه الآية[1].

ولذلك حث النبي صلى الله عليه وسلم على الائتمار بالمعروف بين الزوجين، فقال: ﴿وَأْتَمِرُوا بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق: ٦].

ثالثًا: أوامر المنافقين:

مما لا يحتاج إلى بيان أن أوامر المنافقين تنصب في جانب الشر والفساد، وتوصل متبعها إلى الهلاك والخسران، وهذا ما بينه القرآن من خلال إبرازه لأوامر المنافقين، والمظهرة كما يلي:

١ . الأمر بالمنكر.

قال تعالى: ﴿وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُم مِّن بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

يقول تعالى ذكره: في شأن المنافقين والمنافقات، وهم الذين يظهرون للمؤمنين الإيمان بألسنتهم، ويسرون الكفر بالله ورسوله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: بعضهم على دين بعض، وقال مقاتل: بعضهم أولياء بعض، ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنكَرِ﴾ وهو الكفر، ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ﴾ وهو الإيمان.

وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أربعة أقوال:

أحدها: يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله، قاله ابن عباس والحسن ومجاهد.

والثاني: عن كل خير، قاله قتادة.

والثالث: عن الجهاد في سبيل الله.

والرابع: عن رفعها في الدعاء إلى الله، ذكرهما الماوردي[2].

ثم أتبع ذلك بقوله: ﴿نَسُوا اللَّهَ﴾ أي: نسوا ذكر الله ﴿فَنَسِيَهُمْ﴾ أي: عاملهم معاملة من نسيهم، كقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الجاثية: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة[3].

قال الإمام الرازي: «اعلم أن هذا شرح لنوع آخر من أنواع فضائحهم وقبائحهم، والمقصود: بيان أن إناثهم كذكورهم في تلك الأعمال المنكرة، والأفعال الخبيثة،

(١) انظر: التيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٧٥٩.

(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٢٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٧٣.

أي: في صفة النفاق؛ وذلك كما يقول إنسان لآخر: أنت مني وأنا منك، أي: أمرنا واحد لا مباينة فيه ولا مخالفة»(١).

قال الإمام الزمخشري: أريد به نفي أن يكونوا من المؤمنين، وتكذيبهم في قولهم: ﴿وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ﴾ [التوبة: ٥٦].

وتقرير قوله: ﴿وَمَا هُم مِّنكُمۡ﴾ ثم وصفهم بما يدل على مضادة حالهم لحال المؤمنين بقوله: ﴿يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ﴾ كالكفر والمعاصي ﴿وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ كالإيمان والطاعات(٢).

٢ . الأمر بالبخل.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٣٧].

وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤].

فالحق سبحانه يقول: إن الله لا يحب المختال الفخور، الذي يبخل، ويأمر الناس بالبخل، و(البخل) في كلام العرب: منع الرجل سائله ما لديه، وعنده ما فضل عنه، و(الشح): أن يشح على ما في أيدي الناس، ويحب أن يكون له ما في أيدي الناس بالحل والحرام، لا يقنع، وقد قيل: إن الله جل ثناؤه عنى بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ الذين كتموا اسم محمد صلى الله عليه وسلم وصفته من اليهود، ولم يبينوه للناس، وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل.

والمراد بهذه الآية في قول ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: اليهود، فإنهم جمعوا بين الاختيال والفخر والبخل بالمال وكتمان ما أنزل الله من التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم، وقيل: المراد المنافقون الذين كان إنفاقهم وإيمانهم تقية، والمعنى: إن الله لا يحب كل مختال فخور، ولا الذين يبخلون ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ توعد المؤمنين الباخلين من توعد الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة، والثاني عذابًا مهينًا(٣).

٣ . أمر الغير بالبر دون النفس.

قال تعالى: ﴿أَتَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبِرِّ وَتَنسَوۡنَ أَنفُسَكُمۡ وَأَنتُمۡ تَتۡلُونَ ٱلۡكِتَٰبَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

اختلف العلماء في المراد بالبر في هذا الموضع على وجوه، أحدها: وهو قول السدي: أنهم كانوا يأمرون الناس بطاعة الله وينهونهم عن معصية الله، وهم كانوا

(١) مفاتيح الغيب، ٤/ ٤٧٠.
(٢) الكشاف ٤/ ٢٨٧.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٣.

يتركون الطاعة، ويقدمون على المعصية...

وسادسها: لعل المنافقين من اليهود كانوا يأمرون باتباع محمد صلى الله عليه وسلم في الظاهر، ثم إنهم كانوا في قلوبهم منكرين له فوبخهم الله تعالى عليه، وسابعًا: أن اليهود كانوا يأمرون غيرهم باتباع التوراة، ثم إنهم خالفوه؛ لأنهم وجدوا فيها ما يدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم، ثم إنهم ما آمنوا به[(١)].

أي: أتأمرون الناس بالطاعة، وتتركون أنفسكم فلا تتبعونه، وأنتم تقرؤون التوراة فيها نعته وصفته، أفلا تعقلون أنه حق فتتبعونه؟ والعقل مأخوذ من عقال الدابة، وهو ما يشد به ركبة البعير فيمنعه من الشرود، فكذلك العقل يمنع صاحبه من الكفر والجحود[(٢)].

فالمراد بقوله: ﴿وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ﴾ وتنسون أنفسكم أنكم تغفلون عن حق أنفسكم، وتعدلون عما لها فيه من النفع، أما قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ فمعناه: تقرؤون التوراة وتدرسونها، وتعلمون بما فيها من الحث على أفعال البر والإعراض عن أفعال الإثم، وأما قوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فهو تعجب للعقلاء من أفعالهم، ونظيره قوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٧][(٣)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(رأيت ليلة أسري بي رجالًا تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء خطباء من أمتك، يأمرون الناس بالبر، وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب)**[(٤)].

رابعًا: أوامر الجبابرة والمسرفين:

تتمثل أوامر الجبابرة والمسرفين كما يلي:

١ . أمرهم بالكفر بالله.

كما قال: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا﴾ [سبأ: ٣٣].

فالآية تشير إلى ما قاله الأتباع للرؤساء في الضلال: قالوا لهم: صدنا مكركم بنا، وخداعكم في الليل والنهار حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله، ونجعل له أمثالًا وأشباهًا في العبادة، وإجمال ذلك: ما صدنا إلا مكركم أيها الرؤساء بالليل والنهار حتى أزلتمونا عن عبادة الله، فأنتم كنتم تغروننا

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٣/ ٤٨٨.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ١/ ٨٩.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٣/ ٤٨٨.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٢١/ ١٥٨، رقم ١٣٥١٥، وابن حبان في صحيحه، ١/ ٢٤٩، رقم ٥٣.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ١/ ١٨٣.

وتمنوننا وتخبروننا أننا على الهدى، وإنا على شيء، وكل ذلك باطل وكذب، وهذا تطاول من المستضعفين على مستكبريهم لما رأوا قلة غنائهم عنهم واحتقروهم، حين علموا كذبهم وبهتانهم، وقد حكي نظير ذلك في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾[البقرة: ١٦٦].

والمراد بالذين استضعفوا: الأتباع والعامة من الناس، والمراد بالذين استكبروا: الزعماء والقادة والرؤساء[١].

وهذا ما فعله فرعون وتبعه فيه قومه: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٦-٩٧].

قال الزجاج: يعني: بعلاماتنا التي تدل على صحة نبوته.

﴿وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ﴾ أي: حجة بينة، ثم قال: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ﴾ أي: شأنه وحاله، وهو ما أمرهم به من عبادته واتخاذه إلهًا، وخالفوا أمر الله تعالى ﴿وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ أي: مرشد إلى خير[٢]. أو بسديد يؤدي إلى صواب.

٢. الأمر بعبادة غير الله.

كما قال: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾[الزمر: ٦٤].

وهذه كتيجة لما قبلها، أو هي من لاوازم الأمر بالكفر بالله.

يقول تعالى ذكره لنبيه: قل يا محمد لمشركي قومك، الداعين إلى عبادة الأوثان: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ﴾ أيها الجاهلون بالله ﴿تَأْمُرُونِّي﴾ أن ﴿أَعْبُدُ﴾ ولا تصلح العبادة لشيء سواه؛ وذلك حين قال له المشركون: استلم بعض آلهتنا ونؤمن بإلهك، قال مقاتل: وذلك أن كفار قريش دعوه إلى دين آبائه[٣].

وأقول: نظير هذه الآية، قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ١٤].

وإنما وصفهم بالجهل لأنه تقدم وصف الإله بكونه خالقًا للأشياء، وبكونه مالكًا لمقاليد السماوات والأرض، وظاهر كون هذه الأصنام جمادات أنها لا تضر ولا تنفع، ومن أعرض عن عبادة الإله الموصوف بتلك الصفات الشريفة المقدسة، واشتغل بعبادة هذه الأجسام الخسيسة، فقد بلغ في الجهل مبلغًا لا مزيد عليه؛ فلهذا السبب قال: ﴿أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ﴾ ولاشك أن وصفهم بهذا الأمر لائق بهذا الموضع[٤].

(١) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٣/ ٧٦، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٠٩.
(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٢/ ٣٩٩، والجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٩٣.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢١/ ٣٢٢.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٣٠، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٧/ ٤٧١.

٣. الأمر بالفاحشة.

قال تعالى: ﴿قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ [يوسف: ٣٢].

فتقول امرأة العزيز لسيدنا يوسف عليه السلام: ﴿وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ﴾ يعني: وإن لم يطاوعني فيما دعوته إليه، أي: فيما قد أمرته فيما تقدم ذكره عند أن أغلقت الأبواب، وقالت: هيت لك، يعني حينما طلبت منه الفحشاء فأبى، ولئن لم يفعل ما أمره به مستقبلًا ﴿لَيُسْجَنَنَّ﴾ أي: ليعاقبن بالسجن والحبس ﴿وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾ يعني: من الأذلاء المهانين، فقال النسوة ليوسف: أطع مولاتك فيما دعتك إليه، فاختار يوسف السجن على المعصية حين توعدته المرأة بذلك، والمراد: أن يوسف عليه السلام إن لم يوافقها على مرادها يوقع في السجن وفي الصغار، ومعلوم أن التوعد بالصغار له تأثير عظيم في حق من كان رفيع النفس، عظيم الخطر، مثل يوسف عليه السلام[(١)].

٤ . يقتلون الذين يأمرون بالقسط.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[آل عمران: ٢١].

قال الإمام القرطبي: «قال أبو العباس المبرد: كان ناس من بني إسرائيل جاءهم النبيون يدعونهم إلى الله عز وجل فقتلوهم، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسلام فقتلوهم، ففيهم نزلت هذه الآية، وكذلك قال معقل بن أبي مسكين: كانت الأنبياء -صلوات الله عليهم- تجئ إلى بني إسرائيل بغير كتاب فيقتلونهم، فيقوم قوم ممن اتبعهم فيأمرون بالقسط، أي بالعدل، فيقتلون»[(٢)].

وهذا ذمٌّ من الله تعالى لأهل الكتاب فيما ارتكبوه من المآثم والمحارم في تكذيبهم بآيات الله قديمًا وحديثًا، التي بلغتهم إياها الرسل، استكبارًا عليهم، وعنادًا لهم، وتعاظمًا على الحق، واستنكافًا عن اتباعه، ومع هذا قتلوا من قتلوا من النبيين حين بلغوهم عن الله شرعه، بغير سبب ولا جريمة منهم إليهم، إلا لكونهم دعوهم إلى الحق ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ وهذا هو غاية الكبر[(٣)].

ومثله: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٨/ ٤٥١، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٢٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن ٤/ ٤٦.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٢٧.

﴿فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

٥. الإفساد في الأرض من الشرك ومخالفة الحق.

قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ [الشعراء: ١٥٠-١٥٢].

يقول الإمام ابن كثير: أي: «أقبلوا على عمل ما يعود نفعه عليكم في الدنيا والآخرة، من عبادة ربكم الذي خلقكم ورزقكم لتوحدوه وتعبدوه وتسبحوه بكرة وأصيلًا ﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ يعني: رؤساءهم وكبراءهم، الدعاة لهم إلى الشرك والكفر، ومخالفة الحق»[(١)].

ويقول الإمام الشوكاني: «﴿وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ﴾ أي: المشركين، وقيل: الذين عقروا الناقة، ثم وصف هؤلاء المسرفين بقوله: ﴿الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ﴾ أي: ذلك دأبهم يفعلون الفساد في الأرض، ولا يصدر منهم الصلاح ألبته»[(٢)].

جزاء اتباع الأمر الانساني

لاشك أن اتباع أمر الأنبياء والمؤمنين يتبعه الفلاح والنجاح في الدنيا والآخرة، أما اتباع أمر المنافقين والكافرين سيكون عاقبته الخسران والضلال المبين، وهذا ما بينه القرآن الكريم كما يلي:

أولًا: جزاء اتباع أمر المؤمنين والأنبياء:

١. الوصف بالفلاح.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

جاء في تفسير الخازن: «﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ﴾ يعني: بمحمد عليه الصلاة والسلام ﴿وَعَزَّرُوهُ﴾ يعني: وقروه وعظموه، وأصل التعزير: المنع والنصرة، وتعزير النبي صلى الله عليه وسلم تعظيمه وإجلاله، ودفع الأعداء عنه، وهو قوله ﴿وَنَصَرُوهُ﴾ يعني: على أعدائه ﴿وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ﴾ يعني: القرآن، سمي القرآن نورًا

(١) المصدر السابق ٦/ ١٥٦.
(٢) فتح القدير ٤/ ١٣٠.

لأن به يستنير قلب المؤمن، فيخرج به من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ يعني: هم الناجون الفائزون بالهداية، أي: هم الفائزون بالمطلوب في الدنيا والآخرة»[1].

ويقول الإمام أبو زهرة: «فقد حكم الله سبحانه وتعالى على الذين قاموا بهذه الصفات -ومن بين تلك الصفات اتباع أمر النبي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- بأنهم الفائزون في الدنيا باتباع الحق، وأن حياتهم كلها فاضلة، وأن تكون حياتهم في الآخرة نعيمًا مقيمًا، ورضوانًا من الله العزيز الحكيم، وهو أكبر الفوز العظيم؛ ولذا قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ والإشارة إلى الصفات يفيد أنها علة الحكم وسببه، أي: بسبب هذه الصفات ينالون الفلاح في الدنيا والآخرة؛ لأن الهداية والاستقامة فلاح لا يدركه إلا من استقامت إلى الحق نفوسهم»[2].

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

قلت: فلاشك أن الإيمان بالنبي يتبعه تنفيذ ما أمر به، ومن جملة ما أمر به الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، فالإيمان بالرسول وما يقتضيه ذلك من اتباع أمره يكون لصاحبه الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة.

٢. نيل الأجر العظيم.

قال تعالى: ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٤].

يقول الإمام البغوي: يعني: ومن يفعل هذه الأشياء التي ذكرها -وهي الأمر بالصدقة والمعروف والإصلاح بين الناس- ابتغاء مرضاة الله، أي: طلب رضاه، وخرج عنه من فعل ذلك رياء أو ترؤسًا فسوف نؤتيه في الآخرة ﴿أَجْرًا عَظِيمًا﴾ قرأ أبو عمرو وحمزة:)يؤتيه(بالياء، يعني: يؤتيه الله، وقرأ الآخرون بالنون، أي: ثوابًا كثيرًا واسعًا. و(سوف) هنا لتأكيد الوقوع في المستقبل[3].

٣. نيل الرحمة من الله.

قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ

(١) لباب التأويل ٢/ ٢٥٨.
(٢) زهرة التفاسير ٦/ ٢٩٧٤.
(٣) معالم التنزيل ٢/ ٢٨٧.

﴿سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

يقول الإمام ابن كثير: أي: سيرحم الله من اتصف بهذه الصفات، والتي منها الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ أي: من أطاعه أعزه، فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ﴿حَكِيمٌ﴾ في قسمته هذه الصفات لهؤلاء، والسين في قوله: ﴿سَيَرْحَمُهُمُ﴾ مدخلة في الوعد مهلةً لتكون النفوس تتنعم برجائه، وفضله تعالى زعيم بالإنجاز، والإشارة للدلالة على أن ما سيرد بعد اسم الإشارة صاروا أحرياء به من أجل الأوصاف المذكورة قبل اسم الإشارة[(١)].

٤ . البشرى من الله.

قال تعالى: ﴿التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١٢].

ذكر الله تعالى في هذه الآية تسعة أوصاف للمؤمنين، الستة الأولى منها تتعلق بمعاملة الخالق، والوصفان السابع والثامن يتعلقان بمعاملة المخلوق، والوصف التاسع يعم القبيلين[(٢)].

فمن ضمن أوصاف المؤمنين: أن ينتشر ويبرز المجتمع الفاضل الذي يقوم على الأمر بالمعروف، أي: كل ما هو معروف لا تنكره العقول السليمة، والنهي عن كل أمر تنكره العقول السليمة، فإن المجتمع الفاضل ظل لكل خلق سليم ينمو في ظله الوارف؛ ولذا كانت أمة محمد أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيه أناس يدعون الناس إلى الرشد والهدى، وينهونهم عن الفساد والردى، فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ﴾ [آل عمران: ١١٠][(٣)].

وقال البيضاوي: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني: ويبشر به هؤلاء الموصوفين بتلك الفضائل -والتي من بينها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر-، ووضع المؤمنين موضع ضمير (هم) للتنبيه على أن إيمانهم دعاهم إلى ذلك، وأن المؤمن الكامل من كان كذلك، وحذف المبشر به للتعظيم، وللإيذان بخروجه عن حد البيان، كأنه قيل: وبشرهم بما يجل عن إحاطة الأفهام، وتعبير الكلام»[(٤)]. أو بشر أيها الرسول المؤمنين المتصفين بهذه الصفات -ومن بينهم الآمرون بالمعروف والناهون عن

(١) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ١٧٥.
(٢) انظر: حاشية الجمل ٢/ ٣٢١.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٤٥٧.
(٤) أنوار التنزيل ٣/ ٩٩.

المنكر- بخيري الدنيا والآخرة، وخصت تلك الخلال بالذكر لأن بها تكون المحافظة على حدود الله[1].

ثانيًا: جزاء اتباع أمر الجبابرة والمسرفين ما يلي:

١. العذاب الأليم.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١].

يقول الإمام ابن كثير: «فلما تكبروا عن الحق، واستكبروا على الخلق، قابلهم الله على ذلك بالذلة والصغار في الدنيا، والعذاب المهين في الآخرة، فقال: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي: موجع مهين»[2].

والفاء في ﴿فَبَشِّرۡهُم﴾ فاء الجواب المستعملة في الشرط، دخلت على خبر (إن) لأن اسم (إن) وهو موصول تضمن معنى الشرط، إشارة إلى أنه ليس المقصود قومًا معينين، بل كل من يتصف بالصلة فجزاؤه أن يعلم أن له عذابًا أليمًا. واستعمل (بشرهم) في معنى أنذرهم تهكمًا، وحقيقة التبشير: الإخبار بما يظهر سرور المخبر (بفتح الباء) وهو هنا مستعمل في ضد حقيقته؛ إذ أريد به الإخبار بحصول العذاب، وهو موجب لحزن المخبرين، فهذا الاستعمال في الضد معدود عند علماء البيان من الاستعارة، ويسمونها تهكمية؛ لأن تشبيه الضد بضده لا يروج في عقل أحد إلا على معنى التهكم أو التمليح[3].

٢. الأغلال ونار جهنم.

يقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَۚ وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ هَلۡ يُجۡزَوۡنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [سبأ: ٣٣].

قال الإمام الطبري: «قوله: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلۡأَغۡلَٰلَ فِيٓ أَعۡنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: وغلت أيدي الكافرين بالله»[4]، والأغلال: هي السلاسل التي تجمع أيديهم مع أعناقهم[5] في جهنم، يقول جل ثناؤه: ما يفعل الله ذلك بهم إلا ثوابًا لأعمالهم الخبيثة التي كانوا في الدنيا يعملونها، ومكافأة لهم عليها، كل بحسبه، للقادة عذاب بحسبهم، وللأتباع بحسبهم ﴿قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾

(١) انظر: تفسير المراغي ١١/ ٣٤.
(٢) تفسير القرآن العظيم ٢/ ٢٨٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣/ ٢٠٧٥.
(٤) جامع البيان ٢٠/ ٤٠٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٢٠.

[الأعراف: ٣٨].

أي: إنما نجازي الفريقين وأمثالهم، كل بحسب عمله، وبسبب ما اقترفه من الشرك بالله والإثم، فللقادة عذاب يناسبهم، وللأتباع عذاب آخر يلائمهم، ولا ظلم ولا تحامل، كما جاء في آية أخرى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

ومما لا شك فيه أن القادة إلى الضلال أسوأ من الأتباع، فهم الذين يستحقون مضاعفة العذاب وأليم العقاب، ولكن يشاركهم الأتباع في هذا العذاب؛ لأنهم عطلوا نعمة العقل والوعي، وقلدوا غيرهم تقليدًا أعمى، وكان جديرًا بهم أن يتحرروا من ربقة التقليد، فكانت عقائدهم فاسدة، وأعمالهم سيئة كقادتهم، فاستحقوا جميعًا التخليد في عذاب جهنم، وبئس المصير[(١)].

٣. العذاب المهين.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ [النساء: ٣٧].

لقد ذكر سبحانه وتعالى في هذه الآية من الأحوال المذمومة ثلاثًا: أولها- كون الإنسان بخيلًا وهو المراد بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ﴾ وثانيها: كونهم آمرين لغيرهم بالبخل، وهذا هو النهاية في حب البخل، وهو المراد بقوله: ﴿وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ﴾ وثالثها: قوله: ﴿وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ فيوهمون الفقر مع الغنى، والإعسار مع اليسار، والعجز مع الإمكان، ثم إن هذا الكتمان قد يقع على وجه يوجب الكفر، مثل أن يظهر الشكاية عن الله تعالى، ولا يرضى بالقضاء والقدر، وهذا ينتهي إلى حد الكفر؛ فلذلك قال: ﴿وَأَعۡتَدۡنَا لِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٗا مُّهِينٗا﴾ ومن قال: الآية مخصوصة باليهود فكلامه في هذا الموضع ظاهر؛ لأن من كتم الدين والنبوة فهو كافر، ويمكن أيضًا أن يكون المراد من هذا الكافر من يكون كافرًا بالنعمة، لا من يكون كافرًا بالدين والشرع[(٢)].

فهناك: توعد للمؤمنين الباخلين من توعد الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة، والثاني عذابًا مهينًا، أي: قد هيأنا من غاية قهرنا، وانتقامنا للكافرين لنعمنا كفرانًا ناشئًا عن محض النفاق والشقاق، عذابًا طردًا وحرمانًا مؤلمًا، وتخذيلًا وإذلالًا مهينًا[(٣)].

٤ . الوصف بالفسق.

كما قال: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡ

(١) انظر: الوسيط، الزحيلي ٣/ ٢١٠٩.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ١٠/ ٧٩.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٥/ ١٩٣.

﴿نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٦٧].

إن المنافقين هم الفاسقون هم الكاملون في الفسق الذي هو التمرد في الكفر والانسلاخ عن كل خير، وكفى المسلم زاجرًا أن يلم بما يكسبه هذا الاسم الفاحش الذي وصف به المنافقون حين بالغ في ذمهم، أي: أنهم الخارجون عن طريق الحق، الداخلون في طريق الضلالة، فهذا تذييل قصد به المبالغة في ذمهم، وصيغة القصر في ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ قصر ادعائي للمبالغة؛ لأنهم لما بلغوا النهاية في الفسوق جعل غيرهم كمن ليس بفاسق، والإظهار في مقام الإضمار في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ لزيادة تقريرهم في الذهن لهذا الحكم؛ ولتكون الجملة مستقلة حتى تكون كالمثل[(١)].

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٠/ ٢٥٥.

أوامر ابليس وذريته

أوضح القرآن الكريم أوامر إبليس لعنه الله وذريته وعاقبة اتباعها، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أوامر إبليس:

لا شك أن أوامر إبليس تتمثل في العقائد الفاسدة، والأحكام الباطلة التي تخالف منهاج الدين، ويتضح ذلك فيما يلي:

١ . الأمر بتبتيك آذان الأنعام.

قال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ﴾ [النساء: ١١٩].

البتك: القطع، والتبتيك للتكثير والتكرير، أي: لأحملنهم على أن يقطعوا آذان الأنعام، وكانوا يشقون آذان الناقة إذا ولدت خمسة أبطن، وجاء الخامس ذكرًا، وحرموا على أنفسهم الانتفاع بها، وقال آخرون: المراد أنهم يقطعون آذان الأنعام نسكًا في عبادة الأوثان، فهم يظنون أن ذلك عبادة مع أنه في نفسه كفر وفسق، سول لهم إبليس أن هذا قربةٌ إلى الله تعالى، فهو كالأمر لهم الذي يجعل ما ليس بعبادة أصلًا عبادة، وإن ذلك تشويه لما خلق الله سبحانه وتعالى[(٢)].

(٢) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٧٤، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٢٢٣، مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٣٩٧.

يروى في ذلك أن أبا الأحوص من الصحابة أتى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان رث الهيئة، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: (هل لك من مال؟) قال: نعم؛ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (فإذا آتاك الله مالًا فلير عليك أثره) ثم قال عليه الصلاة والسلام: (هل تنتج إبل قومك صحاحًا آذانها، فتعمد إلى موسى فتشق آذانها، وتقول: هذه بحر -أي: جمع بحيرة- وتشق جلودها، وتقول: هذه صرم -جمع صريمة-) قال: أجل، قال: (كل ما آتاك الله حل، وموسى الله أحد من موساك، وساعد الله أشد من ساعدك)[1].

٢. الأمر بتغيير خلق الله.

قال تعالى: ﴿وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩].

يعني: بفقء عين الحامي، وإعفائه عن الركوب أو بالخصاء، وهو مباح في البهائم محظور في بني آدم، أو بالوشم، أو بنفي الأنساب واستلحاقها، أو بتغيير الشيب بالسواد، أو بالتحريم والتحليل، أو بالتخنث، أو بتبديل فطرة الله التي هي دين الإسلام؛ ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

وكذلك استعمال الجوارح والقوى فيما لا يعود على النفس كمالًا، ولا يوجب لها من الله سبحانه وتعالى زلفى[2].

فتغيير الخلق يشمل التغيير المادي والمعنوي، وكان كل ذلك خضوعًا لأوامر الشيطان، فكانوا بهذا أولياءه، كما قال الإمام أبو زهرة[3].

ولقد قال النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه: (إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإن الشياطين أتتهم فاجتالتهم عن دينهم، فحرمت عليهم ما أحللت، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وأمرتهم أن يغيروا خلقي)[4].

٣. الأمر بالفحشاء والمنكر.

كما قال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

يقول الإمام الرازي: «اعلم أنه تعالى لما رغب الإنسان في إنفاق أجود ما يملكه حذره بعد ذلك من وسوسة الشيطان، فقال: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ﴾ أي: يقال: إن أنفقت الأجود صرت فقيرًا، فلا تبال بقوله،

---

(١) أخرجه أحمد ٢٥/ ٢٢٦، رقم ١٥٨٩١، والترمذي في سننه، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في الإحسان والعفو ٣/ ٤٣٢، رقم ٢٠٠٦.
وصححه الألباني في التعليقات الحسان على صحيح ابن حبان ٨/ ٥٩.

(٢) انظر: أنوار التنزيل البيضاوي ٢/ ٩٨.

(٣) زهرة التفاسير ٤/ ١٨٦٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا ٤/ ٢١٩٧، رقم ٢٨٦٥.

فإن الرحمن يعدكم مغفرة منه...، ثم قال: أما قوله: (الفحشاء) ففيه وجوه، الأول: أن الفحشاء هي البخل ﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: ويغريكم على البخل إغراء الأمر للمأمور.

الوجه الثاني: في تفسير الفحشاء، وهو أنه يقول: لا تنفق الجيد من مالك في طاعة الله؛ لئلا تصير فقيرًا، فإذا أطاع الرجل الشيطان في ذلك زاد الشيطان، فيمنعه من الإنفاق في الكلية حتى لا يعطي لا الجيد ولا الرديء، وحتى يمنع الحقوق الواجبة، فلا يؤدي الزكاة، ولا يصل الرحم، ولا يرد الوديعة، فإذا صار هكذا سقط وقع الذنوب عن قلبه، ويصير غير مبال بارتكابها، وهناك يتسع الخرق، ويصير مقدامًا على كل الذنوب؛ وذلك هو الفحشاء»[1].

وقال الإمام ابن كثير: «﴿وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ أي: مع نهيه إياكم عن الإنفاق خشية الإملاق، يأمركم بالمعاصي والمآثم والمحارم، ومخالفة الأخلاق»[2].

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٩].

وهذه الآية بيان لعداوته، ووجوب التحرز عن متابعته، واستعير الأمر لتزيينه وبعثه لهم على الشر تسفيهًا لرأيهم، وتحقيرًا لشأنهم، والسوء والفحشاء ما أنكره العقل، واستقبحه الشرع، والعطف لاختلاف الوصفين، فإنه سوء لاغتمام العاقل به، وفحشاء باستقباحه إياه.

وقيل: السوء يعم القبائح، والفحشاء ما يتجاوز الحد في القبح من الكبائر.

وقيل: الأول ما لا حد فيه، والثاني: ما شرع فيه الحد، فالسوء ما يسوء صاحبه ويخزيه، والفحشاء يعني بها المعاصي، وما قبح من قول أو فعل[3].

وقال الإمام ابن كثير: «أي: إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم، فدخل في هذا كل كافر، وكل مبتدع أيضًا»[4].

ونظير ذلك قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[: ٢١].

ثانيًا: عاقبة اتباع أوامر إبليس وذريته في الدنيا والآخرة:

يتمثل في الخسران المبين في الدارين، كما قال تعالى: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَءَامُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَّخِذِ

(١) مفاتيح الغيب ٧/ ٥٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم ١/ ٧٠٠.
(٣) انظر: أنوار التنزيل البيضاوي ١/ ١١٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم ١/ ٤٨٠.

﴿الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ١١٩].

قال البيضاوي: «يعني: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ بإيثاره ما يدعو إليه على ما أمر الله به ومجاوزته عن طاعة الله سبحانه وتعالى إلى طاعته، ﴿فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا﴾ إذا ضيع رأس ماله، وبدل مكانه من الجنة بمكان من النار، فهذا الخسران في غاية الظهور والرداءة بما تعطيه صيغة الفعلان»[(١)].

فمن يوالي الشيطان فيطيعه مع أنه متمرد عن الحق، داعٍ إلى الشر، ويترك الحق وأمر الله، فإنه بهذا يخسر خسرانًا واضحًا، يخسر الحق فلا يتبعه، ويرتكب الشر، ويترك المعقول إلى المرذول، ويمسخ فطرة الله تعالى، وتنحرف نفسه، ويلتوي تفكيره، وتشوه إنسانيته؛ وذلك خزي في الدنيا ووراءه عذاب في الآخرة، وأي: خسارة أعظم من هذه الخسارة وأوضح منها[(٢)].

وهكذا يتبين لنا: أن طاعة الله تعالى تفيد المنافع العظيمة الدائمة، الخالصة عن شوائب الضرر، وطاعة الشيطان تفيد المنافع القليلة المنقطعة، المشوبة بالغموم والأحزان، ويعمها العذاب الدائم، وهذا هو الخسار المطلق؛ وتلك خسارة لا جبر لها، ولا استدراك لفائتها[(٣)].

موضوعات ذات صلة:

الحرام، الحلال

(١) أنوار التنزيل ٢/ ٩٨.
(٢) زهرة التفاسير ٤/ ١٨٦٦.
(٣) انظر: اللباب في علوم القرآن، ابن عادل ٧/ ٣٧.



عناصر الموضوع

مفهوم الأمن	١١٦
الأمن في الاستعمال القرآني	١١٧
الألفاظ ذات الصلة	١١٨
الأساليب القرآنية في عرض الأمن	١٢٠
أنواع الأمن	١٢٨
آثار الأمن على الفرد والمجتمع	١٤٩

مفهوم الأمن

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمن ضد الخوف، والمأمن: موضع الأمن، والآمن: المستجير ليأمن على نفسه[1]، والأمان والأمانة بمعنًى، وقد أمنت فأنا آمن، وآمنت غيري من الأمن والأمان[2]، وأمن كفرح أمنًا وأمانًا بفتحهما، وأمنًا وأمنةً محركتين، وإمنًا بالكسر، فهو أمن وأمين كفرح وأمير، ورجل أمنةٌ كهمزة ويحرك: يأمنه كل أحد في كل شيء[3]، والأمن والأمانة والأمان في الأصل مصادر، ويجعل الأمان تارة اسمًا للحالة التي يكون عليها الإنسان في الأمن، وتارة اسمًا لما يؤمن عليه الإنسان[4].

ومن خلال ما تقدم من معانٍ لغوية يتضح لنا أن كلمة الأمن لها عدة إطلاقات: فهي تعنى الطمأنينة وعدم الخوف، أو الثقة والهدوء النفسي، إضافة إلى راحة القلب، وعدم وقوع الغدر أو الخيانة من الغير.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

عرفه المناوي بقوله: «عدم توقع مكروهٍ في الزمن الآتي، وأصله طمأنينة النفس، وزوال الخوف»[5].

وقال الراغب الأصفهاني: «أصل الأمن: طمأنينة النفس، وزوال الخوف»[6].

ومن خلال هذه المعاني اللغوية والاصطلاحية تبين أن هناك ارتباطًا بينها، فالأمن ضد الخوف، وهو يعني: الأمان والطمأنينة والسكون والثقة.

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١/ ١٠٧.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ٥/ ٢٠٧١.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ٤/ ١٩٧.
(٤) انظر: المفردات، ص ٩٠.
(٥) التوقيف، المناوي، ص٦٣.
(٦) المفردات، ص٩٠.



الأمن في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أمن) في القرآن (٨٥٣) مرة، ويخص موضوع البحث منها (٤٥) مرة[(١)].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٤	﴿أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ۝٩٧﴾ [الأعراف:٩٧]
الفعل المضارع	٧	﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ ۝١١﴾ [يوسف:١١]
المصدر	٧	﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء:٨٣]
اسم الفاعل	١٧	﴿وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ۝٩٩﴾ [يوسف:٩٩]

وجاء الأمن في القرآن بمعناه في اللغة وهو: طمأنينة النفس وزوال الخوف[(٢)].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٨١،٨٩.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٩٠.

الألفاظ ذات الصلة

١ الخوف:

الخوف لغة:

الخاء والواو والفاء أصلٌ واحدٌ يدل على الذعر والفزع[١].

الخوف اصطلاحًا:

«خلاف الأمن، والأمن سكون النفس، والخوف من انزعاجها وقلقها»[٢].

وقال التفتازاني: «غم يلحق الإنسان مما يتوقعه من السوء» [٣].

الصلة بين الأمن والخوف:

يلاحظ أن الخوف جاء على خلاف الأمن، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد.

٢ القلق:

القلق لغة:

القاف واللام والقاف كلمةٌ تدل على الانزعاج[٤].

القلق اصطلاحًا:

«حالة انفعالية، تتميز بالخوف مما قد يحدث»[٥].

الصلة بين الأمن والقلق:

القلق يدل على الانزعاج نتيجة الخوف، بخلاف الأمن الذي يدل على الطمأنينة والسكون، فالعلاقة بينهما علاقة تضاد.

٣ الطمأنينة:

الطمأنينة لغة:

السكون بعد الانزعاج[٦].

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٢٣٠.
(٢) الوجوه والنظائر، العسكري، ص ٢٠٣.
(٣) التوقيف، المناوي ص ١٦١
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٥/ ٢٣.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية،٢/ ٧٥٦.
(٦) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني،ص ٥٢٤.

الطمأنينة اصطلاحًا:

الاطمئنان والثقة، وعدم القلق والقرار[١].

الصلة بين الأمن والطمأنينة:

إن الأمن معناه طمأنينة النفس وزوال الخوف، فالعلاقة بينهما علاقة ترادف.

٤ السكينة:

السكينة لغة:

السكون ضد الحركة، سكن الشيء يسكن سكونًا: إذا ذهبت حركته، وأسكنه هو وسكنه غيره تسكينًا، وكل ما هدأ فقد سكن، كالريح والحر والبرد ونحو ذلك[٢].

السكينة اصطلاحًا:

هي الطمأنينة والوقار والسكون الذي ينزله الله في قلب عبده عند اضطرابه[٣].

الصلة بين الأمن والسكينة:

الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، والسكينة: الطمأنينة في القلب والاستقرار والرزانة والوقار.

٥ السلام:

السلام لغة:

أصل مادة (سلم) تفيد معنى السلامة من كل شر، والسلامة: أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى[٤].

السلام اصطلاحًا:

«تجرد النفس عن المحنة في الدارين»[٥].

الصلة بين الأمن والسلام:

الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، أما السلام: أن يسلم كل واحد منهما أن يناله ألم من صاحبه، مع وزوال المحنة[٦].

(١) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٥٦٧.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ١٣/ ٢١١.
(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ٢/ ٤٧١.
(٤) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٣/ ٩٠، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٢٥٤.
(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٤٢٣.
(٦) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٣/ ٢٥٤.

الأساليب القرآنية في عرض الأمن

تنوعت أساليب القرآن في الحديث عن الأمن، وبيانها فيما يأتي:

أولًا: الامتنان بالأمن:

إن نعمة الأمن من الخوف من أجل النعم التي من الله بها على العباد، والله سبحانه وتعالى ذكر عن إبراهيم عليه السلام دعاءه في سورة إبراهيم (٣٧-٤١) وذكر أنه طلب في دعائه أمورًا سبعةً.

وكان المطلوب الأول: أنه طلب من الله نعمة الأمان، وهو قوله: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا﴾ [البقرة: ١٢٦].

والابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات، وأنه لا يتم شيءٌ من مصالح الدين والدنيا إلا به، وسئل بعض العلماء: الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن أفضل[(١)].

وإن الله تعالى ذكر امتنانه على عباده بتلك النعمة الجليلة في غير ما آية من كتاب الله تعالى، ومن صور الامتنان بنعمة الأمن في القرآن الكريم ما يلي:

١ . الامتنان على أهل مكة.

وتكرر ذلك في أكثر من موضع في القرآن، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّا جَعَلۡنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنۡ حَوۡلِهِمۡۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَةِ ٱللَّهِ يَكۡفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ إِن نَّتَّبِعِ ٱلۡهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفۡ مِنۡ أَرۡضِنَآۚ أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنًا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧][(٢)].

عن قتادة قال: كان أهل الحرم آمنين يذهبون حيث شاءوا، إذا خرج أحدهم فقال: إني من أهل الحرم لم يتعرض له، وكان غيرهم من الناس إذا خرج أحدهم قتل[(٣)].

وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١ أَلَمۡ يَجۡعَلۡ كَيۡدَهُمۡ فِي تَضۡلِيلٖ ٢ وَأَرۡسَلَ عَلَيۡهِمۡ طَيۡرًا أَبَابِيلَ ٣ تَرۡمِيهِم بِحِجَارَةٖ مِّن سِجِّيلٖ ٤ فَجَعَلَهُمۡ كَعَصۡفٖ مَّأۡكُولِۭ﴾ [الفيل: ١ - ٥].

وقال: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١ إِۦلَٰفِهِمۡ رِحۡلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيۡفِ ٢ فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾ [قريش: ١ - ٤].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٩/ ١٠٣.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٥.

(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٢٨٨.

فكلتا السورتين تذكير بنعم الله على أهل مكة، فسورة الفيل تشتمل على إهلاك عدوهم (وهو نوع من تأمينهم) الذي جاء لهدم البيت الحرام أساس مجدهم وعزهم، وسورة قريش تذكر نعمة أخرى اجتماعية واقتصادية، حيث حقق الله بينهم الألفة واجتماع الكلمة، وأكرمهم بنعمة الأمن والاستقرار، ونعمة الغنى واليسار[1].

إنها منطقة الأمان يقيمها الله للبشر في زحمة الصراع، إنها الكعبة الحرام، تقدم في وسط المعركة المستعرة بين المتخاصمين والمتحاربين والمتصارعين والمتزاحمين على الحياة بين الأحياء من جميع الأنواع والأجناس، بين الرغائب والمطامع والشهوات والضرورات، فتحل الطمأنينة محل الخوف، ويحل السلام محل الخصام، وترف أجنحة من الحب والإخاء والأمن والسلام، وتدرب النفس البشرية في واقعها العملي-لا في عالم المثل والنظريات- على هذه المشاعر وهذه المعاني، فلا تبقى مجرد كلمات مجنحة ورؤى حالمة، تعز على التحقيق في واقع الحياة.

لقد جعل الله هذه الحرمات تشمل الإنسان، والطير، والحيوان، والحشرات بالأمن في البيت الحرام.

ولقد ألقى الله في قلوب العرب -حتى في جاهليتهم- حرمة هذه الأشهر، فكانوا لا يروعون فيها نفسًا، ولا يطلبون فيها دمًا، ولا يتوقعون فيها ثأرًا، حتى كان الرجل يلقى قاتل أبيه وابنه وأخيه فلا يؤذيه، فكانت مجالًا آمنًا للسياحة، والضرب في الأرض، وابتغاء الرزق.

جعلها الله كذلك لأنه أراد للكعبة -بيت الله الحرام- أن تكون مثابة أمن وسلام، تقيم الناس وتقيهم الخوف والفزع.

لقد جعل الله هذه الحرمات منذ بناء هذا البيت على أيدي إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وجعله مثابة للناس وأمنًا، حتى لقد امتن الله به على المشركين أنفسهم إذ كان بيت الله بينهم مثابة لهم وأمنًا، والناس من حولهم يتخطفون، وهم فيه وبه آمنون، ثم هم -بعد ذلك- لا يشكرون الله ولا يفردونه بالعبادة في بيت التوحيد، ويقولون للرسول صلى الله عليه وسلم إذ يدعوهم إلى التوحيد: ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾، فحكى الله قولهم هذا وبين حقيقة الأمن والمخافة، فقال: ﴿وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧][2].

وقال تعالى ممتنًا على قريش:

(١) انظر: التفسير المنير، الزحيلي ٣٠/ ٤١٢.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٩٥.

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

قال قتادة: «كان هذا الحي من العرب أذل الناس ذلًا، وأشقاه عيشًا، وأبينه ضلالةً، وأعراه جلودًا، وأجوعه بطونًا، مكعومين على رأس حجرٍ بين الأسدين: فارس والروم، لا والله ما في بلادهم يومئذٍ من شيءٍ يحسدون عليه، من عاش منهم عاش شقيًا، ومن مات ردي في النار، يؤكلون ولا يأكلون، والله ما نعلم قبيلًا يومئذٍ من حاضر الأرض، كانوا فيها أصغر حظًا وأدق فيها شأنًا منهم، حتى جاء الله عز وجل بالإسلام، فورثكم به الكتاب، وأحل لكم به دار الجهاد، ووضع لكم به من الرزق، وجعلكم به ملوكًا على رقاب الناس، وبالإسلام أعطى الله ما رأيتم، فاشكروا نعمه، فإن ربكم منعمٌ يحب الشاكرين، وإن أهل الشكر في مزيد الله، فتعالى ربنا وتبارك»[1].

٢. الامتنان على النبي صلى الله عليه وسلم، وعلى أصحابه رضوان الله عليهم.

قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقال: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

قال ابن كثير: «يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من إلقائه النعاس عليهم، أمانًا من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم، وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّن بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَائِفَةً مِّنكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

أما النعاس فقد أصابهم يوم أحدٍ، وأمر ذلك مشهورٌ جدًا، وأما يوم بدرٍ في هذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة بدرٍ، وهي دالةٌ على وقوع ذلك أيضًا، وكأن ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس لتكون قلوبهم آمنةً مطمئنةً بنصر الله، وهذا من فضل الله ورحمته بهم، ونعمه عليهم، وكما قال تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ - ٦]»[2].

وعن أنسٍ، عن أبي طلحة رضي الله عنهما قال: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحدٍ حتى سقط سيفي من يدي مرارًا، يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه»[3].

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٥٩.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٢٢.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قوله: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم)، رقم ٤٠٦٨.

قال ابن القيم: «وأنزل الله عليهم النعاس أمنةً منه في غزاة بدرٍ وأحدٍ، والنعاس في الحرب وعند الخوف دليلٌ على الأمن، وهو من الله»[1].

وقال الرازي: «واعلم أن كل نومٍ ونعاسٍ فإنه لا يحصل إلا من قبل الله تعالى، فتخصيص هذا النعاس بأنه من الله تعالى لابد فيه من مزيد فائدةٍ، وذكروا فيه وجوهًا:

أحدها: أن الخائف إذا خاف من عدوه الخوف الشديد على نفسه وأهله فإنه لا يأخذه النوم، وإذا نام الخائفون أمنوا، فصار حصول النوم لهم في وقت الخوف الشديد يدل على إزالة الخوف، وحصول الأمن.

وثانيها: أنهم خافوا من جهاتٍ كثيرةٍ.

أحدها: قلة المسلمين وكثرة الكفار.

وثانيها: الأهبة والآلة والعدة للكافرين وقلتها للمؤمنين.

وثالثها: العطش الشديد، فلولا حصول هذا النعاس، وحصول الاستراحة حتى تمكنوا في اليوم الثاني من القتال لما تم الظفر.

والوجه الثالث: في بيان كون ذلك النعاس نعمةً في حقهم، أنهم ما ناموا نومًا غرقًا يتمكن العدو من معاقصتهم، بل كان ذلك نعاسًا يحصل لهم زوال الأعيان والكلال، مع أنهم كانوا بحيث لو قصدهم العدو لعرفوا وصوله، ولقدروا على دفعه.

والوجه الرابع: أنه غشيهم هذا النعاس دفعةً واحدةً مع كثرتهم، وحصول النعاس للجمع العظيم في الخوف الشديد أمرٌ خارقٌ للعادة، فلهذا السبب قيل: إن ذلك النعاس كان في حكم المعجز»[2].

٣. الامتنان على أهل الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝ ادْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٦].

وقال: ﴿وَمَا أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُولَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

قال ابن القيم: «قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ ۝ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ [الدخان: ٥١ - ٥٢].

والمقام الأمين: موضع الإقامة، والأمين: الآمن من كل سوء وآفة ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد، وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ﴾[الدخان: ٥١]. وفي قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان: ٥٥].

(١) زاد المعاد ٢/ ١٨٢.

(٢) مفاتيح الغيب، ١٥/ ٤٦١.

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك، وأمن من الموت فلا يخافون فيها موتًا»[1].

٤ . الامتنان على أهل سبأ:

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَـٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَـٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ [سبأ: ١٨].

قال ابن كثير: «يذكر تعالى ما كانوا فيه من النعمة والغبطة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعضٍ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زادٍ ولا ماءٍ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا، ويقيل في قريةٍ، ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم»[2].

وقال ابن عاشور: «وتقديم الليالي على الأيام للاهتمام بها في مقام الامتنان؛ لأن المسافرين أحوج إلى الأمن في الليل منهم إليه في النهار؛ لأن الليل تعترضهم فيه القطاع والسباع»[3].

(١) حادي الأرواح ص ١٠٠.
(٢) تفسير القرآن الكريم، ٦/ ٥٠٩.
(٣) التحرير والتنوير ٢٢/ ١٧٦.

فالواجب علينا أن نشكر الله تعالى على هذه النعمة، وأن نعلم أننا سنسأل عنها، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [التكاثر: ٨].

ذكر ابن مسعودٍ رضي الله عنه وجماعة أن النعيم: الأمن والصحة[4].

ثانيًا: التحذير من الركون إلى الأمن:

قال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَـٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: أفأمن يا محمد هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله ويجحدون آياته، استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش، كما استدرج الذين قص عليهم قصصهم من الأمم قبلهم، فإن مكر الله لا يأمنه، يقول: لا يأمن ذلك أن يكون استدراجًا مع مقامهم على كفرهم وإصرارهم على معصيتهم إلا القوم الخاسرون، وهم الهالكون»[5].

وقال الطاهر ابن عاشور: «واعلم أن المراد بأمن مكر الله في هذه الآية هو الأمن الذي من نوع أمن أهل القرى المكذبين،

(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٦٠٣.
(٥) المصدر السابق ١٠/ ٣٣٤.

الذي ابتدئ الحديث عنه من قوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾ [الأعراف: ٩٤].

ثم قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا﴾ الآيات، وهو الأمن الناشئ عن تكذيب خبر الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن الغرور بأن دين الشرك هو الحق فهو أمنٌ ناشئٌ عن كفرٍ، والمأمون منه هو وعيد الرسل إياهم، وما أطلق عليه أنه مكر الله»[1].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٧ - ٦٩].

قال في الظلال: «ولكن الإنسان هو الإنسان، فما إن تنجلي الغمرة، وتحس قدماه ثبات الأرض من تحته حتى ينسى لحظة الشدة، فينسى الله، وتتقاذفه الأهواء، وتجرفه الشهوات، وتغطي على فطرته التي جلاها الخطر».

وهنا يستجيش السياق وجدان المخاطبين بتصوير الخطر الذي تركوه في البحر وهو يلاحقهم في البر، أو وهم يعودون إليه في البحر؛ ليشعروا أن الأمن والقرار لا يكونان إلا في جوار الله وحماه، لا في البحر ولا في البر، لا في الموجة الرخية والريح المواتية، ولا في الملجأ الحصين والمنزل المريح: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿٦٨﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾ [الإسراء: ٦٨ - ٦٩].

إن البشر في قبضة الله في كل لحظة وفي كل بقعة، إنهم في قبضته في البر كما هم في قبضته في البحر، فكيف يأمنون؟ كيف يأمنون أن يخسف بهم جانب البر بزلزال أو بركان، أو بغيرهما من الأسباب المسخرة لقدرة الله؟!

أو يرسل عليهم عاصفة بركانية تقذفهم بالحمم والماء والطين والأحجار، فتهلكهم دون أن يجدوا لهم من دون الله وكيلًا يحميهم ويدفع عنهم؟

أم كيف يأمنون أن يردهم الله إلى البحر فيرسل عليهم ريحًا قاصفة، تقصف الصواري وتحطم السفن، فيغرقهم بسبب كفرهم وإعراضهم، فلا يجدون من يطالب بعدهم بتبعة إغراقهم؟

(١) التحرير والتنوير، ٩/ ٢٤.

ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا، ثم يأمنوا أخذه وكيده، وهم يتوجهون إليه وحده في الشدة ثم ينسونه بعد النجاة، كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله![1].

وقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَن يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٤٥ - ٤٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمُ انقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَضَالُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أُرْسِلُوا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَالْيَوْمَ الَّذِينَ آمَنُوا مِنَ الْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى الْأَرَائِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ الْكُفَّارُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٦].

قال السعدي: «﴿انقَلَبُوا فَكِهِينَ﴾ أي: مسرورين مغتبطين، وهذا من أعظم ما يكون من الاغترار، أنهم جمعوا بين غاية الإساءة والأمن في الدنيا، حتى كأنهم قد جاءهم كتاب من الله وعهد، أنهم من أهل السعادة، وقد حكموا لأنفسهم أنهم أهل الهدى، وأن المؤمنين ضالون، افتراء على الله، وتجرؤوا على القول عليه بلا علم، فكما ضحكوا في الدنيا من المؤمنين ورموهم بالضلال، ضحك المؤمنون منهم في الآخرة، ورأوهم في العذاب والنكال، الذي هو عقوبة الغي والضلال، نعم ثوبوا ما كانوا يفعلون، عدلًا من الله وحكمة، والله عليم حكيم»[2].

فالواجب على الناس أن يتقوا ويحذروا وأن يطرحوا عنهم الأمن الكاذب، والاستهتار السادر، والغفلة المردية، وأن يعتبروا بما كان في الذين خلوا من قبلهم، عسى ألا يكون فيهم، لو كانوا يسمعون!

وما يريد الله للناس بهذا التحذير في القرآن أن يعيشوا مفزعين قلقين يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم في لحظة من ليل أو نهار، فالفزع الدائم من المجهول، والقلق الدائم من المستقبل، وتوقع الدمار في كل لحظة، قد تشل طاقة البشر وتشتتها، وقد تنتهي بهم إلى اليأس من العمل والنتاج، وتنمية الحياة، وعمارة الأرض، إنما يريد الله منهم اليقظة والحساسية والتقوى، ومراقبة النفس، والعظة بتجارب البشر، ورؤية محركات التاريخ الإنساني، وإدامة الاتصال بالله، وعدم الاغترار بطراءة العيش ورخاء الحياة.

والله يعد الناس الأمن والطمأنينة والرضوان والفلاح في الدنيا والآخرة، إذا

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٠.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٩١٦.

هم أرهفوا حساسيتهم به، وإذا هم أخلصوا العبودية له، وإذا هم اتقوه فاتقوا كل ما يلوث الحياة، فهو يدعوهم إلى الأمن في جوار الله، لا في جوار النعيم المادي المغري، وإلى الثقة بقوة الله، لا بقوتهم المادية الزائلة، وإلى الركون إلى ما عند الله، لا إلى ما يملكون من عرض الحياة.

ولقد سلف من المؤمنين بالله المتقين لله سلف ما كان يأمن مكر الله، وما كان يركن إلى سواه، وكان بهذا وذاك عامر القلب بالإيمان، مطمئنًا بذكر الله، قويًا على الشيطان وعلى هواه، مصلحًا في الأرض بهدى الله، لا يخشى الناس والله أحق أن يخشاه.

وهكذا ينبغي أن نفهم ذلك التخويف الدائم من بأس الله الذي لا يدفع، ومن مكر الله الذي لا يدرك؛ لندرك أنه لا يدعو إلى القلق، إنما يدعو إلى اليقظة، ولا يؤدي إلى الفزع، إنما يؤدي إلى الحساسية، ولا يعطل الحياة، إنما يحرسها من الاستهتار والطغيان.

والمنهج القرآني -مع ذلك- إنما يعالج أطوار النفوس والقلوب المتقلبة، وأطوار الأمم والجماعات المتنوعة، ويطب لكل منها بالطب المناسب في الوقت الملائم، فيعطيها جرعة من الأمن والثقة والطمأنينة إلى جوار الله، حين تخشى قوى الأرض وملابسات الحياة، ويعطيها جرعة من الخوف والحذر والترقب لبأس الله، حين تركن إلى قوى الأرض ومغريات الحياة، وربك أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير[(١)].

يقول السعدي: «﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ حيث يستدرجهم من حيث لا يعلمون، ويملي لهم إن كيده متين ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ فإن من أمن من عذاب الله فهو لم يصدق بالجزاء على الأعمال، ولا آمن بالرسل حقيقة الإيمان.

وهذه الآية الكريمة فيها من التخويف البليغ على أن العبد لا ينبغي له أن يكون آمنًا على ما معه من الإيمان.

بل لا يزال خائفًا وجلًا أن يبتلى ببلية تسلب ما معه من الإيمان، وأن لا يزال داعيًا بقوله: (**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**)[(٢)]. وأن يعمل ويسعى، في كل سبب يخلصه من الشر، عند وقوع الفتن، فإن العبد -ولو بلغت به الحال ما بلغت- فليس على يقين من السلامة»[(٣)].

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٤١.
(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ١٩/ ١٦٠، رقم ١٢١٠٧، والترمذي في سننه، أبواب القدر، باب ما جاء أن القلوب بين أصبعي الرحمن ٤/ ١٦، رقم ٢١٤٠، وحسنه.
وصححه الألباني، صحيح الجامع ٢/ ١٣٢٣، رقم ٧٩٨٧.
(٣) تيسير الكريم الرحمن ص٢٩٨.

أنواع الأمن

ذكر القرآن الكريم أنواعًا للأمن، منه المحمود، ومنه المذموم، نبينها فيما يأتي:

أولًا: الأمن المحمود:

١ . أهمية الأمن المحمود.

إن نعمة الأمن أهم من نعمة الرزق.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فبدأ بالأمن قبل الرزق لسببين:

الأول: لأن استتباب الأمن سبب للرزق، فإذا شاع الأمن، واستتب ضرب الناس في الأرض، وهذا مما يدر عليهم رزق ربهم، ويفتح أبوابه، ولا يكون ذلك إذا فقد الأمن.

الثاني: ولأنه لا يطيب طعام، ولا ينتفع بنعمة رزق إذا فقد الأمن.

فمن من الناس أحاط به الخوف من كل مكان، وتبدد الأمن من حياته، ثم وجد لذة بمشروب أو مطعوم؟!

ولقائل أن يقول: فلماذا قدم الرزق على الأمن في سورة قريش؟

والجواب: أن هذه السورة خطاب للمشركين، وعند مخاطبة هؤلاء يحسن البدء بالقليل قبل الكثير، وباليسير قبل العظيم، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١].

فبدأ بخلقهم قبل خلق السماوات والأرض، وخلقهما أكبر من خلق الناس، قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَـٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ويوسف عليه السلام يطلب من والديه دخول مصر مخبرًا باستتباب الأمن بها: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُوا۟ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّوا۟ لَهُۥ سُجَّدًا ۖ وَقَالَ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَـٰىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّا ۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَـٰنُ بَيْنِى

﴿وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [يوسف: ٩٩ - ١٠٠].

٢. أقسام الأمن المحمود.

١. الأمن للمؤمنين في الدنيا.

ومن ذلك:

- **الأمن في البيت الحرام، والبلد الحرام.**

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٥ - ١٢٦].

فنعمة الأمن نعمة ماسة بالإنسان، عظيمة الوقع في حسه، متعلقة بحرصه على نفسه، والسياق يذكرها هنا ليذكر بها سكان ذلك البلد، الذين يستطيلون بالنعمة ولا يشكرونها، وقد استجاب الله دعاء أبيهم إبراهيم عليه السلام فجعل البلد آمنًا، ولكنهم هم سلكوا غير طريق إبراهيم، فكفروا النعمة، وجعلوا لله أندادًا، وصدوا عن سبيل الله[(١)].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦ - ٩٧].

قال قتادة: ذلك أيضًا من آيات الحرم، وقال النحاس: وهو قول حسن؛ لأن الناس كانوا يتخطفون من حواليه، ولا يصل إليه جبار، وقد وصل إلى بيت المقدس وخرب، ولم يوصل إلى الحرم، وقال بعض العلماء: صورة الآية خبرٌ ومعناها أمرٌ، تقديرها: ومن دخله فأمنوه[(٢)].

فيذكر من فضائل هذا البيت أن من دخله كان آمنًا، فهو مثابة الأمن لكل خائف، وليس هذا لمكان آخر في الأرض، وقد بقي هكذا مذ بناه إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وحتى في جاهلية العرب، وفي الفترة التي انحرفوا فيها عن دين إبراهيم، وعن التوحيد الخالص الذي يمثله هذا الدين. . .، حتى في هذه الفترة بقيت حرمة هذا البيت سارية، كما قال الحسن البصري وغيره: «كان الرجل يقتل فيضع في عنقه صوفة، ويدخل الحرم، فيلقاه ابن المقتول، فلا يهيجه حتى يخرج»[(٣)]، وكان هذا من تكريم الله سبحانه لبيته هذا، حتى والناس من حوله في جاهلية!

وقال سبحانه يمتن على العرب به:

---

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٠٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن أبي حاتم ١١/ ٢٢٥، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٤/ ١٤٠.

(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٧.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧][1].

- الأمن في المعارك.

وقد قال الله تعالى: ﴿إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ﴾ [الأنفال: ١١].

وقال: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعَاسًا﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وعن أنسٍ، عن أبي طلحة -رضي الله عنهما- قال: «كنت فيمن تغشاه النعاس يوم أحدٍ حتى سقط سيفي من يدي مرارًا يسقط وآخذه، ويسقط فآخذه»[2].

قال ابن القيم: «وأنزل الله عليهم النعاس أمنةً منه في غزاة بدرٍ وأحدٍ، والنعاس في الحرب وعند الخوف دليلٌ على الأمن، وهو من الله...»[3].

٢. الأمن للمؤمنين في الآخرة.

ومن ذلك:

- النجاة من أهوال يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

يقول الطبري: «يقول تعالى ذكره لهؤلاء الذين يلحدون في آياتنا اليوم في الدنيا يوم القيامة عذاب النار، ثم قال الله: أفهذا الذي يلقى في النار خيرٌ، أم الذي يأتي يوم القيامة آمنًا من عذاب الله لإيمانه بالله جل جلاله؟ هذا الكافر، إنه إن آمن بآيات الله، واتبع أمر الله ونهيه، أمنه يوم القيامة مما حذره منه من عقابه إن ورد عليه يومئذٍ به كافرًا»[4].

وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين أحسنوا في الحياة الدنيا، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

والأمن من هذا الفزع هو وحده جزاء،

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤٣٥.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قوله تعالى: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة)، رقم ٤٠٦٨.
(٣) زاد المعاد ٢/ ١٨٢.
(٤) جامع البيان ٢٠/ ٤٤٢.

وما بعده فضل من الله ومنة، ولقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة، بل أمنهم يوم يفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله[1].

الأمن لأهل الجنة.

قال تعالى: ﴿ ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الحجر: ٤٦].

وقال: ﴿ وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ إِلَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَزَآءُ ٱلضِّعۡفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴾ [سبأ: ٣٧].

فشمر لدار الخلد فاز مشمرٌ
إليها ونال الأمن في منزل الأمن[2]

قال ابن القيم: «قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ۝٥١ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴾ [الدخان: ٥١ - ٥٢].

والمقام الأمين: موضع الإقامة، والأمين: الآمن من كل سوء وآفة ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كلها، فهو آمن من الزوال والخراب وأنواع النقص، وأهله آمنون فيه من الخروج والنغص والنكد. .

.، وتأمل كيف ذكر سبحانه الأمن في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴾ [الدخان: ٥١].

وفي قوله تعالى: ﴿ يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴾ [الدخان: ٥٥].

فجمع لهم بين أمن المكان وأمن الطعام، فلا يخافون انقطاع الفاكهة، ولا سوء عاقبتها ومضرتها، وأمن الخروج منها فلا يخافون ذلك، وأمن من الموت فلا يخافون فيها موتًا»[3].

٣. وسائل تحقيقه.

الوسيلة الأولى: الإيمان بالله وحده وعمل الصالحات:

قال الله تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿ وَحَآجَّهُۥ قَوۡمُهُۥۚ قَالَ أَتُحَٰٓجُّوٓنِّي فِي ٱللَّهِ وَقَدۡ هَدَىٰنِۚ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشۡرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّي شَيۡـٔٗاۚ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمًاۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ۝٨٠ وَكَيۡفَ أَخَافُ مَآ أَشۡرَكۡتُمۡ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمۡ أَشۡرَكۡتُم بِٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗاۚ فَأَيُّ ٱلۡفَرِيقَيۡنِ أَحَقُّ بِٱلۡأَمۡنِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝٨١ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٠ - ٨٢].

وهذا خبرٌ من الله تعالى عن أولى الفريقين بالأمن، وفصل قضاءٍ منه بين إبراهيم صلى الله عليه وسلم وبين قومه[4].

فالذين حصل لهم الأمن المطلق هم الذين يكونون مستجمعين لهذين الوصفين:

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٦٦٩.
(٢) البيت ذكره ابن الجوزي في التبصرة ص ٣٠.
(٣) حادي الأرواح ص ١٠٠.
(٤) انظر: جامع البيان، الطبري ٩/ ٣٦٩.

أولهما: الإيمان، وهو كمال القوة النظرية.

وثانيهما: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ وهو كمال القوة العملية[1].

فالظلم ثلاثة أنواع:

فالظلم الذي هو شركٌ لا شفاعة فيه.

وظلم الناس بعضهم بعضًا لا بد فيه من إعطاء المظلوم حقه.

وأما الظلم المقيد، فقد يختص بظلم الإنسان نفسه...

فمن سلم من أجناس الظلم الثلاثة كان له الأمن التام، والاهتداء التام، ومن لم يسلم من ظلمه نفسه كان له الأمن والاهتداء مطلقًا، بمعنى أنه لابد أن يدخل الجنة، كما وعد بذلك في الآية الأخرى، وقد هداه إلى الصراط المستقيم الذي تكون عاقبته فيه إلى الجنة، ويحصل له من نقص الأمن والاهتداء بحسب ما نقص من إيمانه بظلمه نفسه.

وليس مراد النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: (إنما هو الشرك)[2] أن من لم يشرك الشرك الأكبر يكون له الأمن التام والاهتداء التام، فإن أحاديثه الكثيرة مع نصوص القرآن تبين أن أهل الكبائر معرضون للخوف لم يحصل لهم الأمن التام، ولا الاهتداء التام الذي يكونون به مهتدين إلى الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين من غير عذابٍ يحصل لهم؛ بل معهم أصل الاهتداء إلى هذا الصراط، ومعهم أصل نعمة الله عليهم، ولا بد لهم من دخول الجنة[3].

وقال ابن القيم: «فإن الأمن والعافية والسرور ولذة القلب ونعيمه وبهجته وطمأنينته مع الإيمان والهدى إلى طريق الفلاح والسعادة، والخوف والهم والغم والبلاء والألم والقلق مع الضلال والحيرة»[4].

وقال: ثم رجع الخليل إليهم مقررًا للحجة، فقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ﴾ يعني في إلهيته ﴿مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨١ - ٨٢].

يقول لقومه: كيف يسوغ في عقلٍ أن أخاف ما جعلتموه لله شريكًا في الإلهية وهي ليست موضع نفعٍ ولا ضرٍ، وأنتم لا تخافون أنكم أشركتم بالله في الإلهية أشياء لم ينزل بها حجةً عليكم، والذي أشرك

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قول الله تعالى: (ولقد آتينا لقمان الحكمة)، ٤/ ١٦٣، رقم ٣٤٢٩.
(٣) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ٧/ ٧٨-٨٢.
(٤) إغاثة اللهفان ٢/ ١٧٢.

بخالقه وفاطره، فاطر السماوات والأرض، ورب كل شيءٍ ومليكه آلهةً لا تخلق شيئًا، وهي مخلوقةٌ، ولا تملك لأنفسها ولا لعابديها ضرًا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وجعلها ندًا له ومثلًا في الإلهية، أحق بالخوف ممن لم يجعل مع الله إلهًا آخر، وحده وأفرده بالإلهية والربوبية، والقهر والسلطان، والحب والخوف والرجاء ﴿فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٨١].

فحكم الله تعالى بينهما بأحسن حكم خضعت له القلوب، وأقرت به الفطر، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢][1].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [: ٥٥].

ذلك وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات من أمة محمد صلى الله عليه وسلم أن يستخلفهم في الأرض، وأن يمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم، وأن يبدلهم من بعد خوفهم أمنًا؛ ذلك وعد الله، ووعد الله حق، ووعد الله واقع، ولن يخلف الله وعده، فما حقيقة ذلك الإيمان؟

إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله، وتوجه النشاط الإنساني كله، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط، وبناء وإنشاء، موجه كله إلى الله، لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله، وهي طاعة لله، واستسلام لأمره في الصغيرة والكبيرة، لا يبقى معها هوى في النفس، ولا شهوة في القلب، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من عند الله.

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله بخواطر نفسه، وخلجات قلبه، وأشواق روحه، وميول فطرته، وحركات جسمه، ولفتات جوارحه، وسلوكه مع ربه في أهله ومع الناس جميعًا، ويتوجه بهذا كله إلى الله.

ذلك الإيمان منهج حياة كامل يتضمن كل ما أمر الله به، ويدخل فيما أمر الله به توفير الأسباب، وإعداد العدة، والأخذ بالوسائل، والتهيؤ لحمل الأمانة الكبرى في الأرض[2].

وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾

---

(١) انظر: الصواعق المرسلة، ابن القيم ٢/ ٩٢.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٥٢٨.

[: ٥٥].

قال القرطبي: «﴿يَعۡبُدُونَنِي﴾ هو في موضع الحال، أي في حال عبادتهم الله بالإخلاص»[(١)].

قال ابن العربي: قلنا لهم هذا وعدٌ عامٌ في النبوة والخلافة، وإقامة الدعوة، وعموم الشريعة، فنفذ الوعد في كل أحدٍ بقدره وعلى حاله.

ثم قال في آخر كلامه: وحقيقة الحال أنهم كانوا مقهورين فصاروا قاهرين، وكانوا مطلوبين فصاروا طالبين، فهذا نهاية الأمن والعز.

فكان في هذه الآية دلالةٌ على نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الله عز وجل أنجز ذلك الوعد[(٢)].

والمتتبع لحال المسلمين يستنتج ما يلي: كلما كانت الأمة المسلمة مطيعة لله ورسوله يحكم التوحيد حياتها كاملة كان الأمن على قدر ذلك، والله تعالى أعلم.

ولذلك كان الآمنون في الدنيا هم أهل الإيمان، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم غزوةً قبل نجدٍ، فأدركنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في وادٍ كثير العضاه، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرةٍ، فعلق سيفه بغصنٍ من أغصانها، قال: وتفرق الناس في الوادي، يستظلون بالشجر، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إن رجلًا أتاني وأنا نائمٌ، فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائمٌ على رأسي، فلم أشعر إلا والسيف صلتًا في يده، فقال لي: من يمنعك مني؟ قال قلت: الله، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني؟ قال قلت: الله، قال: فشام السيف فها هو ذا جالسٌ**) ثم لم يعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم[(٣)].

وقال ابن القيم: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لا يدخل جنة الآخرة، وقال لي مرة: ما يصنع أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، إن رحت فهي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، وكان يقول في محبسه في القلعة: لو بذلت ملء هذه القاعة ذهبًا ما عدل عندي شكر هذه النعمة، وقال لي مرة: المحبوس من حبس قلبه عن ربه تعالى، والمأسور من أسره هواه.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٢/ ٣٠٠.

(٢) انظر: المصدر السابق ١٢/ ٢٩٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب من علق سيفه بالشجر في السفر عند القائلة، ٤/ ٣٩، رقم ٢٩١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب توكله على الله تعالى، وعصمة الله تعالى له من الناس ٤/ ١٧٨٦، رقم ٨٤٣.

ولما دخل إلى القلعة وصار داخل سورها نظر إليه وقال: ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣].

وعلم الله ما رأيت أحدًا أطيب عيشًا منه قط، مع ما كان فيه من ضيق العيش وخلاف الرفاهية والنعيم بل ضدها، ومع ما كان فيه من الحبس والتهديد والإرهاق، وهو مع ذلك من أطيب الناس عيشًا، وأشرحهم صدرًا، وأقواهم قلبًا، وأسرهم نفسًا، تلوح نضرة النعيم على وجهه.

وكنا إذا اشتد بنا الخوف، وساءت منا الظنون، وضاقت بنا الأرض أتيناه، فما هو إلا أن نراه ونسمع كلامه، فيذهب ذلك كله، وينقلب انشراحًا وقوة ويقينًا وطمأنينة»[1].

إذا الإيمان ضاع فلا أمانٌ

ولا دنيا لمن لم يحي دينا

ومن رضي الحياة بغير دينٍ

فقد جعل الفناء لها قرينا[2]

ومن الصالحات التي تؤدي إلى الأمن:

١ ـ الأخذ بأسباب القوة.

قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

لابد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان، وأول ما تصنعه هذه القوة أن تؤمن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يصدوا عنها، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها، والأمر الثاني: أن ترهب أعداء هذا الدين، فلا يفكروا في الاعتداء على دار الإسلام التي تحميها تلك القوة، والأمر الثالث: أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء أن لا يفكروا في الوقوف في وجه المد الإسلامي، وهو ينطلق لتحرير الإنسان كله في الأرض كلها، والأمر الرابع: أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة الألوهية، فتحكم الناس بشرائعها هي وسلطانها، ولا تعترف بأن الألوهية لله وحده[3].

٢ ـ الدعاء.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

(١) الوابل الصيب ص ٤٨.

(٢) البيتان للشاعر محمد إقبال من قصيدة طويلة يشكو إلى الله حال العالم الإسلامي.
انظر: ديوان محمد إقبال ص ١٠٣.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ١٥٤٣.

وعن طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى الهلال قال: (اللهم أهلله علينا باليمن والإيمان والسلامة والإسلام، ربي وربك الله)[1]. وفي رواية: (اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان)[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنه: لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: (اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عورتي وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتي)[3].

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢/ ١٧٨، رقم ١٣٩٧، والترمذي في سننه، أبواب الدعوات، باب ما يقول عند رؤية الهلال، ٥/ ٥٠٤، رقم ٣٤٥١.

وحسنه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ٨٦١، رقم ٤٧٢٦.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه، ٣/ ١٧١ رقم ٨٨٨، والحاكم في المستدرك، ٤/ ٣١٧، رقم ٧٧٦٧.

وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب ص ١٣٨.

(٣) أخرجه أحمد ٨/ ٤٠٣، رقم ٤٧٨٥، والبخاري في الأدب المفرد، باب ما يقول إذا أصبح ص١٢٠٠، رقم ٦٨١، وأبو داود في سننه، أبواب النوم، باب ما يقول إذا أصبح

الوسيلة الثانية: أداء الشكر لله وحده على نعمه:

فالنعم تثبت بالشكر، وتذهب بالجحود، قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧].

وقال في خصوص نعمة الأمن: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ١٥ - ٢١].

وقال: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ

٤/ ٣١٨، رقم ٥٠٧٤.

وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد ص ٤٦٥.

﴿مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وهكذا نجد في هذه الآيات أن استقرار الأمن مربوط بشكر النعمة، وأن زواله مقرون بكفرها، كما نجد أن توفر الأمن لابد أن يسبق توفر الغذاء، مما يدل على أن الضرورة إليه أشد من الضرورة إلى الغذاء؛ لأنه لا يمكن التلذذ بالغذاء لو توفر مع عدم الأمن والاستقرار؛ ولهذا كان في دعاء الخليل عليه السلام تقديم طلب الأمن على طلب الرزق، كما ذكر الله عنه في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وقد امتن الله على قريش بتوفير هاتين النعمتين، وأمرهم أن يفردوه بالعبادة شكرًا له على ذلك، فقال: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ۝١ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝٣ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ - ٤].

الوسيلة الثالثة: الاستقامة، وحسن التعامل، والتكافل الاجتماعي:

إن حسن التعامل من شأنه أن يشيع الأمن بين أفراد المجتمع؛ ولذلك نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن ترويع المسلم، وسلب حالة الأمن التي يتمتع بها، فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى رضي الله عنه قال: حدثنا أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم، أنهم كانوا يسيرون مع النبي صلى الله عليه وسلم، فنام رجلٌ منهم، فانطلق بعضهم إلى حبلٍ معه فأخذه، ففزع، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا يحل لمسلمٍ أن يروع مسلمًا)[1].

وقد ذكر بعض العلماء أن من أيسر الأمور أن تروع أخاك فتخفي عصاه أو تخفي حذاءه فإنه يروع بذلك، فما بالكم إذا كان الترويع بسيفٍ، أو بأداة قتلٍ، أو بتهديدٍ وسلبٍ للأمن، فذلك مما يحذر منه الإسلام.

الوسيلة الرابعة: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر:

وهو من أسباب النصر على الأعداء، والتمكين في الأرض، قال تعالى: ﴿وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠ - ٤١].

وفيه الأمن من الهلاك، والمحافظة على صلاح المجتمعات، فعن النعمان بن

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٨/ ١٦٣، رقم ٢٣٠٦٤، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يأخذ الشيء على المزاح، ٤/ ٣٠١، رقم ٥٠٠٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٢٦٨، رقم ٧٦٥٨.

بشيرٍ رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينةٍ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا)[1].

وفيه دفع العذاب عن العباد، قال تعالى: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨ - ٧٩].

وهو مطلب مهم لمن أراد النجاة لنفسه، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

الوسيلة الخامسة: إقامة شرع الله:

ولما كان توفر الأمن ضرورة من ضروريات المجتمع التي تفوق ضرورة الغذاء، اهتم الإسلام بتوفير الأسباب الجالبة للأمن، وذلك ببناء الإنسان عقيدة وأخلاقًا وسلوكًا؛ لأن الأمن لا يتوفر بمجرد البطش والإرهاب وقوة الحديد والنار، وإنما يتوفر بتهذيب النفوس، وتطهير الأخلاق، وتصحيح المفاهيم حتى تترك النفوس الشر رغبة عنه وكراهية له.

كما يقول الشاعر[2]:

ولا تنتهِ الأنفس عن غَيِّها
ما لم يكن لها من نفسها زاجر

فإذا فقد المجتمع هذه المقومات التي جاء الإسلام بها فإنه يفقد أمنه واستقراره.

قال الشاعر[3]:

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولهذا نجد الأمم التي تفقد هذه المقومات من أفلس الناس من الناحية الأمنية، وإن كانت تملك الأسلحة الفتاكة والأجهزة الدقيقة؛ لأن الإنسان لا يحكم بالآلة فقط، وإنما يحكم بالشرع العادل والسلطان القوي، كما قال تعالى ﴿لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلۡنَا مَعَهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشركة، بابٌ هل يقرع في القسمة والاستهام فيه وغيرهما، ٣/ ١٣٩، رقم ٢٤٩٣.

(٢) البيت في مجاني الأدب في حدائق العرب، بن يعقوب شيخو، ١/ ٥٥ دون نسبة. وانظر: السحر الحلال في الحكم والأمثال، الهاشمي ص٥٤.

(٣) البيت لأحمد شوقي كما في الموسوعة الشوقية الأعمال الكاملة ٢/ ٤٨٧.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديد: ٢٥].

ويفهم الأمن من مفهوم الإسلام؛ لأن الإسلام هو الاستسلام لله بالخضوع له وامتثال أوامره واجتناب منهياته، وقد نهى الله عن التعدي على الناس في أعراضهم وأموالهم وأبدانهم.

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**)[١].

ومن دخل في الإسلام دخل في نطاق الأمن؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله**)[٢].

فإذا تحقق الإسلام والإيمان توفرت أسباب الأمن، لكن قد يكون هناك شذوذ لم يتمكن الإسلام والإيمان من قلوبهم فتحصل منهم نزوات تخل بالأمن، وهنا وضع الله سبحانه زواجر وروادع لهؤلاء تكف عدوانهم، وتصون الأمن من عبثهم، فشرع سبحانه الحدود الكفيلة لردعهم وتحذير غيرهم من أن يفعلوا مثل فعلهم، ومن الحدود التي شرعها الله لحفظ الأمن للأفراد والجماعات؛ القصاص لحفظ النفوس، وشرع حد الزنا، وحد القذف لحفظ العرض والنسب، وشرع حد السرقة لحفظ الأموال، وشرع حد قطاع الطريق لحفظ السبل، وتأمين المواصلات، وشرع قتال البغاة لحفظ السلطة الإسلامية، ومنعًا لتفريق الكلمة، واختلاف الأئمة.

١. فالقصاص من القاتل فيه حماية للنفوس البريئة، وضمانٌ للأمن بين الناس، قال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

فإذا عرف من يريد قتل إنسان أنه سيقتل به امتنع عن القتل، فكان في هذا حفظ لحياته وحياة غيره، وإذا أقدم على القتل فاقتص منه كان في هذا ردع للآخرين، فلا يقدمون على مثل جريمته لئلا يكون مصيرهم كمصيره، فقتل نفس واحدة بالقصاص حصل به نجاة أنفس كثيرة، كالعضو الفاسد يقطع لحفظ بقية الجسم؛ وبذلك يأمن الناس على

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ١/ ١١، رقم ١٠، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام وأي أموره أفضل، ١/ ٦٥، رقم ٤١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، ٢/ ١٠٥، رقم ١٣٩٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ١/ ٥١، رقم ٢٠.

حياتهم.

٢. ورجم الزاني المحصن (وهو الذي سبق أن جامع زوجته بنكاح صحيح) بمحضر عام من المؤمنين، فيرجم بالحجارة حتى يموت.

وذلك ليأمن الناس على أعراضهم من الاعتداء عليها؛ وليأمنوا على أنسابهم من الاختلاط، ولردع المضيعين لأعراضهم التي أمرهم الله بحفظها في قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٣٠ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾ [: ٣٠ - ٣١].

وبذلك يقضى على جريمة الزنا التي تدمر المجتمعات البشرية، وبتطبيق هذا الحد يأمن الناس من هذا الخطر المدمر الذي يلوث المجتمع، ويهدد الإنسانية، وينشر الأمراض الخطيرة.

٣. ولشناعة جريمة الزنا وحرمة عرض المسلم صان الله أعراض الأبرياء أن تدنس بنسبة هذه الجريمة إليها، وكف الألسنة البذيئة أن تتطاول على عرض المسلم فتقذفه بارتكاب فاحشة الزنا زورًا وبهتانًا.

فأمر بجلد القاذف الذي لا يستطيع إقامة البينة على ما يقول بأن يجلد ثمانين جلدة، ولا تقبل له شهادة أبدًا، وأنه يعتبر فاسقًا ساقط العدالة ما لم يتب من هذه الجريمة.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ۝٤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [: ٤ - ٥].

وبهذا الحد الرادع وسحب الثقة من القاذف تصان الأعراض البريئة، وتسكت الأفواه البذيئة، وتتوارى آثار هذه الجريمة، ويصبح الناس في مأمن منها ومن ذكرها حتى تتوارى من المجتمع نهائيًا.

٤. ولما كان المال قوام الحياة والحفاظ عليه من الضروريات.

قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ [النساء: ٥].

وقد حرم الله أخذ أموال الناس بغير حق والاستيلاء عليها بغير مبرر، فالاعتداء على مال الغير كالاعتداء على دمه وعرضه في الحرمة، كما تدل عليه الآيات والأحاديث، ومن أشد أنواع الاعتداء على أموال الناس أخذها بالسرقة، وهي أخذ المال خفية من حرز مثله، وجزاء من فعل ذلك قطع يده، هذه اليد الخائنة التي امتدت إلى ما لا يحل لها، وعبثت بالأمن، وروعت المجتمع جزاؤها البتر، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا

﴿نَكَٰلٗا مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٨].

والسرقة أشد خطورة من اغتصاب المال مجاهرة؛ لأن المجاهرة تمكن مدافعتها وعمل الاحتياطات المانعة من شرها، أما السرقة فإنها مكر خفي، وغدر سيئ، يؤخذ بها الإنسان من مأمنه، وتدل على جرأة المجرم حيث لم تمنع منه الحروز والحصون، فكان جزاؤه بتر يده وتعطيلها عليه ردعًا له وعظة لغيره، وبهذا يتوفر الأمن للمجتمع، ويطمئن الناس على أموالهم في بيوتهم ومستودعاتهم، ويقضى على الجريمة.

٥. ولما كان ربط البلدان والأقاليم بعضها ببعض عن طريق المواصلات البرية والبحرية والجوية لنقل البضائع وتنقلات المسافرين للتجارة وغيرها من الأغراض التي تتم بها مصالحهم؛ لذلك احتاج المجتمع إلى تأمين السبل بردع المجرمين الذين يحاولون قطعها، ويروعون المارة.

ولأجل ذلك شرع سبحانه حد قطاع الطريق، وهم الذين يعرضون للناس بالسلاح فيغصبونهم المال مجاهرة، وهذا الحد هو ما ذكره الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٣ - ٣٤].

وبتطبيق هذه العقوبة على قطاع الطريق تأمن السبل، وتنتظم المصالح، ويتوفر الأمن في البر والبحر والحاضرة والبادية، وتنتظم المواصلات بين البلدان والأقاليم، ويسهل نقل البضائع والتبادل التجاري مما فيه صلاح العمران البشري، وتوفر الإنتاج؛ ولهذا وصف الله من يحاول تعطيل هذه المصالح بأنه محارب لله ورسوله، وساع في الأرض بالفساد.

٦. ولما كان لابد للمسلمين من قيادة تجتمع كلمتهم بها، وتحل مشاكلهم، وتكف الظالم منهم عن ظلمه، وتدفع العدو الخارجي عنهم، وترعى شؤونهم، وتنفذ أحكام الله فيهم.

لما كان الأمر كذلك وأكثر، شرع الله تنصيب الإمام وطاعته بالمعروف وإعانته على الخير، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

وهكذا نتبين من هذا العرض الموجز ما

حققه الإسلام من أمن الأفراد والمجتمعات حين عجزت كل نظم البشر وأسلحتهم الفتاكة وأجهزتهم الدقيقة أن تحقق أقل القليل من هذا الأمن الذي حققه الإسلام، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

ثم إن هذا الأمن الذي حققه الإسلام لا يعتمد على العقوبة وشدة البطش بأصحاب الجرائم، وإنما يعتمد على غرس الإيمان في القلوب، وزرع الخشية الإلهية في النفوس حتى تترك الإجرام رغبة عنه، وكراهية له، بل تقوم بمقاومته والنهي عنه، ثم يتبع ذلك الوعظ والتذكير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأجل تعليم الجاهل، وتذكير الغافل، والأخذ على يد السفيه عن الوقوع في الجرائم، ثم يتبع ذلك تطبيق العقوبات الشرعية على من لم تُجْدِ فيه الموعظة، ولم تؤثر فيه النصيحة، ولم يأتمر بالمعروف، وينته عن المنكر، فالعقوبة آخر مرحلة كما يقال[1][2]:

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

إن مجتمعًا يسود بين أهله الإيمان بالله عز وجل، واليقين بالآخرة، والجزاء والحساب، لا شك أنه مجتمع تسوده المحبة، ويعمه السلام؛ لأن تعظيم الله سبحانه سيجعل هذه النفوس لا ترضى بغير شرع الله عز وجل بديلًا، ولا تقبل الاستسلام إلا لحكمه، وهذا بدوره سيضفي الأمن والأمان على مثل هذه المجتمعات؛ لأن أهلها يخافون الله ويخافون يوم الفصل والجزاء، فلا تحاكم إلا لشرع الله، ولا تعامل إلا بأخلاق الإسلام الفاضلة، فلا خيانة ولا غش ولا ظلم، ولا يعني هذا أنه لا يوجد في المجتمعات المسلمة من يظلم أو يخون أو يغش، فهذا لم يسلم منه عصر النبوة ولا الخلافة الراشدة، لكن هذه المعاصي تبقى فردية، يؤدب أفرادها بحكم الله عز وجل وحدوده، إذا لم يردعهم وازع الدين والخوف من الله، والحالات الفردية تلك ليست عامة، أما عندما يقل الوازع الديني والخوف من الآخرة، ويكون التحاكم إلى أهواء البشر وحكمهم فهذا هو البلاء العظيم والفساد الكبير، حيث تداس القيم والحرمات، ويأكل القوي الضعيف، وبالتالي لا يأمن الناس على أديانهم ولا أنفسهم ولا أموالهم ولا أعراضهم، وكفى بذلك سببًا في عدم الأمن والاستقرار، وانتشار الخوف، واختلال حياة الناس.

وإذا انحرف الناس عن هذا المنهج ضاع الأمن، وهلك العباد، وسقطت البلاد، قال

(١) البيت للمتنبي في ديوانه ص ٢٦٦.
(٢) انظر: تحقيق الإسلام لأمن المجتمع، صالح الفوزان، مجلة البحوث الإسلامية ٢١/ ٩٦.

ابن تيمية: «وبلاد الشرق من أسباب تسليط الله التتر عليها كثرة التفرق والفتن بينهم»[(١)].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال: أقبل علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: (يا معشر المهاجرين خمسٌ إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم)[(٢)].

ومن إقامة الشرع: إقامة العدل، قال تعالى مخاطبًا جميع عباده: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

قال ابن تيمية: «إن الناس لم يتنازعوا في أن عاقبة الظلم وخيمةٌ، وعاقبة العدل كريمةٌ؛ ولهذا يروى: الله ينصر الدولة العادلة وإن كانت كافرةً، ولا ينصر الدولة الظالمة وإن كانت مؤمنةً»[(٣)].

والعدل هو الذي يؤمن الأمم من عدوان أعدائها، وتحل وفرته وشموله محل ما نقص من السلاح والعتاد المادي، وقد كتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز إليه: إن مدينتنا قد خربت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لنا مالًا نرمها به فعل، فكتب إليه عمر: إذا قرأت كتابي هذا فحصنها بالعدل، ونق طرقها من الظلم؛ فإنه مرمتها، والسلام[(٤)].

ثانيًا: الأمن المذموم ومظاهره:

الأمن منه محمود ومذموم، وقد سبق بيان الأمن المحمود، وطرق تحصيله، والأمن المذموم هو ما يضاد الأمن المحمود، كالأمن من مكر الله تعالى، والأمن من بطش الأعداء، والتفريط في تحصيل أسباب الأمن المحمود، يوقع ولا شك في الأمن المذموم، وقد ذكر القرآن الكريم مظاهر ذلك الأمن المذموم، ومن ذلك:

١ . الأمن من عقوبة الله وعذابه في الدنيا.

ذكر الله تعالى توبيخ الذين أمنوا،

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٢/ ٢٥٤.
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، كتاب الفتن، باب العقوبات، ٢/ ١٣٣٢، رقم ٤٠١٩.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/ ٢١٦.
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ٢٨/ ٦٣.
(٤) انظر: تاريخ دمشق، ابن عساكر ٤٥/ ٢٠٢، تاريخ الخلفاء، السيوطي ص١٧٤.

واستغرقوا في أمنهم الباطل، فقال تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧ - ٩٩].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: أفأمن يا محمد هؤلاء الذين يكذبون الله ورسوله ويجحدون آياته، استدراج الله إياهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحة الأبدان ورخاء العيش، كما استدرج الذين قص عليهم قصصهم من الأمم قبلهم، فإن مكر الله لا يأمنه، يقول: لا يأمن ذلك أن يكون استدراجًا مع مقامهم على كفرهم، وإصرارهم على معصيتهم إلا القوم الخاسرون وهم الهالكون»[1].

إن البشر في قبضة الله في كل لحظة وفي كل بقعة، إنهم في قبضته في البر، كما هم في قبضته في البحر، فكيف يأمنون؟

ألا إنها الغفلة أن يعرض الناس عن ربهم ويكفروا، ثم يأمنوا أخذه وكيده، وهم يتوجهون إليه وحده في الشدة، ثم ينسونه بعد النجاة، كأنها آخر شدة يمكن أن يأخذهم بها الله![2].

٢. الأمن من بطش الأعداء وتسلطهم.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ الْكَافِرِينَ كَانُوا لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾ وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ الصَّلَاةَ فَلْتَقُمْ طَائِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوا أَسْلِحَتَهُمْ فَإِذَا سَجَدُوا فَلْيَكُونُوا مِن وَرَائِكُمْ وَلْتَأْتِ طَائِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّوا فَلْيُصَلُّوا مَعَكَ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰ أَن تَضَعُوا أَسْلِحَتَكُمْ وَخُذُوا حِذْرَكُمْ إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠١ - ١٠٢].

أمرهم الله تعالى بالصلاة، ثم بالتعبئة الروحية الكاملة تجاه العدو، وهذا الحذر الذي يوصى المؤمنون به تجاه عدوهم الذي يتربص بهم لحظة غفلة واحدة عن أسلحتهم وأمتعتهم ليميل عليهم ميلة واحدة! ومع هذا التحذير والتخويف، التطمين والتثبيت، إذ يخبرهم أنهم إنما يواجهون قومًا كتب الله عليهم الهوان: ﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [النساء: ١٠٢].

وهذا التقابل بين التحذير والتطمين، وهذا التوازن بين استثارة حاسة الحذر، وسكب فيض الثقة هو طابع هذا المنهج في تربية النفس المؤمنة، والصف المسلم في

(١) جامع البيان، ١٠/ ٣٣٤.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٤٠.

مواجهة العدو الماكر العنيد اللئيم![1].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ خُذُوا۟ حِذْرَكُمْ فَٱنفِرُوا۟ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُوا۟ جَمِيعًا﴾ [النساء: ٧١].

يأمر الله عباده المؤمنين بأخذ الحذر من عدوهم، وهذا يستلزم التأهب لهم بإعداد الأسلحة والعدد وتكثير العدد بالنفير في سبيله[2].

٣. الأمن من زوال النعمة.

ومن القصص التي ذكر الله فيها زوال نعمة الأمن عن أصحابها:

- قصة سبأ.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ [سبأ: ١٥ - ٢١].

عن ابن عباس رضي الله عنه قال: فإنهم بطروا عيشهم، وقالوا: لو كان جنى جناتنا أبعد مما هي كان أجدر أن نشتهيه، فمزقوا بين الشام وسبأ، وبدلوا بجنتيهم جنتين ذواتي أكلٍ خمطٍ وأثلٍ، وشيءٍ من سدرٍ قليلٍ[3].

فهم كفروا بما كانوا فيه من أمن فأبدلهم الله به خوفًا وتشتتًا وتمزيقًا، وقال ابن كثير: «يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغبطة والنعمة، والعيش الهني الرغيد، والبلاد الرخية، والأماكن الآمنة، والقرى المتواصلة المتقاربة، بعضها من بعضٍ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلى حمل زادٍ ولا ماءٍ، بل حيث نزل وجد ماءً وثمرًا، ويقيل في قريةٍ ويبيت في أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه في سيرهم. . .، فبطروا هذه النعمة، وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون في قطعها إلى الزاد والرواحل والسير في الحرور والمخاوف، فجعلهم الله حديثًا للناس، وسمرًا يتحدثون به من خبرهم، وكيف مكر الله بهم، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش

(١) انظر: المصدر السابق ٢/ ٧٤٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٣٥٧.
(٣) جامع البيان، الطبري ١٩/ ٢٦٥.

الهنيء؟ تفرقوا في البلاد ها هنا وها هنا»[1].

❁ القرية الظالمة المضروب بها المثل.

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فكونها آمنةً أي ذات أمنٍ لا يغار عليهم، كما قال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾[العنكبوت: ٦٧].

والأمر في مكة كان كذلك؛ لأن العرب كان يغير بعضهم على بعضٍ، أما أهل مكة فإنهم كانوا أهل حرم الله، والعرب كانوا يحترمونهم ويخصونهم بالتعظيم والتكريم[2].

والمثل الذي يضربه الله لهم منطبق على حالهم، وعاقبة المثل أمامهم، مثل القرية التي كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدًا من كل مكان فكفرت بأنعم الله، وكذبت رسوله ﴿فَأَذَاقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾ وأخذ قومها العذاب وهم ظالمون.

ويجسم التعبير الجوع والخوف فيجعله لباسًا، ويجعلهم يذوقون هذا اللباس ذوقًا؛ لأن الذوق أعمق أثرًا في الحس من مساس اللباس للجلد، وتتداخل في التعبير استجابات الحواس فتضاعف مس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس، لعلهم يشفقون من تلك العاقبة التي تنتظرهم لتأخذهم وهم ظالمون[3].

وقال الإمام ابن كثير في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

يقول تعالى ممتنًا على قريشٍ فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواءً العاكف فيه والبادي، ومن دخله كان آمنًا، فهم في أمنٍ عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضًا، ويقتل بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ١ - ٤].

وقوله: ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٧].

أي: أفكان شكرهم على هذه النعمة العظيمة أن أشركوا به، وعبدوا معه غيره من الأصنام والأنداد، و﴿بَدَّلُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا۟ قَوْمَهُمْ دَارَ ٱلْبَوَارِ﴾ [إبراهيم: ٢٨].

وكفروا بنبي الله وعبده ورسوله، فكان اللائق بهم إخلاص العبادة لله، وألا يشركوا

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ٦/ ٥٠٨.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٧٩.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١٩٩.

به، وتصديق الرسول وتعظيمه وتوقيره، فكذبوه وقاتلوه وأخرجوه من بين ظهرهم؛ ولهذا سلبهم الله ما كان أنعم به عليهم، وقتل من قتل منهم ببدرٍ، وصارت الدولة لله ولرسوله وللمؤمنين، ففتح الله على رسوله مكة، وأرغم أنوفهم، وأذل رقابهم[1].

إن سنة الله ماضية، من أعرض عن شكر الله تعالى، وعن العمل الصالح وعن التصرف الحميد في نعم ربه عليه، فهو حري بسلب هذا الرخاء وإبداله جوعًا، وسلب نعمة الأمن وإبدالها خوفًا.

❁ أصحاب الجنة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَاهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ﴾ [القلم: ١٧ - ٢٠].

❁ صاحب الجنتين.

قال تعالى: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِن تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُن لَّهُ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ [الكهف: ٣٤ - ٤٤].

فقول الظالم: ﴿قَالَ مَا أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا﴾ اغترارٌ منه لما رأى فيها من الزروع والثمار والأشجار والأنهار المطردة في جوانبها وأرجائها، ظن أنها لا تفنى ولا تفرغ ولا تهلك ولا تتلف وذلك لقلة عقله، وضعف يقينه بالله، وإعجابه بالحياة الدنيا وزينتها، وكفره بالآخرة[2].

تجيء قصة الرجلين والجنتين تضرب مثلًا للقيم الزائلة، والقيم الباقية، وترسم نموذجين واضحين للنفس المعتزة بزينة الحياة، والنفس المعتزة بالله.

وكلاهما نموذج إنساني لطائفة من الناس: صاحب الجنتين نموذج للرجل الثري، تذهله الثروة، وتبطره النعمة، فينسى الله ونعماءه، ويحسب هذه النعمة خالدة لا تفنى، فلن تخذله القوة ولا الجاه، وصاحبه

(١) تفسير القرآن العظيم ٦/ ٢٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٥/ ١٥٧.

نموذج للرجل المؤمن المعتز بإيمانه، الذاكر لربه، يرى النعمة دليلًا على المنعم، موجبة لحمده وذكره، لا لجحوده وكفره.

جنتان مثمرتان من الكروم، محفوفتان بسياج من النخيل، تتوسطهما الزروع، ويتفجر بينهما نهر، إنه المنظر البهيج والحيوية الدافقة والمتاع والمال، وها هو ذا صاحب الجنتين تمتلئ نفسه بهما، ويزدهيه النظر إليهما، فيحس بالزهو، وينتفش كالديك، ويختال كالطاووس، ويتعالى على صاحبه الفقير: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

ثم يخطو بصاحبه إلى إحدى الجنتين، وملء نفسه البطر، وملء جنبه الغرور، وقد نسي الله، ونسي أن يشكره على ما أعطاه، وظن أن هذه الجنان المثمرة لن تبيد أبدًا، أنكر قيام الساعة أصلًا، وهبها قامت فسيجد هنالك الرعاية والإيثار! أليس من أصحاب الجنان في الدنيا؟! فلابد أن يكون جنابه ملحوظًا في الآخرة! ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٥-٣٦].

إنه الغرور يخيل لذوي الجاه والسلطان والمتاع والثراء أن القيم التي يعاملهم بها أهل هذه الدنيا الفانية تظل محفوظة لهم حتى في الملأ الأعلى! فما داموا يستطيلون على أهل هذه الأرض فلابد أن يكون لهم عند السماء مكان ملحوظ! فأما صاحبه الفقير الذي لا مال له ولا نفر، ولا جنة عنده ولا ثمر فإنه معتز بما هو أبقى وأعلى، معتز بعقيدته وإيمانه، معتز بالله الذي تعنو له الجباه فهو يجبه صاحبه المتبطر المغرور منكرًا عليه بطره وكبره، يذكره بمنشئه المهين من ماء وطين، ويوجهه إلى الأدب الواجب في حق المنعم، وينذره عاقبة البطر والكبر، ويرجو عند ربه ما هو خير من الجنة والثمار ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا﴾ [الكهف: ٣٧ - ٤١].

وهكذا تنتفض عزة الإيمان في النفس المؤمنة، فلا تبالي المال والنفر، ولا تداري الغنى والبطر، ولا تتلعثم في الحق، ولا تجامل فيه الأصحاب، وهكذا يستشعر المؤمن أنه عزيز أمام الجاه والمال، وأن ما عند الله خير من أعراض الحياة، وأن فضل الله عظيم، وهو يطمع في فضل الله، وأن

نقمة الله جبارة، وأنها وشيكة أن تصيب الغافلين المتبطرين.

وفجأة ينقلنا السياق من مشهد النماء والازدهار إلى مشهد الدمار والبوار، ومن هيئة البطر، والاستكبار إلى هيئة الندم والاستغفار، فلقد كان ما توقعه الرجل المؤمن ﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٢].

وهو مشهد شاخص كامل، الثمر كله مدمر، كأنما أخذ من كل جانب فلم يسلم منه شيء، والجنة خاوية على عروشها مهشمة محطمة، وصاحبها يقلب كفيه أسفًا وحزنًا على ماله الضائع وجهده الذاهب، وهو نادم على إشراكه بالله، يعترف الآن بربوبيته ووحدانيته، ومع أنه لم يصرح بكلمة الشرك، إلا أن اعتزازه بقيمة أخرى أرضية غير قيمة الإيمان كان شركًا ينكره الآن، ويندم عليه ويستعيذ منه بعد فوات الأوان[(١)].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢٢٧٠.

آثار الأمن على الفرد والمجتمع

لاستقرار الأمن آثار على الفرد وعلى المجتمع منها: الهداية، وسعة الرزق ورغد العيش، ومنها: النجاة من العذاب الأليم في الآخرة، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: الهداية إلى أقوم السبل، وتوفر السكينة والاطمئنان:

إن تتبعنا لمفهوم الأمن يوصلنا إلى حقيقة مفادها أنه مستقر في القلب، ومدار مادة (أمن) في اللسان العربي على سكينة يطمئن إليها القلب بعد اضطراب، وقول الراغب الأصفهاني يكاد يكون جامعًا لما في غيره مع تدقيق، يقول: «أصل الأمن: طمأنينة النفس وزوال الخوف، وآمن: إنما يقال على وجهين:

أحدهما: متعديًا بنفسه، يقال: آمنته، أي: جعلت له الأمن، ومنه قيل لله: مؤمن.

والثاني: غير متعد، ومعناه: صار ذا أمن، والإيمان هو التصديق الذي معه أمن»[(٢)].

كأن الإمام الراغب لا يتصور أن يكون هناك مؤمن وليس عنده أمن، أي سكينة واطمئنان، أي استقرار لا اهتزاز ولا اضطراب ولا قلق ولا حيرة؛ لأنه مطمئن

(٢) المفردات ص٩٠.

إلى ربه ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤].

فالمدار إذن على وجود سكينة في القلب في جميع ما دارت فيه المادة سواء في صورة (أمن) أو (آمن) المتعدي واللازم، المدار على هذه السكينة وعلى هذه الطمأنينة التي تأتي في حقيقتها بعد نوع من القلق والاضطراب، وتأتي بعد قدر من الخوف، وهذا الخوف عبر عنه بالخوف نفسه، وعبر عنه بالبأس، وعبر عنه بالفزع ﴿وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

وعبر عنه بألفاظ أخرى غير هذه الألفاظ، ولكن مؤداها جميعًا هي أنها تحدث لدى الإنسان ضربًا من الخوف، فإذا جاء الأمن أزال ذلك الخوف، هذا الأصل وهذا المدار الذي تدور عليه المادة يجعلنا نتجه إلى أن المعنى الذي للأمن هو أنه حال قلبية تجعل المتصف بها في الدنيا يرتاح ويطمئن، والموصوف بها في الآخرة يسعد وتحصل له السعادة الأبدية.

إن أثر الإيمان حسب النصوص الشرعية يطمئن النفوس، ويهدئ المجتمعات من القلاقل، والفتن والأزمات، في أمور كثيرة، اضطربت فيها أنظمة الأمم، وتباينت فيها الآراء رغبة في وجود حل، والقضاء على مشكلة، أجد أن هذا الحيز لا يفيها كلها، ولكن حسبنا الإشارة إلى نماذج منها مثل:

- **الأمن الزراعي وتوفير الغذاء.**

ونجد هذا في آيات كثيرة في كتاب الله الكريم، مثل سورة يوسف والنحل وغيرهما.

- **الأمن الأسري ورباط الزوجية.**

كما في قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: ٧٤].

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

- **الأمن العائلي والاهتمام بالأولاد.**

كما جاء في سورة النساء في تقسيم التركات.

- **الأمن في الأوطان وحمايتها، والأمن الأخلاقي وتهذيب النفوس.**

كما جاء في آيات سورة في تحريم الزنا، ومنع الخوض في أعراض الناس، وفي آداب الاستئذان، وفي فرضية الحجاب وآياته في سورة الأحزاب.

- **أمن العقيدة وسلامة القلوب لارتباطها بالله وحده، ونبذ كل ما سواه.**

يقول تعالى في هذا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وآيات سورة الروم وسورة الواقعة التي تربط الإنسان بخالقه المتصرف سبحانه في جميع الأمور.

- **أمن المسكن وتوفير المعيشة.**

وتوضح ذلك آيات متعددة من كتاب الله الكريم كما في سورة النحل.

- **الأمن الاقتصادي وحرية الحركة في الأموال بيعًا وشراء، بعد أداء حق الله فيها بالزكاة والصدقة.**

وقد حظيت الزكاة والصدقة بتوجيهات كبيرة من القرآن الكريم والسنة المطهرة؛ لتهذيب النفوس وتعويدها على البذل والعطاء براحة نفس واطمئنان خاطر، وفي السر آكد؛ لأنها أبعد عن المراءاة.

- **الأمن بالهجرة لمكان آخر إذا كان المرء لا يستطيع أداء شعائر دينه، أو يجد مضايقات من أعداء دينه، وهذا هو الأمن على العبادة.**

وقد حكى الله عمن لم ينج بدينه وهو قادر: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٧ - ١٠٠].

ولكي يجعل الله مأمنًا ومخرجًا لهؤلاء المستضعفين غير القادرين على الهجرة والنجاة بأنفسهم فإن مما يطمئنهم أن الفئة المؤمنة مأمورة بالجهاد لتخليصهم ونصرتهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء: ٧٥].

- **الأمن بالتوبة.**

وهذا هو أمن المصير، وراحة النفس في الدنيا بالابتعاد عن أمر يؤرق النفس، ويخيفها التلبس به، وآيات التوبة في كتاب الله الكريم كثيرة ومتعددة.

- **أمن النفوس بمجاهدة الكفار؛ لإظهار دين الله، ولإسعاد البشرية بتبليغه.**

كما توضح ذلك سورة الأنفال وسورة التوبة وسورة البقرة، وغيرها في مواطن كثيرة من كتاب الله؛ لأن قمع أعداء الله وأعداء رسالاته لا يكون إلا بقوة السلاح، ودفاع المجاهدين المتحمسين لإظهار دينه.

وتأمين النفوس من التأثيرات الخفية، وحفظها من أثر ذلك كالسحر ونفثات الشيطان، كما جاء في المعوذتين، وقل هو الله أحد، وآية الكرسي، ففي هذا حرز للنفس وأمان لها من المؤثرات النفسية، ووساوس الشيطان وأتباعه.

- الأمن بالمشورة في كل أمر حتى يخف ما على كاهل الإنسان بإعطائه للآخرين، فيشاركون في الرأي.

كما في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وغير هذا من الأمور التي جعلت الشريعة الإسلامية فيها حلولًا لكل ما يعترض الإنسان في هذه الحياة، حيث يجد المرء في المخارج ما يريح نفسه، ويعينه على التغلب على المشكلة التي اعترضته؛ لأن في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام ما ينير الطريق، ويوضح المعالم، ويهدئ النفوس.

وقد وصف الله الفئة المؤمنة بآيات كريمات في مطلع سورة سميت باسمهم، أعطتهم صفات مطمئنة ومريحة؛ لأنهم في يقين ورضًا.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ۝٨ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٩ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١-١١][1].

وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

فلا سعادة لإنسان بلا سكينة نفس، ولا سكينة نفس بلا اطمئنان القلب، ومما لا شك فيه أن كلًا منا يبحث عن السعادة ويسعى إليها، فهي أمل كل إنسان، ومنشود كل بشر، والتي بها يتحقق له الأمن النفسي.

وليس الأمن النفسي بالمطلب الهين، فبواعث القلق والخوف والضيق ودواعي التردد والارتياب والشك تصاحب الإنسان منذ أن يولد وحتى يواريه التراب.

وإن الإسلام ليقيم صرحه الشامخ على عقيدة أن الإيمان مصدر الأمان، فالإقبال على طريق الله هو الموصل إلى السكينة والطمأنينة والأمن؛ ولذلك فإن الإيمان الحق هو السير في طريق الله للوصول إلى حب الله، والفوز بالقرب منه تعالى.

(١) انظر: أثر الإيمان في إشاعة الاطمئنان، محمد الشويعر، مجلة البحوث الإسلامية ١٧/ ١٨٩.

قال ابن القيم: «إن ذكر الله عز وجل يذهب عن القلب مخاوفه كلها، وله تأثير عجيب في حصول الأمن، فليس للخائف الذي قد اشتد خوفه أنفع من ذكر الله عز وجل ؛ إذ بحسب ذكره يجد الأمن ويزول خوفه، حتى كأن المخاوف التي يجدها أمان له، والغافل خائف مع أمنه حتى كأن ما هو فيه من الأمن كله مخاوف، ومن له أدنى حس قد جرب هذا وهذا، والله المستعان»[1].

وكذلك شرع الإسلام ما يحمي الإنسان، ويجعله آمنًا على نفسه، فحرم الله تعالى قتل النفس بغير الحق، كما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا﴾ [الإسراء: ٣٣].

وفي حماية الأموال قال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ۝٢٩ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء: ٢٩ - ٣٠].

ومن الحدود التي تحافظ على أمن المجتمع كله حد الحرابة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَافٍ أَوْ يُنفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣٣ - ٣٤].

وهكذا كل الشريعة تحفظ على الناس أمنهم بطرق كثيرة، فيترتب عليه شيوع الأمن في المجتمع المسلم، ومن ثم يتوفر الناس لأمور دينهم ودنياهم.

ثانيًا: سعة الرزق والرغد:

باستقراء جزئي لبعض نصوص القرآن الكريم نجد اقترانًا وجيهًا بين الأمن والرزق، ومن ذلك:

قال تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

وهنا عقوبة بعد امتنان، وهدم بعد تشييد، فيظهر الله منته على عبادة بقوله: ﴿آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ فقرن بين الأمن والكفاية في الرزق؛ بل

(١) الفوائد ص ٧٧.

من كمال فضله على أهل هذه القرية زيادة على الأمن تفضل عليهم بالطمأنينة، وهي الاستقرار النفسي من الداخل، فكانوا في آمن من عدو خارجي، واستقرار نفسي داخلي، ثم بين أن رزقها يأتيها ليس كفافًا أو كفاية؛ بل يأتيها رغدًا كثيرًا هنيئًا متنوعًا من كل مكان، فقد بلغ أهل القرية غاية الأرب، ومنتهى الطلب في مقصدي الأمن والكفاية، فلما كفرت بتلك النعم حرمت من الكأس الذي به كان الامتنان، فتبدل الأمن خوفًا والرزق جوعًا.

وفي هذه الآية دلالة صريحة على أن أعظم المنة على النفس توفير الآمن وكفاية العيش.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٤].

ووردت هذه الآية في معرض المنة على كفار قريش في جاهليتهم، فكانوا أعز العرب منعة وأكثر هم مهابة، وتجلب لها الأرزاق والأنعام من حيث شاءوا.

وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فقرن في عقوبة الابتلاء بين الخوف والجوع، فبفقدهما تكون أعظم المصائب وأجل الخطوب.

وقال تعالى: ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصص: ٥٧].

فقرن في الامتنان على كفار قريش بين الأمن والرزق، وهذا التلازم بين هذين المقصدين يقتضي الوقوف عنده كثيرًا.

وقال تعالى عن دعاء إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ [البقرة: ١٢٦].

وهنا عندما طلب إبراهيم عليه السلام من ربه الحياة الكريمة لمن سيؤول إليه سكن مكة، طلب أعز موجود، وأعظم مفقود، وهما الأمن والرزق، وهذا دلالة على أنهما ركيزتان للحياة الإنسانية الكريمة.

وقدم طلب الأمن على سائر المطالب المذكورة بعده؛ لأنه إذا انتفى الأمن لم يفرغ الإنسان لشيء آخر من أمور الدين والدنيا[1]، وهكذا في آيات كثيرة.

وقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦].

وفي هذه الآية الكريمة يذكر الله أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم بأعظم منتين امتن الله بهما عليهم، وهما الأمن بعد

(١) فتح القدير، الشوكاني ٣/ ١٣٤.

الخوف، والرزق بعد شظف العيش.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من أصبح منكم آمنًا في سربه، معافًى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا)[(١)].

وهذا الحديث أصل في هذا الباب، فقد ذكر فيه الدعائم الأساسية في حياة الفرد، وهي تنطبق تباعًا على المجتمعات والتكتلات بكل مفرداتها، وهذه الأسس هي: الأمن والعافية والقوت (الرزق) فمن جوامع الخير وحقوق الآدمية للفرد والجماعة أن يوفر لهم الأمن بكل أنواعه، والرزق بصنوف حاجاته وعلائقه.

وإذا كنا قد اتفقنا على أن أعظم طرق الأمن هو الإيمان، فإن الإيمان بالله هو الذي يجعل المجتمع في رغد وسعة من الرزق.

ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦ - ٩٩].

فذكر الله تعالى أن هذه القرى لما كانت آمنة كانت البركات تنزل عليهم، فلما كفروا أبدلهم الله بالأمن خوفًا، وزالت النعمة عنهم.

وقال سبحانه: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: ١١٢].

فجعل من مستلزمات الأمن أن رزقها رغدًا.

قال الماوردي: «اعلم أن ما به تصلح الدنيا حتى تصير أحوالها منتظمةً، وأمورها ملتئمةً، ستة أشياء هي قواعدها، وإن تفرعت، وهي: دينٌ متبعٌ، وسلطانٌ قاهرٌ، وعدلٌ شاملٌ، وأمنٌ عامٌ، وخصبٌ دائمٌ، وأملٌ فسيحٌ.

وقال في شرح ذلك: وأما القاعدة الرابعة: فهي أمنٌ عامٌ تطمئن إليه النفوس، وتنتشر فيه الهمم، ويسكن إليه البريء، ويأنس به الضعيف، فليس لخائفٍ راحةٌ، ولا لحاذرٍ طمأنينةٌ.

وقد قال بعض الحكماء: الأمن أهنأ عيشٍ، والعدل أقوى جيشٍ؛ لأن الخوف

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد، ٤/ ١٥٢، رقم ٢٣٤٦، وابن ماجه في سننه، كتاب الزهد، باب القناعة، ٢/ ١٣٨٧، رقم ٤١٤١.
وحسنه الألباني في صحيح الجامع ٢/ ١٠٤٤، رقم ٦٠٤٢.

يقبض الناس عن مصالحهم، ويحجزهم عن تصرفهم، ويكفهم عن أسباب المواد التي بها قوام أودهم، وانتظام جملتهم؛ لأن الأمن من نتائج العدل، والجور من نتائج ما ليس بعدلٍ.

ثم قال في الخصب: والخصب يكون من وجهين: خصبٌ في المكاسب، وخصبٌ في المواد، فأما خصب المكاسب فقد يتفرع من خصب المواد، وهو من نتائج الأمن المقترن بها، وأما خصب المواد فقد يتفرع عن أسبابٍ إلهيةٍ، وهو من نتائج العدل المقترن بها»[(١)].

وتأمل التلازم الوثيق بين الأمن والرزق، وبين الخوف والجوع، تجده مطردًا في القرآن كله، مما يؤكد أهمية ووجوب المحافظة على الأمن؛ لما يترتب على ذلك من آثار كبرى في حياة الناس وعباداتهم، واستقرارهم البدني والنفسي، وأي طعم للحياة والعبادة إذا حل الخوف؟ بل تتعثر مشاريع الدين والدنيا.

وقال الجويني: «ولا تصفو نعمةٌ عن الأقذاء ما لم يأمن أهل الإقامة والأسفار من الأخطار والأغرار، فإذا اضطربت الطرق، وانقطعت الرفاق، وانحصر الناس في البلاد، وظهرت دواعي الفساد، ترتب عليه غلاء الأسعار، وخراب الديار، وهواجس الخطوب الكبار، فالأمن والعافية قاعدتا النعم كلها، ولا يهنأ بشيءٍ منها دونها؛ فليتنهض الإمام لهذا المهم، وليوكل بذلك الذين يخفون، وإذا حزب خطبٌ لا يتواكلون، ولا يتجادلون، ولا يركنون إلى الدعة والسكون، ويتسارعون إلى لقاء الأشرار بدار الفراش إلى النار، فليس للناجمين من المتلصصين مثل أن يبادروا قبل أن يتجمعوا أو يتألبوا، وتتحد كلمتهم، ويستقر قدمهم، ثم يندب لكل صقعٍ من ذوي البأس من يستقل بكفاية هذا المهم.

وإذا تمهدت الممالك، وتوطدت المسالك، انتشر الناس في حوائجهم، ودرجوا في مدارجهم، وتقاذفت أخبار الديار مع تقاصي المزار إلى الإمام، وصارت خطة الإسلام كأنها بمرأى منه ومسمعٍ، واتسق أمر الدين والدنيا، واطمأن إلى الأمنة الورى، والإمام في حكم البذرقة[(٢)] في البلاد للسفرة والحاضرة، فليكلأهم بعينٍ ساهرةٍ، وبطشةٍ قاهرةٍ»[(٣)].

ثالثًا: النجاة من عذاب الله في الآخرة:

(١) أدب الدنيا والدين، الماوردي ص١٣٣.

(٢) البذرقة: الحراس يتقدمون القافلة، وأجر الحراسة، والأمان يعطاه المسافر، وهي كلمة ليست بعربية، وإنما هي كلمة فارسية وعربتها العرب، يقال: بعث السلطان بذرقة مع القافلة، والمبذرق: الخفير. انظر: المعجم الوسيط ١/ ٤٥ والقاموس المحيط ص ٨٦٦.

(٣) غياث الأمم، الجويني ص ٢١٢.

من المفهوم القاصر للأمن الذي يحاول الملبسون ترسيخه في أذهان الناس اليوم توجيه الأنظار إلى توفير الأمن على النفس والرزق في هذه الحياة الدنيا فحسب، ونسيان الأمن الحقيقي والسعادة الكبرى في الآخرة، وعدم أو ضعف الحرص على ذلك، وإغفال الأسباب التي توصل إلى الأمن يوم الفزع الأكبر، والفوز بدار الأمن والسلام والتي أعدها الله عز وجل لعباده المتقين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ﴾ [الحجر: ٤٥ - ٤٦].

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [يونس: ٢٥].

إن الأمن يوجب على الإنسان أن يعبد الله، كما قال سبحانه: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [: ٥٥].

وهذه العبادة هي المؤدية للأمن التام في الآخرة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

فهؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك له، ولم يشركوا به شيئًا هم الآمنون يوم القيامة، المهتدون في الدنيا والآخرة[(١)].

ومن خاف هنا أمن هناك، فإن الله لا يجمع بين خوفين على عبد، فمن خاف في الدنيا أمن في الآخرة، ولست أعني بالخوف رقة كرقة النساء، تدمع العين، ويرق القلب، ثم ينسى على القرب، يعود المرء إلى اللهو واللعب، فهذا ليس من الخوف في شيء، بل من خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا شيئًا طلبه، فلا ينجي إلا خوف يمنع عن معاصي الله تعالى ويحث على طاعته.

ولذلك وعد الله أهل الإيمان بالأمن التام، فقال سبحانه: ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

ففي يوم القيامة في هذا اليوم المفزع الرهيب يكون الأمن والطمأنينة من الفزع جزاء الذين أحسنوا في الحياة الدنيا، فوق ما ينالهم من ثواب هو أجزل من حسناتهم وأوفر ﴿مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ﴾ [النمل: ٨٩].

والأمن من هذا الفزع هو وحده جزاء، وما بعده فضل من الله ومنة، ولقد خافوا الله في الدنيا فلم يجمع عليهم خوف الدنيا وفزع الآخرة، بل أمنهم يوم يفزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله.

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِي النَّارِ خَيْرٌ أَم

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٩٤.

﴿مَن يَأْتِيٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [فصلت: ٤٠].

قال الطبري: «يقول تعالى ذكره: لهؤلاء الذين يلحدون في آياتنا اليوم في الدنيا يوم القيامة عذابُ النار، ثم قال الله: أفهذا الذي يلقى في النار خيرٌ أم الذي يأتي يوم القيامة آمنًا من عذاب الله لإيمانه بالله جل جلاله ؟ هذا الكافر، إنه إن آمن بآيات الله، واتبع أمر الله ونهيه، أمنه يوم القيامة مما حذره منه من عقابه إن ورد عليه يومئذٍ به كافرًا»[1].

وقال تعالى ذاكرًا أمنهم وهم في الجنة: ﴿وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ [سبأ: ٣٧].

إشارةً إلى دوام النعيم وتأبيده، فإن من تنقطع عنه النعمة لا يكون آمنًا[2].

فهم في منازل الجنة العالية آمنون من كل بأسٍ وخوفٍ وأذًى، ومن كل شرٍ يحذر منه، فنسأل الله أن يجعلنا من أهل الأمن في الدنيا والآخرة.

موضوعات ذات صلة:

الحذر، الخوف

(١) جامع البيان، ٢٠/ ٤٤٢.
(٢) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٥/ ٢٠٩.







عناصر الموضوع

مفهوم الامومة	١٦٠
الأمومة في الاستعمال القرآني	١٦١
الالفاظ ذات الصلة	١٦٢
الأمومة الأولى	١٦٥
أنواع الامومة	١٦٧
فطرة الأمومة ومشتقاتها	١٦٩
الأمومة والأحكام الشرعية	١٧٤
الأمومة حقوق وواجبات	١٧٩
أمهات ذكرهن القرآن	١٨٧

المجلد الخامس

مفهوم الأمومة

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمومة مشتقة من الأم، وأم كل شيء: أصله وعماده، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ ٤﴾ [الزخرف:٤].

وأم كل شيء معظمه، يقال لكل شيء اجتمع معه غيره فضمه إليه أمه، والأم الوالدة[١]، والأم: خادم القوم، الذي يلي طعامهم وخدمتهم، والأم الوالدة، وتطلق على الجدة، يقال حواء أم البشر، وجمعها للعاقل أمهات، ولغير العاقل أمات، والأم: المسكن، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ٩﴾ [القارعة:٩]. أي: مسكنه النار، وقيل: أم رأسه هاوية فيها، أي: ساقطة[٢].

وقيل: تفسير الأم في كل معانيها: أمه؛ لأن تأسيسه من حرفين صحيحين، والهاء فيه أصلية، ولكن العرب حذفت تلك الهاء إذا أمنوا اللبس، لذا يقال في تصغير أم: أميمة، والصواب: أميهة، ترد إلى أصل تأسيسها، ويقال: تأمم فلان أمًا، أي: اتخذها لنفسه أمًا[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الأمومة من أعظم الهبات التي خص الله بها المرأة، وقد عرف العلماء الأمومة بأنها: «نظام تعلو فيه مكانة الأم على مكانة الأب في الحكم، ويرجع فيه إلى الأم في النسب أو الوراثة»[٤].

وفي تعريف الأم قال العلماء: الأم هي: «الوالدة القريبة التي ولدته، والبعيدة التي ولدت من ولدته»[٥].

فالأم «اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، فيدخل في ذلك الأم دنية، وأمهاتها وجداتها وأم الأب وجداته وإن علون»[٦].

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص١٠٧٦.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٥/ ٤٥٢، الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٨٦٣، تاج العروس، الزبيدي، ٣١/ ٢٣٠، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٢٧.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ١٥/ ٤٥٢.
(٤) المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية، ١/ ٢٧.
(٥) بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ١١١، التوقيف، المناوي، ص٦٢.
(٦) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٥/ ١٠٨.



الأمومة في الاستعمال القرآني

وردت (الأم) في القرآن (٢٨) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	١٧	﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾[القصص:٧]
الجمع	١١	﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾[النساء:٢٣]

وجاءت الأم في الاستعمال القرآني على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: الوالدة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ﴾[طه:٤٠]. أي: إلى والدتك.

الثاني: المرضعة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ﴾[النساء:٢٣]. يعني: وحرمت عليكم مرضعتكم في الحولين.

الثالث: أمهات المؤمنين أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾[الأحزاب:٦].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص١٧٧.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني ص٤٤٤، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص١٤١.

الألفاظ ذات الصلة

١ الوالدة:

الوالدة لغةً:

الأم، يقال: ولدت المرأة ولادًا وولادةً، وأولدت: حان ولادها[١]، وولدته أمه ولادة وإلادةً على البدل، فهي والدة على الفعل، ووالدٌ على النسب[٢].

الوالدة اصطلاحًا:

هي التي تضع ولدها المولود[٣].

الصلة بين الأم والوالدة:

ذكرت الأم في القرآن الكريم أكثر من ذكر لفظة الوالدة، مما يدلل على أن لفظ الأم أعم من الوالدة، ففي كتب اللغة: الأم هي أصل الشيء، بينما الوالدة هي التي تلد، فكل والدة أم، وليس كل أم والدة، فالأم قد تعيل وتربي ولا يعني ذلك بالضرورة أنها هي من ولدته.

٢ المرضعة:

المرضعة لغة:

من رضع الصبي أمه رضاعًا، وامرأة (مرضع) أي لها ولد ترضعه، فإن وصفتها قال الفراء: المرضعة الأم، والمرضع التي معها صبي ترضعه، وقيل: المرضعة الفاعلة للإرضاع والمرضع ذات الرضيع[٤].

المرضعة اصطلاحًا:

وهي من معها صبي ترضعه، سواء كانت من ولدته أو استؤجرت لإرضاعه[٥].

الصلة بين الأم والمرضع:

قد تكون المرضعة هي الأم التي ولدته، وقد لا تكون، وإنما جيء بها واستأجرها الوالد؛ لإرضاع ابنه.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٤٥.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٦٧.
(٣) انظر: التوقيف، المناوي، ص٣٤٠.
(٤) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ١٢٣.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٨/ ١٢٥.



٣ الأنثى:

الأنثى لغة:

من أنث، فالألف والنون والثاء ما كان خلاف الذكر، والأنثيان أنثيا الإنسان[١].

الأنثى اصطلاحًا:

قال الأصفهاني في تعريف الأنثى: «الأنثى خلاف الذكر ويقالان في الأصل اعتبارًا بالفرجين، قال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾[النساء: ١٢٤]. ولما كانت الأنثى في جميع الحيوان تضعف عن الذكر اعتبر فيها الضعف، فقيل لما يضعف عمله أنثى»[٢].

الصلة بين الأم والأنثى:

كل أم أنثى، وليس كل أنثى أمًا، فإذا أنجبت الأنثى أصبحت أمًا.

٤ المرأة:

المرأة لغة:

يقال: مرة -بلا ألف-: تأنيث المرء[٣]؛ «والمرأ: الرجل»[٤] فقد أنثوا فقالوا مرأةٌ، وخففوا التخفيف القياسي فقالوا مرةٌ -بترك الهمز وفتح الراء- وهذا مطرد، وقال سيبويه: وقد قالوا: مراةٌ -وذلك قليل-... وللعرب في المرأة ثلاث لغات؛ يقال: هي امرأته، وهي مرأته، وهي مرته»[٥].

المرأة اصطلاحًا:

«اسم للأنثى البالغة من أولاد آدم»[٦] ولا يطلق عليها (امرأة) إلا بعد البلوغ، فـ«الصغيرة لا تسمى امرأة في عرف أهل اللسان»[٧].

الصلة بين الأم والمرأة:

كل أم امرأة، وليس كل امرأة أمًا.

---

(١) انظر: مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ١٠٤.
(٢) المفردات، ص٢٧.
(٣) انظر: كتاب العين، الفراهيدي ٨/ ٢٩٩.
(٤) بصائر ذوي التمييز، الفراهيدي ٤/ ٤٩٦.
(٥) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٥٤.
(٦) نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي ص٥٧١.
(٧) تحفة الأبرار شرح مصابيح السنة، البيضاوي ٢/ ٣٤٤.

٥ الأب:

الأب لغة:

الأب بالتخفيف بمعنى الوالد الذي إليه يرجع النسب[١].

الأب اصطلاحًا:

قال المناوي «الأب: الوالد، والأبوان: الأب والأم، أو الأب والجد، أو الأب والعم، أو الأب والمعلم، وكذا كل من كان سببًا لإيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره»[٢]، وقال الجرجاني الأب هو: كل من تكون من نطفته شخص آخر من نوعه[٣].

الصلة بين الأمومة والأبوة:

الأم والأب منهما يتكون الولد، فهما الوالدان اللذان يقومان على رعاية الأبناء، فالأمومة مضاد الأبوة، ويتكامل دورهما لتقوم الأسرة.

الأمومة والأبوة: وهما الوالدان اللذان تتضافر جهودهما لإنشاء أسرة صالحة.

(١) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ٢/ ٦.
(٢) التوقيف، ص٣٥.
(٣) انظر: التعريفات، ص٧.



الأمومة الأولى

خلق الله عز وجل أول خلقه من البشر آدم عليه السلام، ثم خلق منه أم البشر حواء عليها السلام، فكانت أول من خلق الله عز وجل من النساء، فالأمومة الأولى تمثلت في حواء عليها السلام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء:١].

وقال تعالى: ﴿۞هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَاۖ﴾ [الأعراف:١٨٩].

خلق الله عز وجل آدم عليه السلام، وأسكنه الجنة، وبعدها خلق الله حواء، واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ على رأيين:

الأول: النفس الواحدة آدم عليه السلام، وزوجها حواء عليها السلام، فحواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام.

فإنه تعالى خلق حواء من ضلع آدم عليه السلام، روي أنه عز وجل لما خلقه عليه السلام وأسكنه الجنة ألقى عليه النوم فبينما هو بين النائم واليقظان خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى، فلما انتبه وجدها عنده[1].

وقال ابن كثير في معنى قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ «وهي حواء، عليها السلام، خلقت من ضلعه الأيسر من خلفه، وهو نائم، فاستيقظ، فرآها، فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه»[2].

وقيل: إنه لم يؤذه أخذ الضلع شيئًا، ولو آذاه لما عطف رجل على امرأة أبدًا[3]، ثم نشر من تلك النفس وزوجها المخلوقة منها بطريق التوالد والتناسل رجالًا ونساءً.

الثاني: معنى قوله: ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ معناه: وخلق من جنسها زوجها، أي من التراب، وعن ابن عباس: أن الله تعالى خلق الرجل من التراب؛ فهمه في التراب[4]، وذهب إلى هذا الرأي أبو مسلم، قال الألوسي: «وأنكر أبو مسلم خلقها من الضلع؛ لأنه سبحانه قادر على خلقها من التراب، فأي فائدة في خلقها من ذلك؟! وزعم أن معنى منها: من جنسها، والآية على حد قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [النحل:٧٢].

ووافقه على ذلك بعضهم مدعيًا أن القول بما ذكر يجر إلى القول بأن آدم عليه السلام كان ينكح بعضه بعضًا، وفيه من الاستهجان

(١) إرشاد العقل السليم، ٢/ ١٣٨.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٢٠٦.
(٣) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ٣٩٣.
(٤) انظر: المصدر السابق.

ما لا يخفى»[1].

واحتج أبو مسلم بأنه تعالى لما كان قادرًا على أن يخلق آدم ابتداءً، فما الذي حملنا على أن نقول إنه تعالى خلق حواء من جزء من أجزاء آدم؟ ولم لا نقول: إنه تعالى خلق حواء أيضًا ابتداء؟ وأيضًا الذي يقدر على خلق إنسان من عظمٍ واحد فلم لا يقدر على خلقه ابتداء؟ فأي فائدة في خلقها من ضلعه.

ورد أبو حيان على هذا القول حيث قال: «قال القاضي: الأول أقوى، إذ لو كانت حواء مخلوقة ابتداء لكان الناس مخلوقين من نفسين لا من نفس واحدة»[2].

وذهب أغلب المفسرين إلى القول الأول[3]، وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤكد ما ذهب إليه أصحاب القول الأول، حيث قال عليه السلام: (المرأة خلقتِ من ضلعٍ أعوج وإنك إن أقمتها كسرتها، وإن تركتها تعش بها وفيها عوجٌ)[4].

والراجح والله أعلم القول الأول الذي ذهب إليه أغلب المفسرين؛ وهو أن حواء خلقت من ضلع من أضلاع آدم عليه السلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ [الأنعام:٩٨].

فالنفس الواحدة، هي آدم عليه السلام، وحواء مخلوقة من ضلع من أضلاعه، فصار كل الناس من نفس واحدة.

وما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فلا يؤذي جاره، واستوصوا بالنساء خيرًا، فإنهن خلقن من ضلعٍ، وإن أعوج شيءٍ في الضلع أعلاه، فإن ذهبتَ تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيرًا)[5].

(١) روح المعاني، ٢/ ٣٩٢.
(٢) البحر المحيط، ٣/ ٤٩٥.
(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٣٧.
(٤) أخرجه الحاكم في مستدركه، ٤/ ٢٨٩، رقم ٧٤١٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الوصاة بالنساء، ٥/ ١٩٨٧، رقم ٤٨٩٠.

أنواع الأمومة

إن الأمومة من أقوى الغرائز التي جبلت عليها المرأة، والأمومة لها أكثر من شكل ونوع، فيقال عن المرأة التي تلد أم، والمربية أو المرضعة أم، والقرآن الكريم صنف الأمومة إلى نوعين: الأم الوالدة، والأم المرضعة، وبيان ذلك كما يأتي:

أولًا: الأم الوالدة:

الأمومة صفة تتمتع بها الأم الوالدة، وغريزة أودعها الله عز وجل في المرأة، فالأم بفطرتها تحن على وليدها، وهذه الأم الوالدة هي كل من ولدت المرء وإن علت[1].

قال الرازي: «كل امرأة رجع نسبك إليها بالولادة من جهة أبيك أو من جهة أمك بدرجة أو بدرجات، بإناث رجعت إليها أو بذكور فهي أمك»[2].

فالأم هي الوالدة، كما أفاد أسلوب الحصر في قوله عز وجل: ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدْنَهُمْۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢﴾ [المجادلة:٢].

قال ابن عباس: « ما أمهاتهم في الحرمة إلا اللائي ولدنهم أو أرضعنهم»[3].

وقال القرطبي: «الأم اسم لكل أنثى لها عليك ولادة، فيدخل في ذلك الأم دنية، وأمهاتها وجداتها وأم الأب وجداته وإن علون»[4]، فأمومة الولادة تثبت لها أحكام النسب والإرث.

فأمومة الولادة هي الأمومة الكاملة في تحققها، وثبوت أحكامها.

ثانيًا: الأم المرضعة:

ذكر الله عز وجل هذا النوع من الأمومة الأم المرضعة في كتابه العزيز، فقال عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء:٢٣].

وقد كان للنبي عليه السلام قرابة من الرضاعة، حيث قال النبي صلى الله عليه وسلم في بنت حمزة: (لا تحل لي؛ يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب، هي بنت أخي من الرضاعة)[5].

وأم الإنسان من الرضاع هي الأم التي أرضعته، وكذلك كل امرأة انتسبت إلى تلك المرضعة بالأمومة، إما من جهة النسب أو

---

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٣١.
(٢) مفاتيح الغيب، ١٠/ ٢٤.
(٣) تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص٤٦٠.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ٥/ ١٠٨.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الشهادات، باب الشهادة على الأنساب والرضاع، ٢/ ٩٣٥، رقم ٢٥٠٢.

من جهة الرضاع، والحال في الأب كما في الأم[1]، وإنما اعتبرت أمًا؛ «قال المهايمي: لأن الرضاع جزء منها وقد صار جزءًا من الرضيع، فصار كأنه جزؤها، فأشبهت أصله»[2].

فالأم الوالدة قد لا تستطيع لعذر إرضاع وليدها، لذا كان العرب قديمًا يستأجرون مرضعة لأبنائهم، فالأم المرضعة هي التي ترضع ولدًا لأي سبب من الأسباب، وتحرم الأم من الرضاعة كما تحرم الأم من النسب كما قال عليه السلام .

واشترط العلماء لحرمة الأم من الرضاعة شرطين:

الشرط الأول: أن تكون الرضاعة قبل استكمال المولود حولين، لقوله تعالى: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣].

أي: أول قيام الهيكل وتشبح صورة الولد، وذلك قبل الفطام، وإلا فهو غذاء بمنزلة سائر الأغذية الكائنة بعد قيام الهيكل، كالشاب يأكل الخبز، وروي عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء)**[3].

والشرط الثاني: يتعلق بالقدر الذي يتحقق به معنى الرضاعة، فالآية الكريمة مطلقة، وجاءت السنة النبوية بتقييد إطلاقها بخمس رضعات متفرقات[4]، فعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أنها قالت: **(كان فيما أنزل من القرآن: عشر رضعاتٍ معلوماتٍ يحرمن، ثم نسخن بخمسٍ معلوماتٍ، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهن فيما يقرأ من القرآن)**[5].

وذهب بعض أهل العلم إلى أن قليل الرضاع وكثيره يحرم، وهو قول ابن عباس وابن عمر، وبه قال سعيد بن المسيب، وإليه ذهب سفيان الثوري، ومالك، والأوزاعي وعبد الله بن المبارك[6].

قال الرازي: «إنه تعالى علق هذا الاسم يعني الأمومة والأخوة بفعل الرضاع، فحيث حصل هذا الفعل وجب أن يترتب عليه الحكم، ثم سأل نفسه فقال: إن قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ بمنزلة قول القائل: وأمهاتكم اللاتي أعطينكم، وأمهاتكم اللاتي كسونكم، وهذا يقتضي

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٠/ ٢٦.
(٢) انظر: محاسن التأويل، القاسمي، ٣/ ٦٣.
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الرضاع، ٤/ ٤٥٠، رقم ١١٥٢. وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٢٤٧، رقم ٧٤٩٥.
(٤) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٩٨، محاسن التأويل، القاسمي ٣/ ٦٣.
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب التحريم بخمس رضعات، ٤/ ١٦٧، رقم ٣٥٨٧.
(٦) انظر: معالم التنزيل، البغوي، ٢/ ١٨٩.

تقدم حصول صفة الأمومة والأختية على فعل الرضاع، بل لو أنه تعالى قال: اللاتي أرضعنكم هن أمهاتكم لكان مقصودكم حاصلًا، وأجاب عنه بأن قال: الرضاع هو الذي يكسوها سمة الأمومة، فلما كان الاسم مستحقًا بوجود الرضاع كان الحكم معلقًا به، بخلاف قوله وأمهاتكم اللاتي كسونكم، لأن اسم الأمومة غير مستفاد من الكسوة، قال ويدل على أن ذلك مفهوم من هذه الآية ما روي أنه جاء رجل إلى ابن عمر رضي الله عنهما فقال: قال ابن الزبير: لا بأس بالرضعة ولا بالرضعتين، فقال ابن عمر: قضاء الله خير من قضاء ابن الزبير، قال الله تعالى: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ قال: فعقل ابن عمر من ظاهر اللفظ التحريم بالرضاع القليل»[1].

(١) مفاتيح الغيب، ١٠/ ٢٦.

فطرة الأمومة ومشقاتها

خلق الله عز وجل المرأة وأودع فيها غريزة الأمومة، بل هي من أقوى الغرائز عند الأم، فمن حرمها من الأمهات فهو ابتلاء عظيم، يبتلي الله به من يشاء من عباده، قال تعالى: ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَٰثًا ۖ وَيَجْعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًا ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾﴾ [الشورى: ٤٩-٥٠].

لذا نرى عاطفة الأمومة متمثلة بأمور عديدة منها:

١ . تمني الولد.

الأمومة فطرة جبلت عليها المرأة، فهذه سارة زوج سيدنا إبراهيم، تمنت الولد ولكنها لم تنجب في صغرها فبشرها الله عز وجل، بالولد في كبرها، قال تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَٰهَا بِإِسْحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسْحَٰقَ يَعْقُوبَ ﴿٧١﴾﴾ [هود: ٧١].

وهذه امرأة فرعون آسية لم تنجب، ونراها حرصت على أن تتخذ موسى ابنًا لها.

٢ . الحب والحنان والخوف عليه.

عظيم ذلك القلب، كبير بحنانه وعطفه، مليء بالمشاعر والأحاسيس التي أودعها الله عز وجل فيه، ولقد جاء القرآن الكريم يرسم أجمل صورة لتلك العاطفة عند الأم

التي تجعلها تصبر على ولدها في بطنها تسعة أشهر، تعاني فيها من آلام الحمل والتغير العضوي ما تعاني، يمتص الجنين من جسدها الغذاء ليكبر ويكبر، فإذا ما حان وقت خروجه، عانت في وضعه أضعاف ما كانت تعاني أيام الحمل، فإذا ما رأته بعد تلك الآلام احتضنته بحبها وعطفها وحنانها.

إن عاطفة الأمومة وما ينبع منها من حب وعطف وحنان، لمعجزة إلهية من عند الخالق المبدع، فلولاها لما استطاعت الأم الصبر على عناء ومشاق التربية لأبنائها، فسبحانه تجلت حكمته عز وجل .

وتمثلت عاطفة الأمومة الجياشة بالحب والحنان واضحة جلية في السيدة هاجر عليها السلام عندما تركها سيدنا إبراهيم عليه السلام بواد غير ذي زرع، فدفعتها عاطفة الحنان على طفلها للبحث عن الماء، يقول سيد قطب: «وطيف هاجر، وهي تستروح الماء لنفسها ولطفلها الرضيع في تلك الحرة المتلهبة حول البيت، وهي تهرول بين الصفا والمروة وقد نهكها العطش، وهدها الجهد وأضناها الإشفاق على الطفل، ثم ترجع في الجولة السابعة وقد حطمها اليأس لتجد النبع يتدفق بين يدي الرضيع الوضيء. وإذا هي زمزم، ينبوع الرحمة في صحراء اليأس والجدب»[١] .

ولقد أثنى الرسول صلى الله عليه وسلم على نساء قريش، وجعل صالحهن صالح النساء عامة؛ بسبب رعايتهن لأبنائهن، وعطفهن على أبنائهن، قال عليه السلام: **(خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولده في صغره، وأرعاه على زوج في ذات يده)**[٢] .

وجاء لنا القرآن الكريم مصورًا مشهد خوف الأم على وليدها، في أم موسى عليه السلام، عندما خافت عليه من أن يلحقه الأذى من فرعون، يقول الشعراوي: «فمن من النساء تقبل إن خافت على ولدها أن تلقيه في اليم؟ من ترضى أن تنجيه من موت مظنون إلى موت محقق؟ وقد جعل الحق سبحانه عاطفة الأمومة تتلاشى أمام وارد الرحمن الذي أتاها، والذي لا يؤثر فيه وارد الشيطان»[٣] .

يقول المولى جل جلاله في محكم كتابه العزيز: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا

(١) انظر: في ظلال القرآن، ٤/ ٢٤١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب إلى من ينكح وأي النساء خير وما يستحب أن يتخير لنطفه من غير إيجاب، ٥/ ١٩٥٥، رقم ٤.

(٣) انظر: تفسير الشعراوي، ١٧/ ١٠٨٧٩.



﴿كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ۝٨ وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝١٠ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ ۖ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١١ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ۝١٢ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٣﴾

[القصص:٧-١٣].

وانظر كيف يصور القرآن الكريم فؤاد أم موسى ومشاعرها وأحاسيسها، بعد أن نفذت أمر ربها ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾، يقول البيضاوي: «وأصبح فؤاد أم موسى فارغًا صفرًا من العقل لما دهمها من الخوف والحيرة حين سمعت بوقوعه في يد فرعون، كقوله تعالى: (وأفئدتهم هواء) أي خلاء لا عقول فيها»[1].

﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ «أي: إن كادت من شدة وجدها وحزنها وأسفها لتظهر أنه ذهب لها ولد، وتخبر بحالها، لولا أن الله ثبتها وصبرها»[2].

ولقد دفعت عاطفة الرحمة والحنان وشدة الوجد في فؤاد أم موسى، أن ترسل ابنتها لتقص أثر ابنها، فبصرت به عن بعد وهم يبحثون عن مرضعة له، بعد أن رفض الرضاع من أي امرأة غير أمه، كان وعد الله عز وجل بإرجاعه إلى أمه، ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ولقد بين القرآن الكريم عاطفة الأمومة المليئة بالرحمة والشفقة عندما استعطف هارون أخاه بعدم لومه وعتابه، بعد أن عبد بنو إسرائيل العجل في غياب موسى عليه السلام لمناجاة ربه، مستخدمًا تذكيره بالأم مبعث العواطف الرحيمة والحنان والحب، مبررًا ما حدث بخوفه وخشيته من تفرق بني إسرائيل تارة، وأخرى بالاستضعاف وقلة الحيلة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝١٥٠﴾

[الأعراف:١٥٠].

يقول ابن جزي: «وإنما دعاه بأمه، لأنه أدعى إلى العطف والحنو»[3].

(١) أنوار التنزيل ٤/ ١٧٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٢٣.

(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ١/ ٣٠٣.

هذه هي الأم مصدر الحب وينبوع الحنان، فمسكين ذلك الابن الذي لا يدرك مكانة الأم و حقوقها عليه بعد كل هذا العطاء المتفاني، فإذا بنا نسمع في هذا الزمان أو نرى أولادًا لم يكتفوا بعدم البر والإحسان لهذه الأم، بل زادوا على ذلك بالإيذاء والتأفف والتذمر والعقوق، خسر الدنيا والآخرة والعياذ بالله.

أما مشقات الأمومة، فالأمومة لها مشاق مختلفة ومتنوعة، أولها:

١. الحمل.

وضح القرآن الكريم مشقات الحمل في مواضع عديدة، منها: قوله جل ذكره في محكم التنزيل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

والمقصود فيها ولدته أمه شدة بعد شدة، وخلقًا بعد خلق[١]، فالأم تعاني المشاق منذ بداية حملها، بل وتزاد المشقة يومًا بعد يوم؛ لتثاقل الحمل، قال النيسابوري: «وقوله ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا﴾ أي: حال كونها تهن وهنًا ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي: ضعفا على ضعف، لأن الحمل كلما زاد وعظم ازدادت ثقلًا وضعفًا، اعتراض في اعتراض تحريضًا على رعاية حق الوالدة خصوصًا»[٢].

«المرأة إذا حملت توالى عليها الضعف والمشقة، ويقال: الحمل ضعف، والطلق ضعف، والوضع ضعف»[٣].

وقال المولى عز وجل: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [الأحقاف:١٥].

يقول سيد قطب: «تركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾، لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد، ويلهث بالأنفاس! إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه، وصورة الوضع وطلقه وآلامه! ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة، إن البويضة بمجرد تلقيحها بالخلية المنوية تسعى للالتصاق بجدار الرحم، وهي مزودة بخاصية أكالة، تمزق جدار الرحم الذي تلتصق به وتأكله، فيتوارد دم الأم إلى موضعها، حيث تسبح هذه البويضة الملقحة دائمًا في بركة من دم الأم الغني بكل ما في جسمها من خلاصات وتمتصه

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ١٣٧.

(٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ٥/ ٤٢٥.

(٣) تفسير القرآن،السمعاني ٤/ ٢٣٠.

لتحيا به وتنمو، وهي دائمة الأكلان لجدار الرحم، دائمة الامتصاص لمادة الحياة، والأم المسكينة تأكل وتشرب وتهضم وتمتص، لتصب هذا كله دمًا نقيًا غنيا لهذه البويضة الشرهة النهمة الأكول! وفي فترة تكوين عظام الجنين يشتد امتصاصه للجير من دم الأم فتفتقر إلى الجير. ذلك أنها تعطي محلول عظامها في الدم ليقوم به هيكل هذا الصغير»[1].

٢. الولادة.

وتحدث القرآن الكريم عن شدة الولادة وآلامها حينما وصف السيدة مريم بقوله تعالى: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: ٢٣].

والمخاض يعني الطلق، ووجع الولادة وآلامها، وقيل: التجأت إلى النخلة تستند إليها وتستمسك بها من شدة الطلق، ووجع الولادة[2].

ويتابع سيد قطب بوصف الآلام التي تلاقيها الأم، فيقول: «ثم الوضع، وهو عملية شاقة، ممزقة، ولكن آلامها الهائلة كلها لا تقف في وجه الفطرة ولا تنسي الأم حلاوة الثمرة، ثمرة التلبية للفطرة، ومنح الحياة نبتة جديدة تعيش، وتمتد، بينما هي تذوي وتموت! ثم الرضاع والرعاية، حيث تعطي الأم عصارة لحمها وعظمها في اللبن، وعصارة قلبها وأعصابها في الرعاية»[3]

(١) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٢٦٢.
(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٨٥.
(٣) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٢٦٢.

الأمومة والأحكام الشرعية

إن للأمومة أحكامًا خاصة بها لا بد من مراعاتها، والقيام بموجبها، والتزام ما أمر به الله عز وجل، من حرمة نكاحها، وأحكام الوصية والإرث، وما يتعلق بالقرابة ممن ترضعهم الأم، وأحكام الرضاعة والنفقة والحضانة، وستتناول هذه الأحكام بشيء من التفصيل بإذن الله فيما يلي:

١ . حرمة نكاحها.

وردت آيات في القرآن الكريم توضح لنا حرمة نكاح الأمهات، حيث قال سبحانه وتعالى في كتابه العزيز: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ ٱلَّـٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء:٢٣].

فنستدل من خلال الآية الكريمة على حرمة نكاح الأمهات وترك ذكر لفظ النكاح، اكتفاءً بدلالة الكلام عليه[(١)]، وسمى الله عز وجل المرضعات أمهات لأجل الحرمة فيحرم عليه نكاحها، كأزواج النبي صلى الله عليه وسلم سماهن الله تعالى أمهات المؤمنين في قوله: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

فكما يحرم على الرجل نكاح أمه التي ولدته، كذلك يحرم عليه نكاح أمه التي أرضعته، ويحل له النظر إليها والخلوة بها والسفر معها[(٢)].

يقول الطنطاوي: «ومن الحكم التي ذكرها العلماء من وراء تحريم النكاح بسبب الرضاعة:أن المولود يتكون جسمه من جسم المرأة التي أرضعته فيكون جزءًا منها، كما أنه جزء من أمه التي حملته، وإذا كانت هذه قد غذته بدمها وهو في بطنها، فإن تلك قد غذته بلبانها وهو في حجرها، فكان من التكريم لهذه الأم من الرضاع أن تعامل معاملة الأم الحقيقية»[(٣)].

٢ . الوصية والإرث.

ذكر الله عز وجل الميراث في القرآن الكريم، وفصله بدقة ووضوح من غير غموض أو لبس فيه، ولم يترك الشرع موضوع تقسيم الميراث إلى مالكه حتى يعطي من يشاء ويحرم آخرين لهم الحق فيه، فالله سبحانه وتعالى هو الذي قسم الميراث والتركة من خلال الآيات الكريمة في القرآن الكريم، كل ذلك لحماية حقوق النساء والأطفال المستضعفين الذين كانوا في الجاهلية يحرمون من الميراث، فميراث الأم له ثلاث حالات، وهي على النحو

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٨/ ١٤٠.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٢٤٨، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٣٥٩.

(٣) التفسير الوسيط، طنطاوي ٣/ ١٠٤.



الآتي:

❁ **الثلث**: ترث الأم الثلث بشروط ثلاث:

١. عدم وجود الفرع الوارث للميت، ذكرًا كان أو أنثى، مثل الابن، أو البنت، وابن الابن، وبنت الابن.

٢. عدم وجود الإخوة، أو الأخوات للميت، اثنين فأكثر، أشقاء، أو لأب، أو لأم.

٣. ألا تكون المسألة إحدى العمريتين.

دليل إرث الأم الثلث بالشروط السابقة قول الله عز وجل: ﴿فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء:١١][١].

❁ **السدس**: ترث الأم السدس إذا كان للميت فرع وارث ذكرًا كان أو أنثى، أو اثنان فأكثر من الإخوة والأخوات مطلقًا سواء أكانا من جهة الأم والأب، أو من جهة أحدهما، وسواء أكانوا ورثة أم محجوبين، قال الله تعالى: ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ﴾ [النساء:١١][٢].

❁ **ثلث الباقي**: في العمريتين، وتسمى الغراوين، وهما:

١. زوجة وأم وأب: المسألة من أربعة: للزوجة الربع واحد، وللأم ثلث الباقي واحد، والباقي اثنان للأب.

٢. زوج وأم وأب: المسألة من ستة: للزوج النصف ثلاثة، وللأم ثلث الباقي واحد، والباقي اثنان للأب.

وأعطيت الأم ثلث الباقي؛ لئلا تزيد على نصيب الأب وهما في درجة واحدة من الميت، وليكون للذكر مثل حظ الأنثيين[٣].

«فالأم لا تحجب حرمان على أية حال فمتى وجدت ورثت إما السدس، وإما ثلث الكل، وإما ثلث الباقي»[٤].

أما حكم الأم المرضعة فإن الرضاع يؤثر في تحريم النكاح، وثبوت المحرمية المفيدة لجواز النظر والخلوة دون سائر أحكام النسب، فلا يتوارثان ولا تجب على كل واحد منهما نفقة الآخر وغير ذلك من الأحكام، وهذا متفق عليه[٥].

٣. ثبوت القرابة بين من أرضعتهم.

كل أقارب الأم المرضع أقارب للرضيع، فالمرضعة تصبح أمًا للرضيع وكما بينا سابقًا فإنها تحرم عليه، وبنتها أخته، وأولادها إخوته، وزوجها أبوه، وأبواه جداه وأخته عمته وكل ولد وولد له من غير المرضعة قبل

(١) انظر: الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي، مصطفى الخن ومصطفى البغا، ٥/ ٨٩، مختصر الفقه الإسلامي، التويجري، ص ٨٨٧.

(٢) انظر: مختصر الفقه الإسلامي، التويجري، ص ٨٨٧.

(٣) انظر: مختصر الفقه الإسلامي، التويجري، ص ٨٨٧.

(٤) فقه النكاح والفرائض، قنديل، ص ٣٠٤.

(٥) انظر: روضة الطالبين، النووي، ٩/ ٣.

الرضاع وبعده فهم إخوته وأخواته لأبيه وأم المرضعة جدته وأختها وأخواته لأبيه وأمه ومن ولد لها من غيره فهم إخوته وأخواته لأم[1].

قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [النساء: ٢٣].

وجاء في السنة النبوية عن علي رضي الله عنه، قال:قلت:يا رسول الله، ما لك تنوق[2] في قريشٍ وتدعنا؟ فقال: «وعندكم شيءٌ؟» قلت:نعم، بنت حمزة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إنها لا تحل لي، إنها ابنة أخي من الرضاعة)**[3].

وكذلك ما ورد عن عائشة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عندها، وإنها سمعت صوت رجلٍ يستأذن في بيت حفصة، قالت عائشة:فقلت:يا رسول الله، هذا رجلٌ يستأذن في بيتك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أراه فلانًا»- لعم حفصة من الرضاعة-فقالت عائشة:يا رسول الله، لو كان فلانٌ حيًا-لعمها من الرضاعة-دخل علي؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(نعم، إن الرضاعة تحرم ما تحرم الولادة)**[4].

وعن عائشة، أن عمها من الرضاعة يسمى أفلح، استأذن عليها فحجبته، فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها: **(لا تحتجبي منه، فإنه يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب)**[5].

يقول أبو زهرة «وذلك لأنها لما رضعت من امرأة أخيه على ولد أخيه اعتبر أبًا رضاعيًا لها، فيكون هو عمها»[6].

٤ . الرضاعة والحضانة والنفقة.

الرضاعة:

وردت آيات في القرآن الكريم تدل بالنص الصريح على وجوب ارضاع الأم لطفلها قوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

فالمرأة يجب عليها إرضاع ولدها ما دامت في عصمة والده، وإن كان والده قد مات وليس للولد مال:لزمها رضاعه في المشهور، وقيل أجرة رضاعه على بيت

(١) انظر: مدارك التنزيل، النسفي، ١/ ٣٤٦، التفسير المنير، الزحيلي، ٤/ ٣١٢.

(٢) تنوق: تنتقي وتجود وتبالغ.
انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٩٢٧.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب تحريم ابنت الأخ من الرضاعة، ٢/ ١٠٧١، رقم ١٤٤٦.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب، يحرم من الرضاعة ما يحرم من الولادة، ٢/ ١٠٦٨، رقم ١٤٤٤.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب تحريم الرضاعة من ماء الفحل،٢/ ١٠٧٠، رقم ١٤٤٥.

(٦) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٦٣١.

المال، وإن كانت مطلقة طلاقًا بائنًا: لم يلزمها رضاعه، لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ [الطلاق:٦].

إلا أن تشاء هي فهي أحق به بأجرة المثل، وإن لم يقبل الطفل غيرها وجب عليها إرضاعه[١].

الحضانة:

تعرف الحضانة أنها: «تربية الطفل، والقيام بأمره ورعايته، وحفظه عما يضره، واعتماد ما يصلحه؛ فهي حفظ من لا يستقل بنفسه وتربيته حتى يستقل بنفسه، وهي ولاية وسلطنة، لكنها بالنساء أشبه»[٢].

وتنتهي فترة الحضانة عند سن التمييز، وخص الأم بتربية ولدها لأنها أخبر وأعلم، وعليه أصبر؛ لما جبلت عليه من فضل الميل إلى الأولاد، وكثرة الحنو والإشفاق[٣].

والأم أحق بحضانة ولدها الطفل من أبيه ذكرًا كان أو أنثى، ما لم تتزوج، والأب أحق بحضانته من الأم إذا تزوجت قولًا واحدًا[٤]، فعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده عبد الله بن عمرو، أن امرأة قالت: يا رسول الله، إن ابني هذا كان بطني له وعاء، وثديي له سقاء، وحجري له حواء، وإن أباه طلقني، وأراد أن ينتزعه مني، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: (أنت أحق به ما لم تنكحي)[٥].

واختلف في مستحق حضانة الطفل بعد الأم من القرابات على روايتين:

أولًا: إن قرابات الأب أولى بحضانته من قرابات الأم.

ثانيًا: قرابات الأم أولى بذلك من قرابات الأب[٦].

فهناك ما يسمى بالأم الحاضنة، وهي التي تحضن الصغير غير أمه وتلي شأنه وتقوم على رعايته، ولقد كانت أيام الرسول صلى الله عليه وسلم، كأم أيمن حاضنة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولا يثبت لها حكم من أحكام الأمومة، وليس لها غير البر والإحسان.

النفقة:

يجب على الأب تحمل نفقة الأم طيلة مدة الرضاع بما فيه الكفاية حسب العرف والأمثال، ومنعه من أن يمنع الأم من إرضاع

---

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ١٢٨.

(٢) انظر: كفاية النبيه في شرح التنبيه، ابن الرفعة، ١٥/ ٢٧٣، الإنصاف، المرداوي، ٩/ ٤١٦.

(٣) انظر: كفاية النبيه في شرح التنبيه، ابن الرفعة، ١٥/ ٢٧٣.

(٤) انظر: الإرشاد إلى سبيل الرشاد، الهاشمي ص ٣٢٧.

(٥) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الطلاق، باب من أحق بالولد، ٢/ ٢٨٣، رقم ٢٢٧٦. وحسنه الألباني في الإرواء ٧/ ٢٤٤، رقم ٢١٨٧.

(٦) انظر: الإرشاد إلى سبيل الرشاد، الهاشمي ص ٣٢٧.

الولد لسببٍ من الأسباب، مع تنبيه الأم إلى عدم جواز تكليف أحد بأكثر من وسعه وطاقته[1]، ففي النفقة قال سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة:٢٣٣].

أي:على الوالد النفقة مدة الرضاع، وفي موضع آخر قال تعالى: ﴿وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُ أُخْرَىٰ﴾ [الطلاق:٦].

وقوله تعالى: ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ حسب طاقة وقدرة الأب وهي نفقة واجبة بحسب العرف[2].

قال ابن تيمية: «والصواب المقطوع به عند جمهور العلماء أن نفقة الزوجة مرجعها إلى العرف وليست مقدرة بالشرع، بل تختلف باختلاف أحوال البلاد والأزمنة، وحال الزوجين وعاداتهما»[3]؛ فإن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:١٩].

وعن عائشة: أن هند بنت عتبة، قالت: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل شحيح وليس يعطيني ما يكفيني وولدي، إلا ما أخذت منه وهو لا يعلم، فقال: (خذي ما يكفيك وولدك، بالمعروف)[4].

٥. شناعة تشبيه الزوجة بالأم (الظهار).

كان الظهار في الجاهلية طلاقًا لا رجعة بعده، بل هو أشد الطلاق عندهم؛ لما فيه من تشبيه الزوجة بالأم التي تحرم حرمة على التأبيد، وقيل في أول الإسلام، وقيل لم يكن طلاقًا من كل وجه، وكانوا في الجاهلية إذا كره أحدهم امرأته ولم يرد أن تتزوج بغيره آلى منها أو ظاهر، فتبقى معلقة لا ذات زوج ولا خلية تنكح غيره، وجاء الإسلام فأبطل هذا الحكم، وجعل الظهار محرمًا قربان المرأة حتى يكفر زوجها، ولم يجعله طلاقًا كما كانوا يعتبرونه في الجاهلية[5].

«وقد اتفق العلماء على حرمته فلا يجوز الإقدام عليه، لأنه كذب وزور وبهتان، وهو يختلف عن الطلاق، فالطلاق مشروع، وهذا ممنوع، ولو أقدم الإنسان عليه يكون قد ارتكب محرمًا ويجب عليه الكفارة»[6].

ووضح القرآن الكريم الكفار بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ

(١) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة، ٦/ ٤٣٥.
(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ٢٣٦.
(٣) توضيح الأحكام من بلوغ المرام، عبدالله البسام، ٦/ ٤٥.
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه،كتاب النفقة، باب إذا لم ينفق الرجل فللمرأة أن تأخذ بغير علمه ما يكفيها وولدها بالمعروف، ٧/ ٦٥، رقم ٥٣٦٤.
(٥) انظر: السراج المنير، الشربيني ٤/ ٢٢١.
(٦) روائع البيان تفسير آيات الأحكام، الصابوني ٢/ ٥٢٦.

﴿لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾﴾ [المجادلة:٣-٤].

«قال فقهاء الشافعية إنه من الكبائر، فمن أقدم عليه اعتبر كاذبًا معاندًا للشرع، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا﴾»[1].

الأمومة حقوق وواجبات

كرم الإسلام المرأة، ورفع مكانتها، فأوجب الله عز وجل للأم حقوقًا تحفظ لها كرامتها وترفع من قدرها كالإحسان والبر والطاعة، بل وجعل ذلك من أهم أسباب رضا الله عز وجل، وفي المقابل كان عليها بعض الواجبات التي يجب أن تقوم بها، نبين ذلك فيما يأتي بإذنه تعالى:

أولًا: حقوق الأمومة:

لا يعرف التاريخ دينًا ولا نظامًا كرم المرأة باعتبارها أمًا، وأعلى من مكانتها ومنزلتها، مثل الإسلام، حيث إنه أكد الوصية بها، وجعل برها من أصول الفضائل، كما جعل حقها أوكد من حق الأب، لما تحملته من مشاق الحمل والوضع والإرضاع والتربية، وهذا ما يقرره القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ويكرره في أكثر من موضع؛ ليثبته في أذهان الأبناء ونفوسهم، ولذلك وجب علينا أن نبين بعض الحقوق لهذه الأم وهي كالتالي:

١ . الإحسان.

لقد أمر الله عز وجل ببر الوالدين وإكرام الأم وإحسان صحبتها.

قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

(١) تحفة المحتاج في شرح المنهاج، الهيتمي ٨/ ١٧٧.

وقال تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥].

أي يجب علينا برها ورحمتها والنزول عند أمرها فيما لا يخالف أمر الله سبحانه وتعالى، ولا نؤذيها البتة وإن كانت كافرة، بل يجب علينا الإحسان إليها، وتطبيق ما فرض الله لها من فعل المعروف لها، والقول الجميل، والتحنن عليها، والرأفة بها، والدعاء بالخير لها، وما أشبه ذلك من الأفعال التي ندب الله عباده أن يفعلوها[١].

قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا﴾ [الأحقاف:١٥].

والإحسان للأم يدخل فيه أنواع بر الوالدين كلها حيث يكون بلين الجانب، وألا يرفع الصوت فوق صوتها، ولا يجب الرد، ويكون لها كالعبد الذليل لسيده[٢].

والإحسان إلى الأم من أفضل الأعمال وأكثرها أجرًا ومثوبة، فقد جاء عن عبد الله رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها) قلت: ثم أيٌّ؟ قال: (ثم بر الوالدين) قلت: ثم أيٌّ؟ قال: (ثم الجهاد في سبيل الله)[٣].

وقد ثبت التأكيد على بر الأم خاصة، جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجلٌ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: (أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أمك) قال: ثم من؟ قال: (ثم أبوك)[٤].

وعن معاوية بن جاهمة السلمي، أن جاهمة جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أردت أن أغزو وقد جئت أستشيرك، فقال: (هل لك من أمٍ؟) قال: نعم، قال: (فالزمها، فإن الجنة تحت رجليها)[٥].

٢. خفض الجناح.

جاء في كتابه العزيز قوله عز وجل: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء:٢٤].

والمقصود بالجناح هنا هو الرعاية والإحاطة، وشبهت هذه المعاني بالجناح الذي يكون به قوة الطائر، وإضافة الذل إليه لتكون الرعاية ذلًا لهما، وتواضعًا من

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ٢/ ٢٩٢، لباب التأويل، الخازن، ١/ ٥٧.

(٢) انظر: تفسير القرآن، السمعاني، ١/ ٤٢٥.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، ١/ ٩٠، رقم ٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، ٨/ ٢، ٥٩٧١.

(٥) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب الرخصة في التخلف لمن له والدة، ٦/ ١١ رقم ٣١٠٤.
وصححه الألباني في إرواء الغليل، ٥/ ٢١.

غير استكبار، فلا ينبغي أن نرفع أيدينا على والدينا، ولا ينبغي أن نحد البصر إليهما تغيظًا، ويجب التواضع لهما، ولا نتعال عليهما[١].

فالحق سبحانه وتعالى يأمرنا باللين للأم وخفض الجناح لها وتكون ذليلًا لها- مهما كنا أعزاء-ولا نمنعها أو نخالفها من شيء أحبته[٢]، ويجب خفض الجناح بحسن المداراة ولين المنطق، والمبادرة إلى الخدمة، وسرعة الإجابة، والصبر على أمرهما، وألا ندخر عنهما ميسورًا[٣].

«والتواضع ينبغي أن يكون رحمة بهما وشفقة عليهما، لا لأجل امتثال الأمر وخوف العار والنقد فقط»[٤].

٣. الرفق.

الرفق واللين مع الأم يكون بدعوتها إلى الإيمان.

قال تعالى: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ [الإسراء:٢٣].

وحقيقته أن كلمة ﴿أُفٍّ﴾ تقال عند الضجر من الشيء واستثقاله، فوجه الله عز وجل الخطاب لنا بالرفق مع الأم، فلا تؤفف من شيء تراه منها مما يتأذى منه الناس، ولكن يحب أن نصبر على ذلك، ونحتسب في أجر الصبر عليها، كما صبرت علينا في صغرنا، وقوله: ﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ الانتهار من النهر، وهو الزجر بالإغلاظ والصياح، وقوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ قولًا لينًا هينًا سهلًا، وعدم رفع الصوت عليها وعدم الزجر والشدة بها[٥]، ولنا في صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم القدوة الحسنة التي يقتدى ويحتذى بها ونسير على أثرهم.

فعن عائشة، أنها قالت: «كان رجلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أبر من كان في هذه الأمة بأمهما: عثمان بن عفان، وحارثة بن النعمان، فأما عثمان، فإنه قال: ما قدرت أن أتأمل أمي منذ أسلمت، وأما حارثة، فإنه كان يفلي رأس أمه، ويطعمها بيده، ولم يستفهمها كلامًا قط تأمر به حتى يسأل من عندها بعد أن يخرج، ماذا قالت أمي؟»[٦].

٤. الطاعة في المعروف.

طاعة الأم في معروف غير معصية فرض

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي،٢/ ٣٠٧، تفسير الشعراوي، ١٥/ ٩٢٥٤، زهرة التفاسير، أبو زهرة، ٨/ ٤٣٦٣.

(٢) انظر: تحقيق التجريد في شرح كتاب التوحيد، العجيلي، ١/ ٢٦.

(٣) انظر: لطائف الإشارات، القشيري، ٢/ ٣٤٤.

(٤) التفسير المنير، الزحيلي، ١٥/ ٥٥.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤١٥، تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ٢٣٢.

(٦) انظر: البر والصلة، ابن الجوزي، ص ٨٤.

واجب على الإنسان، مقابلة للمعروف بمثله، ووفاء للإحسان، وتقدير الفضل، واحترام نظام الأسرة، والطاعة لا تراعى في ركوب كبيرة ولا في ترك فريضة على الأعيان، فالانقياد لها ليس انقيادًا مطلقًا، بل هو انقياد محكوم بحدود العدل، والخير، وتلزم طاعتها في المباحات وتستحسن في ترك الطاعات المندوبات، فإذا دعت إلى منكر، فلا طاعة لها، قال تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان:١٥].

يعني الأبوين الكافرين أي صلهما بالمال وادعهما برفق[١].

وعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، قالت:قدمت علي أمي وهي مشركة في عهد قريش، إذ عاهدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ومدتهم مع أبيها، فاستفتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالت:يا رسول الله إن أمي قدمت علي وهي راغبة أفأصلها؟ قال: (نعم صليها)[٢].

وعلى وجوب ترك طاعة الوالدين إذا أرادا ولدهما على الإشراك دليل عقلي، وذلك أن طاعتهما وجبت بأمر الله عز وجل، فإذا نفيا طاعة الله سبحانه وتعالى في الإشراك به فقد أبطلا طاعة الله عز وجل مطلقًا، ويلزم منه عدم لزوم طاعة الوالدين بأمر الله عز وجل، وكل ما يفضي وجوده إلى عدمه فهو باطل، فطاعة الأم في اتخاذ الشرك بالله عز وجل من الممتنعات، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق[٣]، وإذا كان الضرر ليس دينيًا وإنما ضررًا دنيويًا فلا يجب طاعة الأم فيه لما يعود على الشخص من ضرر[٤].

يقول الزحيلي: «وتختص الأم بزيادة البر والطاعة لمعاناتها في سبيل تربية أولادها، وبما أنها كما ذكرت الآية تعرضت لمراتب ثلاث من المشاق: الحمل، والرضاع، والوضع»[٥].

ثانيًا: واجبات الأمومة:

إن لكل شخص حقوقًا وواجبات ومتى تنتهي الحقوق فكان حتمًا عليه أداء واجباته، فالمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها أمام الله سبحانه وتعالى، فعليها أن تقوم بواجباتها على أكمل حال، وبذل

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٤/ ٣٤٩، التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب ٣/ ٨٢١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، ٤/ ١٠٣، رقم ٣١٨٣.

(٣) انظر: تفسير آيات الأحكام، السايس، ص ٦٢٢، غرائب القرآن، النيسابوري، ٥/ ٣٧١، التفسير المنير، الزحيلي، ٢١/ ١٥٢.

(٤) انظر: المسلم وحقوق الآخرين، أبو فيصل البدراني، ص ٢١.

(٥) التفسير المنير،الزحيلي ٢١/ ١٥٣.

ما تقتضيه الفطرة السوية لهم من الحب والعطف والحنان، فهذا مما وصى الله عز وجل به في كتابه العزيز حيث قال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ [النساء:١١].

وورد في السنة النبوية الشريفة عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أنه:سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:(كلكم راع ومسئول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل في أهله راع وهو مسئول عن رعيته، والمرأة في بيت زوجها راعية وهي مسئولة عن رعيتها، والخادم في مال سيده راع وهو مسئول عن رعيته)[١]، فالأم تنشئ أبناءها لأجل الأمة الإسلامية ولعزتها فهم أمانة بين يديها؛ فلذلك وجب عليها بعض الواجبات، منها:

١. الرضاعة.

وجه الله عز وجل النداء الإلهي المملوء بالرحمة يطلب فيه من كل أم أن ترضع أطفالها حيث قال تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣].

وقال سبحانه وتعالى عن موسى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص:٧].

فالأم هي الأساس في رعاية الطفل، وسد حاجاته وتلبية رغباته المتنوعة.

والسنة النبوية أكدت ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:(خير نساءٍ ركبن الإبل صالح نساء قريشٍ، أحناه على ولدٍ في صغره، وأرعاه على زوجٍ في ذات يده)[٢].

ذكر العلماء الكثير من أحكام الرضاع ومتعلقاته وحكمه؛ مما يدل على أهمية الرضاع وأثره في إنبات الوليد وتكامل بنيانه فينبغي أن يكون رضاع المولود من غير أمه بعد وضعه يومين أو ثلاثة وهو الأجود؛ لما في لبنها ذلك الوقت من الغلظ والأخلاط بخلاف لبن من قد استقلت على الرضاع وكل العرب تعتني بذلك حتى تسترضع أولادها عند نساء البوادي، كما استرضع النبي صلى الله عليه وسلم في بني سعد[٣].

وأخبر الله عز وجل أن كمال الرضاع حولان، وجعل على الرجل يرضع له ابنه أجر المرضع، والأجر على الرضاع لا يكون إلا على ماله مدة معلومة، والرضاع اسم جامع يقع على المصة وأكثر منها،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب في الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس، باب العبد راع في مال سيده، ولا يعمل إلا بإذنه،٣/ ١٢٠، رقم ٢٤٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب إلى من ينكح، وأي النساء خير، وما يستحب أن يتخير لنطفه من غير إيجاب، ٧/ ٦، رقم ٥٠٨٢.

(٣) انظر: تحفة المودود بأحكام المولود، ابن القيم ص ٢٣٠.

إلى كمال رضاع الحولين، ويكون الرضاع من خصائص الوالدة الأصيلة أو البديلة، ومدته عامان كاملان[1]، ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

يقول الخازن: «وهذا الأمر ليس أمر إيجاب، وإنما هو أمر ندب واستحباب؛ لأن تربية الطفل بلبن الأم أصلح له من لبن غيرها؛ ولكمال شفقتها عليه، ويدل على أنه لا يجب على الوالدة إرضاع الولد»[2].

٢. الفصال.

الفصال:المقصود به الفطام، وهو مصدر من قول القائل: «فاصلت فلانًا أفاصله مفاصلة وفصالًا»، إذا فارقه من خلطة كانت بينهما، فكذلك (فصال الفطيم)، إنما هو منعه اللبن، وقطعه شربه، وفراقه وفصله عن ثدي أمه إلى الغذاء بالأقوات التي يتغذى بها الإنسان[3]، وسواء كانت هذه الرضاعة طبيعية أم صناعية، إلى الشرب من كأسٍ أو كوبٍ، وتناول الأطعمة الأكثر صلابة ويكون ذلك بالتدريج[4].

الفصال يقع في عامين، أي في انقضاء عامين، قال تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان:١٤].

وذكر مشقة الوالدة بإرضاع الولد بعد الوضع عامين[5]، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا﴾ [البقرة:٢٣٣].

ويعني تعالى ذكره بقوله: ﴿فَإِنْ أَرَادَا﴾، إن أراد والد المولود ووالدته فصال ولدهما من اللبن، فيما دون العامين، يكون ذلك بالتشاور والرضى بينهما، ويشاورون أهل العلم في ذلك حتى يخبروا أن الفطام قبل الحولين لا يضر بالولد[6].

يقول الزركشي: «الفصال لا حد لجانب القلة فيه، بل يجوز أن يعيش الولد بدون ارتضاع من الأم؛ ولهذا اعتبر فيه الأكثر، لأنه الغالب، ولأنه اختياري»[7]، ولكن «ذكر الحولين ليس هو من جهة توقيت نهاية الرضاع الموجب للتحريم، وأنه جائز أن يكون بعدهما رضاع»[8].

٣. الرعاية.

أراد الله عز وجل للأسرة أن تقوم

---

(١) انظر: تفسير الإمام الشافعي ١/ ٣٨٠.
(٢) لباب التأويل، الخازن ١/ ١٦٦.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٧، الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٣، مفاتيح الغيب، الرازي ٦/ ٤٦٣، البحر المحيط، الأندلسي ٢/ ٤٨٧.
(٤) انظر: نمو الإنسان من مرحلة الجنين إلى مرحلة المسنين، آمال صادق، فؤاد أبو حطب، ص ٢٢٢.
(٥) انظر: الوسيط، الواحدي ٣/ ٤٤٣.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ٥/ ٦٧، تفسير القرآن، السمعاني ١/ ٢٣٧.
(٧) البرهان في علوم القرآن، الزركشي ٢/ ٥.
(٨) أحكام القرآن، الجصاص ٢/ ١١٢.

على الأسس الصحيحة السليمة، فأرسى لها الدعائم التي تؤهلها لذلك، والأسس القويمة لتكوينها تكوينًا سليمًا كحاضن جيد للطفل، بحيث ينشأ نشأة سوية، متمسكًا بالقيم الإسلامية، ولهذا وردت النصوص الوافرة موجهة إليه، عاكسة روح الإسلام وأهدافه في بناء الأسرة[1]، فالطفل له حاجات أخرى كثيرة غير الرضاعة؛ إذ لا بد له من رعاية شاملة له في جميع أحواله وأوقاته، ونظافته ومداعبته، ودفع الأذى عنه، كما في قوله سبحانه وتعالى في شأن أخت موسى عليه السلام: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص:١٢].

وكل ذلك يكون فيه الحمل الأكبر على عاتق الأم وذلك بسبب ملازمتها للبيت وللطفل، فعلى الأم تنشئة الأبناء ورعايتهم رعاية صحيحة، وإن العقل السليم في الجسم السليم والإسلام يريد منا أن نربي أولادنا على القوة والنشاط.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**المؤمن القوي، خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍ خيرٌ**)[2].

٤ . التربية.

إن المسلمين لم يهملوا جانب الاهتمام بطرائق تربية الأطفال، والبحث عن أنجح الطرق والمناهج انطلاقًا من أنه لا حضارة بغير علم، ولا علم بغير تعليم، ولا تعليم بغير نظام معينٍ ينظم الصلة بين المتعلم والمعلم، فما أحوجنا اليوم إلى العودة إلى هذا التراث الضخم، وما أحوجنا اليوم إلى الأخذ بطرق السلف في التربية والتعليم، والتزكية والتصفية[3].

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال:قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كمثل البهيمة تنتج البهيمة هل ترى فيها جدعاء**)[4].

والأسرة المسلمة تقوم على مبادىء معينة، هامة وجليلة الشأن من أجل توفير جو صحي سليم لتربية الأولاد تربية سليمة على القيم الإسلامية، فهي تقوم على المودة والرحمة.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ

---

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين ١/ ١٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، ٤/ ٢٠٥٢، رقم ٢٦٦٤.

(٣) انظر: من قضايا التربية الدينية في المجتمع الإسلامي، كمال الدين المرسي، ص ٢٥.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ٢/ ١٠٠، رقم ١٣٨٥.

﴿بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم:٢١].

فيجب على الأم الغرس في قلوب أولادها حب الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم، واتباع سنته في كل صغيرة وكبيرة، وتذكر لهم قصص الصحابة رضي الله عنه[١].

إن للأم أهمية ودورًا كبيرًا في التربية والتغيير، ودور الأم أعظم وأخطر من دور الأب؛ لأنها تتعامل مع أثمن شيء في الوجود وهو الطفل، وعمل الأم هو صناعة الإنسان وزرع الحب والفضيلة والرحمة والعاطفة والحنان والتضحية والإيثار في نفسه، فيجب الوقوف أمام هذا العطاء موقف الإجلال والتعظيم، فالطفل يولد والذهن صفحة بيضاء خالية من أي شيء له علاقة بثقافة العالم الذي يعيش فيه، ويتعلم التقاليد والعادات من خلال معاشرته لأمه والأهل والأقارب ومجتمعه، والحلقة الأهم في حياة الأم هي تربية الطفل، ولكن ليست أي أم، وإنما الأم التي تشعر وتلمس أهمية التربية ودورها في صناعة التاريخ، وهنا ترتبط الأم بولدها بأقوى علاقة ورابطة وهي رابطة التعليم، ومنها تستطيع أن تنجح في تلقين التراث الثقافي للجيل الجديد وتهيئته للحياة المستقبلية[٢].

إن تطبيق هذه الواجبات من الأم على الأولاد عمليًا، أظهرت لنا الأجيال المتعاقبة الفاضلة، وخلفت أمتنا الأجيال الأشاوس والعلماء والأبطال والأئمة والقادة والمفكرين والمجاهدين، الذين يحاربون العدو الصهيوني بكل قوة وحماس، وما ذلك إلا نتيجة لتربية الوالدين في البيت والالتزام بالمنهج التربوي الإسلامي الفريد.

(١) انظر: نضرة النعيم، مجموعة باحثين ١/ ١٦٤.

(٢) صلاح البيوت، محمد علي إمام، ص ١٩٦.

أمهات ذكرهن القرآن

بعد تتبع الآيات التي تتحدث عن الأمومة، وجدنا أن القرآن الكريم تناول ذكر بعض الأمهات، منهن أمهات للأنبياء والرسل، ومنهن أمهات للصالحين من عباده، كما وذكر الكتاب العزيز أمهات المؤمنين، اللاتي هن زوجات النبي صلى الله عليه وسلم.

أولًا: أمهات الأنبياء و الرسل:

١ . أم إسماعيل.

جاء ذكر أم إسماعيل في القرآن الكريم بالإشارة دون التصريح باسمها أو بقصتها، فجاءت السنة النبوية المطهرة بذكر اسمها وقصتها، فهي هاجر زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام، فقد ذكرت بالإشارة على لسان سيدنا إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧].

وكانت هاجر عليها السلام جارية عند سارة زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام، وقيل:كانت أميرة عند فرعون، ولعلمها بحب إبراهيم بالأولاد زوجته منها، فلما ولدت إسماعيل وأحبه أبوه اشتدت غيرة سارة، أمر الله سبحانه أن يبعد عنها هاجر وابنها ويسكنها في أرض مكة لتبرد عن سارة حرارة الغيرة[(١)].

قال الطبري في تفسيره للآية الكريمة: «فجاء بها إبراهيم ومعها إسماعيل حتى انتهى بهما إلى موضع البيت، فوضعهما ثم رجع، فاتبعته، فقالت: إلى أي شيء تكلنا؟ إلى طعام تكلنا؟ إلى شراب تكلنا؟ فجعل لا يرد عليها شيئًا، فقالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، قال: فرجعت ومضى حتى إذا استوى على ثنية كداء، أقبل على الوادي فدعا، فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم:٣٧][(٢)].

وقد استجاب الله له دعاءه، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [القصص:٥٧].

وجاء فيما رواه البخاري في صحيحه القصة كاملة، قال ابن عباس: « جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعها عند البيت عند دوحة فوق زمزم

(١) انظر: زاد المعاد، ابن القيم ١/ ٧٤.
(٢) جامع البيان، ١٧/ ١٩.

في أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابًا فيه تمر، وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت:-يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه إنس ولا شيء؟ فقالت له ذلك مرارًا وجعل لا يتلفت إليها، فقالت له: آلله الذي أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا يضيعنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ﴾حتى بلغ ﴿يَشۡكُرُونَ﴾، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط[1] فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود، حتى إذا جاوزت الوادي، ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدًا فلم تر أحدًا ففعلت ذلك سبع مرات، قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: (فذلك سعي الناس بينهما)، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتًا فقالت: صه-تريد نفسها-ثم تسمعت فسمعت أيضًا فقالت: قد أسمعت إن كان عندك غواث، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف، قال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يرحم الله أم إسماعيل لو كانت تركت زمزم-أو قال لو لم تغرف من الماء-لكانت زمزم عينًا معينًا)، قال:فشربت وأرضعت ولدها. قال لها الملك: لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه، وإن اله لا يضيع أهله)[2].

٢. أم إسحاق.

ذكرت أم إسحاق عليها السلام في قوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ٧١﴾ [هود:٧١].

وهي سارة زوج سيدنا إبراهيم عليه السلام، وهي ابنة هاران بن ناحوراء وهي ابنة عم إبراهيم عليه السلام[3]، آمنت به

(١) يتلبط: يسقط ويتمرغ من شدة العطش. انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٦٨٥.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب يزفون الصافات، ٣/ ١٢٢٧، رقم ٣١٨٤.

(٣) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٤٩٣،



بعدما ألقي في النار، فهاجر بها إبراهيم إلى حران، ثم سار بها إلى مصر، فبلغ ملكها جمال سارة وحسنها، فأمر بإحضارها، فأحضروها ومعها إبراهيم عليه السلام فسأله من هي؟ قال: أختي، فطلب الزواج منها، فدعا عليه إبراهيم عليه السلام، ثم مرض مرضًا شديدًا، فدعا إبراهيم، وقال له: ما هذا الذي أردت بدعائك علي؟ فقال أنك أسأت جواري بتعرضك لزوجتي، قال: أولم تزعم أنها أختك؟ قال: ما كذبت؛ في الإسلام أختي، وهي أول من آمن بي، قال الملك: فادعو الله لي بالعافية، وحلف أن لا يقربها بسوء، فأطلقه الله بدعوة إبراهيم عليه السلام، ثم وهب لها هاجر جارية، فجاءت بها إلى إبراهيم عليه السلام ثم سار بهما إبراهيم من مصر إلى الشام، وكانت سارة لا تلد، فوهبت هاجر لإبراهيم عليه السلام فولدت له إسماعيل عليه السلام.

فسارة لم يرزقها الله الأولاد في صغرها، ولكنها لما كبرت بشرت بالولد، كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ﴾ أي: بولد لها يكون له ولد وعقب ونسل؛ فإن يعقوب ولد إسحاق[1].

وقيل في معنى ضحكت: ضحكت تعجبًا من أن يكون لها ولد على كبر سنها وسن زوجها، وروي أنها كانت حينئذ بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة سنة، فعلى هذا القول يكون في الآية تقديم وتأخير، تقديره: فبشرناها بإسحاق فضحكت يعني تعجبًا من ذلك[2].

٣. أم موسى.

ورد ذكر أم موسى في القرآن الكريم، وقصة موسى عليه السلام في مواضع مختلفة، وأم موسى هي لوحا بنت هاند بنت لاوي بن يعقوب عليه السلام[3].

وكانت أم موسى زوجة عمران، تعيش في بني إسرائيل، وكان فرعون يقتل الأطفال، ولما كثر القتل في بني إسرائيل خاف القبط أن يفنى بنو إسرائيل، فقالوا لفرعون:إنه يوشك أن يموت شيوخهم، وغلمانهم لا يعيشون، ونساؤهم لا يمكن أن يقمن بما يقوم به رجالهم من الأعمال، فيخلص إلينا ذلك، فأمر بقتل الولدان عامًا وتركهم عامًا، فولد هارون عليه السلام في السنة التي يتركون فيها الولدان، وولد موسى عليه السلام في السنة التي يقتلون فيها الولدان، وأمر القوابل أن يطفن على نساء بني إسرائيل ففعلن، ولم يدخلن بيت عمران لقربه من

المحرر الوجيز، ابن عطية، ٣/ ١٨٩، التفسير الوسيط، الزحيلي، ٢/ ١٠٦٠.

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٤/ ٣٣٤.

(٢) انظر: لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٤٩٣، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ٣٧٥.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٢٥٠.

الملك، ولما تم حملها، وجاءها الطلق ليلًا، وولدت موسى، رأى جنود فرعون القابلة تخرج من بيت أم موسى، فأتوا وسألوها عن سبب قدومها، فأخفت أمرها مخافة على موسى من فرعون، فأوحى الله عز وجل إليها[1].

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٧﴾ [القصص:٧].

واختلف المفسرون في معنى الوحي، فقيل: كان كلامًا في المنام، وقيل: كان إلهامًا، وقيل: كان ملك يمثل إليها[2].

فلما ولدته وخافت عليه خوفًا شديدًا وأحبته حبًا زائدًا، وكان موسى عليه السلام لا يراه أحد إلا أحبه.

قال الله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّى وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِىٓ﴾ [طه:٣٩].

فأمرها الله عز وجل أن ترضعه بالخفاء، قيل: إنها أرضعته أربعة أشهر ثم صنعت به ما في الآية، وقيل: أرضعته في بستان فلما خافت عليه من أن يعرف أمره فرعون – من شدة بكائه حيث لا يكفيه اللبن – صنعت به ما جاء في الآية[3]، فاتخذت تابوتًا، ووضعته في ذلك التابوت، وسيرته في البحر، وربطته بحبل فذهب مع الماء، قال النسفي: «في هذه الآية أمران ونهيان وخبران وبشارتان، والفرق بين الخوف والحزن أن الخوف غم يلحق بالإنسان لمتوقع، والحزن غم يلحقه لواقع، وهو فراقه والإخطار به، فنهيت عنهما، وبشرت برده إليها وجعله من المرسلين»[4].

وجرى به الماء حتى مر به على دار فرعون، فالتقطه الجواري فاحتملنه، فذهبن به إلى امرأة فرعون، فلما كشفت عنه إذا هو غلام من أحسن الخلق وأجمله وأحلاه وأبهاه، فأوقع الله محبته في قلبها، وكانت لفرعون بنت برصاء فنظرت إلى وجهه فبرأت، فقالت الغواة من قومه: هو الذي نحذر منه، فأذن لنا في قتله، فهم بذلك، فقالت آسية: قرة عين لي ولك، فقال فرعون: لك لا لي، لكنها أصرت على بقائه؛ متعللة بدلائل النفع والبركة.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّى وَلَكَ ۖ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص:٩][5].

لكن تبقى الأمومة أقوى من كل شيء،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٢١، مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٥٧٩.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٢٥٠، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، ٤/ ١٧٢.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٢٥٠.

(٤) مدارك التنزيل، ٢/ ٦٢٩.

(٥) انظر: المصدر السابق ٢/ ٦٣٠.

بدليل حالها بعدما وضعته في الماء.

قال تعالى: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾﴾ [القصص: ١٠].

فصار قلب الأم من شدة خوفها وحيرتها فارغًا من كل شيء سوى ذكر موسى[(١)]، ولما ألقت التابوت في النيل، فرأت التابوت يرفعه الموج مرة، ويضعه أخرى، فخشيت عليه الغرق، فعند ذلك فزعت عليه، وكادت أن تصيح، ويقال إنها: لما أتى الليل، دخل الغم في قلبها حيث لم تدر أين صار ولدها، فأرادت أن تظهر ذلك لولا أن ثبتها الله عز وجل ؛ لتكون من الواثقين بوعده عز وجل[(٢)].

ثم جاء الوعد من الله عز وجل، والبشارة التي بشرت بها.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾﴾ [القصص: ١١-١٤].

فقد أرسلت أخته للبحث عنه، ومن رحمة الله أنه لم يقبل ثدي امرأة، فخافوا عليه من أن يموت، فعرضت عليهم أخته أن تدلهم على أهل بيت يقدمون له الرعاية والرضاعة، فتحقق وعده عز وجل، ورجع إلى أمه لترضعه ويبقى في رعايتها، وتأخذ الأجر إضافة لرعايتها ابنها، فتبارك الله أرحم الراحمين.

٤ . أم عيسى.

ورد ذكر أم عيسى في القرآن الكريم، وسميت سورة باسمها، وهي سورة مريم، فأم عيسى هي مريم ابنة عمران.

وأم مريم لم تنجب من زوجها عمران في بداية زواجها، وكانت تحن إلى الولد، فدعت الله عز وجل أن يرزقها ولدًا، ونذرت لله إن رزقها الولد أن تهبه خادمًا للكنيسة، فلما وضعتها أنثى حزنت وتحسرت مما كانت ترجوه[(٣)]، وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قال الشوكاني: «وإني سميتها مريم عطف على إني وضعتها أنثى، ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية: التقرب إلى الله سبحانه، وأن يكون فعلها مطابقًا لمعنى اسمها، فإن

(١) انظر: جامع البيان، الطبري، ١٩/ ٥٢٧.
(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ٢/ ٦٠٠.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ٣٨٤.

معنى مريم خادم الرب بلغتهم، فهي وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات»[(١)].

وولدت مريم عليها السلام يتيمة، فقد توفي والدها عمران وهي في بطن أمها حنة بنت فاقوذا، فكانت أمها لا تستطيع تربيتها لكبر سنها، فكان كل شخص يريد أن يحظى بكفالتها؛ إما لأن عمران أبو مريم كان معلمهم ومن درسهم دينهم وذا فضل عليهم، وقيل:لأن أمها قد نذرتها لعبادة الله عز وجل، لذلك حرصوا على التكفل بها، فاتفقوا أن يقفوا على مجرى النهر ويرموا أقلامهم، فمن جرى قلمه على خلاف جري الماء فاليد له، ثم إنه حصل هذا المعنى لزكريا عليه السلام، فصار هو أولى بكفالتها.

قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [آل عمران:٤٤][(٢)].

فكفلها زوج خالتها نبي الله زكريا، وكان هذا من رحمة الله بمريم ورعايته لها.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران:٣٧].

وبنى لها زكريا محرابًا في المسجد وجعل بابها في الوسط لا يرقى إليها إلا بسلم، وكان لا يدخل عليها غيره، يأتيها بشرابها وطعامها ودهنها كل يوم، وإذا خرج يغلق عليها سبعة أبواب، وكلما زارها النبي زكريا، وجد عندها رزقًا، فكان يسأل عن مصدر هذا الرزق لأنه هو كافلها، فتقول:هو من عند الله عز وجل[(٣)].

وجاء في فضل مريم عليها السلام: قال أبو هريرة رضي الله عنه:سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: **(ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخًا من مس الشيطان؛ غير مريم وابنها)**[(٤)].

ثم جاءت البشارة لمريم باصطفاء الله لها من بين سائر نساء عالمي زمانها.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران:٤٢].

يقول المفسرون: إن في هذه الآية اصطفاء وتطهير، واصطفاء على نساء العالمين، اصطفاء أنه تعالى قبل تحريرها

---

(١) المصدر السابق، ١/ ٣٨٤.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٨/ ٢٢٠.

(٣) انظر: أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانًا شرقيًا)، ٣/ ١٢٦٥، رقم ٣٢٤٨.

مع أنها كانت أنثى.

وقيل: إن أمها لما وضعتها ما غذتها طرفة عين، بل ألقتها إلى زكريا، وكان رزقها يأتيها من الجنة، وأنه تعالى فرغها لعبادته، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية.

وقيل: إنه أسمعها كلام الملائكة شفاهًا، ولم يحصل ذلك لأنثى غيرها، وأما التطهير فلأنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية، وطهرها عن مسيس الرجال.

وقيل:طهرها عن الحيض.

وقيل: طهرك من الأفعال الذميمة.

وقيل: طهرك عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم.

وأما الاصطفاء الثاني: فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى من غير أب، وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة، وجعلها وابنها آية للعالمين[1].

قال عليه السلام: (كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام)[2].

ولما خاطبتها الملائكة بالبشارة لها باصطفاء الله لها، وبأنه سيهب لها ولدًا زكيًا يكون نبيًا كريمًا طاهرًا مكرمًا مؤيدًا بالمعجزات، تعجبت من وجود ولد من غير والد، لأنها لا زوج لها، فأخبرتها الملائكة بأن الله قادر على ما يشاء إذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، فاستكانت لذلك وأنابت وسلمت لأمر الله، وعلمت أن هذا فيه محنة عظيمة لها، فإن الناس يتكلمون فيها بسببه، لأنهم لا يعلمون حقيقة الأمر، وإنما ينظرون إلى ظاهر الحال من غير تدبر ولا تعقل.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٧].

فأرسل الله جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ في جيب درعها، فولجت فيها تلك النفخة، فأنشأ الله منها تلك الروح الزكية، فكان روحانيًا نشأ من مادة روحانية، فلهذا سمي روح الله، وجعله الله أحد أولي العزم من المرسلين أصحاب الشرائع الكبار والأتباع، فلهذا كان من المقربين إلى الله[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٨/ ٢١٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٤/ ٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأنبياء، باب قول الله تعالى: (وضرب الله مثلًا للذين آمنوا امرأة فرعون)، ٣/ ١٢٥٢، رقم ٣٢٣٠.

(٣) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص١٣٠.

ثم جاءت إرهاصات الولادة، عندها تمنت الموت؛ وذلك لأنها علمت أن الناس يتهمونها ولا يصدقونها، بل يكذبونها حين تأتيهم بغلام على يدها، مع أنها قد كانت عندهم من العابدات الناسكات المجاورات في المسجد، المنقطعات إليه، المعتكفات فيه، ومن بيت النبوة والديانة، فحملت بسبب ذلك من الهم ما تمنت أن لو كانت ماتت قبل هذا الحال أو لم تخلق بالكلية[1].

قال عز وجل: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم:٢٣].

ثم ظهرت عناية الله عز وجل وحفظه لها، وبدأت كرامات الله تتوالى عليها من تيسير الحمل والولادة، وكفاها الناس بمعجزة عيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾﴾ [مريم:٢٤-٢٦].

وكانت أولى معجزاته كلامه في المهد بتبرئة أمه.

قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم:٣٠].

وبدأ الناس يقولون إنه ليس ببشر، واعتقدوه الرب، فجاء الرد قويًا من الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة:١٧].

فلو أراد الله أن يهلك عيسى وأمه وجميع الخلق، -لا يقدر عيسى على رد ذلك، فكيف يكون إلهًا وهو لا يقدر على دفع الهلاك عن نفسه- فمن يستطيع أن يدفعه عن مقدوره ومراده[2].

ويقرر الله عز وجل في قوله تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [المائدة:٧٥] أن عيسى ابن مريم ما هو إلا رسول كغيره من الرسل، جاء برسالة، وأجرى على يديه المعجزات، وإن كان خلقه من غير أب، فهذا آدم خلق من غير

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٤٩١.

(٢) انظر: تفسير السمرقندي، ١/ ٣٧٩، مفاتيح الغيب، الرازي ١١/ ٣٢٨.

أب ولا أم، فهو القادر إذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، وأمه صديقة، وسميت بذلك:لأنها صدقت بآيات ربها وبكل ما أخبر عنه ولدها عيسى عليه السلام، أو لأنه تعالى لما أرسل إليها جبريل صدقته فوقع عليها اسم الصديقة[1].

ويؤكد الله عز وجل كونه بشرًا بقوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾.

والمقصود من ذلك: الاستدلال على فساد قولهم، لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنيًا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلهًا[2].

فقد جعل الله عز وجل ولادة عيسى عليه السلام من غير أب آية من آياته، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾﴾ [المؤمنون:٥٠].

٥. أم يحيى.

ورد ذكر أم يحيى في كتابه العزيز في قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٩﴾﴾ [مريم:٥-٩].

وهي: أشاع بنت فاقود بن ميل، تزوجها زكريا عليه السلام، ولم تحمل منه، وكانت عاقرًا، وبلغت من العمر كثيرًا حتى انقطع حيضها، وكانت أكبر من أختها[3].

وقد استجاب الله عز وجل دعاء نبيه زكريا عليه السلام، وولدت يحيى عليه السلام، ولما صار له من العمر ثلاث سنين أتاه الله الحكم صبيًا، قرأ التوراة وهو صغير، وقيل:إن أشاع ولدت يحيى عليه السلام قبل ما ولدت مريم عليها السلام عيسى بستة أشهر[4].

ثانيًا: أمهات المؤمنين:

ذكر القرآن الكريم مصطلح أمهات المؤمنين، وهو يطلق على زوجات النبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾ [الأحزاب:٦].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٤٠٩.
(٢) انظر: المصدر السابق.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٣/ ٣٨٠.
(٤) انظر: الروضة الفيحاء في أعلام النساء، العمري، ص١٦.

والرسول صلى الله عليه وسلم أب للمؤمنين كما جاء في مصحف أبي بن كعب « وأزواجه أمهاتهم، وهو أب لهم»، فهو يربيهم كما يربي الوالد أولاده، فترتب على هذه الأبوة، أن كان نساؤه أمهاتهم، في التعظيم والاحترام، والإكرام[1].

وعن أنس قال:كان النبي صلى الله عليه وسلم عند بعض نسائه، فأرسلت إحدى أمهات المؤمنين بصحفة فيها طعام، فضربت التي النبي صلى الله عليه وسلم في بيتها يد الخادم، فسقطت الصحفة فانفلقت، فجمع النبي صلى الله عليه وسلم فلق الصحفة ثم جعل يجمع فيها الطعام الذي كان في الصحفة ويقول: (غارت أمكم) ثم حبس الخادم حتى أتي بصحفة من عند التي هو في بيتها، فدفع الصحفة الصحيحة إلى التي كسرت صحفتها، وأمسك المكسورة في بيت التي كسرت[2].

ولهذه الأمومة آدابها برًا وإحسانًا، ولا يترتب عليها سوى حكم واحد وهو أن زوجات الرسول أمهات المؤمنين، لا يحللن لأحد من بعده، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٣].

قال الرازي: «والمعقول في جعل أزواجه أمهاتنا هو أن الله تعالى جعل زوجة الأب محرمة على الابن؛ لأن الزوجة محل الغيرة والتنازع فيها، فإن تزوج الابن بمن كانت تحت الأب يفضي ذلك إلى قطع الرحم والعقوق، لكن النبي عليه السلام أشرف وأعلى درجة من الأب وأولى بالإرضاء، فإن الأب يربي في الدنيا فحسب، والنبي عليه السلام يربي في الدنيا والآخرة، فوجب أن تكون زوجاته مثل زوجات الآباء.

فإن قال قائل:فلم لم يقل إن النبي أبوكم ويحصل هذا المعنى، أو لم يقل إن أزواجه أزواج أبيكم؟ فنقول: لحكمة، وهي: أن النبي لما بينا أنه إذا أراد زوجة واحد من الأمة وجب عليه تركها ليتزوج بها النبي عليه السلام، فلو قال: أنت أبوهم لحرم عليه زوجات المؤمنين على التأبيد، ولأنه لما جعله أولى بهم من أنفسهم والنفس مقدم على الأب»[3].

ولهن فضل ومزية عن بقية نساء المسلمين بنص القرآن الكريم.

قال عز وجل: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا

(١) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ٤/ ٣٠٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٦٥٩، محاسن التأويل، القاسمي، ٨/ ٥١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الغيرة، ٥/ ٢٠٠٣، رقم ٤٩٢٧.
(٣) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١٥٨.

﴿٣٢﴾ [الأحزاب:٣٢].

قال الرازي: «قوله تعالى: لستن كأحد من النساء يعني: فيكن غير ذلك أمر لا يوجد في غيركن، وهو كونكن أمهات جميع المؤمنين وزوجات خير المرسلين، وكما أن محمدًا عليه السلام ليس كأحد من الرجال، كما قال عليه السلام: (لست كأحدكم)، كذلك قرائبه اللاتي يشرفن به وبين الزوجين نوع من الكفاءة»[1].

وتزوج النبي صلى الله عليه وسلم عددًا كبيرًا من النساء، خص به دون أمته بجمع أكثر من أربع، والمجمع عليه من أزواجه إحدى عشرة امرأة وهن:

خديجة بنت خويلد، أول زوجة كانت له، ثم عائشة بنت أبي بكر، ثم سودة بنت زمعة، وحفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنهما، وزينب بنت خزيمة، وهي من بني عامر بن صعصعه، وأم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية، واسمها هند، وزينب بنت جحش الأسدية من بني أسد بن خزيمة، وأم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب بن أمية، واسمها رملة، وجويرية بنت الحارث بن أبي ضرار من بني المصطلق، وميمونة بنت الحارث، وصفية بنت حيي بن الأخطب[2].

قال ابن عبدالبر بعد ذكر المجمع عليه من زوجاته عليه السلام: «فهؤلاء أزواجه اللواتي لم يختلف فيهن، وهن إحدى عشرة امرأة، منهن ست من قريش، وواحدة من بني إسرائيل من ولد هارون، وأربع من سائر العرب. وتوفي في حياته منهن اثنتان خديجة بنت خويلد بن أسد بمكة، وزينب بنت خزيمة بالمدينة، وتخلف منهن تسع بعده صلى الله عليه وسلم.

وأما اللواتي اختلف فيهن ممن ابتنى بها وفارقها أو عقد عليها، ولم يدخل بها، أو خطبها ولم يتم له العقد منها، فقد اختلف فيهن، وفي أسباب فراقهن اختلافًا كثيرًا يوجب التوقف عن القطع بالصحة في واحدة منهن»[3].

وقد جمع العراقي زوجات النبي عليه السلام في أبيات من الشعر، حيث قال[4]:

زوجاته اللاتي بهن قد دخل
ثنتا أو احدى عشرةٍ خلفٌ نقل
خديجة الأولى تليها سودة
ثم تلي عائشة الصديقة
وقيل: قبل سودةٍ، فحفصة
فزينب والدها خزيمة
فبعدها هندٌ؛ أي: أم سلمة
فابنة جحشٍ زينب المكرمة

(١) مفاتيح الغيب، ٢٥/ ١٦٧.
(٢) انظر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ١/ ٤٤.
(٣) المصدر السابق، ١/ ٤٦.
(٤) ألفية السيرة النبوية، العراقي، ١/ ١٣٢.

تلي ابنة الحارث أي: جويرية
فبعدها ريحانة المسبية
وقيل: بل ملك يمينٍ فقط
لم يتزوجها، وذاك اضبط
بنت أبي سفيان وهي رملة
أم حبيبةٍ، تلي صفية
من بعدها، فبعدها ميمونة
حلًا، وكانت كاسمها ميمونة
وابن المثنى معمرٌ قد أدخلا
في جملة اللاتي بهن دخلا
بنت شريحٍ واسمها فاطمة
عرفها بأنها الواهبة
ولم أجد من جمع الصحابة
ذكرها ولا ب أسد الغابة
وعلها التي استعاذت منه
وهي ابنة الضحاك بانت عنه
وغير من بنى بها، أو وهبت
إلى النبي نفسها، أو خطبت
ولم يقع تزويجها، فالعدة
نحو ثلاثين بخلفٍ أثبتوا

ثالثًا: أمهات الصالحين:

ذكر القرآن الكريم بعضًا من أمهات الصالحين، ومن الأمهات الاتي ذكرهن القرآن الكريم:

١ . أم مريم.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم:٢٨].

وذلك عندما حملت مريم، ولم تتزوج، فقال لها قومها: يا أخت هارون، وكان هارون عابدًا من عباد بني إسرائيل، شبهت به مريم في كثرة العبادة، فقيل لها أخته، وقيل: كان أخاها من أبيها، وكان رجلًا صالحًا، وقيل: هو هارون النبي أخو موسى وكانت من ذريته[1]، وما كانت أمك وهي حنة بنت فاقوذا، بغية، فأم مريم عليه السلام هي زوجة عمران، وأخت زوجة زكريا عليه السلام، تزوجها عمران، ولم تحمل منه وأسنت، ولم يكن لها ولد فأبصرت يومًا طائرًا يطعم أفراخه، فتحركت لذلك نفسها، واشتاقت للولد، وتمنت أن يكون لها ولد حتى تحن عليه مثل هذا الطائر، فدعت الله أن يرزقها ولدًا، ونذرت أن تجعله لله، فأنجبت مريم، وذلك قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٣٦﴾ [آل عمران:٣٦].

وقيل: إن عمرها لما ولدت مريم كان ستين سنة، وقيل: إنها توفيت وقد بلغت مريم من العمر عشر سنين[2]. والله أعلم.

(١) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي، ١/ ٤٨٠.
(٢) انظر: الروضة الفيحاء في أعلام النساء، ياسين العمري، ص١١.

٢. زوجة النبي موسى عليه السلام.

وقد جاء في كتابه العزيز قصة زواجها من نبي الله موسى عليه السلام، وكيف أنه عندما خرج من مصر بعدما قتل القبطي، وقصد مدين.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَاۖ قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُۖ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القصص:٢٣].

فتقدم موسى عليه السلام وزاحم القوم وسقى غنم المرأتين ثم جلس تحت ظل شجرة من شدة الحر، وهو جائع، وذلك قوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤].

فرجعت ابنتا شعيب عليه السلام بالأغنام إلى أبيهما سريعًا، فقال لهما: ما أعجلكما، وكانا إذا سقوا أغنامهم يبطئون، قالا وجدنا رجلًا رحمنا وسقى لنا، قال لإحداهما اذهبي فادعيه لي[1].

قال تعالى: ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَاۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص:٢٥].

فجاءت ابنته إلى موسى ودعته ليكلم أباها، وموسى الذي لا مأوى له، أصبح في ضيافة الشيخ الكبير، فلما رأى منه حسن الدين والخلق.

﴿قَالَ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ٱبْنَتَىَّ هَٰتَيْنِ عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍۖ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [القصص:٢٧]. فهو لم يحدد له واحدة بل ترك الخيار لموسى عليه السلام، والاتفاق، على أن يخدم موسى الشيخ ثماني سنين في مقابل زواج ابنته[2].

فلما قضى موسى الأجل أراد العودة إلى مصر، وكانت ليلة باردة فرأى في طريقه نارًا، وقال لامرأته امكثي.

قال تعالى: ﴿إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾﴾ [طه:١٠].

ولما عاد موسى عليه السلام من الطور وجد امرأته قد ولدت ابنًا، فحملها إلى مصر، وأقام بمصر يدعو فرعون إلى الإيمان وماتت في حياة موسى عليه السلام[3].

موضوعات ذات صلة:

الأبوة، الأخوة، البنوة، النساء

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٤/ ٥٩٠.

(٢) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب، ١٠/ ٣٣٩.

(٣) انظر: الروضة الفيحاء في أعلام النساء، العمري، ص٦.





عناصر الموضوع

مفهوم الامية	٢٠٢
الأمية في الاستعمال القرآني	٢٠٣
الالفاظ ذات الصلة	٢٠٤
الأمية وخلق الإنسان	٢٠٦
الرسول الكريم والامية	٢٠٩
الامية والرسالة	٢١٩
أنواع الأمية	٢٢٤
علاج الامية	٢٢٧
اثر انتشار الامية على الفرد والمجتمع	٢٣١

مفهوم الأمية

أولًا: المعنى اللغوي:

الأمية: مؤنث الأمي ومصدر صناعي معناه: الغفلة أو الجهالة، والأمي: نسبة إلى الأم أو الأمة، وهو من لا يقرأ ولا يكتب، والعيي الجافي. والجمع: أميون[(١)].

فالأمي: هو الذي على خلقته لم يتعلم الكتابة ولا القراءة، فهو على جبلته التي خلق عليها[(٢)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الأمية: الصفة التي هي على أصل ولادة أمه لم يتعلم الكتابة ولا قراءتها، أو هو من لا يحسن الكتابة؛ لأنه لا يقدر عليها[(٣)].

وبالرجوع إلى علماء التفسير نجدهم عرفوا الأمية بمعنيين: معنى عام، ومعنى خاص. أما المعنى العام: فيعني الجهل والضلالة والظلام، ولا ترتفع عن أمة حتى تخرج من الجهل والضلالة والظلام إلى العلم والهدى و، ولا يخرجها من هذا إلا نبي وكتاب، وأما المعنى الخاص فهو عدم معرفة الكتابة، ولا ترتفع الأمية عن أحد حتى يعرف الكتابة[(٤)].

والنبي صلى الله عليه وسلم ما مات إلا وقد رفع الأمية عن أمته بما يكفي لنقل هذا الدين كاملًا غير منقوص، من جيل الصحابة إلى جيل التابعين، إلى يومنا هذا.

فالمعنى الاصطلاحي موافق للمعنى اللغوي على المعنى الأول للمعنى الاصطلاحي، وعلى المعنى الثاني له يخص ببعض أجزاء المعنى اللغوي.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٢٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٢٧.
(٢) انظر: لسان العرب،ابن منظور ١/ ١٣٥، تاج العروس، الزبيدي ٣١/ ٢٣٧.
(٣) انظر: الكليات، الكفوي، ص ١٨٢.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني، ١/ ١٢٢، تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٨١٦.



الأمية في الاستعمال القرآني

وردت الأمية في القرآن (٦) مرات [١] .

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
المفرد	٢	﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ ﴾[الأعراف:١٥٧]
الجمع	٤	﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ ﴾[الجمعة:٢]

ولم يخرج الاستعمال القرآني لكلمة الأمي عن مدلولها اللغوي، وهو: من لا يكتب ولا يقرأ من كتاب، وهو الباقي على أصل ولادة أمه لم يتعلم الكتابة[٢] .

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٨١، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٨٠.

(٢) انظر: عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ١٢٢، الوجوه والنظائر، الدامغاني، ص ٦٣.

الألفاظ ذات الصلة

١ الجهل:

الجهل لغة:

ضد العلم، وتجاهل: أظهر الجهل وهو ليس بجاهل، واستجهله: عده جاهلًا واستخفه، والجهالة: أن تفعل فعلًا بغير علم، وجهلت الشيء: إذا لم تعرفه، والجاهل: ضد العاقل، والجهل: ضد الخبرة، والجاهلية: زمن الفترة، وهي حال العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين، وما كانوا عليه من المفاخرة بالأنساب، والكبر والتجبر وغير ذلك من الأخلاق المذمومة[(١)].

الجهل اصطلاحًا:

«أن تعتقد الشيء على خلاف ما هو عليه»[(٢)].

الصلة بين الجهل والأمية:

الجهل عدم معرفة فرع من فروع العلوم الإنسانية أو الطبيعية؛ فالمهندس جاهل بعلوم الطب، والعكس صحيح، وهكذا، فالجهل نسبي يختلف من شخص لآخر.

أما الأمية فهي قد تعني: أمية أبجدية، أو أمية ثقافية، أو أمية تقنية، وأكثرها أمية أبجدية، وهكذا.

٢ الفهم:

الفهم لغة:

العلم بالشيء ومعرفته[(٣)].

وفي لسان العرب: الفهم معرفتك الشيء، وهو حسن تصور المعنى[(٤)].

الفهم اصطلاحًا:

هو تصور الشيء من لفظ المخاطب، والقدرة على التفسير والشرح وإدراك المعلومات التي تعرض، أو إدراك ما يعنيه شخص بالقول أو بالعمل أو بالاستنباط[(٥)].

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١١/ ١٢٩، النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٣/ ٣٢٢.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني، ص ٢٠٩.
(٣) انظر: المعجم العربي الأساسي، جماعة اللغويين العرب، ص ٩٥٣.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٤٥٩.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي، ١/ ٤٢٠.

الصلة بين الفهم والأمية:

«ليس هناك علاقة ما بين الفهم والأمية، فربما تجد بعض الأميين أفهم من بعض المتعلمين، وأن القراءة والكتابة ليست هي الفيصل؛ لذلك تجد فلاحًا يعبر عن فهم ثقافي أكبر من إنسان حصل على شهادة عليا»(١).

٣ العلم:

العلم لغةً:

نقيض الجهل، والمعرفة، واليقين، والعلامة: النسابة، وهو من العلم(٢)، ويقال: «علمت الشيء أعلمه علمًا: عرفته»(٣).

العلم اصطلاحًا:

عرفه الجرجاني: «العلم: هو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع، ونقل عن الحكماء فقال: هو حصول صورة الشيء في العقل»(٤).

وأنكر ابن العربي تعريف العلم؛ لوضوحه وقال: «العلم أبين من أن يبين»(٥)، وأنكر على من تصدى لتعريف العلم.

الصلة بين العلم والأمية:

العلم والأمية نقيضان، فالعلم اختص بما يكون بتكرير وتكثير حتى يحدث منه أثر في نفس المتعلم، وعكسه الأمية تمامًا(٦).

(١) انظر: أبعاد الشخصية المصرية بين الماضي والحاضر، طلعت رضوان، ص١١٢.
(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري، ٢/ ٤١٨، لسان العرب، ابن منظور، ٤/ ٣٠٨٣.
(٣) الصحاح، الجوهري، ٥/ ١٩٩٠.
(٤) التعريفات، ص ١٩١.
(٥) فتح الباري، ابن حجر، ١/ ١٤١.
(٦) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ١٠٩، المفردات، الراغب الأصفهاني، ص٣٤٤.

الأمية وخلق الإنسان

ولد الإنسان أميًا لا يعلم شيئًا، ووهب الله تعالى الإنسان وسائل إدراك الحقائق ومعرفة الموجودات، وهي السمع والأبصار والأفئدة، وهذا أيضًا يحتاج إلى القراءة والتأمل والتفكير العميق.

قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

ركز الإسلام على العلم؛ ليتمكن المسلم من الوصول إلى سر الكون وما وراء الكون، وبعد ذلك إلى الإيمان بالله، من خلال ما تركه في هذا الكون من آيات دالة على وجوده جل جلاله .

ثم ركز الله تعالى على الوعاء لهذا العلم ألا هو العقل فقد ذكره الله تعالى في مواضع متعددة من القرآن الكريم؛ إذ وصلت إلى أكثر من خمسين آية، ويمر الإنسان بمراحل متعددة حتى ينتقل من الأمية إلى العلم ذكرها الله تعالى بقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ [النحل: ٧٨].

المرحلة الأولى: خروج الإنسان من بطن أمه:

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ [النحل: ٧٨].

فالله هو من أخرجنا من بطون أمهاتنا، هو خروج الطفل من بطن أمه عن طريق ما جعل الله في جسم الأم من قدرة؛ لدفع مولودها إلى الخارج فيخرج من بطن أمه بحياة مستقلة عن أمه، فما أن يخرج المولود إلا ويستقل بحياة خاصة، فيتنفس باستقلالية عن أمه، ويهضم الطعام، وتعمل أجهزة جسمه باستقلالية عن التبعية التي كانت تعمل به وهو في بطن أمه؛ لأن الحق سبحانه أراد أن يخرجه خلقًا آخر، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤][1].

وجاء لفظ الجلالة مبتدأ وخبره جملة فعلية، من باب الاختصاص، والله أخرجكم وحده من بطون أمهاتكم، وليس هناك من يفعل هذا غيره[2].

المرحلة الثانية: المكان الذي يخرج منه الإنسان:

ذكر الله تعالى مكان الخروج هو ﴿مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ والمقصود بالبطون: الأرحام؛ وذكر البطن؛ لأنه مكان الرحم،

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٣/ ٨١١٢.
(٢) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي، ٧/ ٢٧٢.

ويصدق على المولود أنه خرج من رحم أمه أو خرج من بطنها.

فالأم هي من ولدت، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢][1].

«وقرأ الأعمش وابن وثاب وحمزة: (إمهاتكم) هنا وفي والزمر والنجم، بكسر الهمزة والميم. وأما الكسائي فكسر الهمزة وفتح الميم؛ وإنما كان هذا للإتباع، الباقون بضم الهمزة وفتح الميم على الأصل، وأصل الأمهات: أمات، فزيدت الهاء تأكيدًا، كما زادوا هاء في أهرقت الماء، وأصله: أرقت»[2].

المرحلة الثالثة: الإدراك عند الإنسان:

يولد الإنسان لا يدرك شيئًا، وكل ما يدركه إنما هو بعد الولادة بواسطة الحواس التي منحه الله إياها، قال تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾ حال من الضمير في أخرجكم، فالمولود عند خروجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وما يفعله المولود من الصراخ ومصه اللبن من ثدي أمه، إنما هذا من الفطرة لا من العلم؛ لأن العلم كسبي؛ لأنه لا علم إلا بتعلم، و﴿شَيْئًا﴾ يدل على النفي العام لأي علم عند هذا المولود[3].

فالمولود يكون في غفلة عن كل شيء حتى عن نفسه التي بين جنبيه، إلا أن مسألة إدراك الحقائق تكمن فينا بصورة القوة لا الفعل، وبالتدريج تحصل لأعيننا قوة النظر ولآذاننا قوة السمع، ولعقولنا القدرة على الإدراك والتجزئة والتحليل، فننعم بهذه العطايا الإلهية الثلاث التي بواسطتها نستطيع أن ندرك كثيرًا من التصورات، ونودعها في العقل لكي ننشئ منها مفاهيم كلية، ومن ثم نصل إلى الحقائق العقلية.

قال القرطبي: «لا تعلمون شيئًا مما أخذ عليكم من الميثاق في أصلاب آبائكم، أو لا تعلمون شيئًا مما قضي عليكم من السعادة والشقاء، أو لا تعلمون شيئًا من منافعكم»[4].

المرحلة الرابعة: وسائل المعرفة:

إن رسم صورة الشيء الخارجي المراد في الذهن وبواسطة الوسائل المعينة لذلك، وعليه فمعرفتنا بالعالم الخارجي تكون عن طريق أجهزة خاصة هي السمع والبصر والفؤاد.

لذلك بينت الآية مسألة عدم علم الإنسان المطلق حين الولادة، ثم جعل الله تبارك وتعالى: ﴿السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

---

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٣/ ٨١١٢.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٠/ ١٣٧.
(٣) انظر: الدر المصون، السمين الحلبي، ٧/ ٢٧١.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ١٣٧.

﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ لكي تحصلوا على حقائق الوجود وتدركوها.

ونشاهد تقديم ذكر السمع على البصر في الآية مع ما للعين من عمل أوسع من السمع، ولعل ذلك؛ لسبق الأذن في العمل على العين بعد الولادة، حيث إن العين كانت في ظلام دامس في رحم الأم، ونتيجة لشدة أشعة بعد الولادة فإنها لا تستطيع العمل مباشرة بسبب حساسيتها، وإنما تتدرج في اعتيادها على مواجهة حتى تصل للحالة الطبيعية المعتادة، ولذا نجد الوليد في بداية أيامه الأولى مغلق العين. أما بخصوص الأذن، فثمة من يعتقد بأن لها القدرة على السماع قليلًا أو كثيرًا وهي في عالم الأجنة، وأنها تسمع دقات قلب الأم وتعتاد عليها[١].

أضف إلى ذلك أن الإنسان إنما يرى بعينه الأشياء الحسية فقط، في حين أن الأذن تعتبر وسيلة للتربية والتعليم في جميع المجالات، فالإنسان يصل بواسطة سماع الكلمات إلى معرفة جميع الحقائق، سواء ما كان منها في دائرة الحس أو ما كان خارجها، وليس للعين هذه السعة، وصحيح أن الإنسان يمكنه تحصيل العلم بواسطة القراءة، إلا أن القراءة ليست عامة لكل الناس، وسماع الكلمات أمر عام[٢].

والفؤاد جاءت هنا بمعنى: القلب والعقل الذي يعيش حالة التوقد، وبعبارة أخرى: يعيش حالة التفسير والتحليل والابتكار.

يقول الراغب الأصفهاني: «الفؤاد كالقلب، لكن يقال له فؤاد: إذا اعتبر فيه معنى التفؤد. أي: التوقد»[٣].

المرحلة الخامسة: ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

تعتبر نعمة أجهزة تحصيل العلم من أفضل النعم التي وهبها الله للإنسان، فلا يقتصر دور العين والأذن مثلًا على النظر إلى آثار الله في خلقه، والاستماع إلى كتاب الله تعالى وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، وتفهم ذلك وتدركه بالتحليل والاستنتاج، بل إن كل خطوة نحو التكامل والتقدم مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بهذه الوسائل الثلاثة.

وغاية إعطاء هذه الوسائل إنما تستوجب شكر الواهب؛ لأنه من خلالها يمكن الحصول على العلم والمعرفة اللذين بهما امتاز الإنسان عن غيره من الحيوانات[٤].

قال القرطبي: «لعلكم تشكرون فيه تأويلان:

أحدهما: تشكرون نعمه.

---

(١) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ٩/ ١١٦٦.

(٢) انظر: التفسير البياني لما في سورة النحل من دقائق المعاني، سامي القدومي، ١/ ١٥٧.

(٣) المفردات، ص٦٤٦.

(٤) انظر: الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، الشيرازي، ٨/ ٢٧٥.

الثاني: يعني: تبصرون آثار صنعته؛ لأن إبصارها يؤدي إلى الشكر»[1].

وختمت هذه الآية التي تتحدث عن السمع الأبصار والأفئدة باستحقاق الشكر لله؛ لأنها نعم نستخدمها في كل لحظة، فهي لا تفارقنا في الليل ولا في النهار، فهي أدعى أن تذكرنا بشكر خالقنا على ما أنعم علينا، فالآيات الأخرى التي تتكلم عن هذه النعم، تدعونا إلى شكر الله سبحانه وتعالى.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [الملك: ٢٣].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٠/ ١٣٧.

الرسول الكريم والأمية

تعددت الآيات القرآنية التي تثبت أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم، وترد على الذين يدعون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد تعلم هذا القرآن من قراءته في كتب الأولين.

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ابن عباس: «كان نبيكم صلى الله عليه وسلم أميًا لا يكتب ولا يقرأ ولا يحسب»[2].

أولًا: الأمية وصف كمال للرسول الكريم:

ومن أساليب المدح ذكره صلى الله عليه وسلم في التوراة والإنجيل كما في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ﴾

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٧/ ٢٩٨.

﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

لذا جاء الأمر بالإيمان به في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقد خصه السياق بالأمية مدحًا، «والأمية وصف خص الله به من رسله محمدًا صلى الله عليه وسلم، وبذلك كانت الأمية وصف كمال فيه، مع أنها في غيره وصف نقصان... صارت أميته آية على كون ما حصل له إنما هو من عند الله تعالى»[1].

كما قال الله في آية أخرى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

ويعلق الزمخشري على هذه الآية قائلًا: «وأنت أميٌّ ما عرفك أحدٌ قط بتلاوة كتاب ولا خطٍ. ﴿إِذًا﴾ لو كان شيء من ذلك، أي: من التلاوة والخط. ﴿لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ من أهل الكتاب، وقالوا: الذي نجده في كتبنا أميٌّ لا يكتب ولا يقرأ... أو لارتاب مشركو مكة، وقالوا: لعله تعلمه أو كتبه بيده»[2].

وصف الله تعالى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم بأنه أمي، وهذا الوصف جاء في معرض إقامة الحجة على أهل الكتاب ومطالبتهم باتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا معناه: أن أميته لا تقدح إطلاقًا في رسالته، بل قد ذكرها الله لهم ليقول لهم: إني تقصدت أن يكون رسولي إليكم أميًا، وأنا آمركم أن تتبعوه؛ لأنه رسول ولأنه نبي ولأنه أمي.

وبالتالي فالأمية هي وصف اختاره الله تعالى في نبيه صلى الله عليه وسلم، فلا بد أن يكون هذا الوصف من كماله صلى الله عليه وسلم.

قال أحمد شوقي[3]:

يا أيها الأمي حسبك رتبةً
في العلم أن دانت بك العلماء
الذكر آية ربك الكبرى التي
فيها لباغي المعجزات غناء
صدر البيان له إذا التقت اللغى
وتقدم البلغاء والفصحاء

ثانيًا: حكمة كون النبي أميًا:

تجلت الحكمة الإلهية في اختيار النبي محمد صلى الله عليه وسلم أميًا لا يحسن القراءة والكتابة، فمن هذه الحكم:

١. إثبات صدق الرسالة، وأنها من عند الله تعالى.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ١٣٣.
(٢) الكشاف، ٣/ ٤٦٢.
(٣) ديوان أحمد شوقي، ١/ ٧.

محمد صلى الله عليه وسلم أمي ومعنى ذلك: أن ثقافته غير ثقافات البشر، علمه من رب البشر، فهو منزه عن أي علم أرضي يتفاخر به الناس فيما بينهم، وإنما تلقى علمه وأدبه وثقافته من خالق البشر جل جلاله، كما أخبر الله تعالى عنه في كتابه الكريم حيث قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣].

والمتأمل في أول آية نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

ليجد أنها تعالج قضية أمية النبي صلى الله عليه وسلم وتقضي على أي أثر سلبي لها.

فعندما سمع المصطفى صلى الله عليه وسلم خطاب الله له بـ﴿اقْرَأْ﴾ أجاب عليه الصلاة والسلام وبما يتناسب مع قدراته فقال: (ما أنا بقارئ!)، أي: لا أحسن القراءة، فقراءة النبي صلى الله عليه وسلم إنما هي باسم الذي علم بالقلم، وليست بتعليم أحد من أهل الأرض، ولما كان محمد صلى الله عليه وسلم هو المختار من قبل الله تعالى لحمل منهج الله، كانت أميته صلى الله عليه وسلم صونًا وحفظًا من الله تعالى لهذا المنهج ومن أي تدخل أرضي بشري[1].

فكانت أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم دليلًا من أدلة صدقه ونبوته.

٢. التحدي والإعجاز.

أرسل الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم إلى العالمين بشيرًا ونذيرًا، وأيده بالمعجزات الدالة على صدقه، ومن أبرز هذه المعجزات أمية رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن الثابت تاريخيًا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد أميًا، وظل على ذلك إلى أن بعثه الله للعالمين وهو أمي، وهذا كمالٌ في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعجزة من معجزاته الشريفة.

يقول عنها ابن تيمية: «بين سبحانه من حاله ما يعلمه العامة والخاصة، وهو معلومٌ لجميع قومه الذين شاهدوه، متواترٌ عند من غاب عنه وبلغته أخباره من جميع الناس -أنه كان أميًا لا يقرأ كتابًا، ولا يحفظ كتابًا من الكتب؛ لا المنزلة ولا غيرها، ولا يكتب بيمينه كتابًا، ولا ينسخ شيئًا من كتب الناس، المنزلة ولا غيرها»[2].

إن الأمية بالنسبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم «وصف خص الله به من رسله محمدًا صلى الله عليه وسلم ؛ إتمامًا

(١) انظر: الجواب الصحيح، ابن تيمية، ٥/ ٣٣٨.
(٢) المصدر السابق.

للإعجاز العلمي العقلي الذى أيده الله به، فجعل الأمية وصفًا ذاتيًا له؛ ليتم بها وصفه الذاتي وهو الرسالة؛ ليظهر أن كماله النفساني كمال لدني إلهي، لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات، وبذلك كانت الأمية وصف كمال فيه مع أنها في غيره وصف نقصان»[1].

ولما تحقق المنهج وسلم من أي نسبة بشرية أرضية، كان من الطبيعي أن يتحدى الله تعالى البشر جميعًا أن يأتوا بمثله، بل بسورة من مثله، وكان من الطبيعي أن يكون صالحًا لكل زمان ومكان.

٣. القضاء على الشبهات.

كما أن أمية النبي صلى الله عليه وسلم تقضي على أي شبهة كان سيتمسك بها المشركون فيما لو كان النبي صلى الله عليه وسلم يحسن القراءة والكتابة، هذه الشبهة قد ذكرها الله تبارك وتعالى في كتابه العزيز حيث قال: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

أي: لو كنت تتلو من قبل القرآن من كتاب، أو كنت كاتبًا تخط الكتاب بيمينك، لشكك المبطلون في صدق دعواك أن القرآن من عند الله تعالى، ولقالوا: نقله محمد من الكتب السابقة، أو جلس على تأليفه وجمعه وتنقيحه.

قال النحاس: «وذلك دليل على نبوته؛ لأنه لا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم وزالت الريبة والشك»[2].

لكن هذا لم يتم لهم؛ لأن الله تعالى الذي اختار نبيه أن يكون أميًا عن ثقافاتهم الأرضية، وهذا كان حجة دامغة عليهم؛ إذ كيف يكون القرآن وهو بهذا المستوى من العظمة والفصاحة والبلاغة والبيان، مع ما حوى من علوم ومعارف وتشريعات وقصص وعبر ومواعظ، كيف يكون من تأليف رجل أمي لا يحسن القراءة والكتابة؟

يقول ابن عاشور: «أفلا تعقلون أن مثل هذا الحال -من الجمع بين الأمية والإتيان بهذا الكتاب البديع في بلاغته ومعانيه- لا يكون إلا حال من أفاض الله عليه رسالته؛ إذ لا يتأتى مثله في العادة لأحدٍ»[3].

ثانيًا: شبهات وردود حول أميته عليه السلام:

حاول بعض المشككين أن ينفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صفة الأمية؛ لأن ورود القرآن الكريم مصدقًا لما جاء في كتبهم من أخبار ونبوءات،

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٩/ ١٣٣.

(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٣/ ٣٥١.

(٣) التحرير والتنوير، ١١/ ١٢٣.

وتنبؤه بالعديد من الأحداث المستقبلية -كهزيمة الفرس، وغير ذلك- دون تعليم، إنما يعد معجزةً عقليةً باهرةً لا ينكرها إلا المكابرون، وهؤلاء المكابرون يعلمون جيدًا أن أمية النبي صلى الله عليه وسلم مذكورة في التوراة والإنجيل؛ مصداقًا لقول الله: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

كما قال الله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٠].

تشهدون أن صفة محمد صلى الله عليه وسلم في كتابكم، ثم تكفرون به وتنكرونه، ولا تؤمنون به، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم في التوراة والإنجيل: ﴿ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾[1].

وبالرغم من شهادة تاريخ الحجاز في العصر الجاهلي، ومحيطه البدوي على أمية النبي وعشيرته وأقربائه، نجد المغالطات والتشكيكات أثيرت حول أمية النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه بعض الشبهات والرد عليها:

الشبهة الأولى:

قال الحداد: «محمد لم يكن أميًا بل تاجرًا دوليًا ومثقفًا ومطلعًا وبحاثة دينيًا».

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨][2].

فلو نظر العاقل إلى كلمة الكتاب فإنها جاءت نكرة، فنفت جميع الكتب السماوية وغيرها، لم يشير باللام إلى الكتاب أو الكتب المعهودة كما في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

وقال عز شأنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ﴾[العنكبوت: ٤٧].

ترى أنه سبحانه عندما يشير إلى هذه الكتب المعهودة عرفها باللام إشارة إلى معهوديتها، فالآية فيها دليل على أن الهدف منها هو نفي مطلق التلاوة والكتابة عنه حيث عطف على الجملة الأولى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ﴾ قوله: ﴿وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ﴾[3].

ثم إن التجارة لا ترتبط بالقراءة والكتابة، فكم من أمي برع في فنون التجارة، بالإضافة إلى أن العرب لم يكونوا يديرون تجارتهم بكتابة العقود، وتوثيقها، وإنما كانت تجارة

(١) جامع البيان، الطبري، ٦/ ٥٠٣.

(٢) القرآن والكتاب، ص ٤١٠.

(٣) انظر: مفاهيم القرآن، السبحاني، ٣/ ٣٠١.

الرحلات تجارة مقايضة وتبادل البضائع، وبيع بالثمن العاجل.

الشبهة الثانية:

قالوا: إن قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلۡأُمِّيِّ﴾ قالوا: الأمي منسوب إلى مكة المكرمة باعتبارها أم القرى، وهي علم من أعلام مكة، كما يدل عليه قوله سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾ [الشورى: ٧].

وعلى ذلك فالمراد من الأمي: أنه مكي[(١)].

وهذا كلام الأمي: مردود؛ لأن أم القرى كل مدينة هي أم ما حولها من القرى[(٢)]، فيعلم من ذلك أن أم القرى مفهوم كلي يصح إطلاقه على أية بلدة تتصل بها قرى كثيرة بالتبعية، وهذه القرى تعتمد عليها في أمور حياتها، ويعاضد ما ذكرناه (كون أم القرى كليًا) قوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا﴾ [القصص: ٥٩].

فالآية -بحكم رجوع الضمير في أمها إلى القرى- صريحة في أنها ليست علمًا لموضع خاص؛ لأن مشيئته تعم الأمم في هذا الأمر.

ولو صح قولهم فالصحيح عن النسبة لكانت النسبة إليها القروي لا الأمي.

ثم إن الله وصف نبيه في الآية بصفات تناسب موضوع النبوة، فلو كان الأمي فيها بالمعنى الذي ذكروه، لكان الإتيان به في ثنايا تلك الأوصاف والخصال إقحامًا لها.

الشبهة الثالثة:

استدلوا بحديث جاء في معاني الأخبار عن جعفر بن محمد الصوفي قال: «سألت أبا جعفر محمد بن علي بن موسى الرضا فقلت: يا ابن رسول الله، لم سمي النبي الأمي؟ فقال: ما يقول الناس؟ قلت: يزعمون أنه سمي الأمي؛ لأنه لا يحسن أن يكتب، فقال: كذبوا، عليهم لعنة الله في ذلك، والله يقول في محكم كتابه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ [الجمعة: ٢].

فكيف كان يعلمهم ما لا يحسن، والله لقد كان رسول الله يقرأ ويكتب باثنين وسبعين أو قال: بثلاثة وسبعين لسانًا، وإنما سمي الأمي؛ لأنه كان من أهل مكة، ومكة من أمهات القرى، وذلك قول الله عز وجل: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَا﴾[الأنعام: ٩٢]»[(٣)].

أولًا: الحديث النبوي وما ينسب لأئمة أهل البيت لا يؤخذ من الشيعة؛ لأنهم لا

(١) انظر: المصدر السابق.

(٢) مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٢٣.

(٣) معاني الأخبار، الصدوق، ص٥٤.

يتبعون منهجًا علميًا في رواية الحديث كمنهج أهل السنة[1].

ثانيًا: الشيعة نسبوا لأئمتهم ما هو أكبر من هذا مثل: أن الله علمهم علم ما كان وما بقي، وأن الأئمة يتحكمون في الكون[2].

قال د. موسى الموسوي: «والأدهى من ذلك -يقصد ادعاء عصمة الأئمة- أن بعض علمائنا ذهبوا إلى أبعد من ذلك وقالوا: إن الإمام يعلم كل شيء، وله معرفةٌ بكل العلوم والفنون، ولست أدري أي فضيلة بالنسبة إليه أن يكون مهندسًا أو ميكانيكيًا أو عالمًا باللغة اليابانية؟ إنما الفضيلة بالنسبة للإمام أن يكون فقيهًا ورعًا وعالمًا ربانيًا في شئون الدين، وفي هذا كل الفضل»[3].

ثالثًا: قوله: «إن النبي يقرأ ويكتب باثنين وسبعين لسانًا» يعني: أنه كان مشغولًا بالقراءة والكتابة طيلة حياته، وهذا يخالف الروايات الصحيحة التي نقلت عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الشبهة الرابعة:

استدل الدكتور عبد اللطيف الهندي بقوله سبحانه: ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً ۝ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ [البينة: ٢-٣].

قال: هذا يدل على تحقق التلاوة منه أيام رسالته وفي رحاب دعوته، يعني أنه كان يقرأ ويكتب[4].

قبل الرد على هذه الشبهة لابد أن نتعرف على تعريف التلاوة في اللغة:

فيتلو في اللغة من الفعل تلا تلاوة أي: قرأه، وتلا الكتاب والسنة: اتبع ما فيهما[5].

بذلك يتضح لنا جليًا أن التفسير الذي فسروه لا علاقة له بالمعنى اللغوي، فالقراءة والإتباع غير الكتابة، ثم إن القرآن الكريم أثبت في غير ما موضع أمية النبي صلى الله عليه وسلم، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فالتلاوة كما تصدق على التلاوة عن الكتاب، تصدق على التلاوة عن ظهر القلب، ويؤيده قوله سبحانه: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ۝ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ [الأعلى: ٧-٨].

إذ معناه: سنقرأ عليك القرآن فلا تنساه، ونجعلك قارئًا بإذن منه فلا تنسى ما تتلقاه من أمين الوحي، إلا بمشيئة منه سبحانه؛ فإن الإقراء والإنساء كليهما بيده سبحانه، فلا يدل إلا على تلاوة القرآن وقراءته عن ظهر القلب فقط، كما كان هو دأب النبي في تلاوة كل ما أوحي إليه.

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ابن تيمية، ١٣/ ٥٨.
(٢) انظر: بحار الانوار، المجلسي، ٢٦/ ١١١.
(٣) الشيعة والتصحيح، ص٨٢
(٤) انظر: مفاهيم القرآن، السبحاني، ٣/ ٣٢٤.
(٥) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ١/ ٣٥١.

قال الزمخشري: «بشر الله تعالى بإعطاء آية بينة، وهي أن يقرأ عليه جبريل ما يقرأ عليه من الوحي، وهو أمي لا يكتب ولا يقرأ فيحفظه ولا ينساه»[1].

قال الصابوني: «أي: يقرأ عليهم صحفًا منزهةً عن الباطل عن ظهر قلب؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمي لا يقرأ ولا يكتب، قال القرطبي: أي يقرأ ما تتضمن الصحف من المكتوب، يتلوها عن ظهر قلبه لا عن كتاب؛ لأنه عليه السلام كان أميًا لا يكتب ولا يقرأ»[2].

فتلاوة القرآن تكون بالنظر وعن ظهر قلب، والنبي صلى الله عليه وسلم كان يتلو عليهم الصحف المطهرة عن ظهر قلب.

فهذه الآية قاطعة الدلالة على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان أميًا، ففهم المشككين حول الآية يعتبر فهمًا خاطئًا.

الشبهة الخامسة:

استدلوا برواية بدء الوحي على إنكار أمية النبي صلى الله عليه وسلم، قالوا: إنها تدل على تعلم النبي صلى الله عليه وسلم، والصحيح أنها من الأدلة القوية على أميته عليه السلام؛ إذ جعلوا قول النبي صلى الله عليه وسلم للملك -الذي كان يطلب منه القراءة- (ما أقرأ) استفهامًا عن المقروء، لا نفيًا للقراءة، مستدلين بما توهموه من عبارة الرسول صلى الله عليه وسلم على عدم أميته، وإلا فما وجه استفهامه عن المقروء؟

حيث اقتطعوا من كتاب السيرة النبوية لفظة: (ما أقرأ) ولم يكملوا النص الذي نص صراحة على الأمية؛ إذ ورد فيها مباشرة بعد العبارة التي اقتطعوها قوله صلى الله عليه وسلم: **(ما أقول ذلك إلا افتداء منه أن يعود لي بمثل ما صنع بي)**[3].

إن المنهج الذي اعتمدوه في بحث هذه المسألة منهج بعيد عن منهج البحث العلمي؛ لأنهم لم يعطوا أي قيمة للروايات الصحيحة التي تنص صراحة على الأمية؛ فقوله عليه السلام: **(ما أنا بقارئ)**[4] تدل على أنه أمي.

ودليلهم على أن قوله: (ما أقرأ؟) استفهام صحيح، ولكن في الوقت نفسه يعتبر دليلًا على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقرأ؛ ذلك؛ لأنه قد أوضح بنفسه أن طلبه من الملك تعيين ما يطلب منه قراءته لم يكن إلا لخوفه من أن يعود إلى ضمه، كما حدث في كل مرة نفى فيها معرفته للقراءة قبل ذلك[5].

---

(١) الكشاف، ٤/ ٧٣٨.

(٢) صفوة التفاسير، الصابوني، ٣/ ٥٨٧.

(٣) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام، ١/ ١٤٩.

(٤) أخرجه البخاري، في كتاب التعبير، باب أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي، رقم ٦٩٨٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله، رقم ١٦٠.

(٥) انظر: نبوة محمد صلى الله عليه وسلم في

قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

ولم يقل: (اقرأ اسم ربك)، فهذه الباء الدقيقة اللطيفة حلت الإشكال وأفهمتنا أن المراد ليس قراءة أحرف وكلمات؛ ولكن قراءة شيء ما مستعينًا باسم ربك.

وهذا يعني أن القراءة لا تعني أن يقرأ من مكتوب بل قد يقرأ من محفوظ.

واختار الله تعالى بدء رسالته لهذه الأمة بكلمة (اقرأ)؛ لأن دعوة الإسلام هي دعوة إلى تنوير العقول، وشفاء الصدور، والخروج من ظلمات الأمية إلى نور العلم، وهي دعوة إلى إعمار الكون، وإقامة الحق والعدل فيه.

الشبهة السادسة:

أن النبي صلى الله عليه وسلم كان عالمًا وتعلم على أيدي أشخاص من أهل الكتاب، مثل: عبدالله بن سلام وجبر الرومي وغيرهم.

لقد رد الله تعالى عليهم فقال: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

فكيف لمن في لسانه أعجمي أن يعلم النبي هذا الكتاب العربي المبين الذي عجز العرب عن الإتيان بمثله؟ والقرآن يحتوي على حقائق علمية لا يوجد مثلها في الكتب السابقة المليئة بالأخطاء المخالفة للعلم صراحة بمقياس العلم الحديث[1].

والقرآن فصل من أمور الغيبيات مثل: البعث والنشور والحشر والحساب والجنة والنار ما لا يوجد مثله في الكتب السابقة، ولم يسمع بها أهل الكتاب أنفسهم، مثل: خبر السامري، ومصير المسيح.

الفكر الاستشراقي المعاصر، لخضر شايب، ص٣٩٩.

(١) انظر: التوراة والإنجيل والقرآن الكريم، موريس بوكاي، ص١٧٤.

شبهات حول الأحاديث النبوية التي استشهدوا فيها أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يعرف القراءة والكتابة:

الحديث الأول:

عن ابن عباسٍ رضى الله عنهما قال لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(هلم أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده)**، فقال عمر إن النبي صلى الله عليه وسلم قد غلب عليه الوجع وعندكم القرآن، حسبنا كتاب الله!! فاختلف أهل البيت، فاختصموا، منهم من يقول: قربوا يكتب لكم النبي صلى الله عليه وسلم كتابًا لن تضلوا بعده، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما أكثروا اللغو والاختلاف عند النبي صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(قوموا)**. قال عبيد الله: فكان ابن عباسٍ يقول: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم[(١)].

فهم البعض أن قوله: **(أكتب لكم كتابًا)** دليلٌ أنه يقرأ ويكتب.

وهذا غير صحيح، فنداء النبي لهم دليلٌ أنه كان كالعادة سيملي عليهم وهم يكتبون، وإلا لكتب بنفسه خصوصًا بعد أن قال لهم: (قوموا)، ومعلومٌ أن هذه الوصية لم تكتب.

الحديث الثاني:

احتج البعض أنه يعرف القراءة والكتابة بما حدث في صلح الحديبية عن البراء بن عازبٍ: **(فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الكتاب، فكتب: هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله)**[(٢)].

وقد رد ابن كثير على ذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَـٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

فقال: «ومن زعم من متأخري الفقهاء كالقاضي أبي الوليد الباجي ومن تابعه أنه عليه السلام كتب يوم الحديبية: «هذا ما قاضى عليه محمد بن عبدالله» فإنما حمله على ذلك رواية في صحيح البخاري «ثم أخذ فكتب»، وهذه محمولةٌ على الرواية الأخرى «ثم أمر فكتب»، ولهذا اشتد النكير من فقهاء المغرب والمشرق على من قال بقول الباجي وتبرءوا منه، وأنشدوا في ذلك أقوالًا وخطبوا به في محافلهم، وإنما أراد الرجل -أعني الباجي- فيما يظهر عنه أنه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضى، باب قول المريض قوموا عني ٧/ ١٢٠، رقم ٥٦٦٩، ومسلم في صحيحه، كتاب الجهاد والسير، باب صلح الحديبية في الحديبية ٣/ ١٤١٠، رقم ١٧٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب كيف يكتب هذا، ٣/ ١٨٤، رقم ٢٦٩٩.

كتب ذلك على وجه المعجزة، لا أنه كان يحسن الكتابة»[١].

الحديث الثالث:

احتج البعض بإخبار النبي عن الدجال بأنه: (مكتوبٌ بين عينيه كافر)[٢]، وفي رواية: (ك ف ر، يقرؤها كل مؤمن) بأنه يعرف القراءة والكتابة.

وهذا غير دليل، فالذي أوحى له الحروف المقطعة (الم) (حم) (عسق) (كهيعص). أوحى له (ك ف ر).

الحديث الرابع:

وما أورده بعضهم من الحديث: أنه لم يمت عليه السلام حتى تعلم الكتابة، فضعيفٌ لا أصل له، ولا يوجد حديث صحيح واحد يدل أنه عليه السلام تعلم القراءة والكتابة[٣].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب اللباس، باب الجعد، ٧/ ١٦٢، رقم ٥٩١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ذكر الدجال وصفته وما معه ٤/ ٢٢٤٨، رقم ٢٩٣٣.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٦/ ٢٨٦.

الأمية والرسالة

أولًا: حكمة إرسال الرسول إلى الأميين:

هناك حكم كثيرة لاختيار بلاد الأميين لتكون مهد الرسالات السماوية فيهم، فمن هذه الحكم على سبيل المثال حكم خلقية، وحكم علمية، وحكم فكرية ثقافية، ومنها أيضًا حكم سياسية وجغرافية، وأخرى اجتماعية؛ وهناك حكم نفسية وعقلية. والباحثون اكتشفوا أخيرًا دقة خط مكة المكرمة وأنها وسط العالم.

قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

فمعنى قوله: ﴿وَسَطًا﴾؛ أي: وسطًا في المكان، وسطًا في الخلقة، وسطًا في المشاعر والأحاسيس، وسطًا في الأخلاق، بل وسطًا في الدعوة إليه سبحانه وتعالى ووسطًا في كل شيء»[٤].

هذه الوسطية تكتشف الاختيار الإلهي؛ لظهور الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الدين الجديد، في هذا الموضع من الأرض في هذا الزمان، إن هنالك نظامًا مقدورًا أو قصدًا مقصودًا، وتدبيرًا معينًا، وترتيبًا موضوعيًا لتلتقي هذه الظواهر كلها حيث التقت؛ كي تؤدي دورًا معينًا أقل نتائجه

(٤) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ١٣١.

تخطيط خريطة العالم في عالم الظاهر، وفي عالم الشعور على هذا الوضع الذي صارت إليه الأمور منذ ذلك التاريخ البعيد[١].

والنبي صلى الله عليه وسلم نشأ في تلك البيئة الجاهلية، وأنه عليه الصلاة والسلام كان أميًا، ككثير من أبناء قريش؛ ولكنه لم يمارس ما مارسوه، وتربوا عليه حال كونه أميًا في بيئة جاهلية، وهذا ما يدعو للعجب والدهشة.

قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [الفتح: ٢٩].

قال الضحاك في تفسير قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]، قال: هو محمد، ﴿يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ [الجمعة: ٢]، قال: القرآن؛ ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢] قال: هو الشرك[٢].

فبيئة الأميين بعيدة عن الأفكار الهدامة المبتكرة عقديًا، وتنعم بتلك الأفكار السطحية، فقد ظلت الجزيرة العربية، وكأنها واحة حصينة آمنة من الغزو، إلا في بعض أطرافها، آمنة من انتشار الدعوات الدينية، نصرانية أو مجوسية، إلا في قليل من قبائلها، وهذه ظاهرة قد تبدو في التاريخ عجيبة، لولا ما يفسرها من موقع بلاد العرب ومن طبيعتها، وما للموقع والطبيعة من أثر في حياة أهلها، وفي أخلاقهم وميولهم ونزعاتهم[٣].

كان الأميون يعيشون في ظلمة من الجهالة البسيطة والحالة الفطرية الأولى، فكان يغلب عليهم بسبب ذلك أن يضلوا الطريق إلى تلك القيم الإنسانية، فيقتلوا الأولاد بدافع الشرف والعفة، ويتلفوا الأموال الضرورية بدافع الكرم، ويثيروا فيما بينهم المعارك بدافع الإباء والنجدة.

وهذه الحالة هي التي عبر الله عز وجل عنها بالضلال حينما وصفهم بقوله: ﴿وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨].

ومن المعلوم أن الله عز وجل قد جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا، وجعله أول بيت وضع للناس للعبادة وإقامة الشعائر الدينية، وحقق في ذلك الوادي دعوة أبي الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومن

(١) انظر: في التاريخ فكرة ومنهاج، سيد قطب، ص٤٩.
(٢) انظر: الدر المنثور، السيوطي، ٦/ ٣٥٠.
(٣) انظر: حياة محمد، هيكل، ص ٧٢.

لوازم هذا كله ومتمماته: أن تكون هذه البقعة المباركة نفسها مهدًا للدعوة الإسلامية، التي هي ملة أبينا إبراهيم، وأن تكون بعثة خاتم الأنبياء ومولده فيها، كيف لا وهو من نسل إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟

واقتضت حكمة الله تعالى أن تكون اللغة العربية هي لغة الدعوة الإسلامية، وأن تكون هي الأداة المباشرة الأولى[1].

ثانيًا: الأمية ووراثة النبوة:

بعد أن فسد بنو إسرائيل ولم يتحملوا أمانة حمل الرسالة كان لا بد من تسليمها لأمة أخرى تقوم بأعباء حمل الرسالة، وليس من صفات هذا الشعب أنه غبي، ولا ساقط؛ لأن الغبي والساقط لا يتولى القيادة، وإنما هو شعب مبارك، ولكنه أمي؛ ليظهر عظمة الله تعالى في جعل أمة أمية تتعلم وتتولى قيادة العالم ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

واليهود كانوا يتقصون المسلمين؛ لأنهم أميون، فأعلمهم الله تعالى أن ذلك فضل منه يؤتيه من يشاء، والمنة ظاهرة في اختيار الله للأميين؛ ليجعلهم أهل الكتاب المبين، وليرسل فيهم رسولًا منهم؛ ليرفعهم إلى مقام كريم، ويخرجهم من أميتهم بتلاوة آيات الله عليهم، وتغيير ما بهم، وتمييزهم على العالمين، ويعلمهم الكتاب فيصبحون أهل كتاب، ويعلمهم الحكمة فيدركون الحقائق، ويكونون ورثة النبوة[2].

وفي العهد الجديد أن الأمة الإسلامية هي وارثة النبوة وستتولى قيادة البشرية، وتسير على النهج الذي رسمه الله تعالى لها، ليست مثل اليهود الذين نقضوا عهد الله تعالى: «أقول لكم: إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره»[3].

و أيضًا: «قالت له المرأة -أي: لعيسى عليه السلام: يا سيد أرى أنك نبي، آباؤنا سجدوا في هذا الجبل، وأنتم تقولون: إن في أورشليم الموضع الذي ينبغي أن يسجد فيه، قال لها يسوع: يا امرأة صدقيني إنه تأتي ساعة لا في هذا الجبل، ولا في أورشليم تسجدون للآب... ولكن تأتي ساعة وهي الآن حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق»[4].

وفي رحلة الإسراء، انتقلت الرسالة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، بعد أن كانت في بني إسرائيل.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَـٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ

(١) انظر: فقه السيرة،البوطي، ص ٣٠-٣٣.

(٢) انظر: المصدر السابق.

(٣) إنجيل متى، ٢١: ٤٣.

(٤) إنجيل يوحنا، ٤: ١٩ - ٢٣.

﴿أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

لكنهم غيروا وبدلوا، وطال عليهم الأمد وقست قلوبهم، اشتروا بآيات الله ثمنًا قليلًا، قتلوا الأنبياء ونقضوا العهود، أوقدوا الحروب، وقالوا: يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌ ۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا۟ بِمَا قَالُوا۟ ۘ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۚ وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ كُلَّمَآ أَوْقَدُوا۟ نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا ٱللَّهُ ۚ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا ۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة: ٦٤].

لذلك انتقلت الرسالة من بني إسرائيل إلى بني إسماعيل، حيث تسلمها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم في حضور كل الأنبياء، ليلة الإسراء، في مكانٍ طيب هو المسجد الأقصى ﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ [الإسراء: ١].

وفي أفضل الأعمال وهي الصلاة، وتسلمت أمته الرسالة منه بعد وفاته؛ لتكون لها العزة والكرامة، والعهد الأمانة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والله تعالى لا يفضل أحدًا على أحدٍ إلا بالتقوى، ولا يختار أحدًا على أحدٍ إلا بالعمل الصالح، وإنما يتفاضل الناس عند الله بإيمانهم وتقواهم، وإذا غيرنا أو بدلنا أو قصرنا في هذه الرسالة العظيمة؛ فإن الله تعالى سيأتي بأقوام آخرين، لهم صفات غير صفاتنا وأخلاق غير أخلاقنا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٥٤].

وسورة الإسراء وضحت كيف ورثت هذه الأمة النبوة من الأمم السابقة، فكان الانتقال من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى كما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

ثم جاء ذكر الكتاب الذي انتقل من نوح إلى موسى عليهما السلام.

فقال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ۝٢ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٢-٣].

ولما فرطت بنو إسرائيل في الكتاب ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾

[الإسراء: ٤].

ووصل الكتاب إلى أمة محمد.

قال تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٩].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ [الإسراء: ٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء: ١٠٥-١٠٦].

وسورة الإسراء تدعو لعدم التخلي عن القرآن كما فعلت الأمم السابقة لما تخلوا عن الكتاب استبدلهم الله بأمم أخرى تحافظ على الكتاب[١].

وذكر الشهرستاني: وكان المنحدر منه إلى بني إسرائيل ظاهرًا، و المنحدر منه إلى بني إسماعيل مخفيًا، وهكذا، فقد كان نور بني إسماعيل مخفيًا إلى أن بعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم .

فمحمد هو ابن عبد الله بن عبد المطلب لكنه ابن إبراهيم روحيًا. فأولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه منذ البدء، وأتباعه هم الأميون.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: ٦٨].

والذين آمنوا هم الذين اتبعوا الإسلام[٢].

(١) انظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، فاضل السامرائي، ص ٢٨.

(٢) انظر: الملل والنحل، الشهرستاني، ٢/ ١٣.

أنواع الأمية

أولًا: أمية القراءة والكتابة:

معنى كلمة اقرأ في قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١].

هو مجرد فعل القراءة، وجاء الفعل مكسور الهمزة من قرأ يقرأ اقترأ الكتاب بمعنى: نطق بالمكتوب فيه، وألقى النظر عليه وطالعه. وقرأ الكتاب: تتبع ما فيه، وقرأ الآية: نطق بها[١]، و أقرأ: اسم تفضيل من قرأ، أي: أجود قراءة، واستقرأه: طلب منه أن يقرأ، والقراء: الحسن القراءة[٢].

وقيل للعرب: الأميون؛ لأن الكتابة كانت فيهم عزيزة أو عديمة[٣].

قال الرازي: «إنه تعالى وصف محمدًا في هذه الآية بصفات تسع... إلى أن قال: الصفة الثالثة كونه أميًا، قال الزجاج: معنى الأمي الذي هو على صفة أمة العرب، قال عليه الصلاة والسلام: (إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب)[٤]. فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرءون، والنبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك؛ فلهذا السبب وصفه بكونه أميًا»[٥].

وقال البيضاوي: «الأمي: لا يكتب ولا يقرأ، وصفه به؛ تنبيهًا على أن كمال علمه مع حاله هذا إحدى معجزاته»[٦].

وقال سيد قطب: «إن العرب سموا أميين؛ لأنهم كانوا لا يقرءون ولا يكتبون في الأعم الأغلب، واقتضت حكمة الله أن يكون هذا النبي من العرب، من الأميين؛ إذ علم الله أن يهود قد فرغ عنصرها من مؤهلات القيادة الجديدة الكاملة للبشرية، وأنها زاغت وضلت، وأنها لا تصلح لحمل الأمانة، بعد ما كان منها في تاريخها الطويل»[٧].

قال ابن فارس: «(أم) له أصل واحد يتفرع منه أربعة أبواب، وهي: الأصل، والمرجع، والجماعة، والدين، قال الخليل: كل شيء تضم إليه ما سواه مما يليه، فإن العرب تسمي ذلك: أمًا، ومن ذلك أم الرأس: وهو الدماغ، أم التنائف: أشدها وأبعدها، أم القرى: مكة، وكل مدينة هي أم ما حولها من القرى، وأم القرآن: فاتحة الكتاب، وأم الكتاب: ما في اللوح المحفوظ، وأم الرمح: لواؤه وما لف عليه، وتقول العرب للمرأة التي ينزل عليها:

---

(١) المنجد في اللغة والأعلام، الأزدي، ص ٦١٧.

(٢) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٧٥٣.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٢٢، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ١/ ٢٧.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب وجوب صوم رمضان لرؤية الهلال، ٢/ ٧٦١، رقم ١٠٨٠.

(٥) مفاتيح الغيب ٤/ ٣٠٩.

(٦) أنوار التنزيل، ٣/ ٢٣٠.

(٧) في ظلال القرآن، ٦/ ٣٥٦٤.

أم مثوى، وأم كلبة: الحمى، وأم النجوم: السماء، وأم النجوم: المجره... إلى أن عد كثيرًا من هذه التراكيب، فقال: الأمي في اللغة: المنسوب إلى ما عليه جبلة الناس لا يكتب، فهو في أنه لا يكتب على ما ولد عليه»[1].

وخاطب النبي صلى الله عليه وسلم جبريل أول مرة فقال: (ما أنا بقارئ)، وإنه عاجز عن القراءة التي بمعنى فعل القراءة فكان مصيبًا، أي: غير قادر على القراءة و الكتابة.

وكرر الله تعالى القراءة مرتين في هذه السورة فقال: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ [العلق: ١-٤].

وذكر القلم كأداة للتعليم وإشارة إلى أهميته واهتمام الشريعة به؛ لذا سميت سورة من القرآن بالقلم، واستهلت بالقسم به.

قال المراغي في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾، أي: «صر قارئًا بقدرة الله الذي خلقك، وقد جاء الأمر الإلهي بأن يكون قارئًا وإن لم يكن كاتبًا، وسينزل عليه كتابًا يقرؤه وإن كان لا يكتبه»[2].

وقال الألوسي: «قوله عليه السلام لجبريل عليه السلام حين قال له: اقرأ فقال: (ما أنا بقارئ) يريد أن القراءة شأن من يكتب ويقرأ، وأنا أمي، فقيل ﴿وَرَبُّكَ﴾ الذي أمرك بالقراءة مفتتحًا ومبتدًا باسمه ﴿ٱلۡأَكۡرَمُ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ﴾ أي: علم ما علم بواسطة القلم لا غيره تعالى، فكما علم سبحانه القارئ بواسطة الكتابة بالقلم يعلمك بدونها»[3].

إن تخلف أمة من الأمم عن القراءة والكتابة يؤدي بها إلى عدم العلم والمعرفة والابتعاد عن الحضارة، فيكون مقدمة للضلال والانحراف.

فيبعث الله تعالى النبي لعلاج الحال الذي هم عليه من الأمية، فيعلمهم الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [الجمعة: ٢].

وقال تعالى: ﴿مَا كُنتَ تَعۡلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوۡمُكَ مِن قَبۡلِ هَٰذَا﴾ [هود: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُۚ وَكَانَ فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكَ عَظِيمٗا﴾ [النساء: ١١٣].

وعلى هذا كل إنسان قبل التعليم أمي، والقرآن الكريم عالج مشكلة الأمة الإسلامية بقوله تعالى: ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ

(١) مقاييس اللغة، ١/ ٢٨.
(٢) تفسير المراغي، ٣٠/ ١٩٨.
(٣) روح المعاني، الألوسي، ١٥/ ٤٠٢.

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فيفهم من هذا السياق أن سبب أميتهم عدم معرفتهم بالكتاب، وعدم التزكية لنفوسهم، ولأجل هذا الداء جاءت الرسالة بذلك الدواء[١].

ثانيًا: أمية الظنون والأوهام:

لا يختص مفهوم الأمية بأمية القراءة والكتابة بل هناك أمية من نوع آخر، وهي أمية الضلال والظنون والأوهام.

قال تعالى في وصفه لطائفة من اليهود: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨].

ذكرت الآية طائفة من اليهود حيث إن أميتهم ناشئة من عدم معرفتهم بالكتاب إلا أماني، فقالوا ظلمًا: نحن أبناء الله وأحباؤه، وأنه لا يعذبهم، إلى غير ذلك من أمانيهم[٢].

قوله سبحانه: ﴿لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ توضيح لقوله: أميون، أي: منهم أمة منقطعون عن كتابهم لا يعلمون منه إلا أوهامًا وظنونًا يتلوها عليهم علماؤهم، الذين يحرفون كتاب الله وكلماته عن مواضعها، ويحسب هؤلاء السذج أنه الكتاب المنزل إليهم من ربهم. ولذلك قال سبحانه في الآية التالية:

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩][٣].

فلو كانوا عارفين بالكتاب قادرين على قراءته وتلاوته لما اغتروا بعمل المحرفين، ولميزوا الصحيح من الزائف، غير أن أميتهم وجهلهم به حالت بينهم وبين أمنيتهم.

وفسر الزمخشري قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ بأنهم لا يحسنون الكتاب فيطالعوا التوراة ويتحققوا ما فيها[٤].

فلامهم على تكذيبهم وعنادهم، فلو كانوا يحسنون القراءة والكتابة فليس في ذلك مدح، ولو كانوا يجهلونهما فليس في ذلك ذم؛ إذ كل ذلك منصب على الطاعة لله ولرسوله.

يقول الفخر الرازي: «اعلم أن المراد بقوله: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾ اليهود، ثم بين فرقة رابعة من اليهود المعاندين للحق ووصفهم بالأمية؛ لأنهم كانوا يقلدون في المعارف، ويمتنعون من قبول الحق»[٥].

قال محمد رشيد رضا في تفسير: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ﴾: «لا علم لهم بشيء من الكتاب ولا معرفة لهم بالأحكام وما عندهم

(١) تاريخ القرآن الكريم، محمد الكردي، ص٥٦.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ١/ ٢٢٤، مفاتيح الغيب، الفخر الرازي ٣/ ١٣٨.
(٣) انظر: المصادر السابقة.
(٤) الكشاف، ١/ ٢٢٤.
(٥) مفاتيح الغيب، ٣/ ١٣٨.

من الدين، فهو أماني... إلى أن يقول: وهذا محل الذم، لا مجرد كونهم أميين -بمعنى عدم معرفة القراءة والكتابة-، فإن الأمي قد يتلقى العلم عن العلماء الثقات ويعقله عنهم فيكون علمه صحيحًا، وهؤلاء لم يكونوا كذلك»[(١)].

وعلق سيد قطب على هذه الآية بقوله: «ثم يستطرد القرآن الكريم ويذكر للمسلمين من أحوال بني إسرائيل أنهم فريقان: فريق أمي جاهل لا يهتدي شيئًا من كتابهم الذي نزل عليهم، ولا يعرف منه إلا أوهامًا وظنونًا وإلا أماني في النجاة من العذاب بما أنهم شعب الله المختار، وفريق يستغل هذا الجهل وهذه الأمية»[(٢)].

وبالتأمل في كلام المفسرين عندما يفسرون الأمية فإنهم يوكدون على أنها أمية الضلال والظنون، والأوهام والجهل، وعدم معرفتهم بكتابهم السماوي المنزل من عند الله تعالى .

(١) تفسير المنار، ١/ ٣٥٨.

(٢) في ظلال القرآن، ١/ ١١٠.

علاج الأمية

يختلف مفهوم الأمية من دولة إلى أخرى، ففي البلدان العربية مثلًا نقصد بالأمية الإنسان الذي لم يتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب بلغة ما. أما في البلدان المتقدمة فيقصد بالأمية الشخص الذي لم يصل إلى المستوى التعليمي الذي يجعله يفهم التعليمات الكتابية في المواضيع التقنية في عمله.

فالأمية ظاهرة عالمية خطيرة من أبرز المشكلات التي تواجه المجتمعات الإنسانية، باعتبارها مشكلة مؤثرة في التقدم الاجتماعي والحضاري والاقتصادي.

والإسلام أول دين أعلن الحرب على الأمية ودعا إلى التعليم، ورفع مكانة العلم والعلماء، وحتى جعل العلم فريضة يتقرب بها العبد إلى الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]. وعن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**طلب العلم فريضة على كل مسلم**)[(٣)].

لذا يجب نشر ثقافة أن العلم فريضة

(٣) أخرجه ابن ماجه في صحيحه، كتاب أبواب السنة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم ١/ ١٥١، رقم٢٢٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، رقم ٣٨٠٨.

على كل مسلم، حيث إن هذا المبدأ يغرس في النفوس العزم والتصميم على التعليم والإيمان بضرورته، ومتى ما استقر الإيمان بوجوب التعلم، وأيقن كل مسلم أن دينه لا يستقيم إلا إذا تعلم ثم عمل بعلمه، فإن ذلك سيكون أفضل حافز للقضاء على الأمية.

وحسبنا أن أول آيات نزلت من القرآن على قلب النبي الكريم كانت إشادة بفضل القراءة والقلم والعلم، والتعليم بالقلم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝٣ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥].

وذكر الله تعالى في كتابه العزيز سورة كاملة باسم القلم، وسميت بذلك؛ لأن الله أقسم فيها بالقلم وما يسطره به الكاتبون من علم وحكمة، قال تعالى: ﴿ن ۚ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم: ١].

ويقسم الله في القرآن بالشيء؛ تنبيهًا على عظيم منفعته، ولفتًا لأنظار الخلق إليه، وأي شيء أعظم نفعًا من القلم مثبت العلم، وناقله إلى الأجيال؟

ولقد حارب الإسلام الأمية بالحث على الكتابة في عدة أمور:

منها كتابة الدين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢]. وكذلك كتابة الوصية، كما في الحديث: عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **(ما حق امرئٍ مسلم له شيءٌ يوصي فيه، يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبةٌ عنده)**[١].

والنبي الأمي الذي لم يكن يتلو من كتاب، ولا يخطه بيمينه حتى لا يرتاب المبطلون، لم يقتصر على الحث النظري والترغيب في تعلم القراءة والكتابة، بل جاهد عليه الصلاة والسلام ودبر الوسائل العملية لنشر التعليم، ومحاربة الأمية ما وجد إلى ذلك سبيلًا.

ومن هذه الوسائل انتهاز فرصة وقوع عدد من أسرى قريش المشتركين في غزوة بدر في أيدي المسلمين، وكانوا يحسنون الكتابة، ولا يملكون مالًا؛ ليفدوا أنفسهم، فاشترط النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لفدائهم أن يعلم كل منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان ناسٌ من الأسرى يوم بدرٍ لم يكن لهم فداءٌ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فداءهم أن يعلموا أولاد الأنصار الكتابة»[٢].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا باب قول النبي صلى الله عليه وسلم:(وصية الرجل مكتوبة عنده)، ٤/ ٢، رقم ٢٧٣٨، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، ٣/ ١٢٤٩، رقم ١٦٢٧.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده، ٤/ ٩٢، رقم ٢٢١٦.

فكان هذا أول مشروع ينظمه رئيس الدولة الإسلامية لإعلان الحرب على الأمية في تاريخ هذه الأمة، بل لعله في تاريخ البشرية كلها. وكان من الذين استفادوا من هذا المشروع من أبناء الأنصار: الفتى العبقري زيد بن ثابت، كاتب الوحي، وجامع القرآن بعد ذلك، والذي كلفه الرسول الكريم تعلم لغة (يهود) حتى يقرأ له رسائلهم إليه صلى الله عليه وسلم، ويكتب له رسائله إليهم.

وحين انتشر العلم في أوساط المسلمين اتجه الرسول إلى فرض التكافل بين المسلمين في هذا الجانب، كما فرضه في الجانب المادي المعيشي، فالعالم عليه أن يعلم الجاهل، والقارئ عليه أن ينور الأمي ويأخذ بيده.

فعن علقمة بن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى عن أبيه عن جده قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فأثنى على طوائف من المسلمين خيرًا ثم قال: **(ما بال أقوام لا يفقهون جيرانهم ولا يعلمونهم ولا يعظونهم ولا يأمرونهم ولا ينهونهم! وما بال أقوام لا يتعلمون من جيرانهم ولا يتفقهون ولا يتعظون! والله ليعلمن قوم جيرانهم ويفقهونهم ويعظونهم ويأمرونهم وينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتفقهون ويتعظون، أو لأعجلنهم العقوبة** في الدنيا**)** ثم نزل، فقال قوم: من ترونه عنى بهؤلاء؟ قال: الأشعريين، هم قوم فقهاء ولهم جيران جفاة من أهل المياه والأعراب، فبلغ ذلك الأشعريين، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله ذكرت قومًا بخير وذكرتنا بشر، فما بالنا؟ فقال: **(ليعلمن قوم جيرانهم وليعظنهم وليأمرنهم ولينهونهم، وليتعلمن قوم من جيرانهم ويتعظون ويتفقهون، أو لأعجلنهم العقوبة في الدنيا)** فقالوا: يا رسول الله أنفطن غيرنا؟ فأعاد قوله عليهم، فأعادوا قولهم: أنفطن غيرنا؟ فقال ذلك أيضًا، فقالوا: أمهلنا سنة، فأمهلهم سنة؛ ليفقهوهم ويعلموهم ويعظوهم، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨][1].

فالرسول عليه الصلاة والسلام لم يقر قومًا على الأمية بجانب قوم متعلمين، واعتبر بقاء الجاهلين على جهلهم وامتناع المتعلمين عن تعليمهم عصيانًا لأوامر الله وشريعته يوجبان اللعنة والعذاب.

وأعلن الحرب والعقوبة على الفريقين حتى يبادروا إلى التعلم والتعليم، وأعطاهم مهلة عام واحد للقضاء على آثار الأمية فيما

وصححه الشيخ أحمد شاكر.

(١) كنز العمال، المتقي الهندي، ٣/ ٦٨٥ رقم ٨٤٥٨. وقال ابن السكن: «إسناده صالح».

بينهم.

والحادثة قد وردت بشأن الأشعريين العلماء وجيرانهم الجهلاء، فإن الرسول صلى الله عليه وسلم أعلن ذلك المبدأ بصفة عامة، لا بخصوص الأشعريين وحدهم بدليل أن الأشعريين لما جاءوا يسألونه عن سر تخصيصهم بهذا الإنكار كما فهم الناس، لم يقل لهم أنتم المرادون بذلك، بل أعاد القول العام الذي سلف ثلاث مرات دون أن يخصصه بالأشعريين، إشعارًا بأن القضية قضية مبدأ عام غير مخصوص بفئة ولا عصر معين.

وبذلك يكون الرسول صلى الله عليه وسلم قد أعلن مكافحة الأمية قبل أن تعلنه الدول المتحضرة في عصرنا هذا بأربعة عشر قرنًا.

فلذا يجب على العلماء تعليم الأميين من هذه الأمة وذلك عن طريق:

١. تفعيل دور المساجد: من خلال قيام أئمة المساجد بتسليط الضوء على هذه المشكلة، والتوعية بأضرار الأمية من خلال خطب الجمعة مثلًا، ويمكن أن يساعد المسجد في حملة القضاء على الأمية إذا استندت قضية التعليم على أسس دينية.

٢. استنهاض الهمم نحو مقاومة الأمية في كل الأعمار صغارًا، وكبارًا، رجالًا ونساءً، وأن يطرح مشروع محو الأمية كمشروع إسلامي قومي وطني بأولوية.

٣. وضع برامج عمل للتنسيق بين الأئمة والمساجد ووزارات التربية والشركات التجارية، والخبرات العلمية والتربوية، محددة بجداول زمنية ونسبة مئوية للقضاء على مرض الأمية، يجب أن يعود للأئمة والمساجد دورهم في إصلاح أوطانهم وأمتهم، وأن يعطوا الفرصة لاستعادة الدور الحقيقي للمسجد في خدمة المجتمع، وتحقيق أمنه وتحقيق استقراره وترابط أبنائه.

٤. تربية الفرد على أن يكون مسلمًا حقًا بالمعنى الصحيح لكلمة مسلم، وهي: الاستسلام لخالق الكون والانقياد له سبحانه وتعالى، حيث لا يمكن للإنسان أن يسلم قياده لإنسان مثله غير قادر على تصريف أموره. قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢-١٦٣].

٥. التثقيف الأسري، وتوعية الوالدين بتربية الأبناء تربية إسلامية صحيحة.

٦. إقامة الدورات والبرامج المتخصصة لإعداد وتأهيل معلمي محو الأمية والرفع من درجة أدائهم؛ لأن معظم

المعلمين في مجال الأمية لم يعدوا أصلًا لهذه المهنة، وإنما هم معلموا ومديروا المدارس الابتدائية.

٧. فرض التعليم الإلزامي وتعميمه، والعمل بجد ومثابرة على محو أمية الكبار. ويجب أن تركز المرحلة الإلزامية على التربية العلمية والوظيفية بدلًا من أن تكون مجرد محو للأمية الأبجدية فقط.

٨. سن القوانين والتشريعات المناسبة من أجل القضاء على مشكلة الأمية.

٩. الدعم المالي للتنظيمات، والأجهزة، والمناهج اللازمة لمحو الأمية، وسن التشريعات الخاصة بها. وتقديم الحوافز للأميين للالتحاق بمراكز تعليم الكبار ومحو الأمية.

١٠. علاج المناهج الدراسية، فالمناهج في الغالب هي مناهج التعليم الابتدائي، والمدرسون هم معلمو التعليم الابتدائي أو العاطلون عن العمل والحاصلون على الثانوية العامة. وطرائق التدريس هي الطرائق المستخدمة في التعليم التقليدي. وتركز المناهج المدرسية على تنمية وإعداد الفرد إعدادًا عقليًا وجسميًا وإهمال الجانب الإيماني.

أثر انتشار الأمية على الفرد والمجتمع

أولًا: آثار الأمية على الفرد:

الأمية عقبة تعوق تقدم الفرد، وتعطل تطور المجتمع من مختلف النواحي، وتقف حجر عثرة أمام تحقيق أهداف الفرد والمجتمع، وقد باتت الأمية تمثل مشكلة حقيقية.

فحياة الأمي في المجتمع المعاصر شديدة الصعوبة، لذلك يمكن اعتبار الأمية أم المشكلات الاجتماعية؛ لأنها كثيرًا ما تلد مشكلات تربوية واقتصادية وثقافية وسياسية صعبة ومستعصية. وتعد الأمية قاسمًا مشتركًا بين الجهل والفقر والمرض، فالأمية هي أهم صور الجهل، ومن أهم نتائجها الفقر والمرض.

إن الأمية تسير قدمًا بقدم مع الفقر والتخلف، كما أن التفاوت بين الذين يملكون والذين لا يملكون ليس تفاوتًا ماديًا في حد ذاته ولكنه تفاوت تعليمي، فالأفراد الذين لا يملكون مهارات ومعلومات أو معرفة مهنية لا يقدرون على رفع مستوى معيشتهم [(١)].

فالقضاء على الأمية يؤدي إلى التخلص من براثن الفقر، فالشخص المتعلم المثقف يكون أكثر إنتاجية، ولذا أصبح الدور الذى

(١) انظر: تفسير الشعراوي، ١٧/ ١٠٨٠٥.

يلعبه التعليم في التنمية من الأهمية بحيث يمكن اعتبارهما مترادفين، فالتعليم جزء من الصالح العام وعامل في تطوير نوعية الحياة.

من آثار الأمية: يجد الأمي نفسه غير قادر على الحصول على وظيفة مناسبة يخدم فيها أمته، ويجلب فيها رزقًا حلالًا إلى نفسه، فيضطر بعد ذلك بإقناع شيطاني أن يلتفت إلى سبل الحرام والمتاجرة بالمحرمات أيًا كان ذلك النوع، إما أن يفتتح محلًا للفيديو يبيع فيه أفلامًا لا يعرف إلا اسم هذا الفيلم أو ذلك الفيلم، أو يفتح محلًا يبيع فيه الأغاني والأشرطة، أو يتاجر بأمور محرمة، أو يخاطر بمخدرات يمنعها الشرع ويعاقب عليها القانون.

من آثار الأمية: الفقر وتأثيره واضح على العقيدة.

قال تعالى: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

فإذا لم يكن الفقير قوي الإيمان، حيث قد يصيبه الشك والريبة في حكمة الخالق، حينما يرى الغني المترف القاعد المتبطل، ثم يرى نفسه مع جده وعمله لا يجد شيئًا؛ لذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعيذ من الفقر مع الكفر، فيقول: **(اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر)**[1].

وعن أبي هريرة كان عليه السلام يقول: **(إني أعوذ بك من الفقر، والقلة، والذلة، وأعوذ بك من أن أَظْلِم أو أُظْلَم)**[2].

فالفقر له دور سلبي، وخطر على الاعتقاد، حيث إنه يجعل صاحبه مشغولًا بضرورات الحياة لنفسه وعياله، فلا يبقى له وقت للتفكير في محو أميته[3].

وأما خطر الأمية على الأخلاق والسلوك فكبيرة جدًا إلا إذا بلغ صاحبه مبلغًا كبيرًا في الإيمان والتقوى، يقول الشيخ القرضاوي: «فإن الأمي المحروم كثيرًا ما يدفعه بؤسه وحرمانه، وخاصة إذا كان إلى جواره الطامعون الناعمون، إلى سلوك ما لا ترضاه الفضيلة والخلق الكريم، ولهذا قالوا: صوت المعدة أقوى من صوت الضمير، وشر من هذا أن يؤدي ذلك الحرمان إلى

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب الأدب، باب ما يقول إذا أصبح، ٤/ ٣٢٤، رقم ٥٠٩٠، والنسائي في سننه، كتاب الافتتاح، باب التعوذ في دبر الصلاة، ٣/ ٧٣، رقم ١٣٤٧.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١/ ١٧٢، رقم ١٢١٠.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب فضائل القرآن، باب في الاستعادة، ٢/ ٦٤٤، رقم ١٥٤٤، والنسائي في سننه، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الذلة، ٨/ ٢٦١، رقم ٥٤٦٠.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٢٧٦، رقم ١٢٨٧.

(٣) انظر: التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم الخطيب، ١٤/ ٩٤٢، في ظلال القرآن، سيد قطب، ١/ ٨٥.

التشكيك في القيم الأخلاقية نفسها، وعدالة مقاييسها»[1].

وهناك أحاديث كثيرة تدل على العلاقة بين الأمية والدين والمغرم وبين سوء الأخلاق، فعن عائشة رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو في الصلاة ويقول: (**اللهم إني أعوذ بك من المأثم والمغرم**) فقال له قائل: ما أكثر ما تستعيذ -يا رسول الله- من المغرم؟ قال: (**إن الرجل إذا غرم حدث، فكذب، ووعد فأخلف**)[2].

قال الحافظ ابن حجر: «يستفاد من هذا الحديث: سد الذرائع؛ لأنه صلى الله عليه وسلم استعاذ من الدين؛ لأنه في الغالب ذريعة إلى الكذب في الحديث، والخلف في الوعد، مع صاحب الدين عليه من المقال»[3].

فالأمي يجد صعوبة في التعامل مع الآخرين وعدم القدرة على اتباع التعليمات الخاصة باستخدام الآلات الحديثة، ولا يدرك الواعي بأهمية الالتزام بقواعد الأمن الصناعي، وكذلك فقدان وسيلة الاتصال السهلة، لهذا كان العمال الأميون أكثر العناصر في الخروج على نظام المؤسسات وعدم احترام مواعيد العمل والتمارض.

ثانيًا: آثار الأمية على المجتمع:

إن الأمية مظهر من مظاهر تخلف أي مجتمع، بل وعائق يقف أمام تطوره السياسي والاجتماعي والاقتصادي، ويحول دون مواكبته لحضارة العصر الذي يعيشه، ولم تعد الأمية مشكلة فردية تخص المواطن الأمي بل أصبحت ظاهرة اجتماعية تخص الفرد والمجتمع على السواء؛ لأن آثارها لا تقتصر على الأمي فقط، بل تتعداه إلى أبنائه وأسرته ومجتمعه[4].

والتعليم حق أقرته الشريعة الإسلامية، وكان الدعامة الأساسية لازدهار الحضارة العربية الإسلامية، لذلك فإن حرمان الفرد من حقه في التعليم يعد أحد مظاهر القهر والتسلط في التعليم؛ لأنه بالتعليم يتشكل عقل الإنسان وفكره ووعيه السياسي والاجتماعي.

فما بليت أمة من الأمم، وما رمي مجتمع من المجتمعات بمثل الأمية وعدم المعرفة، وما شرفت أمة من الأمم، وما سعدت المجتمعات إلا بالعلم والمعرفة

---

(١) مشكلة الفقر، القرضاوي، ص ١٣.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب الدعاء قبل السلام، ١/ ١٦٦، رقم ٨٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب ما يستعاذ منه في الصلاة ١/ ٤١٢، رقم ٥٨٩.

(٣) فتح الباري، ٥/ ٦١.

(٤) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٣/ ١٠١، القرآن ونقض مطاعن الرهبان، صلاح الخالدي ص ٧٣٧.

المنبثقة عن العلم بوحدانية الله وحده وبهدي نبيه صلى الله عليه وسلم، وعلامة إرادة الله لعبده الخير الفقه في الدين، فعن معاوية بن أبي سفيان، قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين)**[1]. ومن سمو درجات العلم وشرف المنتسبين إليه، والساعين في تحصيله، ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا إلى الجنة، وأن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع، وأن فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب)**[2].

فهل بعد هذه الفضائل يستوي العلماء والأميون؟ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩].

كلا. بل رفع الله منازل أهل العلم وأكرمهم بقوله: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويثبت الجهل)**[3].

قال الإمام الشافعي رحمه الله[4]:

ومن لم يذق ذل التعلم ساعة
تجرع ذل الجهل طول حياته
ومن فاته التعليم وقت شبابه
فكبر عليه أربعًا لوفاته
وذات الفتى والله بالعلم والتقى
إذا لم يكونا لا اعتبار لذاته

فمن نتاج الأمية الفهم الخطأ للإسلام بالرغم من علو الشهادات العلمية، نجد كثيرًا من الأميين يريدون طمس الشخصية الإسلامية، والاكتفاء بإبراز هوية مسلم لكن بشخصية غير إسلامية؛ لأن البديل هو التبعية للآخرين سواء بالفكر أو الاعتقاد، فتجد من يدعي أنه مسلم بالهوية فيما هو علماني أو ماركسي. فالعلمانية عملت على غرس فكرة فصل الدين عن منهج الحياة، وقصر الدين على العبادة دون السلوك، وبالتالي لم يعد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، بابٌ: من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، ١/ ٢٥، رقم ٧١، مسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب النهي عن المسألة، ٢/ ٧١٩، رقم ١٠٣٧.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب العلم، باب الحث على طلب العلم، ٥/ ٤٨٥، رقم ٣٦٤١، وابن ماجه في سننه، أبواب السنة، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، ١/ ٨١، رقم ٢٢٣.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ٢/ ١٠٧٩، رقم ٦٢٩٧.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب يقل الرجال ويكثر النساء، ٧/ ٣٧، رقم ٥٢٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان.

(٤) ديوان الإمام الشافعي ص١٢.

يهم الشاب الاطلاع على أمور دينه ما دامت محصورة في الصلاة والصيام وهذه يعرفها، وشيوع مفاهيم خطأ مثل: الدين تزمت، الدين عبادة فقط، الدين للمشايخ فقط.

وهذا الفهم الخطأ سببه الانبهار بالغرب بسبب تقدمهم، ففي اللحظات التي تحررت فيها أوربا من سلطان الكنيسة التي قطعت أنفاس الناس باسم الدين، فأراد الأوربيون التخلص منها بشتى الصور حتى إنهم رحبوا بنظرية دارون؛ للتخلص من الروحانية التي تسعى إليها الكنيسة بالحديد والنار، وبعد هذا التحرر تقدمت علميًا وتكنولوجيًا، وكانت المجتمعات العربية المسلمة آنذاك في وهن وضعف، فلما انفتحوا على الغرب بهرتهم حضارتهم، وأرادوا التقدم مثلهم بخلع الدين، وتركه وراء ظهورهم متناسين أن الأفكار العلمانية لا تنقل من مجتمع لتطبق في آخر؛ لاختلاف ظروف نشأتها.

إن تدني المستوى الثقافي لكثير من الآباء والأمهات، جعلهم أقل اندفاعًا لتعليم أبنائهم وبناتهم، ما زاد من نطاق الأمية وانتشارها؛ لأن قلة وعي أولياء الأمور بأهمية التعليم، ينعكس غالبًا سلبًا على أبنائهم وبناتهم، ويقلل من حصولهم على فرص الذهاب إلى المدرسة.

إن المجتمع الأمي يفرز عادة أميين، كما يفرز المجتمع المتعلم متعلمين، وإن أبناء المتعلمات والمتعلمين أكثر تفوقًا في الدراسة، وأقل رسوبًا وتسربًا في تعليمهم من أبناء الأميات والأميين.

لقد ساهمت الأمية في ضعف الاستقرار السياسي في كثير من الدول العربية جعل أنظمتها التربوية كثيرة التغير والتبديل، ما أدى إلى عدم ثبات التشريعات، والقرارات، والأنظمة، والسياسات التربوية، كما أن التغيير المستمر لمعظم وزراء التربية العرب، وتعمد بعضهم هدم وإلغاء ما بناه أسلافهم جعل المشكلة أكثر صعوبة، وأشد تفاقمًا.

ومن آثار الأمية على المجتمع: أنها تؤدي إلى إهمال أبسط القواعد الصحية، الأمر الذي يسهل انتقال أمراض خطيرة مثل الملاريا والكوليرا ونقص المناعة المكتسبة (الإيدز) وكثرة الأمراض، حيث إن معظم الأمراض تعود أسبابها إلى سوء التغذية، ويعود تأثيرها على الإنسان بالموت، أو الإنهاك وإلى عدم وجود الدواء المناسب الصالح، ومع الأسف الشديد فإن العالم النامي -وعلى رأسه عالمنا الإسلامي- يفتقد الأمرين بنسبة كبيرة[1].

ومن آثار الأمية: التلازم بينها وبين الفقر، فحيثما كانت الأمية وجد الفقر -وخاصة المدقع-، فيؤثر تأثيرًا مباشرًا، ويؤدي إلى

(١) انظر: التوجيه والإرشاد النفسي، حامد زهران، ص٤٦٨.

تحقيق التخلف للمجتمع، فالفقير الجائع غير قادر على المساهمة الجادة في تحقيق التنمية[1].

مما يؤدي ذلك إلى التفكك الأسري وزيادة الطلاق، أو عدم الزواج أصلًا، حتى إن الإسلام أمر من كان فقيرًا بالعفاف، فقال تعالى: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [: ٣٣].

ولخطورة الفقر على الأسرة، فالزوج العائل إذا لم يجد مالًا ينفق على عياله الذين يتضورون جوعًا، أو يموتون بسبب عدم الدواء والغذاء يفكر في أية وسيلة؛ لتحصيل المال، ولذلك يستغل تجار المخدرات هؤلاء الفقراء، ويغرونهم بالمال حتى يوقعوهم في شباك التهريب والترويج لسموم الموت، بل إن الله تعالى أشار إلى ما كان يفعله الجاهليون من قتل أولادهم بسبب الفقر فعلًا، أو الخوف من وقوعه فقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الاسراء: ٣١].

وقد أجاز الفقهاء التطليق قضاءً بسبب الإعسار وعدم القدرة على الإنفاق[2].

ومن آثار الأمية: زيادة الجرائم بين الشباب، والنساء، والأطفال، فلا شك أن للفقر أثره الكبير في زيادة الجرائم التي تقع. فالأحوال الاقتصادية السيئة تحتل المرتبة الأولى في مسئولية الجنوح نحو الإجرام، وأن هناك ارتباطًا وثيقًا بين الجريمة والدورات الاقتصادية، فالبيئة التي فيها الفقر والبطالة هي البيئة التي تكثر فيها جرائم المال والاغتصاب والقتل ونحوها.

وأوضحت بعض الدراسات: أن أكثر الفئات تعاطيًا للمخدرات هم الفقراء الأميون، وذلك لشيوع الجهل فيما بينهم والهروب من المشاكل وغير ذلك[3].

ومن أكثر الجرائم انتشارًا البغاء والدعارة، فمناطق الأميين هي أكثر المناطق التي يكثر فيها البغاء، وقد أجريت مقابلات مع النساء الداعرات في تركيا، فتبين أن نسبة كبيرة منهن دفعتهن إلى البغاء الأمية والجهل، ولذلك فرق بعض الباحثين بين البغاء في المجتمعات الأمية المرتبطة بالحاجة، والبغاء في المجتمعات المتقدمة الذي يرتبط بالتحلل الجنسي والترفيه[4].

(١) انظر: التلازم بين التخلف والفقر والجوع، إسماعيل حمادي، ص ٢٢٩.

(٢) انظر: الجريمة والمجتمع، سامية الساعاتي، ص ١١٢.

(٣) انظر: علم الاجتماع الجنائي، السيد علي الشتا، ص ١٦٥.

(٤) انظر: تأملات إسلامية في قضايا الإنسان

فعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إن من أشراط الساعة... ويظهر الزنا)**[1].

وعن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(إذا استحلت أمتي ستًا فعليهم الدمار... واكتفى الرجال بالرجال، والنساء بالنساء)**[2].

ومن آثار الأمية: الاستبداد السياسي، والتبعية السياسية في الداخل من خلال أن القوة تكون لأصحاب الأموال والنفوذ، وشراء الذمم في الداخل، والتبعية السياسية للخارج، أي: للدول الاستعمارية المانحة للقروض والمساعدات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(تأتي على الناس سنواتٌ خداعاتٌ، يصدق فيها الكاذب، ويكذب فيها الصادق، ويؤتمن فيها الخائن، ويخون فيها الأمين، وينطق فيهم الرويبضة)**. قيل: يا رسول الله وما الرويبضة؟ قال: **(الرجل التافه يتكلم في أمر العامة)**[3].

والواقع الفعلي للشعوب الأمية أنها تعاني من الاستبداد والطغيان، وأن الأمية لها دور في صنع المستبد والدكتاتور الذي يعتمد على الشعارات البراقة وعلى دعم الطبقات الجاهلة، وإبعاد الطبقات المتعلمة والسياسية عن مراكز القرار، والمشاركة السياسية، ومؤسسات المجتمع المدني، وبالمقابل إعطاء الدور الأكبر للعسكر، والإنفاق العسكري[4]، لذلك يظهر لنا بوضوح أن هناك خطة؛ لتطبيق سياسة التجهيل والتجويع والإفقار في عالمنا الإسلامي؛ لإعداده للاحتلال المباشر من جديد.

إن الأمية أحد أسباب الفوضى والاضطراب، وأن معظم المشاكل السياسية تعود إلى الأمية، وأن تعليم الشعب أحد أهم الأسباب لاستتباب الأمن؛ لأن الأمن من مصلحته ومصلحه ماله فيحافظ عليه.

إن الأمية تساعد على وجود الحكومات الظالمة، وعدم وجود الحكومة العادلة التي تعمل لمصالح الشعوب، وتحب

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب يقل الرجال ويكثر النساء، ٧/ ٣٧، رقم ٥٢٣١، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن في آخر الزمان، ٤/ ٢٠٥٦، رقم ٢٦٧١.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط، ١/ ٥٩، رقم ١٠٨٦.
وقواه الألباني في تحريم آلات الطرب ص٦٨.

(٣) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الفتن، باب شدة الزمان، ٢/ ١٣٣٩، رقم ٤٠٣٦.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٨١، رقم ٣٦٤٧.

(٤) انظر: علم الاجتماع الجنائي، السيد على الشتا، ص ١٦٥، تأملات إسلامية، رشدي فكار، ص ١٤٨.
والمجتمع، رشدي فكار، ص ١٤٨.

شعبها، وهم يحبونها، بحيث تعمل لأجل الشعب، وليس لأجل نفسها، ومصالحها فقط، فتبحث بإخلاص وجد ومثابرة وتفان للنهوض بشعبها، ولتحقيق التنمية الشاملة والتعمير، والتقدم والحضارة، وتجمع بين القديم الصالح، والجديد النافع، وتأخذ بكل الأساليب الحديثة التي تعود بالنفع على شعبها، وتستعين في كل ذلك بأهل الاخلاص والاختصاص والخبرة والقوة والأمانة وتستشيرهم وتلتزم بآرائهم. ولعدم وجود هذه المواصفات في معظم الحكومات في العالم الثالث يوجد التأخر بدل التقدم، والهدم بدل البنيان، والتخلف بدل التعلم والتحضر.

والعلم بالدين يمنع الاضطرابات والحروب الداخلية، حيث أوجب على المسلمين أن تكون وسائل التعبير عن الآراء داخل المجتمع المسلم محصورة في الوسائل السلمية، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩].

أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله، وذلك بامتثال أمرهما، وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم: الولاة على الناس، من الأمراء والحكام والمفتين، فإنه لا يستقيم للناس أمر دينهم ودنياهم إلا بطاعتهم والانقياد لهم، طاعة لله ورغبة فيما عنده، ولكن بشرط ألا يأمروا بمعصية الله، فإن أمروا بذلك فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق. ولعل هذا هو السر في حذف الفعل عند الأمر بطاعتهم وذكره مع طاعة الرسول، فإن الرسول لا يأمر إلا بطاعة الله، ومن يطعه فقد أطاع الله، وأما أولو الأمر فشرط الأمر بطاعتهم أن لا يكون معصية.

فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال: ﴿إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ﴾ فدل ذلك على أن من لم يرد إليهما مسائل النزاع فليس بمؤمن حقيقة، بل مؤمن بالطاغوت، كما ذكر في الآية بعدها ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي: الرد إلى الله ورسوله ﴿خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ فإن حكم الله ورسوله أحسن الأحكام وأعدلها وأصلحها للناس في أمر دينهم ودنياهم وعاقبتهم[1].

موضوعات ذات صلة:

الجاهلية، العلم، القراءة، الكتابة، محمد صلى الله عليه وسلم

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ١٨٤.



عناصر الموضوع

مفهوم الإنجيل	٢٤٠
الإنجيل في الاستعمال القرآني	٢٤١
الألفاظ ذات الصلة	٢٤٢
اقتران الإنجيل بالتوراة في القرآن	٢٤٥
الإيمان بالكتب السماوية	٢٤٥
إيتاء عيسى عليه السلام الإنجيل	٢٥٠
صفات الإنجيل في القرآن	٢٥٢
الأحكام التشريعية في الإنجيل	٢٥٥
أتباع عيسى عليه السلام في القرآن	٢٦٠
تحريف الإنجيل	٢٧٣
صفات الرسول وأتباعه في الإنجيل	٢٧٩

مفهوم الإنجيل

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن منظور: «الإنجيل: كتاب عيسى، على نبينا وعليه -الصلاة والسلام-، يؤنث ويذكر، فمن أنث أراد الصحيفة، ومن ذكر أراد الكتاب»[1]. ويجمع على أناجيل.

وقد اختلف العلماء في أصله اللغوي وهل هو عربي أو معرب، والراجح هو أن كلمة الإنجيل معربة، وإن اختلف في أصلها هل هي سريانية أو عبرية أو رومية أو يونانية، وهو الأظهر كما ذهب الطاهر بن عاشور رحمه الله وهي تعني: البشارة، أو الخبر الطيب، أو الخبر السار. وهذه البشارة عند المسلمين هي عبارة عن بشارة المسيح بنبي آخر الزمان محمد صلى الله عليه وسلم.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

كلمة إنجيل إذا أطلقت فلها معنيان:

الأول: الكتاب المنزل من عند الله تعالى على المسيح عليه السلام، وهو مفقود، ولم يبق منه إلا نتف قليلة مما بين أيدي النصارى الآن، قال الطاهر بن عاشور في تعريفه بهذا المعنى: «اسمٌ للوحي الذي أوحي به إلى عيسى عليه السلام فجمعه أصحابه»[2].

الثاني: الإنجيل الذي تعظمه النصارى الآن، وهو عبارة عن «أربعة كتبٍ تعرف بالأناجيل الأربعة، وعلى ما يسمونه العهد الجديد، وهو هذه الكتب الأربعة مع كتاب أعمال الرسل (أي الحواريين) ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب ورؤيا يوحنا، أي: على المجموع، فلا يطلق على شيءٍ مما عدا الكتب الأربعة بالانفراد، والأناجيل الأربعة عبارةٌ عن كتبٍ وجيزةٍ في سيرة المسيح عليه السلام وشيءٍ من تاريخه وتعليمه؛ ولهذا سميت أناجيل وليس لهذه الكتب سندٌ متصلٌ عند أهلها، وهم مختلفون في تاريخ كتابتها على أقوالٍ كثيرة»[3].

(١) لسان العرب، ١١/ ٦٤٨.
(٢) التحرير والتنوير، ٣/ ١٤٩.
(٣) المصدر السابق.

الإنجيل في الاستعمال القرآني

ورد (الإنجيل) في القرآن الكريم (١٢) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الاسم	١٢	﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة:٤٧]

وجاء الإنجيل في القرآن بمعنى: كتاب عيسى عليه السلام، يذكر ويؤنث، فمن أنث أراد الصحيفة، ومن ذكر أراد الكتاب[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٨٨.
(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص ٣٠٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ القرآن:

القرآن لغة:

القاف والراء والياء أصل صحيح يدل على الشيء المجموع، وقرأت الشيء قرآنًا: جمعته، وضممت بعضه على بعض، وقرأت الكتاب قراءةً وقرآنًا، ومنه سمي القرآن؛ لأنه يجمع السور فيضمها[(١)].

القرآن اصطلاحا:

كلام الله تعالى، المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، بواسطة سيدنا جبريل عليه السلام، المتعبدٌ بتلاوته، المنقولُ إلينا بالتواتر، المقروءٌ في المصاحف، المبدوء بسورة الفاتحة والمنتهي بسورة الناس»[(٢)].

الصلة بين الإنجيل والقرآن:

كلاهما كتابان من الكتب السماوية، إلا أن القرآن أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم، والإنجيل أنزل على عيسى عليه السلام .

٢ التوراة:

التوراة لغة:

قال أبو حيان: «التوراة: اسمٌ عبرانيٌّ، وقد تكلف النحاة في اشتقاقها، وفي وزنها، وذلك بعد تقرير النحاة أن الأسماء الأعجمية لا يدخلها اشتقاقٌ، وأنها لا توزن، يعنون اشتقاقًا عربيًا»[(٣)].

وقال الطاهر بن عاشور: «هو اسمٌ عبرانيٌّ أصله (طورا) بمعنى الهدى، والظاهر أنه اسمٌ للألواح التي فيها الكلمات العشر التي نزلت على موسى عليه السلام في جبل الطور؛ لأنها أصل الشريعة التي جاءت في كتب موسى، فأطلق ذلك الاسم على جميع كتب موسى، واليهود يقولون (سفر طورا) فلما دخل هذا الاسم إلى العربية أدخلوا عليه لام التعريف التي تدخل على الأوصاف والنكرات لتصير أعلامًا بالغلبة: مثل العقبة»[(٤)].

(١) انظر: الصحاح، الجوهري، ١/ ٦٤، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٧٥٠.
(٢) انظر: التعليقات المختصرة على متن العقيدة الطحاوية، صالح الفوزان، ص٦٦.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان، ٣/ ٥.
(٤) التحرير والتنوير، ٣/ ١٤٨.

التوراة اصطلاحا:

«التوراة اسمٌ للكتاب المنزل على موسى عليه السلام»[١].

ويراد بها في اصطلاح اليهود: خمسة أسفار يعتقدون أن موسى عليه السلام كتبها بيده ويسمونها (بنتاتوك) نسبة إلى (بنتا)، وهي كلمة يونانية تعني خمسة، أي: الأسفار الخمس، وهذه الأسفار هي: سفر التكوين، سفر الخروج، سفر اللاويين، سفر العدد، سفر التثنية، وقد يطلق النصارى اسم التوراة على جميع أسفار العهد القديم.

أما في اصطلاح المسلمين فهي: الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام نورًا وهدى لبني إسرائيل[٢].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «كلمةٌ عبرانيةٌ معناها المراد: الشريعة أو الناموس، وهي تطلق عند أهل الكتاب على خمسة أسفارٍ يقولون إن موسى كتبها، وهي سفر التكوين وفيه الكلام عن بدء الخليقة وأخبار بعض الأنبياء، وسفر الخروج، وسفر اللاويين أو الأخبار، وسفر العدد، وسفر تثنية الاشتراع، ويقال التثنية فقط. ويطلق النصارى لفظ التوراة على جميع الكتب التي يسمونها العهد العتيق، وهي كتب الأنبياء وتاريخ قضاة بني إسرائيل وملوكهم قبل المسيح ومنها ما لا يعرفون كاتبه، وقد يطلقونه عليها وعلى العهد الجديد معًا، وهو المعبر عنه بالإنجيل وسيأتي تفسيره. أما التوراة في عرف القرآن فهي ما أنزله الله تعالى من الوحي على موسى عليه الصلاة والسلام؛ ليبلغه قومه لعلهم يهتدون به»[٣].

الصلة بين الإنجيل والتوراة:

كلاهما كتابان من الكتب السماوية، إلا أن الإنجيل أنزل على عيسى عليه السلام، والتوراة أنزل على موسى عليه السلام.

٣ الزبور:

الزبور لغةً:

قال ابن فارس: (زبر) «الزاي والباء والراء أصلان: أحدهما يدل على إحكام الشيء وتوثيقه، والآخر يدل على قراءة وكتابة وما أشبه ذلك، زبرت الكتاب، إذا كتبته، ومنه

(١) المصدر السابق.
(٢) دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، سعود الخلف، ص٧٤.
(٣) تفسير المنار، ٣/ ١٢٩.

الزبور»[1]. وقال الكفوي: «كل كتاب غليظ الكتابة يقال له زبور»[2].

الزبور اصطلاحًا:

هو كلام الله المنزل وحيًا على رسوله داود عليه السلام ليبلغه لقومه.

الصلة بين الزبور والإنجيل:

كلاهما كتابان من الكتب السماوية، إلا أن الزبور نزل على داود عليه السلام، والإنجيل نزل على عيسى عليه السلام.

٤ الصحف:

الصحف لغةً:

قال ابن فارس: (صحف)» الصاد والحاء والفاء أصل صحيح يدل على انبساط في شيء وسعة. يقال: إن الصحيف: وجه الأرض، ومن الباب: الصحيفة، وهي التي يكتب فيها، والجمع: صحائف، والصحف أيضًا، كأنه جمع صحيف»[3].

الصحف اصطلاحًا:

وهي كلام الله الذي أنزله على نبيه إبراهيم، وتسمى صحف إبراهيم، وكلام الله المنزل على موسى وهو التوراة، وتسمى صحف موسى، وهو مذهب أكثر المفسرين، والله أعلم.

عن ابن عباس رضي الله عنهما، (قال: لما نزلت سبح اسم ربك الأعلى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلها في صحف إبراهيم وموسى)[4].

الصلة بين الإنجيل والصحف:

مما سبق يتضح أن الإنجيل وصحف موسى كلاهما كتابان من الكتب السماوية، إلا أن الإنجيل أنزل على عيسى عليه السلام وصحف موسى أنزل على موسى عليه السلام.

أما صحف إبراهيم؛ فهو من الكتب السماوية كذلك، إلا أنه أنزل على إبراهيم عليه السلام قال ابن عاشور: «وأما صحف إبراهيم فكان المأثور منها أشياء قليلة، وقدرت بعشر صحف، أي مقدار عشر ورقات بالخط القديم، تسع الورقة قرابة أربع آيات من آي القرآن بحيث يكون مجموع صحف إبراهيم مقدار أربعين آية»[5].

---

(١) مقاييس اللغة ٣/ ٤٥.

(٢) الكليات، ص٤٨٦.

(٣) مقاييس اللغة ٣/ ٣٣٤.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك على الصحيحين، رقم ٢٩٣٠، ٢/ ٢٥٨.

(٥) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٣٠.



اقتران الإنجيل بالتوراة في القرآن

ورد ذكر الإنجيل في القرآن مقترنًا بالتوراة في ثمانية مواضع، وذلك لعدة أسباب:

أولًا: أن كلا الكتابين أنزل في بني إسرائيل، فالتوراة أنزلت على موسى والإنجيل أنزل على عيسى، وكلاهما مرسل في بني إسرائيل وإليهما خاصة.

ثانيًا: أن الإنجيل جاء مصدقًا لما بين يديه من التوراة ومكملًا بعض ما فيها من أحكام، كما جاء في القرآن الكريم على لسان المسيح عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]

قال الشيخ رشيد رضا: «أي: أنه لم يأت ناسخًا للتوراة بل مصدقًا لها عاملًا بها، ولكنه نسخ بعض أحكامها كما قال: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ فقد كان حرم على بني إسرائيل بعض الطيبات بظلمهم وكثرة سؤالهم فأحلها عيسى»[(١)].

(١) تفسير المنار، ٣/ ٢٥٧.

الإيمان بالكتب السماوية

يتميز الإسلام بأنه يؤمن بجميع الرسالات السماوية السابقة عليه ويأمر به أتباعه، فالمسلم يجب عليه أن يؤمن بكل من أرسلهم الله من الأنبياء والرسل، وبكل ما جاءوا به من البينات والهدى، ولذلك فقد أوجب الله تعالى في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم الإيمان بالكتب السماوية.

أولًا: وجوب الإيمان بالكتب المنزلة والكفر بإحداها كفر بها:

من المقرر في عقيدة الإسلام الإيمان بكل الكتب التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ورسله سواء في ذلك ما عرفناه منها كالقرآن والتوراة والإنجيل والزبور والصحف، أو ما لم نعرفه منها، بل إن الإيمان بهذه الكتب السماوية ركن من أركان الإيمان الستة، المنصوص عليها في قوله تعالى في محكم التنزيل: ﴿ءَامَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

وقوله سبحانه: ﴿لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَٰٓئِكَةِ وَالْكِتَٰبِ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وقوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ ۚ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١٣٦].

وكذلك ما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل عليه السلام، حينما سأله قائلا: فأخبرني عن الإيمان، فقال صلى الله عليه وسلم: (**أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره**)[١].

قال ابن كثير: «فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحدٌ أحدٌ، فردٌ صمدٌ، لا إله غيره، ولا رب سواه، ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل، والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء، لا يفرقون بين أحدٍ منهم، فيؤمنون ببعضٍ ويكفرون ببعضٍ، بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبل الخير، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعضٍ بإذن الله، حتى نسخ الجميع بشرع محمدٍ صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي تقوم الساعة على شريعته، ولا تزال طائفةٌ من أمته على الحق ظاهرين»[٢].

وقال السعدي: «فهذا كله من الإيمان الواجب الذي لا يكون العبد مؤمنًا إلا به، إجمالًا فيما لم يصل إليه تفصيله، وتفصيلًا فيما علم من ذلك بالتفصيل، فمن آمن هذا الإيمان المأمور به، فقد اهتدى وأنجح. ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ وأي ضلال أبعد من ضلال من ترك طريق الهدى المستقيم، وسلك الطريق الموصلة له إلى العذاب الأليم؟

واعلم أن الكفر بشيء من هذه المذكورات كالكفر بجميعها؛ لتلازمها وامتناع وجود الإيمان ببعضها دون بعض»[٣].

«ومعنى الإيمان بالكتب: التصديق الجازم بأن كلها منزلٌ من عند الله عز وجل على رسله إلى عباده بالحق المبين والهدى المستبين، وأنها كلام الله عز وجل لا كلام غيره، وأن الله تعالى تكلم بها حقيقةً كما شاء وعلى الوجه الذي أراد، فمنها المسموع منه من وراء حجابٍ بدون واسطةٍ، ومنها ما يسمعه الرسول الملكي ويأمره بتبليغه منه إلى الرسول البشري، ومنها ما خطه بيده عز وجل، والإيمان بكل ما فيها من الشرائع، وأنه كان واجبًا على الأمم الذين نزلت إليهم الصحف الأولى الانقياد لها والحكم بما

(١) أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة الإيمان، والإسلام، والقدر وعلامة الساعة، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، رقم ٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ١/ ٧٣٦.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، ص٢٠٩.

فيها، وإن كل من كذب بشيءٍ منها أو أبى عن الانقياد لها مع تعلق خطابه به، يكفر بذلك.

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسۡتَكۡبَرُواْ عَنۡهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمۡ أَبۡوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ وَكَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٠][1].

«فتقرر بهذا وجوب الإيمان بالكتب والتصديق بها جميعها، واعتقاد أنها كلها من الله تعالى أنزلها على رسله بالحق والهدى و والضياء، وأن من كذب بها أو جحد شيئًا منها فهو كافر بالله خارج من الدين»[2].

ثانيًا: الإيمان بأن الإنجيل كتاب منزل من عند الله سبحانه و تعالى:

ومن جملة هذه الكتب التي يجب على المسلم أن يؤمن بها وأنها منزلة من عند الله: الإنجيل الذي أنزله الله على نبيه ورسوله عيسى بن مريم، لهداية بني إسرائيل وإعادتهم إلى شريعة التوراة التي خالفوها وضل كثير منهم عنها، وليبشر بنبوة ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم من بعده.

ومن ثم يجب الإيمان بالإنجيل ككتاب سماوي أنزل من عند الله مصدقًا لما بين يديه من التوراة، وأن فيه هداية ونورًا وموعظة لمن نزل إليهم.

قال تعالى: ﴿وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٤٦].

فمن أنكر الإنجيل أو جحده، فقد كفر[3]؛ لأنه جحد ركنًا من أركان الإيمان وهو الإيمان بالكتب، وقد سبق بيان أن من جحد شيئًا منها كان كمن جحدها جميعًا، ولإنكاره كذلك معلومًا من الدين بالضرورة.

ثالثًا: تصديق القرآن للإنجيل:

إن الكتب السماوية كلها مصدرها واحد هو الله عز وجل، فكلها كلام الله تعالى، ووحيه الذي أوحاه إلى أنبيائه ورسله؛ ليبلغوه إلى أقوامهم، فيكون لهم به الهداية والسعادة في الدنيا والآخرة، والفوز برضا الرحمن والنجاة من العذاب والنيران.

فكلامه سبحانه يصدق بعضه بعضًا، فلا يمكن أن يقع في هذه الكتب تناقض أو تضارب بينها وبين بعضها، لكن قد يقع فيها الاختلاف فيما يتعلق بالشرائع والأحكام، بحسب زمان كل أمة نزل إليهم الكتاب، وبحسب ما يناسبهم، أما ما يتعلق بالعقيدة والأخلاق فلا يقع فيه اختلاف بين هذه

(١) معارج القبول، الحكمي، ٢/ ٦٧٢.
(٢) أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، نخبة من العلماء، ص١٢٩.
(٣) انظر: معارج القبول، الحكمي، ٢/ ٦٧٢.

الكتب فكلها تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

ومن ثم فالقرآن بما أنه كتاب الله وكلامه وهو خاتم الكتب السماوية التي أنزلها الله على أنبيائه ورسله ومن بينها الإنجيل فهو مصدق لها، ومهيمن عليها، وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة في أكثر من موضع، قال تعالى مخاطبًا نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم: ﴿نَزَّلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ﴾ [آل عمران: ٣].

فالذي أنزل القرآن وما قبله من الكتب كالإنجيل هو الله تعالى، وكلام الله تعالى يصدق بعضه بعضًا، ولا يقع فيه تناقض أو اختلاف.

قال أبو جعفر بن جرير الطبري: «يقول جل ثناؤه: يا محمد، إن ربك ورب عيسى ورب كل شيء، هو الرب الذي أنزل عليك الكتاب، يعني بـ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، القرآن ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ يعني: بالصدق فيما اختلف فيه أهل التوراة والإنجيل، وفيما خالفك فيه محاجوك من نصارى أهل نجران وسائر أهل الشرك غيرهم ﴿مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ﴾، يعني بذلك القرآن، أنه مصدق لما كان قبله من كتب الله التي أنزلها على أنبيائه ورسله، ومحقق ما جاءت به رسل الله من عنده؛ لأن منزل جميع ذلك واحد، فلا يكون فيه اختلاف، ولو كان من عند غيره كان فيه اختلاف كثير»[1].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ [المائدة: ٤٨].

فقد أشارت الآية إلى حالتي القرآن بالنسبة لما قبله من الكتب، فهو مؤيدٌ لبعض ما في الشرائع مقررٌ له من كل حكمٍ كانت مصلحته كليةً لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف مصدقٌ، أي محققٌ ومقررٌ؛ لأنه شهد لها ووافقها، وطابقت أخباره أخبارها، وشرائعه الكبار شرائعها، وأخبرت به، فصار وجوده ﴿مُصَدِّقٗا﴾ لخبرها، ﴿وَمُهَيۡمِنًا عَلَيۡهِۖ﴾ أي: مشتملًا على ما اشتملت عليه الكتب السابقة، وزيادة في المطالب الإلهية والأخلاق النفسية. فهو الكتاب الذي تتبع كل حق جاءت به الكتب فأمر به، وحث عليه، وأكثر من الطرق الموصلة إليه، وهو الكتاب الذي فيه نبأ السابقين واللاحقين، وهو الكتاب الذي فيه الحكم والحكمة، والأحكام التي عرضت عليه من الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند

(١) جامع البيان، الطبري، ٦/ ١٦٠.

الله، لم يخالفه، وهو أيضًا مبطلٌ لبعض ما في الشرائع السالفة وناسخٌ لأحكام كثيرةٍ من كل ما كانت مصالحه جزئيةً مؤقتةً مراعًى فيها أحوال أقوامٍ خاصةٍ»[1].

رابعًا: القرآن مكذب للإنجيل المحرف:

تعرض الإنجيل في الأزمنة التالية لرفع المسيح عليه السلام للتحريف والتغيير والتبديل، حتى لقد صار الإنجيل الحقيقي المنزل من عند الله مفقودًا، اللهم إلا من عبارات قليلة مبثوثة في ثنايا تلك الأسفار التي بين أيديهم الآن والتي يسمونها الإنجيل وهي من تأليفهم، فحاشا لله أن يكون القرآن الكريم مصدقًا لما في الإنجيل المحرف من الكذب والتدليس والتزوير والتزييف، بل هو مبين لذلك كله فاضح له، فالقرآن نزل ليقيم الملة العوجاء، وقد جاء في معنى قوله تعالى ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ ما قاله الشيخ محمد رشيد رضا: «أما قوله: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ أي: على جنس الكتاب الإلهي، فمعناه: أنه رقيبٌ عليها وشهيدٌ، بما بينه من حقيقة حالها في أصل إنزالها، وما كان من شأن من خوطبوا بها، من نسيان حظٍ عظيمٍ منها وإضاعته، وتحريف كثيرٍ مما بقي منها وتأويله، والإعراض عن الحكم والعمل بها، فهو يحكم عليها ؛ لأنه جاء بعدها، روى ابن جريرٍ عن ابن عباسٍ أنه قال: ﴿وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ يعني: أمينًا عليه، يحكم على ما كان قبله من الكتب، وفي روايةٍ عنه عند الفريابي وسعيد بن منصورٍ والبيهقي ورواة التفسير المأثور قال: مؤتمنًا عليه، وفي روايةٍ أخرى قال: شهيدًا على كل كتابٍ قبله»[2].

فالحاصل أن القرآن جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، وأن الله تعالى أنزل كتبًا على الأمم السابقة ومنها التوراة والإنجيل، وأمر بالإيمان بها، ولكنه في الوقت نفسه نبه على ما طالها من تحريف وتغيير وتبديل من الأمم التي أنزلت عليهم؛ ليصوب لهم أخطاءهم ويعيدهم إلى صوابهم، فإن المراد بتصديقها هو تصديق الأصل النازل من عند الله إجمالًا وما ثبت منها أنه حق، دون ما بين بطلانه، أو هو تصديق لمجموعها ولا يلزم منه تصديق جميعها.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي مبينًا صدق ما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء، أي كونها وحيًا من الله تعالى، وذلك أن أثبت الوحي وذكر أنه تعالى أرسل رسلًا أوحى إليهم، فهذا تصديقٌ إجماليٌ لأصل الوحي لا يتضمن تصديق ما عند الأمم التي تنتمي إلى أولئك الأنبياء من الكتب بأعيانها ومسائلها، ومثاله

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٢٢١، تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٢٣٤.

(٢) تفسير المنار، ٦/ ٣٤٠.

تصديقنا لنبينا صلى الله عليه وسلم في جميع ما أخبر به فهو لا يستلزم تصديق كل ما في كتب الحديث المروية عنه، بل ما ثبت منها عندنا فقط»[1].

«والأحكام الذي عرضت عليه في الكتب السابقة، فما شهد له بالصدق فهو المقبول، وما شهد له بالرد فهو مردود، قد دخله التحريف والتبديل، وإلا فلو كان من عند الله، لم يخالفه»[2].

(١) المصدر السابق ٣/ ١٢٩.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص ٢٣٤.

إيتاء عيسى عليه السلام الإنجيل

ورد ذكر إيتاء عيسى عليه السلام الإنجيل في القرآن الكريم في مواضع عدة منها قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. [المائدة: ٤٦].

وقال عز وجل: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ [الحديد: ٢٧].

وإيتاء الإنجيل لعيسى عليه السلام عبارة عن إنزاله إليه بوحي من الله تعالى، قال الطبري: «﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ يقول: وأنزلنا إليه كتابنا الذي اسمه الإنجيل»[3]، وهذا الإيتاء إنما هو منة من الله تعالى للرسول الموحى إليه به، ولأمته التي أنزل إليهم الكتاب، «وفيه تعظيم عيسى عليه السلام بأن الله آتاه كتابًا إلهيًا»[4].

فآتيناه «أي: أعطيناه الإنجيل مشتملًا على هدًى من الضلال في العقائد والأعمال؛ كالتوحيد النافي للوثنية التي هي مصدر الخرافات والأباطيل، ونورٌ يبصر به طالب الحق طريقه الموصل إليه من الدلائل والأمثال والفضائل والآداب، ومصدقًا للتوراة التي تقدمته؛ أي: مشتملًا على النص

(٣) جامع البيان، ١٠/ ٣٧٣.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٢٧٨.



بتصديق التوراة»[1].

واستشكل في معنى قول المسيح وهو في المهد آتاني الكتاب: قال ابن الجوزي: «وفي معنى الآية قولان:

أحدهما: أنه آتاه الكتاب وهو في بطن أمه، قاله أبو صالح عن ابن عباس، وقيل: علم التوراة والإنجيل وهو في بطن أمه.

والثاني: قضى أن يؤتيني الكتاب، قاله عكرمة.

وفي الكتاب قولان:

أحدهما: أنه التوراة.

والثاني: الإنجيل»[2].

وجزم القرطبي بالقول الثاني وهو أن المراد بالكتاب هنا الإنجيل[3].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧].

وقوله سبحانه: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقد اختلفوا في ﴿الْبَيِّنَٰتِ﴾:

فقال البغوي: «﴿الْبَيِّنَٰتِ﴾: الدلالات الواضحات، وهي ما ذكر الله في سورة آل عمران والمائدة، وقيل: أراد الإنجيل»[4].

ومال الرازي إلى القول بأن الكل يدخل فيه؛ لأن المعجز يبين صحة نبوته كما أن الإنجيل يبين كيفية شريعته فلا يكون للتخصيص معنى[5].

وكذلك اختلفوا في الروح القدس التي أيد الله المسيح به إلى ثلاثة أقوال:

«أحدها: أنه جبريل. والقدس: الطهارة، وهذا قول ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي في آخرين. . .

والقول الثاني: أنه الاسم الذي كان يحيي به الموتى، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: أنه الإنجيل، قاله ابن زيد»[6].

ووجه تسمية الإنجيل بالروح القدس عند من فسره به أن «الإنجيل سببٌ لظهور الشرائع وحياتها»[7].

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٣٢.
(٢) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ١٣٠.
(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، ١١/ ١٠٢
(٤) معالم التنزيل ١/ ١٤٠.
(٥) انظر: مفاتيح الغيب، ٣/ ٥٩٥.
(٦) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٨٦.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي، ٣/ ٥٩٦.

صفات الإنجيل في القرآن

وصف القرآن الكريم الإنجيل الصحيح الذي أنزل على المسيح من عند الله تعالى بوحي منه بعدة أوصاف تدعو المسلمين إلى الإيمان به واحترامه وتوقيره ككتاب سماوي أنزل على نبي ورسول من أنبياء الله ومن أولي العزم من الرسل، لهداية من أنزل إليهم الكتاب من الأمم، وهذه الصفات جمعت في قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾. [المائدة: ٤٦].

فيتضح من هذه الآية «أنه تعالى وصف الإنجيل بصفاتٍ خمسةٍ فقال: فيه هدىً، ونورٌ، ومصدقًا لما بين يديه من التوراة، وهدىً، وموعظةً للمتقين»[١].

ونبين كلا من هذه الصفات:

١ . فيه هدى:

«والهدى: الإرشاد والدعاء إلى توحيد الله وإحياء أحكامه»[٢].

قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٣ - ٤]

وكون الإنجيل ﴿هُدًى﴾ أي: «هاديًا لمن تبعه»[٣]، وقيل: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ معناه: دعاء، والناس بنو إسرائيل في هذا الموضع؛ لأنهم المدعوون بهما لا غير، وإن أراد أنهما هدىً في ذاتهما . فالناس عام في كل من شاء حينئذ أن يستبصر»[٤].

فالإنجيل كتاب هداية من الله لبني إسرائيل شامل لكل أمورهم الدينية في أمر العقيدة والشريعة، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾: «أي: أعطيناه الإنجيل مشتملًا على هدًى من الضلال في العقائد والأعمال ؛ كالتوحيد النافي للوثنية التي هي مصدر الخرافات والأباطيل»[٥]، «وهو بيان ما جهله الناس من حكم الله في زمانه»[٦].

وبذلك يتضح أن«معنى كونه فيه هدًى أنه يشتمل على دلائل التوحيد، وتنزيه الله عن الولد والصاحبة والمثل والضد، وعلى الإرشاد والدعاء إلى الله تعالى، وإلى إحياء أحكام التوراة»[٧].

٢ . نور:

«وأما كونه نورًا، فالمراد به كونه بيانًا للأحكام الشرعية ولتفاصيل التكاليف»[٨].

---

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣٧٠.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ١٩٩.
(٣) معالم التنزيل، البغوي، ١/ ٤٠٨.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ١/ ٣٩٩.
(٥) تفسير المنار، ٦/ ٣٣٢.
(٦) جامع البيان، ١٠/ ٣٧٣.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣٧٠.
(٨) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٢٧٨.



فهو هدى من رب العالمين «ونورٌ يبصر به طالب الحق طريقه الموصل إليه من الدلائل والأمثال والفضائل والآداب»[1]، فهو نور «وضياء من عمى الجهالة»[2].

فالمراد بكون الإنجيل نورًا: «ما فيه مما يستضاء به؛ إذ فيه بيان أحكام الشريعة وتفاصيلها»[3].

ف من شأنه أنه يزيل الظلمة ويوضح الطريق، ولهذا سمي الإنجيل به، قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي: «هدًى إلى الحق، ونورٌ يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات»[4].

٣. مصدق لما قبله:

قال تعالى في وصف الإنجيل: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ «أي: ومصدقًا للتوراة التي تقدمته؛ أي: مشتملًا على النص بتصديق التوراة»[5].

وتصديقه للتوراة له معنيان:

الأول: ما ذكره أبو حيان بقوله: «وتصديقه إياها هو بكونه مقرًا أنها كتابٌ منزلٌ من الله حقًا واجبٌ العمل به قبل ورود النسخ، إذ شريعته مغايرةٌ لبعض ما فيها»[6].

الثاني: ما فسره ابن كثير بقوله: «أي: متبعًا لها، غير مخالفٍ لما فيها، إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه»[7].

«وهذا التصديق لا ينافي أنه نسخ بعض أحكام التوراة كما حكى الله عنه ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]»[8].

ويلاحظ أيضًا في هذه الآية ورود عبارة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ فيها مرتين، «وهذا ليس بتكرار للأول؛ لأن في الأول: الإخبار بأن عيسى مصدق لما بين يديه من التوراة. وفي الثاني - الإخبار بأن الإنجيل مصدق للتوراة، فظهر الفرق بين اللفظين وأنه ليس بتكرار»[9].

وفرق الطاهر بن عاشور بين تصديق المسيح نفسه للتوراة وبين تصديق الإنجيل لها بقوله: «فتصديق عيسى التوراة: أمره بإحياء أحكامها، وهو تصديقٌ حقيقيٌّ، وتصديق الإنجيل التوراة: اشتماله على ما وافق أحكامها، فهو تصديقٌ مجازيٌّ»[10].

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٦/ ٣٣٢.
(٢) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٣٧٣.
(٣) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ١٩٩، البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٢٧٨.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٢٦.
(٥) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٦/ ٣٣٢.
(٦) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٢٧٨.
(٧) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٢٦.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٦/ ٢١٩.
(٩) لباب التأويل، الخازن، ٢/ ٥٠.
(١٠) التحرير والتنوير ٦/ ٢١٩.

«والمعنى: أن عيسى وكتابه الذي أنزل عليه هما مصدقان لما تقدمهما من التوراة، فتظافر على تصديقه الكتاب الإلهي المنزل، والنبي المرسل المنزل عليه ذلك الكتاب»[1].

٤ . هدى:

وقد وصف الإنجيل بكونه هدى من وجهين:

الوجه الأول: وصف لما في الإنجيل من الآيات والأحكام بتفصيلاتها بأنها هدى.

الوجه الثاني: وصف للإنجيل بذاته وجملته أنه هدى.

فالملاحظ في آية المائدة التي ذكرت صفات الإنجيل أن لفظ الهدى قد تكرر فيها مرتين، وليس الهدى الثاني عين الأول، وحاشا لله أن يقع في كلامه تكرار لا فائدة منه، فالهدى الأول هو ما ذكر المفسرون معناه بما سبق، «وأما كونه هدًى مرةً أخرى فلأن اشتماله على البشارة بمجيء محمدٍ صلى الله عليه وسلم سببٌ لاهتداء الناس إلى نبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، ولما كان أشد وجوه المنازعة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى في ذلك لا جرم أعاده الله تعالى مرةً أخرى، تنبيهًا على أن الإنجيل يدل دلالةً ظاهرةً على نبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، فكان هدًى في هذه المسألة التي هي أشد المسائل احتياجًا إلى البيان والتقرير»[2].

قال الألوسي: «وجعل كله هدى -بعد ما جعل مشتملًا عليه-؛ مبالغة في التنويه بشأنه لما أن فيه البشارة بنبينا صلى الله عليه وسلم أظهر»[3].

وقد اعتنى الإنجيل ببيان صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم أكثر من غيره من الكتب السابقة عليه، والحكمة من ذلك أنه أقرب الكتب عهدًا بمبعثه صلى الله عليه وسلم، وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله تعالى في موضعه.

وقيل: معنى كونه ﴿وَهُدًى﴾ أنه جاء «بيانًا لحكم الله الذي ارتضاه لعباده المتقين في زمان عيسى»[4].

٥ . موعظة:

وهذه خاتمة الصفات المذكورة للإنجيل في هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾، وقد تحدثنا عن الهدى الثاني وذكرنا المراد به والفرق بينه وبين الهدى الأول.

«وأما كون الإنجيل موعظة فلاشتماله على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة، وإنما خصها بالمتقين؛ لأنهم

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٢٧٨.

(٢) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣٧٠.

(٣) روح المعاني، ٣/ ٣١٩.

(٤) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٣٧٣.

هم الذين ينتفعون بها، كما في قوله: هدىً للمتقين»[1].

قيل في معنى كون الإنجيل موعظة، أي: «زجرًا لهم عما يكرهه الله إلى ما يحبه من الأعمال، وتنبيهًا لهم عليه»[2].

«ولعله ما انفرد به من المسائل الروحية والمواعظ الأدبية، وزلزلة ذلك الجمود الإسرائيلي المادي، وزعزعة ذلك الغرور الذي كان الكتبة والفريسيون من اليهود مفتونين به، وخص هذا النوع بالمتقين؛ لأنهم هم الذين ينتفعون به ؛ إذ لا يفوتهم شيءٌ من الكتاب لحرصهم عليه وعنايتهم به، والحكمة من هذا النوع من الهدى والموعظة: فقه أسرار الشريعة ومعرفة حكمتها والمقصد منها، والعلم بأن وراء تلك التوراة وهذا الإنجيل هدايةً أتم وأكمل، ودينًا أعم وأشمل، وهو الذي يجيء به النبي الأخير (البارقليط) الأعظم، ولولا زلزال الإنجيل في جملته لتلك التقاليد، وزعزعته لذلك الغرور، وأنس الناس بما حفظ من تعاليمه عدة قرونٍ، لما انتشر الإسلام بين أهل الكتاب في سورية ومصر وبين النهرين بتلك السرعة»[3].

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٣٧٠، لباب التأويل، الخازن ٢/ ٥٠.

(٢) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٣٧٣.

(٣) تفسير المنار، محمد رشيد رضا ٦/ ٣٣٢.

الأحكام التشريعية في الإنجيل

أولًا: الأحكام التشريعية في الإنجيل:

أودع الله في الإنجيل أحكامًا وتشريعات لهداية من أنزل إليهم، وأمرهم بأن يأخذوا بها، ويعملوا بأحكامها، ويحكموا بمقتضاها.

قال تعالى ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٧].

وهذه الآية تبين أمرين:

أولًا: الحكمة من إيتاء المسيح عليه السلام الإنجيل الذي وصفه الله تعالى بالصفات السابق بيانها في الآية التي قبلها مباشرة هي: أن يعملوا بما فيه.

ثانيًا: وجوب العمل بما أنزل الله في الإنجيل على أمة المسيح عليه السلام قبل مبعث نبينا صلى الله عليه وسلم.

والآية تدل على أن الإنجيل مشتمل على الأحكام، وأن عيسى عليه السلام كان مستقلًا بالشرع مأمورا بالعمل بما فيه من الأحكام قلت أو كثرت لا بما في التوراة خاصة، وأن اليهودية منسوخة ببعثة عيسى عليه الصلاة والسلام[4].

ويشهد لذلك أيضًا حديث النبي صلى

(٤) انظر: روح المعاني، الألوسي ٣/ ٣٢٠، أنوار التنزيل، البيضاوي، ٢/ ١٢٩.

الله عليه وسلم: (**أوتي أهل التوراة التوراة، فعملوا حتى إذا انتصف النهار عجزوا، فأعطوا قيراطًا قيراطًا، ثم أوتي أهل الإنجيل الإنجيل، فعملوا إلى صلاة العصر، ثم عجزوا، فأعطوا قيراطًا قيراطًا...**) الحديث[(١)].

وخالف في ذلك بعض الفضلاء، قال الشهرستاني: «وجميع بني إسرائيل كانوا متعبدين بذلك، مكلفين بالتزام أحكام التوراة، والإنجيل النازل على المسيح عليه السلام لا يتضمن أحكامًا، ولا يستبطن حلالًا ولا حرامًا؛ ولكنه: رموز، وأمثال، ومواعظ، ومزاجر؛ وما سواها من الشرائع والأحكام فمحالة على التوراة، فكانت اليهود لهذه القضية لم ينقادوا لعيسى ابن مريم عليه السلام، وادعوا عليه أنه كان مأمورًا بمتابعة موسى عليه السلام، وموافقة التوراة، فغير وبدل، وعدوا عليه تلك التغييرات، منها: تغيير السبت إلى الأحد، ومنها: تغيير أكل لحم الخنزير، وكان حرامًا في التوراة، ومنها: الختان، والغسل، وغير ذلك، والمسلمون قد بينوا أن الأمتين: قد بدلوا، وحرفوا؛ وإلا فعيسى عليه السلام كان مقررًا لما جاء به موسى عليه السلام»[(٢)].

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مواقيت الصلاة، باب من أدرك ركعة من العصر قبل الركوع، رقم ٥٥٧.
(٢) الملل والنحل، ٢/ ١٥.

«وحمل المخالف هذه الآية على وليحكموا بما أنزل الله تعالى فيه من إيجاب العمل بأحكام التوراة، وهو خلاف الظاهر كتخصيص ما أنزل فيه نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم»[(٣)].

وقال الألوسي: «أمر مبتدأ لهم بأن يحكموا ويعملوا بما فيه من الأمور التي من جملتها دلائل رسالته صلى الله عليه وسلم وما قررته شريعته الشريفة من أحكامه، وأما الأحكام المنسوخة فليس الحكم بها حكمًا بما أنزل الله تعالى بل هو إبطال وتعطيل له إذ هو شاهد بنسخها وانتهاء وقت العمل بها؛ لأن شهادته بصحة ما ينسخها من الشريعة الأحمدية شاهدة بنسخها، وأن أحكامه ما قررته تلك الشريعة التي تشهد بصحتها»[(٤)].

وقد ورد في القرآن الكريم ما يدل على بعض ما فرض على النصارى من الأحكام الشرعية، كما في قوله تعالى حكاية عن المسيح عليه السلام: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣١].

قال الطبري: «وقوله ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ يقول: وقضى أن يوصيني بالصلاة والزكاة، يعني: المحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها علي.

(٣) روح المعاني، ٣/ ٣٢٠.
(٤) المصدر السابق، ٣/ ٣١٩

وفي الزكاة معنيان، أحدهما: زكاة الأموال أن يؤديها. والآخر: تطهير الجسد من دنس الذنوب؛ فيكون معناه: وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي، وقوله ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يقول: ما كنت حيًا في الدنيا موجودًا، وهذا يبين عن أن معنى الزكاة في هذا الموضع: تطهير البدن من الذنوب؛ لأن الذي يوصف به عيسى صلوات الله وسلامه عليه أنه كان لا يدخر شيئًا لغد، فتجب عليه زكاة المال، إلا أن تكون الزكاة التي كانت فرضت عليه الصدقة بكل ما فضل عن قوته، فيكون ذلك وجهًا صحيحًا»[(١)].

فلا شك أنه قد فرض الله على النصارى صلاة وزكاة لا نعلم كيفيتها ولا عددها، ولا هي نفس التي كانت عند اليهود أو غيرها، ولا نعلم هل الصلاة والعشور التي عندهم الآن هي الصحيح النازل من عند الله أو هي مما حرفوا وبدلوا.

وقد أخبرنا القرآن الكريم بأن الله قد فرض الصيام على الأمم السابقة، ولا شك أن منها النصارى أمة المسيح عليه السلام.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٣].

وقد اختلف المفسرون في المقصود بمن قبلنا في الآية.

قال ابن الجوزي: «وفي الذين من قبلنا ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم أهل الكتاب، رواه عطاء الخراساني عن ابن عباس، وهو قول مجاهد.

والثاني: أنهم النصارى، قاله الشعبي، والربيع.

والثالث: أنهم جميع أهل الملل، ذكره أبو صالح عن ابن عباس»[(٢)].

فعلى الأقوال الثلاثة فالنصارى معنيون بهذه الآية، فلا شك أنهم كانوا قد فرض عليهم الصيام.

كما لا شك أن الإنجيل قد أمرهم بمكارم الأخلاق وبر الوالدين وحسن معاملة القريب والغريب، وأنه نهاهم عن كل قبيح كالقتل والزنا والسرقة والعقوق والكذب وسائر الأخلاق الذميمة.

وقد أورد الفخر الرازي سؤالًا على هذه الآية وهو: «فإن قيل: كيف جاز أن يؤمروا بالحكم بما في الإنجيل بعد نزول القرآن؟

قلنا: الجواب عنه من وجوهٍ:

الأول: أن المراد: ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه من الدلائل الدالة على نبوة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وهو قول الأصم.

والثاني: وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل

(١) جامع البيان، ١٨/ ١٩١.

(٢) زاد المسير، ١/ ١٤٠.

الله فيه، مما لم يصر منسوخًا بالقرآن.

والثالث: المراد من قوله وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه: زجرهم عن تحريف ما في الإنجيل وتغييره مثل ما فعله اليهود من إخفاء أحكام التوراة، فالمعني بقوله: (وليحكم) أي: وليقر أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه على الوجه الذي أنزله الله فيه من غير تحريفٍ ولا تبديلٍ»[1].

وإنا لنجد بعض النصارى يحتج علينا بهذه الآية بدعوى أنها تأمرهم بالعمل بالإنجيل وما فيه، مما يعني في نظرهم ترك العمل بالقرآن واتباع ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من الدين والأحكام، وقد ذكرنا الجواب عن ذلك من أقوال المفسرين وما تحتمله الآية مما لا يتفق مع دعواهم.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «كيفما قرأت وفسرت لا تجد الآية تدل على أن الله تعالى يأمر النصارى في القرآن بالحكم بالإنجيل، كما يزعم دعاة النصرانية بما يغالطون به عوام المسلمين، ولو فرضنا أنه أمرهم بذلك بعبارةٍ أخرى لتعين أن يكون الأمر للتعجيز وإقامة الحجة عليهم؛ فإنهم لا يستطيعون العمل بالإنجيل، ولن يستطيعوه»[2].

والسبب في ذلك أنهم حرفوه وضيعوه وغيروه وبدلوه، فكيف يمكنهم العمل به بعد ذلك؟

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ أي: المتمردون الخارجون عن حكمه أو عن الإيمان.. والجملة تذييل مقرر لمضمون الجملة السابقة ومؤكدة لوجوب الامتثال بالأمر[3].

ثانيًا: أثر إقامة الإنجيل:

قال تعالى في بيان الأثر الإيجابي من إقامة أهل الكتاب لكتبهم وتنفيذهم لوصاياها ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٦].

وفي معنى الإقامة قال الطاهر بن عاشور: «يجوز أن يكون معنى إقامة التوراة والإنجيل إقامة تشريعهما قبل الإسلام، أي: لو أطاعوا أوامر الله وعملوا بها سلموا من غضبه فلأغدق عليهم نعمه. ويحتمل أن يكون المراد: لو أقاموا هذه الكتب بعد مجيء الإسلام، أي: بالاعتراف بما في التوراة والإنجيل من التبشير ببعثة محمدٍ صلى الله عليه وسلم حتى يؤمنوا به وبما جاء به، فتكون الآية إشارةً إلى ضيق معاشهم بعد

(١) مفاتيح الغيب، ١٢/ ٣٧١.
(٢) تفسير المنار، ٦/ ٣٣٢.
(٣) روح المعاني، الألوسي، ٣/ ٣١٩.

هجرة الرسول إلى المدينة»[1].

قال الطبري: «فإن قال قائل: وكيف يقيمون التوراة والإنجيل وما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم، مع اختلاف هذه الكتب، ونسخ بعضها بعضًا؟ قيل: إنها وإن كانت كذلك في بعض أحكامها وشرائعها، فهي متفقة في الأمر بالإيمان برسل الله، والتصديق بما جاءت به من عند الله، فمعنى إقامتهم التوراة والإنجيل وما أنزل إلى محمد صلى الله عليه وسلم: تصديقهم بما فيها، والعمل بما هي متفقة فيه، وكل واحد منها في الحين الذي فرض العمل به»[2].

وأما قوله تعالى: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم﴾ فقد ذكر الفخر الرازي فيه عدة وجوهٌ:

«الأول: أن المراد منه المبالغة في شرح السعة والخصب، لا أن هناك فوقًا وتحتًا، والمعنى لأكلوا أكلًا متصلًا كثيرًا، وهو كما تقول: فلانٌ في الخير من فرقه إلى قدمه، تريد تكاثف الخير وكثرته عنده.

الثاني: أن الأكل من فوق نزول القطر، ومن تحت الأرجل حصول النبات، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

الثالث: الأكل من فوق: كثرة الأشجار المثمرة، ومن تحت الأرجل: الزروع المغلة.

والرابع: المراد أن يرزقهم الجنان اليانعة الثمار، فيجتنون ما تهدل من رءوس الشجر، ويلتقطون ما تساقط على الأرض من تحت أرجلهم.

والخامس: يشبه أن يكون هذا إشارةً إلى ما جرى على اليهود من بني قريظة وبني النضير من قطع نخيلهم، وإفساد زروعهم، وإجلائهم عن أوطانهم»[3].

(١) التحرير والتنوير، ٦/ ٢٥٣.

(٢) جامع البيان، ١٠/ ٤٦٢- ٤٦٣.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٣٩٨.

اتباع عيسى عليه السلام في القرآن

وصف الله تبارك وتعالى أتباع المسيح عليه السلام الذين أقاموا دينه واتبعوه ولم يحرفوا ولم يغيروا ولم يبدلوا بصفات عظيمة فيها إشادة وإكبار، وسماهم الحواريين، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ ۖ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٢ - ٥٣].

أولًا: معنى الحواريين:

وفي معنى الحواريين أقوال:

أحدها: أنهم الخواص الأصفياء، وقال صلى الله عليه وسلم للزبير: (إنه ابن عمتي، وحواري من أمتي)[1]، فعلى هذا الحواريون هم صفوة الأنبياء الذي خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم.

والثاني: أنهم البيض الثياب، روى سعيد بن جبير عن ابن عباس أنهم سموا بذلك؛ لبياض ثيابهم، وعلى هذا فالحواري أصله من الحور، وهو شدة البياض، وقيل: لأن قلوبهم كانت نقيةً طاهرةً من كل نفاقٍ وريبةٍ فسموا بذلك مدحًا لهم، وإشارةً إلى نقاء قلوبهم، كالثوب الأبيض، وهذا كما يقال: فلانٌ نقي الجيب، طاهر الذيل، إذا كان بعيدًا عن الأفعال الذميمة، وفلانٌ دنس الثياب: إذا كان مقدمًا على ما لا ينبغي.

والثالث: أنهم القصارون، سموا بذلك؛ لأنهم كانوا يحورون الثياب، أي: يبيضونها، وهو كالذي قبله مبني على أن الحواري أصله من الحور، وهو شدة البياض، وإذا عرفت أصل هذا اللفظ فقد صار بعرف الاستعمال دليلًا على خواص الرجل وبطانته، قال الضحاك: مر عيسى عليه السلام بقومٍ من الذين كانوا يغسلون الثياب، فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا، والذي يغسل الثياب يسمى بلغة النبط هواري، وهو القصار، فعربت هذه اللفظة فصارت حواري.

والرابع: المجاهدون.

والخامس: الصيادون، رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس. فقد روي أنه عليه السلام مر بهم وهم يصطادون السمك، فقال لهم: «تعالوا نصطاد الناس» قالوا: من أنت؟ قال: «أنا عيسى ابن مريم، عبد الله ورسوله» فطلبوا منه المعجز على ما قال، فلما أظهر المعجز آمنوا به، فهم الحواريون.

والسادس: الحواريون: الملوك.

والسابع: أنهم المنيرة وجوههم، قال ابن المبارك: الحوار ، ونسبوا إليه لما كان

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٢/ ٢٧٢، رقم ١٤٣٧٤.
وصححه الألباني في صحيح الجامع، ١/ ٦٦٩، رقم ٣٥٨٣.

في وجوههم من سيما العبادة ونورها. وقال تاج القراء: الحواري: الصديق»[1].

والثامن: الحواري: الناصر، قال ابن كثير: «والصحيح أن الحواري الناصر، كما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما ندب الناس يوم الأحزاب، فانتدب الزبير، ثم ندبهم فانتدب الزبير [ثم ندبهم فانتدب الزبير]. فقال: (إن لكل نبي حواريًا وحواريي الزبير)»[2].

وقال ابن عاشور: «والحواريون: لقبٌ لأصحاب عيسى، عليه السلام: الذين آمنوا به ولازموه، وهو اسمٌ معربٌ من النبطية ومفرده حواريٌّ، قاله في الإتقان عن ابن حاتم عن الضحاك، ولكنه ادعى أن معناه الغسال أي: غسال الثياب، وفسره علماء العربية بأنه من يكون من خاصة من يضاف هو إليه ومن قرابته، وغلب على أصحاب عيسى، وقد أكثر المفسرون وأهل اللغة في احتمالات اشتقاقه واختلاف معناه، وكل ذلك إلصاقٌ بالكلمات التي فيها حروف الحاء والواو والراء لا يصح منه شيءٌ، والحواريون اثنا عشر رجلًا وهم: سمعان بطرس، وأخوه أندراوس، ويوحنا بن زبدي، وأخوه يعقوب- وهؤلاء كلهم صيادو سمكٍ- ومتى العشار وتوما وفيليبس، وبرثو لماوس، ويعقوب بن حلفي، ولباوس، وسمعان القانوي، ويهوذا الأسخريوطي»[3].

ويمكن الجمع بين هذه الأقوال بأنهم كانوا حائزين على كل هذه الصفات، فهم الأتباع المخلصون للمسيح، وهم بيض القلوب والثياب، منيرة وجوههم، ناصرون لربهم ونبيهم.

«قال القفال: ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الاثني عشر من الملوك، وبعضهم من صيادي السمك، وبعضهم من القصارين، والكل سموا بالحواريين؛ لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام، وأعوانه، والمخلصين في محبته، وطاعته، وخدمته»[4].

ثانيًا: صفات الحواريين:

من صفات هؤلاء الحواريين أتباع المسيح عليه السلام التي وصفهم الله تعالى بها:

الصفة الأولى: أنهم أنصار الله.

وقد جاء ذلك في قوله تعالى في أكثر من موضع من كتابه: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، [الصف: ١٤].

(١) زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٢٨٦.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٢/ ٤٥.
(٣) التحرير والتنوير، ٣/ ٢٥٥- ٢٥٦.
(٤) مفاتيح الغيب، ٨/ ٢٣٤.

قال الطبري: «فلما وجد عيسى من بني إسرائيل الذين أرسله الله إليهم جحودًا لنبوته، وتكذيبًا لقوله، وصدًا عما دعاهم إليه من أمر الله، قال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟، يعني بذلك: قال عيسى: من أعواني على المكذبين بحجة الله، والمولين عن دينه، والجاحدين نبوة نبيه، ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ عز وجل؟ ويعني بقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، مع الله»[1].

وفي سبب استنصاره بالحواريين قال ابن الجوزي: «واختلفوا في سبب استنصاره بالحواريين، فقال مجاهد: لما كفر به قومه، وأرادوا قتله، استنصر الحواريين. وقال غيره: لما كفر به قومه، وأخرجوه من قريتهم، استنصر الحواريين. وقيل: استنصرهم؛ لإقامة الحق، وإظهار الحجة»[2].

قال ابن كثير: «والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله؟ كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول في مواسم الحج، قبل أن يهاجر: (من رجل يئويني على أن أبلغ كلام ربي، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ كلام ربي)حتى وجد الأنصار فآووه ونصروه، وهاجر إليهم فآسوه ومنعوه من الأسود والأحمر. وهكذا عيسى ابن مريم، انتدب له طائفةٌ من بني إسرائيل فآمنوا به وآزروه ونصروه واتبعوا الذي أنزل معه، ولهذا قال تعالى مخبرًا عنهم: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ۝ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾»[3].

قال الرازي: «والمراد من قوله تعالى ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: نحن أنصار دين الله وأنصار أنبيائه؛ لأن نصرة الله تعالى في الحقيقة محالٌ، فالمراد منه ما ذكرناه»[4].

وقد بلغ من منزلة الحواريين أتباع المسيح عليه السلام في نصرتهم وإخلاصهم وصدقهم في ذلك أن الله تعالى خاطب المؤمنين من هذه الأمة بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

«يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله، كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال: ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾؟ أي: معيني في الدعوة إلى الله عز وجل ؟ ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ -وهم أتباع عيسى

(١) جامع البيان، ٦/ ٤٤٣.
(٢) زاد المسير، ١/ ٢٨٥.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٤٦.
(٤) مفاتيح الغيب، ٨/ ٢٣٤.



عليه السلام: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ أي: نحن أنصارك على ما أرسلت به وموازروك على ذلك؛ ولهذا بعثهم دعاةً إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين. وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في أيام الحج: (من رجلٌ يئويني حتى أبلغ رسالة ربي، فإن قريشًا قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي) حتى قيض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة، فبايعوه ووازروه، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه؛ ولهذا سماهم الله ورسوله: الأنصار، وصار ذلك علمًا عليهم، رضي الله عنهم وأرضاهم»[1].

«والتشبيه بدعوة عيسى ابن مريم للحواريين وجواب الحواريين تشبيه تمثيلٍ، أي كونوا عندما يدعوكم محمد صلى الله عليه وسلم إلى نصر الله كحالة قول عيسى ابن مريم للحواريين واستجابتهم له، والتشبيه لقصد التنظير والتأسي، فقد صدق الحواريون وعدهم وثبتوا على الدين، ولم تزعزعهم الفتن والتعذيب»[2].

الصفة الثانية: أنهم مؤمنون مسلمون.

أما قوله تعالى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ فهذا يجري مجرى ذكر العلة، والمعنى يجب علينا أن نكون من أنصار الله، لأجل أنا آمنا بالله، فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله، والذب عن أوليائه، والمحاربة مع أعدائه، ثم قالوا: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وذلك؛ لأن إشهادهم عيسى عليه السلام على أنفسهم، إشهادٌ لله تعالى أيضًا، ثم فيه قولان:

الأول: المراد واشهد أنا منقادون لما تريده منا في نصرتك، والذب عنك، مستسلمون لأمر الله تعالى فيه.

الثاني: أن ذلك إقرارٌ منهم بأن دينهم الإسلام، وأنه دين كل الأنبياء صلوات الله عليهم[3].

وقد جاء ذكر الحواريين أيضًا مقرونا بإقرارهم بالإيمان والإشهاد عليه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١].

وقد جاءت هذه الآية في معرض ذكر الله عز وجل لنعمه على عبده ورسوله المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، «أي: واذكر نعمتي عليك حين ألهمت الحواريين أن يؤمنوا بك، وقد كذبك جمهور بني إسرائيل،

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١١٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٨/ ١٩٩.
(٣) المصدر السابق، ٨/ ٢٣٤.

فجعلتهم أنصارًا لك يؤيدون حجتك وينشرون دعوتك. والوحي في أصل اللغة: الإشارة السريعة الخفية، أو الإعلام بالشيء بسرعةٍ وخفاءٍ»[1].

وفي المراد بالوحي إلى الحواريين في هذه الآية قال ابن عطية: «وبالجملة فهو إلقاء معنى في خفاء، أوصله تعالى إلى نفوسهم كيف شاء»[2].

«وهذا الإيحاء إلى الحواريين هو من نعم الله على عيسى بأن جعل له أتباعًا يصدقونه ويعملون بما جاء به»[3].

«وإنما ذكر هذا في معرض تعديد النعم؛ لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس محبوبًا في قلوبهم من أعظم نعم الله على الإنسان»[4].

«وقد حكى الله عنهم هنا أنهم قالوا: آمنا، أي: بالله ورسوله عيسى عليه السلام، وأشهدوا الله على أنفسهم أنهم مسلمون أي: مخلصون في إيمانهم، مذعنون لما يترتب عليه من الأمر والنهي»[5].

«وقول الحواريين، ﴿وَٱشۡهَدۡ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة منهم لله تعالى، ويحتمل أن يكون لعيسى عليه السلام»[6].

«وذكر تعالى أنه لما ألقى ذلك الوحي في قلوبهم، آمنوا وأسلموا، وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام؛ لأن الإيمان صفة القلب والإسلام عبارةٌ عن الانقياد والخضوع في الظاهر، يعني: آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم»[7].

«وسمى إيمانهم إسلامًا؛ لأنه كان تصديقًا راسخًا قد ارتفعوا به عن مرتبة إيمان عامة من آمن بالمسيح غيرهم، فكانوا مماثلين لإيمان عيسى، وهو إيمان الأنبياء والصديقين»[8].

الصفة الثالثة: أنهم متبعون لرسولهم.

ويدل عليه «ما حكاه القرآن من قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلۡتَ وَٱتَّبَعۡنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وذلك أن القوم آمنوا بالله حين قالوا: في الآية المتقدمة آمنا بالله، ثم آمنوا بكتب الله تعالى حيث قالوا: آمنا بما أنزلت، وآمنوا برسول الله حيث قالوا: واتبعنا الرسول، فعند ذلك طلبوا الزلفة والثواب، فقالوا ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ وهذا

(١) انظر: تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٢٠٧.
(٢) المحرر الوجيز، ٢/ ٢٥٩.
(٣) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٤٠٨.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ١٢/ ٤٦١.
(٥) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ٢٠٨.
(٦) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢٥٩.
(٧) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٤٦١.
(٨) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٧/ ١٠٤.

يقتضي أن يكون للشاهدين فضلٌ يزيد على فضل الحواريين، ويفضل على درجته؛ لأنهم هم المخصوصون بأداء الشهادة»[1].

الصفة الرابعة: أنهم قريبون من المؤمنين.

وقد دل عليها قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢].

وقد اختلف فيمن نزلت فيهم هذه الآية على أقوال:

الأول: أنها نزلت في النجاشي ملك الحبشة وأصحابٍ له أسلموا معه.

قال عطاء: هم ناس من الحبشة آمنوا، إذ جاءتهم مهاجرة المؤمنين[2].

قال أبو حيان: «قيل: هو النجاشي وأصحابه تلا عليهم جعفر بن أبي طالبٍ حين هاجر إلى الحبشة سورة مريم فآمنوا وفاضت أعينهم من الدمع»[3].

وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباسٍ: نزلت هذه الآيات في النجاشي وأصحابه، الذين حين تلا عليهم جعفر بن أبي طالبٍ بالحبشة القرآن بكوا حتى أخضلوا لحاهم.

قال ابن كثير: وهذا القول فيه نظرٌ؛ لأن هذه الآية مدنيةٌ، وقصة جعفرٍ مع النجاشي قبل الهجرة[4].

الثاني: قيل: إن هذه الآية والتي بعدها نزلت في نفرٍ قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم من نصارى الحبشة، فلما سمعوا القرآن أسلموا واتبعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم[5].

وقال سعيد بن جبير: بعث النجاشي قومًا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأسلموا، فنزلت فيهم هذه الآية والتي بعدها[6].

قال أبو حيان: «وقيل: هم وفد النجاشي مع جعفرٍ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، وكانوا سبعين بعثهم إلى الرسول عليهم ثياب الصوف، اثنان وستون من الحبشة، وثمانيةٌ من الشام، وهم بحير الراهب، وإدريس، وأشرف، وثمامة، وقثم، ودريدٌ، وأيمن، فقرأ عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم يس، فبكوا وآمنوا وقالوا: ما أشبه هذا بما كان ينزل على عيسى، فأنزل الله فيهم هذه الآية»[7].

وقال سعيد بن جبير والسدي وغيرهما: نزلت في وفد بعثهم النجاشي إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليسمعوا كلامه، ويروا صفاته، فلما قرأ عليهم النبي صلى الله عليه

(١) المصدر السابق، ٨/ ٢٣٤.
(٢) انظر: جامع البيان، ١٠/ ٤٩٩.
(٣) البحر المحيط، ٤/ ٣٤٢.

(٤) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٦٦.
(٥) جامع البيان، الطبري، ١٠/ ٤٩٩.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي، ١/ ٥٧٤.
(٧) البحر المحيط، ٤/ ٣٤٢.

وسلم القرآن أسلموا وبكوا وخشعوا، ثم رجعوا إلى النجاشي فأخبروه.. ثم اختلف في عدة هذا الوفد، فقيل: اثنا عشر، سبعة قساوسةٍ وخمسة رهابين. وقيل بالعكس. وقيل: خمسون. وقيل: بضعٌ وستون. وقيل: سبعون رجلًا. فالله أعلم[(١)].

الثالث: روي عن مقاتلٍ والكلبي أنهم كانوا أربعين من بني الحارث بن كعبٍ من نجران، واثنين وثمانين من الحبشة، وثمانيةً وستين من الشام[(٢)].

وقال قتادة: هم قومٌ كانوا على دين عيسى ابن مريم، فلما رأوا المسلمين وسمعوا القرآن أسلموا ولم يتلعثموا[(٣)].

قال ابن الجوزي: «فأما الذين قالوا: إنا نصارى، فهل هذا عام في كل النصارى أم خاص؟ فيه قولان:

أحدهما: أنه خاص، ثم فيه قولان:

أحدهما: أنه أراد النجاشي وأصحابه لما أسلموا، قاله ابن عباس وابن جبير.

والثاني: أنهم قوم من النصارى كانوا متمسكين بشريعة عيسى، فلما جاء محمد عليه السلام أسلموا، قاله قتادة.

والقول الثاني: أنه عام. قال الزجاج: يجوز أن يراد به النصارى؛ لأنهم كانوا أقل مظاهرةً للمشركين من اليهود»[(٤)].

قال أبو جعفر الطبري: «والصواب في ذلك من القول عندي: أن الله تعالى وصف صفة قوم قالوا: إنا نصارى، أن نبي الله صلى الله عليه وسلم يجدهم أقرب الناس ودادًا لأهل الإيمان بالله ورسوله، ولم يسم لنا أسماءهم، وقد يجوز أن يكون أريد بذلك أصحاب النجاشي، ويجوز أن يكون أريد به قومٌ كانوا على شريعة عيسى، فأدركهم الإسلام فأسلموا لما سمعوا القرآن وعرفوا أنه الحق، ولم يستكبروا عنه»[(٥)].

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ﴾ «أي: هم ألين عريكةً وأقرب ودًا، ولم يصفهم بالود؛ إنما جعلهم أقرب من اليهود والمشركين، وهي أمةٌ لهم الوفاء والخلال الأربع التي ذكرها عمرو بن العاص في صحيح مسلمٍ، ويعظمون من أهل الإسلام من استشعروا منه دينًا وإيمانًا، ويبغضون أهل الفسق، فإذا سالموا فسلمهم صافٍ، وإذا حاربوا فحربهم مدافعةٌ؛ لأن شرعهم لا يأمرهم بذلك، وحين غلب الروم فارس سر رسول الله صلى الله عليه وسلم لغلبة أهل الكتاب لأهل عبادة النار،

---

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٦٦.
(٢) انظر: البحر المحيط، ٤/ ٣٤٢.
(٣) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٣/ ١٦٦.
(٤) زاد المسير، ١/ ٥٧٤.
(٥) جامع البيان، ١٠/ ٥٠١.

ولإهلاك العدو الأكبر بالعدو الأصغر؛ إذ كان مخوفًا على أهل الإسلام، واليهود ليسوا على شيءٍ من أخلاق النصارى، بل شأنهم الخبث واللي بالألسنة، وفي خلال إحسانك إلى اليهودي يترقب ما يغتالك به، ألا ترى إلى ما حكى تعالى عنهم ذلك بأنهم قالوا: ليس علينا في الأميين سبيلٌ...

وظاهر الآية يدل على أن النصارى أصلح حالًا من اليهود وأقرب إلى المؤمنين مودةً، وعلى هذا الظاهر فسر الآية من وقفنا على كلامه، وقد ذكر المفسرون فيما تقدم ما فضل به النصارى على اليهود من كرم الأخلاق، والدخول في الإسلام سريعًا، وليس الكلام واردًا بسبب العقائد، وإنما ورد بسبب الانفعال للمسلمين»[1].

وقال ابن كثير: «وقوله: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ أي: الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجيله، فيهم مودةٌ للإسلام وأهله في الجملة، وما ذاك إلا لما في قلوبهم، إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]. وفي كتابهم: من ضربك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر. وليس القتال مشروعًا في ملتهم»[2].

وقال ابن عطية: «وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ إشارةٌ إلى أن المعاصرين لمحمد صلى الله عليه وسلم من النصارى ليسوا على حقيقة النصرانية، بل كونهم نصارى قول منهم وزعم»[3].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «لما أرسل النبي صلى الله عليه وسلم كتب الدعوة الإسلامية إلى الملوك ورؤساء الشعوب، كان النصارى منهم أحسنهم ردًا؛ فهرقل ملك الروم في الشام حاول إقناع رعيته بقبول الإسلام، فلما لم يقبلوا لجمودهم على التقليد، وعدم فقههم حقيقة الدين الجديد، اكتفى بالرد الحسن.

والمقوقس عظيم القبط في مصر كان أحسن منه ردًا، وإن لم يكن أكثر إلى الإسلام ميلًا، وأرسل للنبي صلى الله عليه وسلم هديةً حسنةً.

ثم لما فتحت مصر والشام عرف أهلها مزية الإسلام، دخلوا في دين الله أفواجًا، وكان القبط أسرع له قبولًا»[4].

الصفة الخامسة: الخشية والانقطاع للعبادة.

«ثم أخبر أن من هذه الطائفة علماء

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٣٤٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٦٧ .

(٣) المحرر الوجيز، ٢/ ٢٢٦

(٤) تفسير المنار، ٧/ ٤٠٧.

وزهادًا ومتواضعين، وسريعي استجابةٍ للإسلام، وكثيري بكاءٍ عند سماع القرآن، واليهود بخلاف ذلك، والوجود يصدق قرب النصارى من المسلمين وبعد اليهود، ولهذا قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا﴾ [المائدة: ٨٢].

أي: يوجد فيهم القسيسون، وهم خطباؤهم وعلماؤهم، واحدهم: قسيسٌ وقس أيضًا، وقد يجمع على قسوسٍ- والرهبان: جمع راهبٍ، وهو: العابد. مشتقٌّ من الرهبة، وهي الخوف، كراكبٍ وركبانٍ، وفارسٍ وفرسانٍ»[١].

«وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنۡهُمۡ قِسِّيسِينَ وَرُهۡبَانٗا﴾ معناه: ذلك بأن منهم أهل خشية وانقطاع إلى الله وعبادة وإن لم يكونوا على هدى، فهم يميلون إلى أهل العبادة والخشية»[٢].

قال الشيخ رشيد رضا: «أي: ذلك الذي ذكر من كون النصارى أقرب مودةً للذين آمنوا بسبب أن منهم ﴿قِسِّيسِينَ﴾ يتولون تعليمهم وتربيتهم الدينية، ﴿وَرُهۡبَانٗا﴾ يمثلون فيهم الزهد، وترك نعيم الدنيا، والخوف من الله عز وجل، والانقطاع لعبادته، وأنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر لهم أنه الحق؛ لأنه أشهر آداب دينهم التواضع والتذلل، وقبول كل سلطةٍ والخضوع لكل حاكم.

بل من المشهور فيها: الأمر بمحبة الأعداء، وإدارة الخد الأيسر لمن ضرب الخد الأيمن.

فتداول هذه الوصايا ووجود أولئك القسيسين والرهبان، لا بد أن يؤثر في نفوس جمهور الأمة وسوادها، فيضعف صفة الاستكبار عن قبول الحق فيها، وقد عهد من النصارى قبول سلطة المخالف لهم طوعًا واختيارًا، والرضاء بها سرًا وجهارًا»[٣].

«فإن قيل: كيف مدحهم الله تعالى بذلك مع قوله ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا﴾ [الحديد: ٢٧].

وقوله عليه الصلاة والسلام: (لا رهبانية في الإسلام) قلنا: إن ذلك صار ممدوحًا في مقابلة طريقة اليهود في القساوة والغلظة، ولا يلزم من هذا القدر كونه ممدوحًا على الإطلاق»[٤].

قال ابن عاشور: «وإنما كان وجود القسيسين والرهبان بينهم سببًا في اقتراب مودتهم من المؤمنين لما هو معروفٌ بين العرب من حسن أخلاق القسيسين والرهبان وتواضعهم وتسامحهم. وكانوا منتشرين في جهاتٍ كثيرةٍ من بلاد العرب يعمرون الأديرة والصوامع والبيع، وأكثرهم من عرب الشام

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ٤/ ٣٤٤.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٢/ ٢٢٦.
(٣) تفسير المنار، ٧/ ٧.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي، ١٢/ ٤١٤.

الذين بلغتهم دعوة النصرانية على طريق الروم، فقد عرفهم العرب بالزهد ومسالمة الناس»[1].

الصفة السادسة: التواضع وعدم الاستكبار.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة: ٨٢].

«والاستكبار: السين والتاء فيه؛ للمبالغة. وهو يطلق على التكبر والتعاظم، ويطلق على المكابرة وكراهية الحق، وهما متلازمان. فالمراد من قوله: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أنهم متواضعون منصفون، وضمير وأنهم لا يستكبرون يجوز أن يعود إلى ما عاد إليه ضمير بأن منهم، أي: وأن الذين قالوا إنا نصارى لا يستكبرون.

فيكون قد أثبت التواضع لجميع أهل ملة النصرانية في ذلك العصر، وقد كان نصارى العرب متحلين بمكارم من الأخلاق.

وظاهر قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَـٰرَىٰٓ﴾ أن هذا الخلق وصفٌ للنصارى كلهم من حيث إنهم نصارى، فيتعين أن يحمل الموصول على العموم العرفي، وهم نصارى العرب، فإن اتباعهم النصرانية على ضعفهم فيها ضم إلى مكارم أخلاقهم العربية مكارم أخلاقٍ دينيةٍ، كما كان عليه زهيرٌ ولبيدٌ وورقة بن نوفل وأضرابهم»[2].

الصفة السابعة: الانقياد للحق واتباعه.

«ثم وصفهم بالانقياد للحق واتباعه والإنصاف، فقال: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٤]. أي: مما عندهم من البشارة ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾ أي: مع من يشهد بصحة هذا ويؤمن به»[3].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: «﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي: وإذا سمع أولئك الذين قالوا إنا نصارى ما أنزل إلى الرسول الكامل محمدٍ صلى الله عليه وسلم الذي أكمل به الدين، وبعث رحمةً للعالمين، ترى أيها الناظر إليهم أعينهم تفيض من الدمع، أي: تمتلئ دمعًا حتى يتدفق الدمع من جوانبها لكثرته، أو حتى كأن الأعين ذابت وصارت دمعًا جاريًا، ذلك من أجل ما منع غيرهم من العتو والاستكبار،

(١) التحرير والتنوير، ٧/ ٧.

(٢) المصدر السابق، ٧/ ٨.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٦٨.

قوله: ﴿مِنَ الْحَقِّ﴾ بيانٌ لقوله: ﴿مِمَّا عَرَفُوا﴾ وقيل: إن (من) فيه للتبعيض، أي: إن أعينهم فاضت عبرةً ودموعًا، عبرةً منهم وخشوعًا؛ لمعرفتهم بعض الحق، إذ سمعوا بعض الآيات دون بعضٍ، فكيف لو عرفوا الحق كله بسماع جميع القرآن، ومعرفة ما جاءت به السنة من الأسوة الحسنة البيان، وهذا القول إنما يصح بتطبيقه على واقعةٍ معينةٍ كالذي يسمع في النجاشي وجماعته، وأما ظاهر الجملة الشرطية فهو بيان ما يكون من شأنهم عند سماع القرآن، وهو العبرة والاستعبار، والدموع الغزار»[1].

قال أبو حيان: «هذا وصفٌ برقة القلوب والتأثر بسماع القرآن، والظاهر أن الضمير يعود على ﴿قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا﴾ فيكون عامًا، ويكون قد أخبر عنهم بما يقع من بعضهم كما جرى للنجاشي، حيث تلا عليه جعفرٌ سورة مريم إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ٣٤]، وسورة طه إلى قوله: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩] فبكى، وكذلك قومه الذين وفدوا على الرسول حين قرأ عليهم (يس) فبكوا»[2].

قال الرازي: «وأما قوله ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ ففيه وجهان:

الأول: المراد أن أعينهم تمتلئ من الدمع حتى تفيض؛ لأن الفيض أن يمتلئ الإناء وغيره حتى يطلع ما فيه من جوانبه.

الثاني: أن يكون المراد المبالغة في وصفهم بالبكاء، فجعلت أعينهم كأنها تفيض بأنفسها»[3].

«ثم بين تعالى ما يكون من مقالهم، بعد بيان ما يكون من حالهم فقال: ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي: يقولون هذا القول يريدون به إنشاء الإيمان، والتضرع إلى الله تعالى بأن يقبله منهم ويكتبهم مع أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم، الذين جعلهم الله تعالى كالرسل شهداء على الناس، وإنما يقولون ذلك؛ لأنهم كانوا يعلمون من كتبهم، أو مما يتناقلونه عن سلفهم، أن النبي الأخير الذي يكمل الله به الدين يكون متبعوه شهداء على الناس، أو المعنى أنهم بدخولهم في هذه الأمة يكتبون من الشاهدين، فذكر الله الأمة بأشرف أوصافها.

قال ابن عباسٍ رضي الله عنه: إن الشاهدين هنا هم الشهداء في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]»[4].

قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي: مع من يشهد

---

(١) تفسير المنار، ٧/ ١١، ١٢.
(٢) البحر المحيط، ٤/ ٣٤٥.
(٣) مفاتيح الغيب، ١٢/ ٤١٤.
(٤) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٧/ ١١.

بالحق.

وللمفسرين في المراد بالشاهدين هاهنا أربعة أقوال:

أحدها: محمد وأمته، رواه علي بن أبي طلحة، وعكرمة عن ابن عباس.

والثاني: أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، رواه أبو صالح عن ابن عباس.

والثالث: الذين يشهدون بالإيمان، قاله الحسن.

والرابع: الأنبياء والمؤمنون، قاله الزجاج»[(١)].

﴿وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾

«هذا تتمة قولهم، والمعنى: أي مانع يمنعنا من الإيمان بالله وحده وبما جاءنا من الحق على لسان هذا الرسول، بعد أن ظهر لنا أنه البارقليط روح الحق الذي بشر به المسيح، والحال أننا نطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين، والذين صلحت أنفسهم بالعقائد الصحيحة، والفضائل الكاملة، والعبادات الخاصة، والمعاملات المستقيمة، وهم أتباع هذا النبي الكريم، الذين رأينا أثر صلاحهم بأعيننا بعد ما كان فسادهم في جاهليتهم ما كان؟ أي: لا مانع من هذا الإيمان بعد تحقيق موجبه، وقيام سببه، فسروا القوم الصالحين بأصحاب الرسول، وهو متعينٌ بالنسبة إلى من آمن من نصارى الحبشة، وكل من سار على طريقهم يعد منهم ويحشر معهم»[(٢)].

قال ابن كثير: «وهذا الصنف من النصارى هم المذكورون في قوله عز وجل ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وهم الذين قال الله فيهم: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝٥٢ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝٥٣ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٥٤ وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [القصص: ٥٢-٥٥]»[(٣)].

الصفة الثامنة: الرأفة والرحمة ورقة القلب.

وقد جاء في وصف أتباع عيسى عليه السلام أيضًا قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا

(١) زاد المسير، ١/ ٥٧٦.

(٢) تفسير المنار، ٧/ ١١، ١٢.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ٣/ ١٦٨.

﴿عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا ۖ فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧].

قال الشوكاني: «الذين اتبعوه هم الحواريون، جعل الله في قلوبهم مودةً لبعضهم البعض، ورحمةً يتراحمون بها، بخلاف اليهود فإنهم ليسوا كذلك، وأصل الرأفة: اللين، والرحمة: الشفقة، وقيل: الرأفة أشد الرحمة»[1].

«ومعنى جعل الرأفة والرحمة في قلوب الذين اتبعوه: أن تعاليم الإنجيل الذي آتاه الله عيسى أمرتهم بالتخلق بالرأفة والرحمة فعملوا بها، أو أن ارتياضهم بسيرة عيسى عليه السلام أرسخ ذلك في قلوبهم وذلك بجعل الله تعالى ؛ لأنه أمرهم به ويسره عليهم، ذلك أن عيسى بعث؛ لتهذيب نفوس اليهود واقتلاع القسوة من قلوبهم التي تخلقوا بها في أجيالٍ طويلةٍ.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِىَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾ [البقرة: ٧٤].

والرأفة: الرحمة المتعلقة بدفع الأذى والضر فهي رحمةٌ خاصةٌ . والرحمة: العطف والملاينة، فعطف الرحمة على الرأفة من عطف العام على الخاص لاستيعاب أنواعه بعد أن اهتم ببعضها»[2].

«قال مقاتلٌ: المراد من الرأفة والرحمة هو أنهم كانوا متوادين بعضهم مع بعضٍ، كما وصف الله أصحاب محمدٍ عليه الصلاة والسلام بذلك في قوله: ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]»[3].

وقال الألوسي: «والرأفة في المشهور: الرحمة، لكن قال بعض الأفاضل: إنها إذا ذكرت معها يراد بالرأفة ما فيه درء الشر ورأب الصدع، وبالرحمة ما فيه جلب الخير ولذا ترى في الأغلب تقديم الرأفة على الرحمة وذلك؛ لأن درء المفاسد أهم من جلب المصالح»[4].

«وقيل: هذا إشارةٌ إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألان الله قلوبهم لذلك، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحرفوا الكلم عن مواضعه»[5].

«وخصت الرهبانية بالابتداع؛ لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها، بخلاف الرهبانية، فإنها أفعال بدنٍ مع شيءٍ في القلب، ففيها موضعٌ للتكسب.

قال قتادة: الرأفة والرحمة من الله، والرهبانية هم ابتدعوها.

والرهبانية: رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن واتخاذ الصوامع.

(١) فتح القدير، ٥/ ٢١٣.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٧/ ٤٢١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٩/ ٤٧٣.
(٤) روح المعاني، ١٤/ ١٨٩.
(٥) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ١٧/ ٢٦٢.

وجعل أبو عليٍ الفارسي ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ مقتطعةً من العطف على ما قبلها من ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾، فانتصب عنده ورهبانيةً على إضمار فعلٍ يفسره ما بعده، فهو من باب الاشتغال، أي: وابتدعوا رهبانيةً ابتدعوها»[1].

تحريف الانجيل

سبق أن ذكرنا أن الإنجيل المنزل من عند الله على المسيح عليه السلام قد تعرض للتحريف والتغيير والتبديل، حتى لقد صار الآن مفقودا كله أو أكثره، وأن النصارى بعد زمن المسيح قد استبدلوه بصحائف وكتب كتبوها بأيديهم سموها أناجيل، وادعوا أنها وحي من الله إلى كاتبيها، وهم في زعمهم قديسون من تلاميذ المسيح أو تلاميذ تلاميذه.

والأناجيل المعتبرة عندهم أربعة: إنجيل متى، وإنجيل مرقس، وإنجيل لوقا، وإنجيل يوحنا، بالإضافة إلى سفر أعمال الرسل الذي كتبه لوقا كما يزعمون، ومن هذه الأناجيل الأربعة وهذا السفر يتكون ما يعرف بالأسفار التاريخية من العهد الجديد، تليها إحدى وعشرين رسالة من بولس إلى المدن النصرانية تعرف بالأسفار التعليمية، وفي النهاية تأتي رؤيا يوحنا اللاهوتي، وهي عبارة عن رؤيا يقظة أو نبوءات منسوبة إلى يوحنا، ومن كل ما سبق يتكون ما يعرف عندهم بالعهد الجديد[2].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وأما الأناجيل التي بأيدي النصارى: فهي أربعة أناجيل؛ إنجيل متى ويوحنا

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ١٠/ ١١٥.

(٢) انظر: المسيحية، أحمد شلبي، ص١٦٩.

ولوقا ومرقس، وهم متفقون على أن لوقا ومرقس لم يريا المسيح، وإنما رآه متى ويوحنا، وأن هذه المقالات الأربعة التي يسمونها الإنجيل، وقد يسمون كل واحدٍ منهم إنجيلًا، إنما كتبها هؤلاء بعد أن رفع المسيح، فلم يذكروا فيها أنها كلام الله، ولا أن المسيح، بلغها عن الله، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح، وأشياء من أفعاله ومعجزاته، وذكروا أنهم لم ينقلوا كل ما سمعوه منه ورأوه، فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث والسير والمغازي عن النبي صلى الله عليه وسلم من أقواله وأفعاله التي ليست قرآنًا، فالأناجيل التي بأيديهم شبه كتاب السيرة وكتب الحديث، أو مثل هذه الكتب، وإن كان غالبها صحيحًا»[(١)].

وهذه الأناجيل الأربعة التي يقدسها النصارى الآن تسوق قصة المسيح من ولادته إلى صلبه في زعمهم، ومن غير المعقول أن تكون تلك القصة وحيًا تلقاه المسيح من ربه، وعلمه حوارييه واستكتبهم إياه، إن كل عاقل يجزم أن المسيح لم يقرأ هذه الأناجيل في حياته، فكيف يقال بعد ذلك إنها مقدسة؟ وتلك الأناجيل المزعومة مقطوعة السند إلى مؤلفيها، بل إن نسبتها إليهم قائمة على الظن وهو لا يغني من الحق شيئا[(٢)].

«ومكان الأناجيل في النصرانية مكان القطب والعماد، وإذا كانت شخصية المسيح وما حاطوها به من أفكار هي شعار المسيحية، فإن هذه الأناجيل هي المشتملة على أخبار تلك الشخصية، من وقت الحمل إلى وقت صلبه في اعتقادهم وقيامته من قبره بعد ثلاث ليال، ثم رفعه بعد أربعين ليلة، وهي بهذا تشتمل على عقيدة ألوهية المسيح في زعمهم، والصلب والفداء، أي: إنها تشتمل على لب المسيحية في نظرهم بعد المسيح ومعناها، وهذه الأناجيل الأربعة هي التي تعترف بها الكنائس، وتقرها الفرق المسيحية وتأخذ بها، ولكن التاريخ يروى لنا أنه كانت في العصور الغابرة أناجيل أخرى، قد أخذت بها فرق قديمة، وراجت عندها، ولم تعتنق كل فرقة إنجيلها، فعند كل من أصحاب مرقيون، وأصحاب ديسان إنجيل يخالف بعضه هذه الأناجيل، ولأصحاب ماني إنجيل يخالف هذه الأربعة، وهو الصحيح في زعمهم، وهناك إنجيل يقال له إنجيل السبعين ينسب إلى تلامس، والنصارى ينكرونه، وهناك إنجيل اشتهر باسم التذكرة، وإنجيل سرن تهس، ولقد كثرت الأناجيل

(١) الجواب الصحيح، ٣/ ٢١.

(٢) أصول النصرانية في الميزان، محمد سيد المسير، ص١١٧.

كثرة عظيمة، وأجمع على ذلك مؤرخو النصرانية، ثم أرادت الكنيسة في آخر القرن الثاني الميلادي، أو أوائل القرن الرابع أن تحافظ على الأناجيل الصادقة -في اعتقادها- فاختارت هذه الأناجيل الأربعة من الأناجيل الرائجة إبان ذلك، ولكن يذكر بعض المؤرخين إنه لم توجد عبارة تشير إلى وجود أناجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا قبل آخر القرن الثالث. وأول من ذكر هذه الأناجيل الأربعة أرينيوس في سنة ٢٠٩. ثم جاء من بعده كليمنس اسكندريانوس في سنة ٢١٦، وأظهر أن هذه الأناجيل الأربعة واجبة التسليم، ولم تكتف الكنيسة باختيار هذه الأناجيل الأربعة، بل أرادت الناس على قبولها؛ لاعتقادها صحتها، ورفض غيرها، وتم لها ما أرادت؛ فصارت هذه الأناجيل هي المعتبرة دون سواها»[1].

وقد أخبر الله عز وجل في القرآن الكريم أن أهل الكتاب قد غيروا في كتبهم وبدلوا وحرفوا.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٤ - ١٦].

قال الفخر الرازي: «المراد أن سبيل النصارى مثل سبيل اليهود في نقض المواثيق من عند الله، وإنما قال: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ ولم يقل: ومن النصارى، وذلك؛ لأنهم إنما سموا أنفسهم بهذا الاسم ادعاءً لنصرة الله تعالى، وهم الذين قالوا لعيسى: نحن أنصار الله، فكان هذا الاسم في الحقيقة اسم مدح، فبين الله تعالى أنهم يدعون هذه الصفة، ولكنهم ليسوا موصوفين بها عند الله تعالى، وقوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ﴾ أي: مكتوبٌ في الإنجيل أن يؤمنوا بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وتنكير الحظ في الآية يدل على أن المراد به حظٌّ واحدٌ، وهو الذي ذكرناه من الإيمان بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم»[2].

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «وقد أخبرنا سبحانه وتعالى أن النصارى نسوا حظًّا

(١) محاضرات في النصرانية، محمد أبو زهرة، ص٤٠-٤١.

(٢) مفاتيح الغيب، ١١/ ٣٢٦.

مما ذكروا به كاليهود، وهم أجدر بذلك، فإن التوراة كتبت في زمن نزولها، وكان الألوف من الناس يعملون بها، ثم فقدت، والكثير من أحكامها محفوظٌ معروفٌ، ولا ثقة بقول بعض علماء الإفرنج: إن الكتابة لم تكن معروفةً في زمن موسى عليه السلام.

وأما كتب النصارى فلم تعرف وتشهر إلا في القرن الرابع للمسيح؛ لأن أتباع المسيح كانوا مضطهدين بين اليهود والرومان، فلما أمنوا باعتناق الملك قسطنطين النصرانية سياسةً ظهرت كتبهم، ومنها تواريخ المسيح المشتملة على بعض كلامه الذي هو إنجيله، وكانت كثيرةً، فتحكم فيها الرؤساء حتى اتفقوا على هذه الأربعة. فمن فهم ما قلناه في الفرق بين عرف القرآن وعرف القوم في مفهوم التوراة والإنجيل يتبين له أن ما جاء في القرآن هو الممحص للحقيقة التي أضاعها القوم، وهي ما يفهم من لفظ التوراة والإنجيل، ويصح أن يعد هذا التمحيص من آيات كون القرآن موحًى به من الله.

ولولا ذلك لما أمكن ذلك الأمي الذي لم يقرأ هذه الأسفار والأناجيل المعروفة ولا تواريخ أهلها؛ أن يعرف أنهم نسوا حظًا مما أوحي إليهم وأوتوا نصيبًا منه فقط، بل كان يجاريهم على ما هم عليه ويقول: الأناجيل لا الإنجيل. ثم إن من فهم هذا لا تروج عنده شبهات القسيسين الذين يوهمون عوام المسلمين أن ما في أيديهم من التوراة والأناجيل هي التي شهد بصدقها القرآن»[1].

فالنصارى قد أخفوا ما عندهم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ الْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

قال السعدي: «يخبر تعالى: أن أهل الكتاب قد تقرر عندهم، وعرفوا أن محمدًا رسول الله، وأن ما جاء به، حق وصدق، وتيقنوا ذلك، كما تيقنوا أبناءهم بحيث لا يشتبهون عليهم بغيرهم، فمعرفتهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، وصلت إلى حد لا يشكون فيه ولا يمترون، ولكن فريقًا منهم - وهم أكثرهم - الذين كفروا به، كتموا هذه الشهادة مع تيقنها، وهم يعلمون»[2].

كما حرفوا عقيدة التوحيد إلى التثليث، ولهذا بين القرآن الكريم عقب هذه الآيات فساد قولهم بألوهية المسيح وبنوته لله وحلول الله فيه، وبأن فيه جزءا إلهيًا أو طبيعة إلهية، إلى آخر ما لفقوه في إنجيلهم ونسبوه للمسيح، ورد على هذه الفرية بما يؤكد عبودية المسيح وأمه ومن في الأرض جميعًا لله.

(١) تفسير المنار، ٣/ ١٣٢.
(٢) تيسير الكريم الرحمن، ص٧٢.

قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

كما بين في موضع آخر من نفس السورة أن المسيح ما ادعى الألوهية أو البنوة لله، ولا قاله ولا نسبه إلى نفسه، ولا أمرهم بعبادته من دون الله أو مع الله، بل كل ما أمرهم به هو أن يعبدوا الله الذي هو ربه وربهم ورب العالمين، وتوعد من يشرك بالله بالحرمان من الجنة ودخول النار.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٢ – ٧٣].

قال القرطبي: «وهذا قول فرق النصارى من الملكية والنسطورية واليعقوبية؛ لأنهم يقولون: أبٌ وابنٌ وروح القدس إلهٌ واحدٌ، ولا يقولون: ثلاثة آلهةٍ، وهو معنى مذهبهم، وإنما يمتنعون من العبارة وهي لازمةٌ لهم. وما كان هكذا صح أن يحكى بالعبارة اللازمة، وذلك أنهم يقولون: إن الابن إلهٌ، والأب إلهٌ، وروح القدس إلهٌ.. فأكفرهم الله بقولهم هذا»[1].

كما فند القرآن دعواهم ألوهية المسيح وأمه بما يثبت بشريتهما ويتعارض مع دعواهم ألوهيتهما من أحوالهما.

قال تعالى: ﴿مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [المائدة:٧٥].

قال الفخر الرازي: «واعلم أن المقصود من ذلك: الاستدلال على فساد قول النصارى، وبيانه من وجوهٍ:

الأول: أن كل من كان له أمٌ فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقًا لا إلهًا.

والثاني: أنهما كانا محتاجين؛ لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنيًا عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلهًا.

الثالث: قال بعضهم: إن قوله كانا يأكلان الطعام كنايةٌ عن الحدث؛ لأن من أكل الطعام فإنه لا بد وأن يحدث. .

(١) الجامع لأحكام القرآن، ٦/ ٢٤٩- ٢٥٠.

وبالجملة ففساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل»[1].

كما بين القرآن فساد زعمهم أن المسيح قد صلب، وقبر ومات وقام من بين الأموات في اليوم الثالث من دفنه، إلى آخر هذه العقائد الفاسدة والتحريفات التي بين القرآن زيفها وتحريفها.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ – ١٥٨].

قال الشوكاني: «وما ادعوه من أنهم قتلوه قد اشتمل على بيان صفته وإيضاح حقيقته الإنجيل، وما فيه هو من تحريف النصارى، أبعدهم الله، فقد كذبوا، وصدق الله القائل في كتابه العزيز: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: ألقي شبهه على غيره وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذي قتلوه وهم شاكون فيه وإن الذين اختلفوا فيه أي: في شأن عيسى، فقال بعضهم: قتلناه، وقال من عاين رفعه إلى السماء: ما قتلناه، وقيل: إن الاختلاف بينهم هو: أن النسطورية من النصارى قالوا: صلب عيسى من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته، وقالت الملكانية: وقع القتل والصلب على المسيح بكماله ناسوته ولا هوته، ولهم من جنس هذا الاختلاف كلامٌ طويلٌ لا أصل له، ولهذا قال الله: وإن الذين اختلفوا فيه لفي شكٍ منه، أي: في ترددٍ لا يخرج إلى حيز الصحة، ولا إلى حيز البطلان في اعتقادهم، بل هم مترددون مرتابون في شكهم يعمهون، وفي جهلهم يتحيرون»[2].

وقال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: ٥٥].

قال ابن عاشور: «هذا حكايةٌ لأمر رفع المسيح وإخفائه عن أنظار أعدائه. وقدم الله في خطابه إعلامه بذلك استئناسًا له، إذ لم يتم ما يرغبه من هداية قومه، مع العلم بأنه يحب لقاء الله، وتبشيرًا له بأن الله مظهرٌ دينه؛ لأن غاية هم الرسول هو الهدى، وإبلاغ الشريعة»[3].

(١) مفاتيح الغيب، ١٢/ ٤٠٩ – ٤١٠.

(٢) فتح القدير، ١/ ٦١٥ – ٦١٦.

(٣) التحرير والتنوير، ٣/ ٢٥٧.



صفات الرسول وأتباعه في الإنجيل

أولًا: تبشير الإنجيل بالرسول عليه السلام:

نص القرآن الكريم على أن الكتب السابقة ومن بينها الإنجيل قد بشرت بمبعث النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، وأن المسيح عليه السلام قد بشر أمته صراحة به ودلهم على اسمه وصفته، ذلك؛ لأن المسيح هو آخر رسول قبل رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم وليس بينهما نبي.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [الصف: ٦].

«يقول تعالى مخبرًا عن عناد بني إسرائيل المتقدمين، الذين دعاهم عيسى ابن مريم، وقال لهم: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم﴾ أي: أرسلني الله لأدعوكم إلى الخير وأنهاكم عن الشر، وأيدني بالبراهين الظاهرة، ومما يدل على صدقي كوني ﴿مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ﴾ أي: جئت بما جاء به موسى من التوراة والشرائع السماوية، ولو كنت مدعيًا للنبوة، لجئت بغير ما جاءت به المرسلون، ومصدقًا لما بين يدي من التوارة أيضًا، أنها أخبرت بي وبشرت، فجئت وبعثت مصداقًا لها ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ وهو: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب النبي الهاشمي، فعيسى عليه الصلاة والسلام، كالأنبياء يصدق بالنبي السابق، ويبشر بالنبي اللاحق، بخلاف الكذابين، فإنهم يناقضون الأنبياء أشد مناقضة، ويخالفونهم في الأوصاف والأخلاق، والأمر والنهي ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم﴾ محمد صلى الله عليه وسلم الذي بشر به عيسى ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي: الأدلة الواضحة، الدالة على أنه هو، وأنه رسول الله حقًا»[1].

«فعيسى، عليه السلام، وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل، وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشرًا بمحمدٍ، وهو أحمد، خاتم الأنبياء والمرسلين، الذي لا رسالة بعده ولا نبوة، وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال فيه: حدثنا أبو اليمان، حدثنا شعيبٌ، عن الزهري قال: أخبرني محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إن لي أسماء: أنا محمدٌ، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)»[2].

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، ص٨٥٩.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله،صلى الله عليه وسلم، رقم ٣٥٣٢، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٤.

ورواه مسلمٌ، من حديث الزهري، به نحوه، وقال أبو داود الطيالسي: حدثنا المسعودي، عن عمرو بن مرة، عن أبي عبيدة، عن أبي موسى قال: سمى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم نفسه أسماءً، منها ما حفظنا فقال: (أنا محمدٌ، وأنا أحمد، والحاشر، والمقفي، ونبي الرحمة، والتوبة، والملحمة) [1]»[2].

وعن عرباض بن سارية، قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إني عند الله مكتوبٌ لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدلٌ في طينته، وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، والرؤيا التي رأت أمي، وكذلك أمهات النبيين يرين، إنها رأت حين وضعتني أنه خرج منها نورٌ أضاءت منه قصور الشام) [3].

وقد «بشر كل نبي قومه بنبينا صلى الله عليه وسلم، وأفرد الله سبحانه عيسى بالذكر في هذا الموضع؛ لأنه آخر نبي قبل نبينا صلى الله عليه وسلم، فبين بذلك أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحدًا بعد واحد، حتى انتهت بعيسى عليه السلام»[4].

قال ابن عاشور: «وإنما أخبرهم بمجيء رسولٍ من بعده؛ لأن بني إسرائيل لم يزالوا ينتظرون مجيء رسولٍ من الله يخلصهم من براثن المتسلطين عليهم، وهذا الانتظار ديدنهم، وهم موعودون لهذا المخلص لهم على لسان أنبيائهم بعد موسى، فكان وعد عيسى به كوعد من سبقه من أنبيائهم، وفاتحهم به في أول الدعوة اعتناءً بهذه الوصية، وفي الابتداء بها تنبيهٌ على أن ليس عيسى هو المخلص المنتظر، وأن المنتظر رسولٌ يأتي من بعده، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، ولعظم شأن هذا الرسول الموعود به أراد الله أن يقيم للأمم التي يظهر فيها علامات ودلائل ليتبينوا بها شخصه، فيكون انطباقها فاتحةً لإقبالهم على تلقي دعوته، وإنما يعرفها حق معرفتها الراسخون في الدين من أهل الكتاب؛ لأنهم الذين يرجع إليهم الدهماء من أهل ملتهم.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

وقال: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]»[5].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب في أسمائه صلى الله عليه وسلم، رقم ٢٣٥٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٨/ ١٠٩.
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨/ ٣٢٥، رقم ١٧١٦٣.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ١/ ٣٠٥، رقم ٢٠٩١.
(٤) لطائف الإشارات، القشيري، ٣/ ٥٧٧.
(٥) التحرير والتنوير، ٢٨/ ١٨١

«أما اسم أحمد فقد قال بعض المفسرين: إنه علمٌ منقولٌ من المضارع للمتكلم، أو من أحمد أفعل التفضيل»[(١)]

وقال بعضهم: «هو علمٌ منقولٌ من الصفة، وهي تحتمل أن تكون مبالغةً من الفاعل، فيكون معناها: أنه أكثر حمدًا لله من غيره، أو من المفعول، فيكون معناها: أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره»[(٢)].

وقد مال القرطبي إلى القول الثاني ورجحه بقوله: «وأحمد: اسم نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو اسم علمٍ منقولٍ من صفةٍ لا من فعلٍ، فتلك الصفة أَفعل التي يراد بها التفضيل. فمعنى أحمد أي: أحمد الحامدين لربه. والأنبياء -صلوات الله عليهم- كلهم حامدون الله، ونبينا أحمد أكثرهم حمدًا.

وأما محمدٌ فمنقولٌ من صفةٍ أيضًا، وهي في معنى محمودٍ، ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار، فالمحمد هو الذي حمد مرةً بعد مرةٍ. كما أن المكرم من الكرم مرةً بعد مرةٍ، وكذلك الممدح ونحو ذلك، فاسم محمدٍ مطابقٌ لمعناه.

والله سبحانه سماه قبل أن يسمي به نفسه، فهذا علمٌ من أعلام نبوته، إذ كان اسمه صادقًا عليه، فهو محمودٌ في الدنيا لما هدي إليه ونفع به من العلم والحكمة، وهو محمودٌ في الآخرة بالشفاعة، فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ، ثم إنه لم يكن محمدًا حتى كان أحمد، حمد ربه فنبأه وشرفه، فلذلك تقدم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمدٌ، فذكره عيسى عليه السلام فقال: اسمه أحمد. وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمدٍ؛ لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له، فلما وجد وبعث كان محمدًا بالفعل، وكذلك في الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته»[(٣)].

وفي الصحيح: **(لي خمسة أسماء: أنا محمدٌ، وأحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي تحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب)**[(٤)].

ومما يدل على ذكره صلى الله عليه وسلم والتبشير به في الإنجيل ووجوب اتباعه على من أدرك زمنه واستحقاقه للمدح.

---

(١) البحر المحيط، أبو حيان، ١٠/ ١٦٦.
(٢) فتح القدير، للشوكاني، ٥/ ٢٦٣.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٨٣.
(٤) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب ما جاء في أسماء رسول الله،صلى الله عليه وسلم، عن جبير بن مطعم،رضي الله عنه، رقم ٣٥٣٢.

ثانيًا: صفات الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم:

قوله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقد نصت هذه الآية على أن التوراة والإنجيل قد ورد فيهما ذكر النبي الخاتم محمد صلى الله عليه وسلم، ووصفه بصفات يعرفها بها كل من رآه ونظر في شرعه، كما نصت على الأمر باتباعه، ومدح من اتبعوه.

وقد فصل الفخر الرازي هذه الصفات تفصيلًا فقال: إنه تعالى وصف محمدًا صلى الله عليه وسلم في هذه الآية بصفاتٍ تسع:

الصفة الأولى: كونه رسولًا، وقد اختص هذا اللفظ بحسب العرف بمن أرسله الله إلى الخلق لتبليغ التكاليف.

الصفة الثانية: كونه نبيًا، وهو يدل على كونه رفيع القدر عند الله تعالى.

الصفة الثالثة: كونه أميًا.

قال الزجاج: معنى الأمي الذي هو على صفة أمة العرب، قال عليه الصلاة والسلام: **(إنا أمةٌ أميةٌ لا نكتب ولا نحسب)**[1].

فالعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرءون، والنبي عليه الصلاة والسلام كان كذلك، فلهذا السبب وصفه بكونه أميًا، قال أهل التحقيق وكونه أميًا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته.

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾ وهذا يدل على أن نعته وصحة نبوته مكتوبٌ في التوراة والإنجيل؛ لأن ذلك لو لم يكن مكتوبًا لكان ذكر هذا الكلام من أعظم المنفرات لليهود النصارى عن قبول قوله؛ لأن الإصرار على الكذب والبهتان من أعظم المنفرات، والعاقل لا يسعى فيما يوجب نقصان حاله، وينفر الناس عن قبول قوله، فلما قال ذلك دل هذا على أن ذلك النعت كان مذكورًا في التوراة والإنجيل وذلك من أعظم الدلائل على صحة نبوته.

الصفة الخامسة: قوله: ﴿ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ استئنافًا، ويجوز أن يكون المعنى: يجدونه مكتوبًا عندهم أنه يأمرهم

(١) أخرجه البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لا نكتب ولا نحسب، رقم ١٩١٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الصيام، باب فضل شهر رمضان، عن عبد الله بن عمر،رضي الله عنهما، رقم ١٠٨٠.

بالمعروف.

الصفة السادسة: قوله: ﴿وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ والمراد منه: عبادة الأوثان، والقول في صفات الله بغير علم، والكفر بما أنزل الله على النبيين، وقطع الرحم، وعقوق الوالدين.

الصفة السابعة: قوله تعالى: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ من الناس من قال: المراد بالطيبات الأشياء التي حكم الله بحلها، وهذا بعيدٌ لوجهين، الأول: أن على هذا التقدير تصير الآية ويحل لهم المحللات وهذ محض التكرير. الثاني: أن على هذا التقدير تخرج الآية عن الفائدة؛ لأنا لا ندري أن الأشياء التي أحلها الله ما هي وكم هي؟ بل الواجب أن يكون المراد من الطيبات الأشياء المستطابة بحسب الطبع؛ وذلك لأن تناولها يفيد اللذة، والأصل في المنافع الحل فكانت هذه الآية دالةً على أن الأصل في كل ما تستطيبه النفس ويستلذه الطبع الحل إلا لدليلٍ منفصلٍ.

الصفة الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ﴾ قال عطاءٌ عن ابن عباسٍ: يريد الميتة والدم وما ذكر في سورة المائدة إلى قوله: ذلكم فسقٌ، وأقول: كل ما يستخبثه الطبع وتستقذره النفس كان تناوله سببًا للألم، والأصل في المضار الحرمة، فكان مقتضاه أن كل ما يستخبثه الطبع فالأصل فيه الحرمة إلا لدليلٍ منفصلٍ.

الصفة التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾.

الإصر: الثقل الذي يأصر صاحبه، أي: يحبسه من الحراك لثقله، والمراد منه: أن شريعة موسى عليه السلام كانت شديدةً.

وقوله: ﴿وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ المراد منه: الشدائد التي كانت في عباداتهم كقطع أثر البول، وقتل النفس في التوبة، وقطع الأعضاء الخاطئة، وتتبع العروق من اللحم وجعلها الله أغلالًا؛ لأن التحريم يمنع من الفعل، كما أن الغل يمنع عن الفعل، وقيل: كانت بنو إسرائيل إذا قامت إلى الصلاة لبسوا المسوح، وغلوا أيديهم إلى أعناقهم تواضعًا لله تعالى[(١)].

وهذه الصفات غاية في إظهار صفة الرسول صلى الله عليه وسلم لكل من رآه وأدركه من أهل الكتاب، حتى كان أحدهم إذا رآه عرفه بصفاته المذكورة في كتبهم كما يعرف ابنه الذي من صلبه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦].

فقد دلت هذه الآية على «أنهم يعرفون النبي صلى الله عليه وسلم بما في كتبهم من البشارة به، ومن نعوته وصفاته التي لا تنطبق

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٣٨٠.

على غيره، وبما يظهر من آياته وآثار هدايته، كما يعرفون أبناءهم الذين يتولون تربيتهم وحياطتهم حتى لا يفوتهم من أمرهم شيءٌ. قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه - وكان من علماء اليهود وأحبارهم: - أنا أعلم به مني بابني، فقال له عمر رضي الله عنه: لم؟ قال: لأني لست أشك في محمدٍ أنه نبيٌّ، فأما ولدي فلعل والدته خانت. فقد اعترف من هداه الله من أحبارهم كهذا العالم الجليل، وتميمٍ الداري من علماء النصارى أنهم عرفوه - صلى الله عليه وسلم- معرفةً لا يتطرق إليها الشك»[1].

ثالثًا: صفات أتباعه:

وقد وصف الله أتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في الإنجيل بصفات عظيمة، فقال تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩].

«والمثل يطلق على الحالة العجيبة، ويطلق على النظير، أي المشابه»[2].

«وقوله: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ يقول: وصفتهم في إنجيل عيسى صفة زرع أخرج شطأه، وهو فراخه، يقال منه: قد أشطأ الزرع: إذا فرخ، فهو يشطي إشطاء، وإنما مثلهم بالزرع المشطئ؛ لأنهم ابتدأوا في الدخول في الإسلام، وهم عدد قليلون، ثم جعلوا يتزايدون، ويدخل فيه الجماعة بعدهم، ثم الجماعة بعد الجماعة، حتى كثر عددهم، كما يحدث في أصل الزرع الفرخ منه، ثم الفرخ بعده حتى يكثر وينمي»[3].

وهذا مثلٌ ضربه الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وسلم؛ إذ خرج وحده، فأيده بأصحابه، كما قوى الطاقة من الزرع بما نبت منها، حتى كبرت وغلظت واستحكمت، وقال قتادة: في الإنجيل: سيخرج قومٌ ينبتون نبات الزرع.

«وقوله تعالى: ﴿كَزَرْعٍ﴾، هو على كل الأقوال وفي أي كتاب منزل: فرض مثل للنبي - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه، في أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث وحده، فكان كالزرع حبة واحدة، ثم كثر المسلمون فهم كالشطء، وهو فراخ السنبلة التي تنبت حول الأصل، يقال: أشطأت الشجرة إذا خرجت غصونها، وأشطأ الزرع: إذا خرج شطأه»[4].

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾، أي: وصفوا في الكتابين به ومثلوا بذلك؛ وإنما جعلوا

(١) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، ٢/ ١٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، ٢٦/ ٢٠٧.
(٣) جامع البيان، الطبري، ٢٢/ ٢٦٥.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية، ٥/ ١٤٢.

كالزرع لأنه أول ما يخرج يكون ضعيفًا وله نموٌّ إلى حد الكمال، فكذلك المؤمنون، والشطء الفرخ، و ﴿فَآزَرَهُ﴾ يحتمل أن يكون المراد أخرج الشطء وآزر الشطء، وهو أقوى وأظهر، والكلام يتم عند قوله يعجب الزراع[1].

«والضمير المنصوب في آزره عائدٌ على الزرع؛ لأن الزرع أول ما يطلع رقيق الأصل، فإذا خرجت فراخه غلظ أصله وتقوى، وكذلك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا أقلةً ضعفاء، فلما كثروا وتقووا قاتلوا المشركين. وقال الحسن: آزره: قواه وشد أزره. وقال السدي: صار مثل الأصل في الطول. فاستغلظ: صار من الرقة إلى الغلظ. فاستوى: أي: تم نباته. على سوقه: جمع ساقٍ، كنايةٌ عن أصوله»[2].

«أي: فكذلك أصحاب محمدٍ صلى الله عليه وسلم آزروه وأيدوه ونصروه، فهم معه كالشطء مع الزرع»[3].

«وقال قتادة: مثل أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في الإنجيل مكتوبٌ أنه سيخرج من أمة محمدٍ صلى الله عليه وسلم قومٌ ينبتون نباتًا كالزرع، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»[4].

«﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ﴾: جملةٌ في موضع الحال، وإذا أعجب الزراع فهو أحرى أن يعجب غيرهم؛ لأنه لا عيب فيه، إذ قد أعجب العارفين بعيوب الزرع، ولو كان معيبًا لم يعجبهم، وهنا تم المثل. وليغيظ: متعلقٌ بمحذوفٍ يدل عليه الكلام قبله تقديره: جعلهم الله بهذه الصفة؛ ليغيظ بهم الكفار»[5].

«قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ أي: إنما كثرهم وقواهم ليغيظ بهم الكفار، وقال مالك بن أنس: من أصبح وفي قلبه غيظ على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد أصابته هذه الآية. وقال ابن إدريس: لا آمن أن يكونوا قد ضارعوا الكفار، يعني الرافضة؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾»[6].

وقال القرطبي: «وهذا مثلٌ ضربه الله تعالى لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، يعني: أنهم يكونون قليلًا ثم يزدادون ويكثرون، فكان النبي صلى الله عليه وسلم حين بدأ بالدعاء إلى دينه ضعيفًا، فأجابه الواحد بعد الواحد حتى قوي أمره، كالزرع يبدو بعد البذر ضعيفًا، فيقوى حالًا بعد حالٍ حتى يغلظ نباته وأفراخه. فكان هذا من أصح مثلٍ وأقوى بيانٍ»[7].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي، ٢٨/ ٨٩.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان، ٩/ ٥٠٢.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٣٦٢.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان، ٩/ ٥٠١.
(٥) المصدر السابق، ٩/ ٥٠٣.
(٦) زاد المسير، ابن الجوزي، ٤/ ١٣٩، ١٤٠.
(٧) الجامع لأحكام القرآن، ١٦/ ٢٩٥.

فالصحابة رضي الله عنهم خلصت نياتهم وحسنت أعمالهم، فكل من نظر إليهم أعجبوه في سمتهم وهديهم، وقال مالكٌ، رحمه الله: بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون: «والله لهؤلاء خيرٌ من الحواريين فيما بلغنا». وصدقوا في ذلك، فإن هذه الأمة معظمةٌ في الكتب المتقدمة، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد نوه الله بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة[1].

موضوعات ذات صلة:

أهل الكتاب، التوراة، عيسى عليه السلام، القرآن، الكتب المنزلة، النصارى

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، ٧/ ٣٦٢.





عناصر الموضوع

مفهوم الإنذار	٢٨٨
الإنذار في الاستعمال القرآني	٢٨٩
الألفاظ ذات الصلة	٢٩٠
الأساليب القرآنية في الإنذار	٢٩٢
الإنذار وسائله وأغراضه	٢٩٥
المنذرون	٣٠٠
المنذرون ومواقفهم	٣٠٥
المنذر منه أو المحذر منه	٣١٣
عواقب عدم الاستجابة للإنذار	٣١٧

مفهوم الإنذار

أولًا: المعنى اللغوي:

قال ابن فارس رحمه الله: النون والذال والراء كلمةٌ تدل على تخويفٍ أو تخوفٍ، منه الإنذار: الإبلاغ؛ ولا يكاد يكون إلا في التخويف.

ونذر بالشيء، كفرح: علمه فحذره، وأنذره بالأمر إنذارًا ونذرًا -ويضم وبضمتين- ونذيرًا: أعلمه، وحذره، وخوفه في إبلاغه، والاسم: النُّذْرى بالضم-، والنذر -بضمتين- والنذير: الإنذار، كالنذارة -بالكسر-، وهذه عن الإمام الشافعي رضي الله عنه والمنذر، وجمعها: نذرٌ، وصوت القوس، والرسول، والشيب، وتناذروا: أنذر بعضهم بعضًا[1].

والإنذار: الإبلاغ، ولا يكون إلا في التخويف، والاسم النذر[2].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الإنذار: إخبارٌ فيه تخويف، كما أن التبشير إخبار فيه سرور[3].

والإنذار: الإعلام بما يحذر منه، ولا يكاد يكون إلا في تخويف يسع زمانه الاحتراز، فإن لم يسع زمانه الاحتراز كان إشعارًا وإيذانًا بوقوع المحذور[4]، وهو مقصور على إبلاغ المحذر عن الأمر المخوف منه دون أن يتضمن ذكر الوعيد[5].

والغرض منه الإعلام بموضع المخافة؛ لتقع به السلامة[6].

ويمكن تعريفه بأنه: الإبلاغ عن خطر يترتب على فعل لابد من تركه؛ ليمتنع وقوع الخطر.

فالمعنى الاصطلاحي لا يختلف عن المعنى اللغوي.

---

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي، ص٤٨١ .
(٢) انظر: لسان العرب،ابن منظور، ٥/ ٢٠٠ .
(٣) المفردات، الأصفهاني، ٧٩٧ .
(٤) انظر: التوقيف، المناوي، ١/ ٦٤ .
(٥) انظر: الكليات، الكفوي،١/ ٢٠١.
(٦) انظر: التوقيف، المناوي، ص٣٢٣ .

الانذار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نذر) في القرآن الكريم (١٣٠) مرة، يخص موضوع البحث منها (١٢٤) مرة[1].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	١٠	﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦﴾ [البقرة:٦]
الفعل المضارع	٢٦	﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ [الأنعام:١٣٠]
فعل الأمر	٩	﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ﴾ [مريم:٣٩]
المصدر	١	﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المرسلات:٦]
اسم الفاعل	١٥	﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢﴾ [الصافات:٧٢]
اسم المفعول	٥	﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ۝٥٨﴾ [النمل:٥٨]
صيغة المبالغة	٤٤	﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢﴾ [هود:٢]
الاسم	١٢	﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥﴾ [القمر:٥]

وجاء الإنذار في الاستعمال القرآني بمعناه اللغوي، وهو: إخبار فيه تخويف، والنذير: المنذر، ويقع على كل شيء فيه إنذار، إنسانًا كان أو غيره[2].

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص ٦٩١-٦٩٣.
(٢) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٧٩٧، الوجوه والنظائر، الدامغاني ص ٤٤٧.

الألفاظ ذات الصلة

١ التخويف:

التخويف لغة:

الإخافة، وهو إدخال الخوف في نفس المخاطب[١].

التخويف اصطلاحًا:

إدخال الفزع في قلب المخاطب[٢]؛ حثًا على التحرز من ارتكاب محظور[٣].

الصلة بين الإنذار والتخويف:

الإنذار تخويف مع إعلام موضع المخافة، فإذا خوف الإنسان غيره وأعلمه حال ما يخوفه به فقد أنذره، وإن لم يعلمه ذلك لم يقل: أنذره[٤]، ويقال: خوفه.

٢ التهديد:

التهديد لغة:

التخويف[٥]، والتوعد بالعقوبة[٦].

التهديد اصطلاحًا:

زعزعة أمن المخاطب بالوعيد[٧]، وتخويفه بأمر مكروه مفسد لحاله.

الصلة بين الإنذار والتهديد:

الإنذار: تخويف مع إعلام موضع المخافة، أما التهديد: الوعيد والتخويف بالعقوبة[٨]، فالإنذار يتعلق بالمخوّف والمخوّف منه، أما التهديد فيتعلق بالعقوبة المحققة للمنذر.

٣ الوعيد:

الوعيد لغة:

التهديد بالشر[٩].

(١) انظر: مختار الصحاح، الرازي ص٩٨ .
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور،٩/ ٩٩ .
(٣) انظر: المفردات، الأصفهاني،ص٣٠٣ .
(٤) الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ٢٤٢ .
(٥) انظر: مختار الصحاح، الرازي، ص٣٢٥.
(٦) انظر: المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، ٢/ ٩٧٦ .
(٧) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص٨٣٤ .
(٨) لسان العرب، ابن منظور، ٣/ ٤٣٣ .
(٩) انظر: تاج العروس،الزبيدي، ٩/ ٣٠٩، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر،٣/ ٢٤٦٧ .



الوعيد اصطلاحًا:

إنذار بما سيحدث من دمار ونكبات[1].

الصلة بين الإنذار والوعيد:

سبب الإنذار النصح والشفقة، أما الوعيد فهو حاصلٌ عن غضبٍ[2].

٤ الترهيب:

الترهيب لغة:

التخويف الشديد[3].

الترهيب اصطلاحًا:

المبالغة في إثارة القلق والاضطراب في نفس السامع ظاهرًا وباطنًا[4] من شيء؛ ليتحاشاه.

الصلة بين الإنذار والترهيب:

الإنذار: تخويف مع إعلام موضع المخافة، أما الترهيب: «فهو كل ما يخيف المدعو ويحذره من عدم الاستجابة، أو رفض الحق أو عدم الثبات عليه بعد قبوله»[5]، فالإنذار يتعلق بالمخوف والمخوف منه، أما الترهيب فيتعلق بنتيجة عدم الاستجابة.

٥ التبشير:

التبشير لغة:

الخبر الذي يؤثر في البشرة تغيرًا[6].

التبشير اصطلاحًا:

الإخبار بما يفيد السرور[7].

الصلة بين الإنذار والتبشير:

الإنذار فيه إثارة للخوف والقلق، ويؤثر في النفس تنغيصًا، بينما التبشير يعزز الأمن والاطمئنان، ويؤثر في النفس سرورًا، وعليه فإن اللفظين متضادان.

(١) انظر: معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ٣/ ٢٤٦٧ .
(٢) انظر: المصباح المنير، الفيومي، ٢/ ٦٦٥ .
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٢/ ٤٧، المصباح المنير، الفيومي، ١/ ٢٤١، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ٢/ ٩٤٩ .
(٤) انظر: التوقيف، المناوي، ص١٨٢ .
(٥) أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، ص٤٣٧ .
(٦) انظر: تاج العروس، الزبيدي، ١٠/ ١٨٥ .
(٧) انظر: المصدر السابق .

الأساليب القرآنية في الإنذار

تنوعت أساليب القرآن في الحديث عن الإنذار وهذا ما يتضح فيما يأتي:

أولًا: أسلوب الطلب المباشر:

لقد طلب الله سبحانه وتعالى من الرسول صلى الله عليه وسلم طلبًا مباشرًا بإنذار الخلق عامة، فقال تعالى: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [المدثر: ٢].

أي: قم من مضجعك فحذر الناس من عذاب الله، قال قتادة رحمه الله: «أي: أنذر عذاب الله، ووقائعه بالأمم»[١].

قال ابن القيم رحمه الله: «فإنه لما نزل عليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١ - ٤].

شمر عن ساق الدعوة، وقام في ذات الله أتم قيام، ودعا إلى الله ليلًا ونهارًا، وسرًا وجهارًا، ولما نزل عليه: ﴿فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤].

فصدع بأمر الله لا تأخذه فيه لومة لائم، فدعا إلى الله الصغير والكبير، والحر والعبد، والذكر والأنثى، والأحمر والأسود، والجن والإنس»[٢].

وقال سيد قطب رحمه الله في تفسير: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: «إنه النداء العلوي الجليل للأمر العظيم الثقيل.. نذارة هذه البشرية وإيقاظها، وتخليصها من الشر في الدنيا، ومن النار في الآخرة، وتوجيهها إلى طريق الخلاص قبل فوات الأوان.. وهو واجب ثقيل شاق، حين يناط بفرد من البشر -مهما يكن نبيًا رسولًا- فالبشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والعناد والإصرار والالتواء والتفصي من هذا الأمر، بحيث تجعل من الدعوة أصعب وأثقل ما يكلفه إنسان من المهام في هذا الوجود! ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾.

والإنذار هو أظهر ما في الرسالة، فهو تنبيه للخطر القريب الذي يترصد للغافلين السادرين في الضلال، وهم لا يشعرون، وفيه تتجلى رحمة الله بالعباد، وهم لا ينقصون في ملكه شيئًا حين يضلون، ولا يزيدون في ملكه شيئًا حين يهتدون، غير أن رحمته اقتضت أن يمنحهم كل هذه العناية؛ ليخلصوا من العذاب الأليم في الآخرة، ومن الشر الموبق في الدنيا، وأن يدعوهم رسله ليغفر لهم، ويدخلهم جنته من فضله!»[٣].

ثانيًا: أسلوب خطاب الأنبياء لإنذار أقوامهم:

خاطب سبحانه وتعالى الأنبياء عليهم السلام طالبًا منهم إنذار أقوامهم، ومن ذلك

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٣٩٢.
(٢) زاد المعاد ٣/ ١٢.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٧٥٤.

إنذار نوح عليه السلام لقومه:

قال تعالى طالبًا من نوح إنذار قومه: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١].

فامتثل أمر ربه، وقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ [نوح: ٢-٣].

ولكن انتفع بالإنذار من قومه القليل، وهم المؤمنون معه، قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

أما الكثير من قومه لم ينتفعوا بإنذاره لهم، وأعرضوا فأخذهم الطوفان، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

ثالثًا: أسلوب القصص:

لقد قص الله في القرآن قصص الأمم السابقة التي أنذرت فأعرضت.

فقال في سورة القمر في حق قوم نوح لما أعرضوا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ۝٩ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ۝١٠ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ۝١١ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ۝١٢ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ۝١٣ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ۝١٤ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٥ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ٩-١٦].

لما كذب قوم نوح استنصر بالله، فقال: إن قومي غلبوني، ولم يستجيبوا لي، فانتصر منهم بعقاب تنزله عليهم، ففتح الله أبواب السماء بماء متدفق متتابع، وفجر الأرض فصارت عيونًا ينبع منها الماء، فالتقى الماء النازل من السماء مع الماء النابع من الأرض على أمر من الله قدره في الأزل، فأغرق الجميع إلا من نجاه الله.

وقال تعالى في حق قوم عاد لما أنذروا فأعرضوا: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ۝١٨ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٨-٢١].

وكذبت عاد نبيها هودًا عليه السلام، فتأملوا -يا أهل مكة- كيف كان عذابي لهم؟ وكيف كان إنذاري لغيرهم بعذابهم؟ إنا بعثنا عليهم ريحًا شديدة باردة في يوم شر وشؤم مستمر معهم إلى ورودهم جهنم، تقتلع الناس من الأرض، وترمي بهم على رءوسهم، كأنهم أصول نخل منقلع من مغرسه، فتأملوا -يا أهل مكة- كيف كان عذابي لهم؟ وكيف كان إنذاري لغيرهم بعذابهم؟

وقال تعالى في حق قوم ثمود لما أنذروا فأعرضوا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ۝٢٣ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ۝٢٤

أَءُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾

[القمر: ٢٣- ٣١].

وكذبت ثمود بما أنذرهم به رسولهم صالح عليه السلام، فبعث الله عليهم صيحة واحدة فأهلكتهم، فكانوا كيبيس الشجر يتخذ منه المحتظر حظيرة لغنمه.

وقال تعالى في حق قوم لوط لما أنذروا فأعرضوا: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ﴾

[القمر: ٣٣- ٣٧].

وكذبت قوم لوط بما أنذرهم به رسولهم لوط عليه السلام، فبعث الله عليهم ريحًا ترميهم بالحجارة، إلا آل لوط عليه السلام لم يصبهم العذاب، فقد أنقذناهم منه.

وقال تعالى في حق قوم فرعون لما أنذروا فأعرضوا: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾

[القمر: ٤١- ٤٣].

وكذب قوم فرعون بالبراهين والحجج التي جاء بها موسى عليه السلام، فعاقبهم الله على تكذيبهم بها، عقوبة عزيز، لا يغلبه أحد، مقتدر لا يعجز عن شيء.

الإنذار وسائله وأغراضه

تعددت وسائل وأغراض الإنذار في القرآن وهذا ما يتضح مما يأتي:

أولًا: وسائل الإنذار:

١. الوحي:

لقن الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بـ(قل) التلقينية أنه ما يخوف قومه من العذاب إلا بوحي من الله وهو القرآن، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُنذِرُكُم بِٱلْوَحْيِ ۚ وَلَا يَسْمَعُ ٱلصُّمُّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٥].

قل: أيها المقترحون المتشططون إنما أنذركم بوحي يوحيه الله إلي، وبدلالات على العبر التي نصبها الله تعالى؛ لينظر فيها، كنقصان الأرض من أطرافها وغيره، ولم أبعث بآية مضطرة، ولا ما تقترحون[1].

ولقنه سبحانه وتعالى بأن يقول للمشركين: لقد أوحى الله إلي هذا القرآن من أجل أن أنذركم به من عذابه أن يحل بكم، وأنذر به من وصل إليه من الأمم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّآ أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

قال الربيع بن أنسٍ رحمه الله: «حقٌّ على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو كالذي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن ينذر بالذي أنذر»[2].

٢. الأنبياء:

أخبر سبحانه وتعالى أنه بعث النبيين دعاة لدينه، مبشرين من أطاع الله بالجنة، ومحذرين من كفر به وعصاه النار، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّۦنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وبين سبحانه مقصد بعث الرسل، فقال: أرسلت رسلًا إلى خلقي مبشرين بثوابي، ومنذرين بعقابي؛ لئلا يكون للبشر حجة يعتذرون بها بعد إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

وأخبر سبحانه وتعالى أن من آمن وصدق الرسل، وعمل صالحًا، فأولئك لا يخافون عند لقاء ربهم، ولا يحزنون على شيء فاتهم من حظوظ الدنيا، قال تعالى ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

وبين سبحانه وتعالى أن المقصد من

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٨٤.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢١٩.

إنزال القرآن عليه صلى الله عليه وسلم؛ ليكون من رسل الله الذين يخوفون قومهم عقاب الله، فينذر بهذا الكتاب الإنس والجن أجمعين، قال تعالى ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ١٩٣ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢-١٩٤].

ثم لقن سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أن من اهتدى بما في القرآن، واتبع ما جئت به، فإنما خير ذلك وجزاؤه لنفسه، ومن ضل عن الحق، فقال: قل -أيها الرسول- إنما أنا نذير لكم من عذاب الله وعقابه إن لم تؤمنوا، فأنا واحد من الرسل الذين أنذروا قومهم، وليس بيدي من الهداية شيء، قال تعالى: ﴿وَأَنۡ أَتۡلُوَاْ ٱلۡقُرۡءَانَۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ﴾ [النمل: ٩٢].

٣. قصص السابقين:

لقن الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم إن أعرض المكذبون بعدما بين لهم من أوصاف القرآن الحميدة، ومن صفات الله العظيم أن يقول لهم: قد أنذرتكم عذابًا يستأصلكم مثل عذاب عاد وثمود حين كفروا بربهم وعصوا رسله، قال تعالى: ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

يقول تعالى: قل يا محمد لهؤلاء المشركين المكذبين بما جئتهم به من الحق: إن أعرضتم عما جئتكم به من عند الله تعالى فإني أنذركم حلول نقمة الله بكم، كما حلت بالأمم الماضين من المكذبين بالمرسلين، صاعقة مثل صاعقة عادٍ وثمود ومن شاكلها، ممن فعل كفعلهما؛ إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ﴾ [الأحقاف: ٢١].

أي: في القرى المجاورة لبلادهم بعث الله إليهم الرسل يأمرون بعبادة الله وحده لا شريك له ومبشرين ومنذرين، ورأوا ما أحل الله بأعدائه من النقم، وما ألبس أولياءه من النعم[(١)].

وخص عادًا وثمودًا بالذكر؛ لوقوف قريش على بلادها في اليمن وفي الحجر في طريق الشام[(٢)].

فمن سنن الله أن المثيل يأخذ حكم مثيله، والشبيه يأخذ حكم شبيهه، فخوفهم بتوقع عقابٍ مثل عقاب الذين شابهوهم في الإعراض خشية أن يحل بهم ما حل بأولئك.

وقال تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يذكر حكمه فيمن كذب رسله، وخالف أمره، فقال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ

(١) المصدر السابق ٧/ ١٥٤.
(٢) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٨.

خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢١- ٢٥].

والأحقاف: جمع حقفٍ -بكسرٍ فسكونٍ-، وهو الرمل العظيم المستطيل، وكانت هذه البلاد المسماة بالأحقاف منازل عادٍ، وكانت مشرفةً على البحر بين عمان وعدن[١].

«وقد أدت الريح ما أمرت به، فدمرت كل شيء ﴿فَأَصْبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أما هم، وأما أنعامهم، وأما أشياؤهم، وأما متاعهم فلم يعد شيء منه يرى، إنما هي المساكن قائمة خاوية موحشة، لا دار فيها ولا نافخ نار، ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ سنة جارية، وقدر مطرد في المجرمين»[٢].

٤ . حوادث المستقبل (القيامة):

لقد حذر الله عباده عذاب الآخرة القريب الذي يرى فيه كل امرئ ما عمل من خير، أو اكتسب من إثم، ويقول الكافر من هول الحساب: يا ليتني كنت ترابًا فلم أبعث، قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ [النبأ: ٤٠].

وأمر الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم بإنذار الناس، فقال: أنذر -أيها الرسول- الناس يوم الندامة حين يقضى الأمر، ويجاء بالموت كأنه كبش أملح فيذبح، ويفصل بين الخلق، فيصير أهل الإيمان إلى الجنة، وأهل الكفر إلى النار، وهم اليوم في هذه الدنيا في غفلة عما أنذروا به، فهم لا يصدقون، ولا يعملون العمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

وأمره سبحانه وتعالى أن يحذر الناس يوم القيامة، وما فيه، فقال: وحذر -أيها الرسول- الناس من يوم القيامة القريب -وإن استبعدوه-؛ إذ قلوب العباد من مخافة عقاب الله قد ارتفعت من صدورهم، فتعلقت بحلوقهم، وهم ممتلئون غمًا وحزنًا، ما للظالمين من قريب ولا صاحب، ولا شفيع يشفع لهم عند ربهم فيستجاب له، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ ۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

وبين له سبحانه وتعالى المقصد من

(١) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٤٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٧.

الوحي، فقال: كما أوحينا إلى الأنبياء قبلك أوحينا إليك قرآنًا عربيًا؛ لتنذر أهل (مكة) ومن حولها من سائر الناس، وتنذر عذاب يوم الجمع، وهو يوم القيامة، لا شك في مجيئه، الناس فيه فريقان: فريق في الجنة، وهم الذين آمنوا بالله، واتبعوا ما جاءهم به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، ومنهم فريق في النار المستعرة، وهم الذين كفروا بالله، وخالفوا ما جاءهم به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وقال سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: وأنذر -أيها الرسول- الناس الذين أرسلتك إليهم عذاب الله يوم القيامة، وعند ذلك يقول الذين ظلموا أنفسهم بالكفر: ربنا أمهلنا إلى وقت قريب نؤمن بك ونصدق رسلك، فيقال لهم توبيخًا: ألم تقسموا في حياتكم أنه لا زوال لكم عن الحياة الدنيا إلى الآخرة، فلم تصدقوا بهذا البعث؟ قال تعالى: ﴿وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا لَكُم مِّن زَوَالٍ﴾ [إبراهيم: ٤٤].

ثانيًا: أغراض الإنذار:

١ . الدعوة إلى توحيد الله عز وجل:

لقد جاءت الرسالة؛ لإقرار التوحيد في حياة الناس جميعًا، قال الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم: قل -أيها الرسول- لقومك: إنما أنا منذر لكم من عذاب الله أن يحل بكم؛ بسبب كفركم به، ليس هناك إله مستحق للعبادة إلا الله وحده، فهو المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله، القهار الذي قهر كل شيء وغلبه، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [ص: ٦٥].

يقول تعالى آمرًا رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للكفار بالله المشركين به المكذبين لرسوله: إنما أنا منذرٌ لست كما تزعمون، وما من إلهٍ إلا الله الواحد القهار، أي: هو وحده قد قهر كل شيءٍ وغلبه، رب السموات والأرض وما بينهما، أي: هو مالكٌ جميع ذلك، ومتصرفٌ فيه، العزيز الغفار، أي: غفار مع عظمته وعزته[1].

٢ . الهداية:

أنزل الله عز وجل القرآن على رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ ليهتدي الناس به، ويعرفوا الحق ويؤمنوا به ويؤثروه، قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٧٠.

رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ [السجدة: ٣].

٣. التنبيه من الغفلة:

لقد بين الله للرسول صلى الله عليه وسلم الغرض من إنزال القرآن عليه، فقال: أنزلنا عليك -أيها الرسول- القرآن؛ لتحذر به قومًا لم ينذر آباؤهم من قبلك، وهم العرب، فهؤلاء القوم ساهون عن الإيمان والاستقامة على العمل الصالح، وكل أمة ينقطع عنها الإنذار تقع في الغفلة، قال تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾ [يس: ٦].

فالغفلة أشد ما يفسد القلوب، فالقلب الغافل قلب معطل عن وظيفته، معطل عن الالتقاط والتأثر والاستجابة، تمر به دلائل الهدى أو يمر بها دون أن يحس بها أو يدركها، ودون أن ينبض أو يستقبل، ومن ثم كان الإنذار هو أليق شيء بالغفلة التي كان فيها القوم، الذين مضت الأجيال دون أن ينذرهم منذر، أو ينبههم منبه[(١)].

٤. التذكر:

بين سبحانه وتعالى رحمته برسوله وبالمستجيبين لدعوته فقال: ما كنت -أيها الرسول- بجانب جبل الطور حين نادينا موسى، ولم تشهد شيئًا من ذلك فتعلمه، ولكنا أرسلناك رحمة من ربك؛ لتنذر قومًا لم يأتهم من قبلك من نذير؛ لعلهم يتذكرون الخير الذي جئت به فيفعلوه، والشر الذي نهيت عنه فيجتنبوه، قال تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [القصص: ٤٦].

قال ابن عاشور رحمه الله: «والتذكر: هو النظر العقلي في الأسباب التي دعت إلى حكمة إنذارهم، وهي تناهي ضلالهم فوق جميع الأمم الضالة؛ إذ جمعوا إلى الإشراك مفاسد جمةً من قتل النفوس، وارتزاقٍ بالغارات وبالمقامرة، واختلاط الأنساب، وانتهاك الأعراض، فوجب تذكيرهم بما فيه صلاح حالهم»[(٢)].

٥. الإقلاع عن المخالفة:

قال تعالى: ﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الذاريات: ٥٠].

والفرار إلى الله مستعارٌ للإقلاع عما هم فيه من الإشراك وجحود البعث «أي: الفرار مما يكرهه الله ظاهرًا وباطنًا، إلى ما يحبه، ظاهرًا وباطنًا، فرار من الجهل إلى العلم، ومن الكفر إلى الإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن الغفلة إلى ذكر الله، فمن استكمل هذه الأمور، فقد استكمل الدين كله، وقد زال عنه المرهوب، وحصل له

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٥٩.

(٢) التحرير والتنوير ٢٠/ ١٣٤.

نهاية المراد والمطلوب.

وسمى الله الرجوع إليه فرارًا؛ لأن في الرجوع لغيره أنواع المخاوف والمكاره، وفي الرجوع إليه أنواع المحاب والأمن، والسرور والسعادة والفوز، فيفر العبد من قضائه وقدره إلى قضائه وقدره، وكل من خفت منه فررت منه إلى الله تعالى، فإنه بحسب الخوف منه يكون الفرار إليه»[1].

٦. إقامة الحجة على الناس:

أخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل رسلًا إلى خلقه مبشرين بثوابه، ومنذرين بعقابه؛ لئلا يكون للبشر حجة يعتذرون بها بعد إرسال الرسل، فعمهم سبحانه بالدعوة على ألسنة رسله حجةً منه وعدلًا، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٦٥].

فإرسال الرسل لقطع عذر البشر إذا سئلوا عن جرائم أعمالهم، واستحقوا غضب الله وعقابه[2].

المنذرون

الحديث في هذا الموضع عن المنذِرين في القرآن، ويكون من خلال النقاط الآتية:

أولًا: الله عز وجل:

الله سبحانه وتعالى هو المنذر لعباده، وهذا من رأفته ورحمته بهم؛ لئلا يتعرضوا لعقابه إذا أعرضوا، كما قال تعالى: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠].

وجميع المنذرين بعد ذلك تبع لهذا الأصل، فإذا أنذر الرسل وورثتهم فبأمره، وإذا أنذر القرآن فهو وحيه سبحانه وتعالى.

ومن استجاب لإنذاره سبحانه وتعالى وانتفع به نجا من عقابه في الدنيا والآخرة، ومن أعرض فله العذاب في الدنيا والآخرة.

ثانيًا: القرآن:

أنزل الله كتابه؛ ليكون بشيرًا بالثواب العاجل والآجل لمن آمن به وعمل بمقتضاه، ونذيرًا بالعقاب العاجل والآجل لمن كفر به، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٣- ٤].

شبه القرآن بالبشير فيما اشتمل عليه من الآيات المبشرة للمؤمنين الصالحين، وبالنذير فيما فيه من الوعيد للكافرين وأهل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٨١١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٦/ ٣٩.

المعاصي[1].

وقال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

أي: لينذر هذا القرآن المبين كل حيٍ على وجه الأرض[2].

وقال تعالى: ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ٢].

أي: لينذر بهذا القرآن الكريم عقابه الذي عنده، أي: قدره وقضاؤه على من خالف أمره، وهذا يشمل عقاب الدنيا وعقاب الآخرة، وهذا أيضًا من نعمه أن خوف عباده، وأنذرهم ما يضرهم ويهلكهم[3].

وقال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَابٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢]. أي: مشتملٌ على النذارة للكافرين، والبشارة للمؤمنين[4].

ثالثًا: الرسل عليهم السلام:

من رحمة الله بعباده أنه ما من أمة إلا وأرسل فيها رسولًا؛ ليقيم عليهم الحجة، قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

أي: وما من أمةٍ خلت من بني آدم إلا وقد بعث الله تعالى إليهم النذر، وأزاح عنهم العلل[5].

والحكمة في الإنذار أن لا يبقى الضلال رائجًا، وأن يتخول الله عباده بالدعوة إلى الحق، سواء عملوا بها، أو لم يعلموا، فإنها لا تخلو من أثرٍ صالحٍ فيهم، وإنما لم يسم القرآن إلا الأنبياء والرسل الذين كانوا في الأمم السامية القاطنة في بلاد العرب وما جاورها؛ لأن القرآن حين نزوله ابتدأ بخطاب العرب ولهم علمٌ بهؤلاء الأقوام، فقد علموا أخبارهم، وشهدوا آثارهم، فكان الاعتبار بهم أوقع، ولو ذكرت لهم رسل أممٍ لا يعرفونهم لكان إخبارهم عنهم مجرد حكايةٍ، ولم يكن فيه استدلال واعتبار[6].

و أيضًا من حكمة إرسال الرسل إقامة حجته على عباده؛ حتى لا يكون لهم عذر.

روى مسلم في صحيحه بسنده عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس أحدٌ أحب إليه المدح من الله عز وجل، من أجل ذلك مدح نفسه، وليس أحدٌ أغير من الله، من أجل ذلك حرم الفواحش، وليس أحدٌ أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب، وأرسل الرسل)[7].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٣٢.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٥٢٨.
(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٦٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٢٥٧
(٥) المصدر السابق ٦/ ٤٨١.
(٦) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ٢٩٧.
(٧) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة،

وقد كثر في القرآن ذكر المقصد من الرسل بأنه الإنذار والتبشير، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه أرسل في الأمم السابقة مرسلين فأنذروهم بالعذاب فكفروا، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الصافات: ٧٢].

وأخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن على قلب رسوله صلى الله عليه وسلم؛ ليكون من رسل الله الذين يخوفون قومهم عقاب الله، فتنذر بهذا التنزيل الإنس والجن أجمعين، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ﴾ [الشعراء ١٩١-١٩٤].

وقد بين سبحانه المقصد من إرسال الرسل، وهو لئلا يكون للبشر حجة يعتذرون بها بعد إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

رابعًا: أهل العلم:

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

قال ابن القيم رحمه الله: ندب تعالى المؤمنين إلى التفقه في الدين وهو تعلمه، وإنذار قومهم إذا رجعوا إليهم وهو التعليم.

وقد اختلف في الآية:

فقيل: المعنى أن المؤمنين لم يكونوا لينفروا كلهم للتفقه والتعلم، بل ينبغي أن ينفر من كل فرقة منهم طائفة تتفقه تلك الطائفة، ثم ترجع تعلم القاعدين، فيكون النفير على هذا نفير تعلم.

وقالت طائفة أخرى: المعنى: وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم، بل ينبغي أن تنفر طائفة للجهاد وفرقة تقعد تتفقه في الدين، فإذا جاءت الطائفة التي نفرت فقهتها القاعدة وعلمتها ما أنزل من الدين والحلال والحرام، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿لِّيَتَفَقَّهُوا﴾ ﴿وَلِيُنذِرُوا﴾ للفرقة التي نفرت منها طائفة، وهذا قول الأكثرين، وعلى هذا فالنفير نفير جهاد على أصله.

وعلى القولين فهو ترغيب في التفقه في الدين وتعلمه وتعليمه، فإن ذلك يعدل الجهاد، بل ربما يكون أفضل منه[1].

وقال ابن عاشور رحمه الله: «وإذ كان من مقاصد الإسلام بث علومه وآدابه بين الأمة، وتكوين جماعاتٍ قائمةٍ بعلم الدين، وتثقيف أذهان المسلمين كي تصلح سياسة

باب غيرة الله تعالى وتحريم الفواحش، ٤/ ٢١١٤، رقم ٢٧٦٠.

(١) مفتاح دار السعادة ١/ ٥٦.

الأمة على ما قصده الدين منها، من أجل ذلك عقب التحريض على الجهاد بما يبين أن ليس من المصلحة تمحض المسلمين كلهم لأن يكونوا غزاةً أو جندًا، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله من حيث إن كليهما يقوم بعملٍ لتأييد الدين، فهذا يؤيده بتوسع سلطانه، وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان وإعداده؛ لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه، فإن اتساع الفتوح وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها إذا هي خلت من جماعةٍ صالحةٍ من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان؛ ولذلك لم تثبت دولة التتار إلا بعد أن امتزجوا بعلماء المدن التي فتحوها، ووكلوا أمر الدولة إليهم»[1].

وقال الشيخ السعدي رحمه الله: «أي: ليتعلموا العلم الشرعي، ويعلموا معانيه، ويفقهوا أسراره، وليعلموا غيرهم، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم»[2].

ففي هذا فضيلة العلم، وخصوصًا الفقه في الدين، وأنه أهم الأمور، وأن من تعلم علمًا فعليه نشره وبثه في العباد، ونصيحتهم به، فإن انتشار العلم عن العالم من بركته وأجره الذي ينمى له.

وأما اقتصار العالم على نفسه، وعدم دعوته إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترك تعليم الجهال ما لا يعلمون، فأي منفعة حصلت للمسلمين منه؟ وأي نتيجة نتجت من علمه؟ وغايته أن يموت، فيموت علمه وثمرته، وهذا غاية الحرمان، لمن آتاه الله علمًا ومنحه فهمًا.

وفي هذه الآية أيضًا: دليل وإرشاد وتنبيه لطيف لفائدة مهمة، وهي: «أن المسلمين ينبغي لهم أن يعدوا لكل مصلحة من مصالحهم العامة من يقوم بها، ويوفر وقته عليها، ويجتهد فيها، ولا يلتفت إلى غيرها؛ لتقوم مصالحهم، وتتم منافعهم، ولتكون وجهة جميعهم، ونهاية ما يقصدون قصدًا واحدًا وهو قيام مصلحة دينهم ودنياهم، ولو تفرقت الطرق وتعددت المشارب، فالأعمال متباينة، والقصد واحد، وهذه من الحكمة العامة النافعة في جميع الأمور»[3].

خامسًا: المنذرون من الجن:

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

أي: نصحًا منهم لهم وإقامة لحجة الله عليهم، وقيضهم الله معونة لرسوله صلى

(١) التحرير والتنوير ١١/ ٥٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٥.

(٣) المصدر السابق.

الله عليه وسلم في نشر دعوته في الجن[1].

قال ابن كثير رحمه الله: «وقد استدل بهذه الآية على أنه في الجن نذرٌ، وليس فيهم رسلٌ، ولا شك أن الجن لم يبعث الله منهم رسولًا لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰٓۗ﴾ [يوسف: ١٠٩].

وقال عز وجل: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ﴾ [الفرقان: ٢٠].

وقال عن إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿وَجَعَلۡنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلۡكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

فكل نبي بعثه الله تعالى بعد إبراهيم فمن ذريته وسلالته.

فأما قوله تبارك وتعالى في الأنعام: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٣٠].

فالمراد هنا مجموع الجنسين، فيصدق على أحدهما وهو الإنس»[2].

قال سيد قطب رحمه الله في اهتمام الجن بإنذار قومهم: «فلما انتهت التلاوة لم يلبثوا أن سارعوا إلى قومهم، وقد حملت نفوسهم ومشاعرهم منه ما لا تطيق السكوت عليه، أو التلكؤ في إبلاغه، والإنذار به، وهي حالة من امتلأ حسه بشيء جديد، وحفلت مشاعره بمؤثر قاهر غلاب، يدفعه دفعًا إلى الحركة به، والاحتفال بشأنه، وإبلاغه للآخرين في جد واهتمام»[3].

(١) المصدر السابق، ص ٧٨٣.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٨٠.
(٣) في ظلال القرآن ٦/ ٣٢٣.

المنذرون ومواقفهم

الحديث في هذا الموضع يكون عن المُنْذَرين ومواقفهم من المُنْذِرين:

١ . الكافرون المعاندون:

أخبرنا سبحانه وتعالى في القرآن عن مواقف الكفار المعاندين من الإنذار، والتي منها:

١. الجحود.

أخبر سبحانه أنه ما أرسل في قرية من رسول يدعو الى توحيد الله وإفراده بالعبادة إلا قال رءوسهم وقادتهم في الشر من أهلها: إنا بالذي جئتم به -أيها الرسل- جاحدون.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ٢٣ قَٰلَ أَوَلَوۡ جِئۡتُكُم بِأَهۡدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمۡ عَلَيۡهِ ءَابَآءَكُمۡۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣-٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ [سبأ: ٣٤].

«هذه تسليةٌ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، مما مني به من قومه قريشٍ، من الكفر والافتخار بالأموال والأولاد، وأن ما ذكروا من ذلك هو عادة المترفين مع أنبيائهم، فلا يهمنك أمرهم، ونص على المترفين؛ لأنهم أول المكذبين للرسل، لما شغلوا به من زخرفة الدنيا، وما غلب على عقولهم منها، فقلوبهم أبدًا مشغولةٌ منهمكةٌ»[١].

قال سيد قطب رحمه الله: «فهي قصة معادة، وموقف مكرور، على مدار الدهور، وهو الترف يغلظ القلوب، ويفقدها الحساسية، ويفسد الفطرة ويغشيها، فلا ترى دلائل الهداية فتستكبر على الهدى، وتصر على الباطل، ولا تتفتح للنور».

والمترفون تخدعهم القيم الزائفة، والنعيم الزائل، ويغرهم ما هم فيه من ثراء وقوة، فيحسبونه مانعهم من عذاب الله، ويخالون أنه آية الرضا عنهم، أو أنهم في مكان أعلى من الحساب والجزاء، والقرآن يضع لهم ميزان القيم كما هي عند الله، ويبين لهم أن بسط الرزق وقبضه ليست له علاقة بالقيم الثابتة الأصيلة، ولا يدل على رضا ولا غضب من الله ولا يمنع بذاته عذابًا، ولا يدفع إلى عذاب، قد يغدق الله على أهل الشر استدراجًا لهم؛ ليزدادوا سوءًا وبطرًا وإفسادًا، ويتضاعف رصيدهم من الإثم والجريمة، ثم يأخذهم في الدنيا أو في الآخرة -وفق حكمته وتقديره- بهذا الرصيد الأثيم! وقد يحرمهم فيزدادون شرًا وفسوقًا وجريمة، وجزعًا وضيقًا ويأسًا من رحمة الله، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الشر والضلال.

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٥٥٣.

فقد يغدق الله على أهل الخير؛ ليمكنهم من أعمال صالحة كثيرة ما كانوا بالغيها لو لم يبسط لهم في الرزق، وليشكروا نعمة الله عليهم بالقلب واللسان، والفعل الجميل، ويذخروا بهذا كله رصيدًا من الحسنات يستحقونه عند الله بصلاحهم، وبما يعلمه من الخير في قلوبهم، وقد يحرمهم فيبلو صبرهم على الحرمان، وثقتهم بربهم، ورجاءهم فيه، واطمئنانهم إلى قدره، ورضاهم بربهم وحده، وهو خير وأبقى، وينتهوا بهذا إلى مضاعفة رصيدهم من الخير والرضوان[1].

٢. التكذيب.

أخبر سبحانه وتعالى أن موقف الأقوام الذين أرسل فيهم المنذرون التكذيب، قال تعالى عن قوم صالح عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٢٣].

وقال عن قوم لوط عليه السلام: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ﴾ [القمر: ٣٣].

وقال عن قوم نوح عليه السلام ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥].

وقال عن قوم عاد: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء:١٢٣].

وأخبر سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم أن من سنة الله مقابلة الدعوة بالتكذيب، قال تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [فاطر: ٤].

٣. التعجب.

أخبر سبحانه وتعالى عن عجب الأقوام السابقة من إرسال رسول منهم، قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف: ٦٣].

وقال على لسان هود عليه السلام: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩].

أي: لا تعجبوا من هذا، فإن هذا ليس بعجب أن يوحي الله إلى رجلٍ منكم رحمةً بكم، ولطفًا وإحسانًا إليكم؛ لينذركم، ولتتقوا نقمة الله ولا تشركوا به، ولعلكم ترحمون[2].

وبين سبحانه وتعالى في مواضع أخر أن جميع الأمم عجبوا من ذلك، قال في عجب قوم نبينا صلى الله عليه وسلم من ذلك: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

وقال: ﴿بَلْ عَجِبُوا أَن جَاءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ [ق: ٢].

(١) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩١٠.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٣٨٨.

وقال عن الأمم السابقة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا۟ وَتَوَلَّوا۟ ۚ وَّٱسْتَغْنَى ٱللَّهُ ۚ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾ [التغابن: ٦].

وبين سبحانه وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن الذين جحدوا ما أنزل إليك من ربك استكبارًا وطغيانًا، لن يقع منهم الإيمان، سواء أخوفتهم وحذرتهم من عذاب الله، أم تركت ذلك؛ لإصرارهم على باطلهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٦].

وقال تعالى: ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يس: ١٠].

فالإنذار لا ينفع قلبًا غير مهيأ للإيمان، مشدود عنه، محال بينه وبينه بالسدود، فالإنذار لا يخلق القلوب، إنما يوقظ القلب الحي المستعد للتلقي.

٤ . الإعراض.

أخبر سبحانه وتعالى أن الذين جحدوا أن الله هو الإله الحق معرضون عما أنذرهم به القرآن، لا يتعظون ولا يتفكرون، قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ﴾ [الأحقاف: ٣].

٢ . الناس كافة:

أخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن على الرسول صلى الله عليه وسلم بلاغًا وإعلامًا للناس؛ لنصحهم وتخويفهم، ولكي يوقنوا أن الله هو الإله الواحد، فيعبدوه وحده لا شريك له، وليتعظ به أصحاب العقول السليمة، قال تعالى: ﴿هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ وَلِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [إبراهيم: ٥٢].

«إن الغاية الأساسية من ذلك البلاغ وهذا الإنذار هي أن يعلم الناس: ﴿أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ فهذه هي قاعدة دين الله التي يقوم عليها منهجه في الحياة.

وليس المقصود بطبيعة الحال مجرد العلم، إنما المقصود هو إقامة حياتهم على قاعدة هذا العلم، المقصود هو الدينونة لله وحده، ما دام أنه لا إله غيره، فالإله هو الذي يستحق أن يكون ربًا -أي: حاكمًا وسيدًا ومتصرفًا ومشرعًا وموجهًا-، وقيام الحياة البشرية على هذه القاعدة يجعلها تختلف اختلافًا جوهريًا عن كل حياة تقوم على قاعدة ربوبية العباد للعباد -أي حاكمية العباد للعباد ودينونة العباد للعباد-، وهو اختلافٌ يتناول الاعتقاد والتصور، ويتناول الشعائر والمناسك، كما يتناول الأخلاق والسلوك، والقيم والموازين، وكما يتناول الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وكل

جانب من جوانب الحياة الفردية والجماعية على السواء.

إن الاعتقاد بالألوهية الواحدة قاعدة لمنهج حياة متكامل، وليس مجرد عقيدة مستكنة في الضمائر، وحدود العقيدة أبعد كثيرًا من مجرد الاعتقاد الساكن، إن حدود العقيدة تتسع وتترامى حتى تتناول كل جانب من جوانب الحياة، وقضية الحاكمية بكل فروعها في الإسلام هي قضية عقيدة، كما أن قضية الأخلاق بجملتها هي قضية عقيدة، فمن العقيدة ينبثق منهج الحياة الذي يشتمل الأخلاق والقيم، كما يشتمل الأوضاع والشرائع سواء بسواء»[(١)].

٣. العالمون:

أخبر سبحانه وتعالى في القرآن أنه نزل القرآن الفارق بين الحق والباطل على عبده محمد صلى الله عليه وسلم؛ ليكون رسولًا للإنس والجن، مخوفًا لهم من عذاب الله.

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

فالمراد بـ(العالمين) هنا الإنس والجن؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد كان رسولًا إليهما، ونذيرًا لهما[(٢)].

٤. الأقوام:

أخبر سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه أرسله رحمة؛ لينذر قومًا لم يأتهم من قبله من نذير؛ لعلهم يتذكرون الخير الذي جاء به فيفعلوه، والشر الذي نهى عنه فيجتنبوه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [القصص: ٤٦].

وقال سبحانه للرسول صلى الله عليه وسلم: واذكر -أيها الرسول- نبي الله هودًا -أخا عاد في النسب لا في الدين- حين أنذر قومه أن يحل بهم عقاب الله، وهم في منازلهم المعروفة بـ(الأحقاف): وهي الرمال الكثيرة جنوب الجزيرة العربية، وقد مضت الرسل بإنذار قومها قبل هود وبعده، بأن لا تشركوا مع الله شيئًا في عبادتكم له، إني أخاف عليكم عذاب الله في يوم يعظم هوله، وهو يوم القيامة.

وقال سبحانه وتعالى على لسان نوح عليه السلام يا قومي إني نذير لكم بين الإنذار من عذاب الله إن عصيتموه.

قال تعالى: ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [نوح: ٢].

وقال سبحانه وتعالى عن قوم فرعون: ولقد جاء أتباع فرعون وقومه إنذارنا بالعقوبة لهم على كفرهم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ﴾ [القمر: ٤١].

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤/ ٢١١٤.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٣/ ٢.

قال الشنقيطي رحمه الله: «قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾ قيل: هو جمع نذير، وهو الرسول، وقيل: هو مصدرٌ بمعنى الإنذار، فعلى أنه مصدرٌ فقد بينت الآيات القرآنية بكثرةٍ أن الذي جاءهم بذلك الإنذار هو موسى وهارون، وعلى أنه جمع نذيرٍ أي منذرٍ، فالمراد به موسى وهارون، وقد جاء في آياتٍ كثيرةٍ إرسال موسى وهارون لفرعون، كقوله تعالى في طه: ﴿فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ [طه: ٤٧].

ثم بين تعالى إنذارهما له في قوله: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ [طه: ٤٨]»[1].

وهنا تساؤل: لماذا جمع النذر؟

قال الشنقيطي رحمه الله: «لأن من كذب رسولًا واحدًا فقد كذب جميع المرسلين، ومن كذب نذيرًا واحدًا فقد كذب جميع النذر؛ لأن أصل دعوة جميع الرسل واحدةٌ، وهي مضمون لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]»[2].

٥. العشيرة الأقربون:

أمر الله رسوله أن يحذر من عذابه الأقرب فالأقرب من قومه، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

عن ابن عباسٍ رضي الله عنه قال: لما أنزل الله عز وجل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أتى النبي صلى الله عليه وسلم الصفا، فصعد عليه ثم نادى: (يا صباحاه) فاجتمع الناس إليه بين رجلٍ يجيء إليه وبين رجلٍ يبعث رسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يا بني عبد المطلب، يا بني فهرٍ، يا بني لؤيٍ، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلًا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم صدقتموني؟) قالوا: نعم، قال: «فإني نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد» فقال أبو لهبٍ: تبًا لك سائر اليوم، أما دعوتنا إلا لهذا؟ وأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١][3].

فلما أمر رسول الله بإنذار عشيرته امتثل هذا الأمر الإلهي، فدعا سائر بطون قريش، فعمم وخصص، وذكرهم ووعظهم، ولم يبق صلى الله عليه وسلم من مقدوره شيئًا، من نصحهم، وهدايتهم، إلا فعله، فاهتدى من اهتدى، وأعرض من أعرض[4].

٦. أم القرى وما حولها:

أخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل القرآن

---

(١) أضواء البيان، الشنقيطي ٧/ ٤٨٤.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، سورة تبت يدا أبي لهب، رقم ٤٩٧١.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٥٩٨.

على الرسول صلى الله عليه وسلم؛ ليخوف به من عذاب الله وبأسه أهل (مكة) ومن حولها من أهل أقطار الأرض كلها، قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام: ٩٢].

كما أخبر سبحانه وتعالى أنه كما أوحى إلى الأنبياء قبل الرسول الكريم أوحى إلى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم قرآنًا عربيًا؛ لينذر أهل (مكة) ومن حولها من سائر الناس، وينذر عذاب يوم القيامة.

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

وأم القرى: هي مكة ومن حولها من سائر البلاد شرقًا وغربًا، وسميت مكة أم القرى؛ لأنها أشرف من سائر البلاد.

روى الترمذي بسنده عن عبد الله ابن عدي بن حمراء قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم واقفًا على الحزورة، فقال: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت)[1].

٧. الظالمون:

أخبر سبحانه وتعالى أنه أنزل كتابه بلسان عربي؛ لينذر الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعصية، وبشرى للذين أطاعوا الله، فأحسنوا في إيمانهم وطاعتهم في الدنيا، قال تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأحقاف: ١٢].

والذين ظلموا هم المشركون، كما قال الله: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

ويلحق بهم الذين ظلموا أنفسهم من المؤمنين؛ ولذلك قوبل بالمحسنين وهم المؤمنون الأتقياء؛ لأن المراد: ظلم النفس، ويقابله الإحسان، والنذارة مراتب، والبشارة مثلها[2].

٨. المؤمنون:

لقن الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ما هو إلا رسول الله أرسله؛ ليخوف من عقابه، ويبشر بثوابه قومًا يصدقونه، ويعملون بشرعه، فقال: ﴿إِنْ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

والرسول صلى الله عليه وسلم نذير وبشير للناس أجمعين، ولكن الذين (يؤمنون) هم الذين ينتفعون بما معه من

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، باب في فضل مكة، ٥/ ٧٢٢، رقم ٣٩٢٥. وصححه الألباني في الجامع الصغير، ٢/ ١١٩٢، رقم ٧٠٨٩.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٢٦.

النذارة والبشارة، فهم الذين يفقهون حقيقة ما معه، وهم الذين يدركون ما وراء هذا الذي جاء به.

ثم هم بعد ذلك خلاصة البشرية كلها، كما أنهم هم الذين يخلص بهم الرسول من الناس أجمعين.

إن الكلمة لا تعطي مدلولها الحقيقي إلا للقلب المفتوح لها، والعقل الذي يستشرفها ويتقبلها، وإن هذا القرآن لا يفتح كنوزه، ولا يكشف أسراره، ولا يعطي ثماره إلا لقوم يؤمنون[(١)].

كما أخبر سبحانه وتعالى أن المؤمنين ينذر بعضهم بعضًا.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٢].

من صفات المؤمنين المنتفعين بالإنذار:

١ـ القلوب الحية.

أخبر سبحانه وتعالى أن الإنذار يؤثر في صاحب القلب الحي المستنير البصيرة، قال تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [يس: ٧٠].

عن قتادة رحمه الله: «حي القلب، حي البصر»[(٢)].

فأخبر سبحانه وتعالى أن الانتفاع بالقرآن والإنذار به إنما يحصل لمن هو حي القلب، كما قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ [ق: ٣٧].

فأخبر سبحانه أن الناس قسمان: حيٌّ قابلٌ للانتفاع، يقبل الإنذار وينتفع به، وميتٌ لا يقبل الإنذار، ولا ينتفع به؛ لأن أرضه غير زاكيةٍ، ولا قابلةٍ لخيرٍ ألبتة[(٣)].

٢ـ الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [فاطر: ١٨].

أي: هؤلاء الذين يقبلون النذارة، وينتفعون بها، أهل الخشية لله بالغيب، الذين يخشونه في حال السر والعلانية، والمشهد والمغيب، وأهل إقامة الصلاة، بحدودها وشروطها وأركانها وواجباتها وخشوعها؛ لأن الخشية لله تستدعي من العبد العمل بما يخشى من تضييعه العقاب، والهرب مما يخشى من ارتكابه العذاب، والصلاة تدعو إلى الخير، وتنهى عن الفحشاء والمنكر[(٤)].

٣ـ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم.

أمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٤١٠.
(٢) أخرجه الطبري في تفسيره ١٩/ ٤٨١.
(٣) مدارج السالكين، ابن القيم ١/ ٢٣٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٦٨٧.

عليه وسلم أن يخوف بالقرآن الذين يعلمون أنهم يحشرون إلى ربهم، قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ٥١].

وخص الذين يخافون أن يحشروا؛ لأن الإنذار يؤثر فيهم لما حل بهم من الخوف، بخلاف من لا يخاف الحشر من طوائف الكفر؛ لجحوده به وإنكاره فإنه لا يؤثر فيه ذلك[١].

وعرفوا بالموصول؛ لما تدل عليه الصلة من المدح، ومن التعليل بتوجيه إنذاره إليهم دون غيرهم؛ لأن الإنذار للذين يخافون أن يحشروا إنذارٌ نافعٌ، خلافًا لحال الذين ينكرون الحشر، فلا يخافونه فضلًا عن الاحتياج إلى شفعاء.

و﴿أَن يُحْشَرُوٓا۟﴾: مفعول ﴿يَخَافُونَ﴾، أي: يخافون الحشر إلى ربهم فهم يقدمون الأعمال الصالحة وينتهون عما نهاهم خيفة أن يلقوا الله وهو غير راضٍ عنهم، وخوف الحشر يقتضي الإيمان بوقوعه[٢].

٤ . المتبعون للذكر.

بين الله سبحانه وتعالى للرسول صلى الله عليه وسلم من ينتفعون بالإنذار، فقال: إنما ينفع تحذيرك من آمن بالقرآن، واتبع ما فيه من أحكام الله، وخاف الرحمن، حيث لا يراه أحد إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ [يس: ١١].

واتباع الذكر: هو العمل بما في كتاب الله تعالى، والاقتداء به[٣].

والذي اتبع القرآن، وخشي الرحمن دون أن يراه هو الذي ينتفع بالإنذار، فكأنه هو وحده الذي وجه إليه الإنذار. وكأنما الرسول صلى الله عليه وسلم قد خصه به، وإن كان قد عمم، إلا أن أولئك حيل بينهم وبين تلقيه، فانحصر في من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب.

وهذا يستحق التبشير بعد انتفاعه بالإنذار: ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾ المغفرة عما يقع فيه من الخطايا غير مصر، والأجر الكريم على خشية الرحمن بالغيب، واتباعه لما أنزل الرحمن من الذكر، وهما متلازمان في القلب، فما تحل خشية الله في قلب إلا ويتبعها العمل بما أنزل، والاستقامة على النهج الذي أراد[٤].

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/ ١٣٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٧/ ٢٤٤.
(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٤٤٨.
(٤) في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٢٩٦٠.

المنذر منه أو المحذر منه

هذا الموضع يتحدث عن المنذر منه أو المحذر منه فيما يأتي:

أولًا: عقوبات دنيوية:

١ . طمس الأعين:

أخبر سبحانه عن لوط عليه السلام فقال: ولقد خوف لوط قومه بأس الله وعذابه، فلم يسمعوا له، بل شكوا في ذلك، وكذبوه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ۝٣٦ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِى وَنُذُرِ ۝٣٧ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ [القمر: ٣٦-٣٨].

قال ابن زيدٍ رحمه الله: «هؤلاء قوم لوطٍ حين راودوه عن ضيفه، طمس الله أعينهم، فكان ينهاهم عن عملهم الخبيث الذي كانوا يعملون، فقالوا: إنا لا نترك عملنا، فإياك أن تنزل أحدًا أو تضيفه، أو تدعه ينزل عليك، فإنا لا نتركه ولا نترك عملنا، قال: فلما جاءه المرسلون خرجت امرأته الشقية من الشق، فأتتهم فدعتهم، وقالت لهم: تعالوا فإنه قد جاء قومٌ لم أر قط أحسن وجوهًا منهم، ولا أحسن ثيابًا، ولا أطيب أرواحًا منهم، قال: فجاءوه يهرعون إليه، فقال: إن هؤلاء ضيفي، فاتقوا الله ولا تخزوني في ضيفي، قالوا: أولم ننهك عن العالمين؟ أليس قد تقدمنا إليك وأعذرنا فيما بيننا بينك؟ قال: هؤلاء بناتي هن أطهر لكم، فقال له جبريل عليه السلام: ما يهولك من هؤلاء؟ قال: أما ترى ما يريدون؟ فقال: إنا رسل ربك لن يصلوا إليك، لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك، لتصنعن هذا الأمر سرًا، وليكونن فيه بلاءٌ؛ قال: فنشر جبريل عليه السلام جناحًا من أجنحته، فاختلس به أبصارهم، فطمس أعينهم، فجعلوا يجول بعضهم في بعضٍ»[1].

٢ . الصاعقة:

قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

الصاعقة: نارٌ تخرج مع البرق تحرق ما تصيبه، وتطلق على الحادثة المبيرة السريعة الإهلاك[2].

٣ . المطر المدمر:

قال تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣].

قال ابن عطية رحمه الله: «(المطر) الذي مطر عليهم هي حجارة السجيل، أهلكت جميعهم، وهذه الآية أصل لمن جعل من الفقهاء الرجم في اللوطية»[3]. وسمي ما أصابهم من الحجارة مطرًا؛ لأنه نزل عليهم

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ٢٢/ ١٥١.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٤/ ٢٥٣.
(٣) المحرر الوجيز ٤/ ٢٦٥.

من الجو، وقيل: هو من مقذوفات براكين في بلادهم أثارتها زلازل الخسف، فهو تشبيهٌ بليغٌ[1].

٤ . العذاب الشديد:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ [الصافات (١٧٧)].

أي: فإذا نزل العذاب بمحلتهم فبئس ذلك اليوم يومهم بإهلاكهم ودمارهم، وقال السدي رحمه الله: ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ يعني: بدارهم، ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾ أي: فبئس ما يصبحون، أي: بئس الصباح صباحهم[2].

وفي هذا المعنى روى البخاري بسنده عن أنسٍ رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى خيبر ليلًا، وكان إذا أتى قومًا بليلٍ لم يغر بهم حتى يصبح، فلما أصبح خرجت اليهود بمساحيهم ومكاتلهم، فلما رأوه قالوا: محمدٌ والله، محمدٌ والخميس، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ ﴿فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنذَرِينَ﴾)»[3].

وذكر الصباح؛ لأنه من علائق الهيئة المشبه بها، فإن شأن الغارة أن تكون في الصباح؛ ولذلك كان نذير المجيء بغارة عدوٍ ينادي: يا صباحاه! نداء ندبةٍ وتفجعٍ، واعلم أن في اختيار هذا التمثيل البديع معنًى بديعًا من الإيماء إلى أن العذاب الذي وعدوه هو ما أصابهم يوم بدرٍ من قتلٍ وأسرٍ على طريقة التورية[4].

٥ . الصيحة:

أخبر سبحانه وتعالى عن تكذيب ثمود بالآيات التي أنذروا بها، ومصيرهم بعد التكذيب، فقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٢٣-٣١].

والصيحة: الصاعقة، وهي المعبر عنها بالطاغية في سورة الحاقة، وفي سورة الأعراف بالرجفة، وهي صاعقةٌ عظيمةٌ خارقةٌ للعادة أهلكتهم؛ ولذلك وصفت بـ(واحدةً)؛ للدلالة على أنها خارقةٌ للعادة؛ إذ أتت على قبيلةٍ كاملةٍ وهم أصحاب

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٩/ ١٨١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤١.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، ٥/ ١٣١، رقم ٤١٩٧، ومسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب فضيلة إعتاقه أمته، ثم يتزوجها، ٢/ ١٠٤٥، رقم ١٣٦٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٣/ ١٩٨.

الحجر[1] «فبادوا عن آخرهم لم تبق منهم باقيةٌ، وخمدوا وهمدوا كما يهمد وييبس الزرع والنبات»[2].

ثانيًا: عقوبات أخروية:

أولًا: أهوال القيامة:

١. يوم الجمع:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ [الشورى: ٧].

أي: تخوفهم إياه؛ لما فيه من عذاب من كفر، وسمي يوم الجمع؛ لاجتماع أهل الأرض فيه بأهل السماء، أو لاجتماع بني آدم للعرض[3].

وقال الرازي رحمه الله: وفي تسميته بيوم الجمع وجوهٌ:

الأول: أن الخلائق يجمعون فيه، قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ﴾[التغابن: ٩]. فيجتمع فيه أهل السموات مع أهل الأرض.

الثاني: أنه يجمع بين الأرواح والأجساد.

الثالث: يجمع بين كل عاملٍ وعمله.

الرابع: يجمع بين الظالم والمظلوم[4].

(١) المصدر السابق ٢٧/ ٢٠٢.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ٤٤٤.

(٣) المحرر الوجيز، ابن عطية ٥/ ٢٧.

(٤) مفاتيح الغيب، ٢٧/ ٥٨٠.

والآيات الموضحة لهذا المعنى كثيرةٌ، كقوله سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ۝٤٩ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الواقعة: ٤٩-٥٠].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ [المرسلات: ٣٨].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [النساء: ٨٧].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ﴾[التغابن: ٩].

وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ [هود: ١٠٣].

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٥﴾ [آل عمران: ٢٥].

٢. يوم الآزفة:

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨].

يعني: يوم القيامة، سميت بذلك؛ لأنها قريبةٌ؛ إذ كل ما هو آتٍ قريبٌ، نظيره قوله عز وجل: ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ [النجم: ٥٧].

أي: قربت القيامة[5].

عن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه ينادي أهل الجنة وأهل النار: هو الخلود

(٥) معالم التنزيل، البغوي ٧/ ١٤٤.

أبد الآبدين، قال: فيفرح أهل الجنة فرحة لو كان أحد ميتًا من فرحة لماتوا، ويشهق أهل النار شهقة لو كان أحد ميتًا من شهقة لماتوا، فذلك قوله: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ [غافر: ١٨][1].

وعن الحسن البصري رحمه الله في قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾[غافر: ١٨].

قال: « أزفت والله عقولهم، وطارت قلوبهم، فترددت في أجوافهم بالغصص إلى حناجرهم، لما أمر بهم ملك يسوقهم إلى النار، فيقول بعضهم لبعض: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا﴾ [الأعراف: ٥٣].

فينادون: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر: ١٨]»[2]

قال سيد قطب رحمه الله: «اللفظ يصورها كأنها مقتربة زاحفة، والأنفاس من ثم مكروبة لاهثة، وكأنما القلوب المكروبة تضغط على الحناجر، وهم كاظمون لأنفاسهم ولآلامهم ولمخاوفهم، والكظم يكربهم، ويثقل على صدورهم وهم لا يجدون حميمًا يعطف عليهم، ولا شفيعًا ذا كلمة تطاع في هذا الموقف العصيب المكروب! وهم بارزون في هذا اليوم لا يخفى على الله منهم شيء»[3].

(١) انظر: التخويف من النار، ابن رجب ١/ ١٥٣.

(٢) صفة النار، ابن أبي الدنيا ص ١٣١.

(٣) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٧٤.

٣. يوم الحسرة:

قال تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم: ٣٩].

يقول تعالى ذكره لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: وأنذر يا محمد هؤلاء المشركين بالله يوم حسرتهم وندمهم، على ما فرطوا في جنب الله، وأورثت مساكنهم من الجنة أهل الإيمان بالله والطاعة له، وأدخلوهم مساكن أهل الإيمان بالله من النار، وأيقن الفريقان بالخلود الدائم، والحياة التي لا موت بعدها، فيا لها حسرة وندامة[4].

روى مسلم بسنده عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبشٌ أملح -زاد أبو كريبٍ: فيوقف بين الجنة والنار، واتفقا في باقي الحديث- فيقال: يا أهل الجنة هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: ويقال: يا أهل النار هل تعرفون هذا؟ قال: فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم، هذا الموت، قال: فيؤمر به فيذبح، قال: ثم يقال: يا أهل الجنة خلودٌ فلا موت، ويا أهل النار خلودٌ فلا موت). قال: ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:

(٤) جامع البيان، الطبري ١٥/ ٥٤٤.

٣٩]. وأشار بيده إلى الدنيا[١].

ثانيًا: النار:

قال تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ [الليل: ١٤].

قال مجاهدٌ رحمه الله: أي: توهج[٢].

وقال ابن عاشور رحمه الله: هذه نارٌ خاصةٌ أعدت للكافرين، فهي التي في قوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [البقرة: ٢٤].

والقرينة على ذلك قوله: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى﴾ [الليل: ١٧][٣].

وفي هذا المعنى روى الإمام أحمد بسنده عن سماك بن حربٍ، سمعت النعمان بن بشيرٍ يخطب يقول: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب يقول: (أنذرتكم النار) حتى لو أن رجلًا كان بالسوق لسمعه من مقامي هذا، قال: حتى وقعت خميصةٌ كانت على عاتقه عند رجليه»[٤].

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء، ٤/ ٢١٨٨، رقم ٢٨٤٩.

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٤٠٨.

(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٣٩٠.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٣٠/ ٣٤٨، رقم ١٨٣٩٨. وصححه الألباني في تعليقه على المشكاة، رقم ٥٦٨٧.

عواقب عدم الاستجابة للإنذار

عدم الاستجابة للإنذار له عواقب وخيمة نتناولها فيما يأتي:

أولًا: عواقب دنيوية:

١ عاقبة قوم نوح: الغرق.

قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾ فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧١- ٧٣].

يقول تعالى ذكره: فكذب نوحًا قومه فيما أخبرهم به عن الله من الرسالة والوحي، فنجيناه ومن معه ممن حمل معه في الفلك، يعني في السفينة ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ﴾ يقول: وجعلنا الذين نجينا مع نوحٍ في السفينة خلائف في الأرض من قومه الذين كذبوه بعد أن أغرقنا الذين كذبوا بآياتنا، يعني حججنا وأدلتنا على توحيدنا، ورسالة رسولنا نوحٍ، يقول الله لنبيه محمدٍ صلى الله عليه وسلم: فانظر يا محمد كيف كان عاقبة

المنذرين، وهم الذين أنذرهم نوحٌ عقاب الله على تكذيبهم إياه وعبادتهم الأصنام.

يقول له جل ثناؤه: انظر ماذا أعقبهم تكذيبهم رسولهم؟ فإن عاقبة من كذبك من قومك إن تمادوا في كفرهم وطغيانهم على ربهم نحو الذي كان من عاقبة قوم نوحٍ حين كذبوه.

يقول جل ثناؤه: فليحذروا أن يحل بهم مثل الذي حل بهم إن لم يتوبوا[1].

قال صاحب المنار رحمه الله: «قدم ذكر تنجية المؤمنين واستخلافهم على إغراق المكذبين وقطع دابرهم؛ لأنه هو الأهم في سياق صدق الوعد والوعيد من وجهين:

أولهما: تقديم مصداق الوعد لتسلية النبي صلى الله عليه وسلم وتسرية حزنه على قومه ومنهم.

وثانيهما: كونه هو الأظهر في الحجة على أنهما -أي: الوعد والوعيد- من الله تعالى القادر على إيقاعهما، على خلاف ما يعتقد المشركون المكذبون المغرورون بكثرتهم، وقلة أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وخلاف الأصل المعهود في المصائب العامة في العادة، وهو أنها تصيب الصالح والطالح على سواءٍ، فلا تمييز فيها ولا استثناء، ولكنه هو الذي جرت به سنة الله تعالى في مكذبي الرسل من بعد نوحٍ، فكان آيةً لهم، فلولا أن الأمر بيد الله على وفق وعده ووعيده لما هلك الألوف الكثيرون، ونجا أفرادٌ قليلون لهم صفةٌ خاصةٌ أخرجهم منهم تصديقًا لخبر رسولهم، وما سيق هذا النبأ هنا إلا لتقرير هذا المعنى»[2].

فكانت عاقبة المكذبين الهلاك المخزي، واللعنة المتتابعة عليهم في كل قرن يأتي بعدهم، لا تسمع فيهم إلا لومًا، ولا ترى إلا قدحًا وذمًا.

هذه سنة الله في الأرض، وهذا وعده لأوليائه فيها، فإذا طال الطريق على العصبة المؤمنة مرة، فيجب أن تعلم أن هذا هو الطريق، وأن تستيقن أن العاقبة والاستخلاف للمؤمنين، وألا تستعجل وعد الله حتى يجيء وهي ماضية في الطريق، والله لا يخدع أولياءه سبحانه، ولا يعجز عن نصرهم بقوته، ولا يسلمهم كذلك لأعدائه، ولكنه يعلمهم ويدربهم ويزودهم -في الابتلاء- بزاد الطريق[3].

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن عقاب الأمم المكذبة في قوله تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

---

(١) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٢٣٦.

(٢) المنار، محمد رشيد رضا ١١/ ٣٧٨.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٨١٢.

﴿يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

أشار جل وعلا في هذه الآيات الكريمة إلى إهلاك عادٍ وثمود وقارون وفرعون وهامان، ثم صرح بأنه أخذ كلًا منهم بذنبه، ثم فصل على سبيل ما يسمى في البديع باللف والنشر المرتب أسباب إهلاكهم.

٢. إهلاك عاد بالريح العقيم.

قال تعالى: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وهي: الريح، يعني: عادًا، بدليل قوله: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].

وقوله: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١].

٣. إهلاك ثمود بالصيحة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

يعني: ثمود، بدليل قوله تعالى فيهم: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ۝٦٧ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۗ أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ ۗ أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٧ – ٦٨].

٤. إهلاك قارون بالخسف.

قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

يعني: قارون، بدليل قوله تعالى فيه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

٥. إهلاك فرعون بالغرق.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

يعني: فرعون وهامان، بدليل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ﴾ [الصافات: ٨٢].

ثانيًا: عواقب أخروية:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ ۝٧١ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ۝٧٢ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ۝٧٣ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: ٧١- ٧٤].

يخبرتعالى عن الأمم الماضية أن أكثرهم كانوا ضالين يجعلون مع الله آلهةً أخرى، وذكر تعالى أنه أرسل فيهم منذرين ينذرونهم بأس الله، ويحذرونهم سطوته ونقمته ممن كفر به وعبد غيره، وأنهم تمادوا على مخالفة رسلهم وتكذيبهم، فأهلك المكذبين ودمرهم، ونجى المؤمنين ونصرهم وظفرهم[(١)].

قال ابن عاشور رحمه الله: «والأمر بالنظر مستعملٌ في التعجيب والتهويل، فإن أريد بالعاقبة عاقبتهم في الدنيا فالنظر بصريٌّ، وإن أريد عاقبتهم في الآخرة كما يقتضيه السياق فالنظر قلبيٌّ، ولا مانع من

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٧/ ١٩.

إرادة الأمرين واستعمال المشترك في المعنيين»[1].

موضوعات ذات صلة:

البشرى، الترغيب، الترهيب، الدعوة، النصيحة

(١) التحرير والتنوير ٢٣/ ١٢٨.





عناصر الموضوع

مفهوم الإنسان	٣٢٢
الإنسان في الاستعمال القرآني	٣٢٣
الالفاظ ذات الصلة	٣٢٤
الغاية من خلق الانسان	٣٢٨
خلق الإنسان	٣٣٢
الإنسان بين الإيمان والكفر	٣٤٩
صفات الإنسان	٣٥٤
الانسان والشيطان	٣٦٥
نداءات ووصايا للإنسان	٣٧٠

المجلد الخامس

مفهوم الإنسان

أولًا: المعنى اللغوي:

تدور مادة (أ ن س) في اللغة حول معنيين رئيسين هما: الظهور والنسيان.

الأول: الظهور:

قال ابن فارسٍ: «الهمزة والنون والسين أصلٌ واحدٌ، وهو ظهور الشيء، وكل شيءٍ خالف طريقة التوحش. قالوا: الإنس خلاف الجن، وسموا لظهورهم. يقال: آنست الشيء، إذا رأيته، قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾ [النساء: ٦]. والأنس: أنس الإنسان بالشيء إذا لم يستوحش منه»[١]. فالإنسان: من الإنس خلاف الجن، أو من الأنس خلاف النفور، والإنسي منسوبٌ إلى الإنس، يقال ذلك لمن كثر أنسه، ولكل ما يؤنس به[٢].

الثاني: النسيان:

أورد ابن منظور في لسان العرب عن ابن عباسٍ - رضي الله عنهما- أنه قال: «إنما سمي الإنسان إنسانًا؛ لأنه عهد إليه فنسي»[٣].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

ذكر أبو البقاء الكفوي أن بعض الناس جعل الإنسان هو: المعنى القائم بالبدن، ولا مدخل للبدن في مسماه، وهو قول الأحناف والغزالي، وجعله آخرون الهيكل المحسوس، وهو قول جمهور المتكلمين[٤].

وقد أورد الأشعري في (مقالات الإسلاميين) تسعة عشر قولًا في تعريف الإنسان[٥]، أرجحها القول الثالث، وذلك أن ماهية الإنسان وحقيقته لا تكون من دون جسدٍ وروحٍ، فالإنسان مجموع الروح والجسد، ولذا يسميه بعضهم حيٌّ ناطقٌ أو حيوانٌ ناطقٌ،كما عرفه الجرجاني بقوله: الإنسان هو الحيوان الناطق[٦].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ١٤٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٢٨.
(٣) لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٤٧.
والأثر أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره، ٨/ ٢٦٨٧، رقم ١٥١١٣.
(٤) الكليات، الكفوي ص١٩٨-١٩٩.
(٥) مقالات الإسلاميين، الأشعري ٢/ ٢٥-٢٨.
(٦) التعريفات، الجرجاني ص٣٨.



الانسان في الاستعمال القرآني

وردت مادة (أنس) في القرآن (٩٧) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٥	﴿فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ﴾[النساء:٦]
الفعل المضارع	١	﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾[٢٧:]
اسم الفاعل	١	﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ [الأحزاب:٥٣]
اسم	٩٠	﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾[الإنسان:٢]

وجاء الإنسان في القرآن على ثلاثة أوجه[٢]:

الأول: آدم عليه السلام، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ [المؤمنون:١٢].

الثاني: جنس بني آدم، ومنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ۝٣٥﴾[النازعات:٣٥].

الثالث: أحد أبناء آدم بعينه، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾[العلق:٦]. أريد به: أبو جهل.

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص٩٣-٩٤، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص٢٦٨-٢٦٩.

(٢) انظر: الوجوه والنظائر، الدامغاني، ٦٨، بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي، ٢/ ٣١-٣٥، نزهة الأعين النواظر، ابن الجوزي، ص١٧٦-١٨٣، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ١/ ١٢٩-١٣٢.

الألفاظ ذات الصلة

١ بنو آدم:

بنو آدم لغة:

بنو: أصلها: بنون، حذفت النون للإضافة، وهي جمع ابن، وتجمع أيضًا على أبناء[(١)].

وآدم: أبو البشر.

وأديم كل شيء: ظاهر جلده، وأدمة الأرض: وجهها، وقيل سمي آدم عليه السلام لأنه خلق من أدمة الأرض، وقيل: بل من أدمةٍ جعلت فيه[(٢)].

بنو آدم اصطلاحًا:

هم الناس[(٣)]، وبنو أبي البشر[(٤)].

الصلة بين الإنسان وبني آدم:

من الألفاظ التي يستعملها القرآن مرادفةً للفظ (الإنسان) لفظ (بني آدم)، وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم سبع مراتٍ، ومن خلال القراءة المتأنية لهذه المواضع تبين أن هذه المواضع فيها تذكير بأن الإنسان له أصلٌ واحدٌ، وهو آدم عليه السلام، وفيها تذكيرٌ وإحالةٌ إلى الحيثيات الملابسة لقصة آدم عليه السلام، واستدعاء لأحداث تلك القصة وللمعاني المرتبطة بها.

٢ الإنس:

الإنس لغة:

جماعة الناس، والجمع أناسٌ، وهم الأنس. تقول: رأيت بمكان كذا وكذا أنسًا كثيرًا، أي: ناسًا كثيرًا. والإنس: خلاف الجن، والإنس خلاف النفور، والإنسي منسوبٌ إلى الإنس. والإنس: البشر، الواحد إنسيٌّ وأنسيٌّ أيضًا، والجمع أناسي[(٥)].

---

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٤/ ٨٩.

(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٨/ ٨٨.

(٣) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ١/ ١٣.

(٤) انظر: المفردات، الأصفهاني، ص١٤

(٥) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ٩٠٤، مختار الصحاح، الرازي ص٢٤، لسان العرب، ابن منظور ١/ ١٤٧.

الإنس اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي، وهم: بنو آدم، سموا بذلك؛ لأنهم لا يعيشون بدون إيناسٍ، فهم يأنس بعضهم ببعضٍ، ويتحرك بعضهم إلى بعض[(١)].

وقيل: سمي بذلك؛ لظهوره، وإدراك البصر إياه، فيقال: آنست الشيء: إذا أبصرته، فهو بذلك ضد الجن.

الصلة بين الإنسان والإنس:

الإنسان في الاستعمال القرآني غير الإنس وإن كان بينهما ملحظٌ مشتركٌ من الأصل اللغوي لمادة (أ ن س) في دلالتها على نقيض التوحش،إلا أن لفظ (الإنس) يأتي دائمًا مع لفظ (الجن) على وجه التقابل، يطرد ذلك ولا يتخلف في كل الآيات التي ورد فيها ذكر (الإنس) وعددها ثماني عشرة آية[(٢)]، ومن خلال القراءة المتأنية لتلك الآيات تبين أن الإنسية تعني عدم التوحش، وهو المفهوم صراحةً من مقابلتها بالجن في دلالتها أصلًا على الخفاء الذي هو قرين التوحش، وبهذه الإنسية يتميز جنسنا عن أجناسٍ أخرى خفيةٍ مجهولةٍ لا تنتمي إلينا ولا تحيا حياتنا[(٣)].

٣ الناس:

الناس لغة:

اسمٌ للجمع من بني آدم، واحده: إنسانٌ من غير لفظه، قيل: أصله أناسٌ، فحذف فاؤه لما أدخل عليه الألف واللام، وقيل: قلب من نسي، وأصله إنسيان على إفعلان، وقيل: أصله من ناس ينوس إذا اضطرب.

والناس قد يذكر ويراد به الفضلاء دون غيرهم في تناوله اسم الناس تجوزًا، وذلك إذا اعتبر معنى الإنسانية، وهو وجود الفضل والذكر وسائر الأخلاق الحميدة والمعاني المختصة به، فإن كل شيءٍ عدم فعله المختص به لا يكاد يستحق اسمه[(٤)].

قال الكفوي: الناس: هو اسم جمعٍ؛ ولذلك يستعمل في مقابلة الجنة: وهي جماعة الجن[(٥)].

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد، ابن عثيمين ١/ ٢٠.
(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، محمد فؤاد عبدالباقي ص١١٥.
(٣) انظر: القرآن وقضايا الإنسان، عائشة بنت الشاطئ ص١٨.
(٤) انظر: المفردات، الراغب الأصفهاني ص٥٠٩، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٩٦٢.
(٥) الكليات، الكفوي ص٩١٢.

الناس اصطلاحًا:

لا يخرج عن معناه اللغوي.

الصلة بين الإنسان والناس:

لفظ الإنسان في الاستعمال القرآني يختلف -كذلك- عن لفظ الناس، فقد ورد لفظ الناس في القرآن الكريم نحو مائتين وأربعين مرةً بدلالةٍ واضحةٍ على اسم الجنس لهذه السلالة الآدمية، أو هذا النوع من الكائنات في عمومه المطلق. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣] (١).

٤ البشر:

البشر لغة:

(بشر) الباء والشين والراء أصلٌ واحد: ظهور الشيء مع حسنٍ وجمال، فالبشرة ظاهر جلد الإنسان، والبشر: الإنسان.

البشر اصطلاحًا:

والبشر: هم الخلق، يقع على الأنثى والذكر والواحد والاثنين والجمع (٢).

وإطلاق البشر على الإنسان اعتبارًا بظهور جلده من الشعر، بخلاف الحيوان الذي عليه نحو صوف أو شعر (٣).

الصلة بين الإنسان والبشر:

الإنسان في الاستعمال القرآني يختلف- كذلك- عن البشر، فاستقراء مواضع ورود (بشر) في القرآن كله، يؤذن بأن البشرية فيه هي هذه الآدمية المادية التي تأكل الطعام وتمشي في الأسواق، وفيها يلتقي بنو آدم جميعًا على وجه المماثلة التي هي أتم المشابهة. وبهذه الدلالة، ورد لفظ البشر، اسم جنس، في خمسةٍ وثلاثين موضعًا من القرآن الكريم، منها خمسة وعشرون موضعًا في بشرية الرسل والأنبياء، مع النص على المماثلة فيما هو من ظواهر البشرية وأعراضها المادية بينهم وبين سائر البشر.وقد تأتي الآيات في تقدير بشرية الرسل دون التصريح بلفظ المماثلة فيها لبشرية الناس جميعًا، لكن السياق فيها شاهد على

---

(١) انظر: القرآن وقضايا الإنسان، عائشة بنت الشاطئ ص١٧.
(٢) انظر: لسان العرب،ابن منظور، ٤/ ٥٩.
(٣) انظر: التعاريف، المناوي، ص١٣٢ .

هذه المماثلة وإن لم تذكر بلفظها نصًا[1]. والبشر يقتضي حسن الهيئة؛ وذلك أنه مشتقٌّ من البشارة وهي حسن الهيئة، ولذلك استعمل في سياقاتٍ دالة على القدرة والإعجاز، في تخليق بشر ظاهر الهيئة من الماء أو الطين[2].

٥ الأنام:

الأنام لغةً:

الأنام هم ما على ظهر الأرض من جميع الخلق، ويجوز في الشعر: الأنيم[3].

الأنام اصطلاحًا:

هم الجن والإنس[4].

الصلة بين الإنسان والأنام:

الإنسان في الاستعمال القرآني يختلف عن الأنام، فقد ورد لفظ الأنام في القرآن الكريم في موضعٍ واحدٍ، وذلك في قول الله عز وجل: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠﴾ [الرحمن: ١٠].

ونلحظ من خلال السياق العام للسورة الكريمة أن اللفظ يشمل الثقلين الإنس والجن على الراجح؛ لأن الخطاب في سورة الرحمن لهما[5].

(١) القرآن وقضايا الإنسان، عائشة بنت الشاطئ ص١٥-١٧.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص٢٧٦، معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، محمد داود ص ٨٤.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي، ٨/ ٣٨٨.
(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور، ١٢/ ٣٧.
(٥) انظر: معجم الفروق الدلالية في القرآن الكريم، محمد داود ص٨٣.

الغاية من خلق الانسان

إن الله تعالى خلق المخلوقات، وأوجد الموجودات لغايةٍ يريدها، وحكمةٍ يعلمها، ولم يخلقهم سدًى، ولم يتركهم هملًا. قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:١١٥].

وقد أوضح الحق سبحانه وتعالى في كتابه الكريم تلك الغاية وهي متمثلة في أمرين: أحدهما: تحقيق العبودية لله عز وجل . والثاني: تحقيق عمارة الأرض. وفي المطلبين الآتيين تفصيلٌ لهذين الأمرين.

أولًا: تحقيق العبودية:

لعل الغاية الأسمى التي خلق لأجلها الإنسان هي تحقيق العبودية لله تعالى بجميع أنواعها.وذلك مصداقًا لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

وتلك غايةٌ عظيمةٌ ساميةٌ عليها مدار سعادة الإنسان. قال الإمام النووي رحمه الله: « وهذا تصريحٌ بأنهم خلقوا للعبادة، فحق عليهم الاعتناء بما خلقوا له والإعراض عن حظوظ الدنيا بالزهادة، فإنها دار نفادٍ لا محل إخلادٍ، ومركب عبورٍ لا منزل حبورٍ»[(١)].

وأهل الإيمان يوقنون في قرارة أنفسهم بذلك. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: « إن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له»[(٢)].

لكن ما معنى العبودية؟ وما حقيقتها ؟

العبادة لغةً: معناها: الانقياد والذل والخضوع[(٣)].

قال الأزهري:« العبادة: الطاعة مع الخضوع. ويقال: طريقٌ معبدٌ إذا كان مذللا بكثرة الوطء»[(٤)]. وقال الراغب: «العبودية إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها، لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال وهو الله تعالى؛ ولهذا قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]»[(٥)].

والمعنى الاصطلاحي للعبادة، لا يخرج عن المعنى اللغوي، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «العبادة هي اسمٌ جامعٌ لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة»[(٦)].

ويضيف أيضًا: « وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له، والمرضية له، التي خلق الخلق لها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ

(١) رياض الصالحين، النووي ص٩-١٠.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ١/ ٢٣.

(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٢٣٤، مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ٢٠٥-٢٠٧، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٧٧٦.

(٤) تهذيب اللغة، ٢/ ٢٣٤.

(٥) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣١٩.

(٦) العبودية، ابن تيمية ص١٩.

﴿ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦][1].

وهذا تعريفٌ شاملٌ للعبادة بكل أنواعها وحالاتها. فالعبودية مفهومٌ شاملٌ لكل عملٍ إنساني صالحٍ يقصد به وجه الله في هذه الحياة.

قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ [الأنعام: ١٦٢]. وتحقيق العبادة يقتضي أن يجعل الإنسان حياته وسائر أفعاله وتصرفاته وعلاقاته مع الناس وفق المناهج التي وضعتها الشريعة الإسلامية.

وحقيقة العبادة: « هي استسلام القلب والجوارح لله حبًا وخضوعًا له، وخوفًا من عقابه، لا شريك له في شيءٍ من ذلك ألبته، فهو المستحق للعبادة وحده دون ما سواه»[2].

وجميع الرسل عليهم الصلاة والسلام من أولهم إلى خاتمهم- كانت دعوتهم أساسها تحقيق العبودية لله عز وجل.

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾[الأعراف: ٥٩].

وقال سبحانه: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَٱبْتَغُوا عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾[العنكبوت: ١٦-١٧].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾[الأعراف: ٦٥].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وكذلك قال المسيح عيسى بن مريم عليه السلام فيما أخبر الله عنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [آل عمران: ٥١].

والعبودية لرب العالمين غاية كمال المتقين، فقد جعل الله سبحانه وتعالى العبودية وصف أكمل خلقه، وأقربهم إليه، وأعلاهم منزلة لديه في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِي بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾[الإسراء: ١].

وبها افتتح عيسى عليه الصلاة والسلام كلامه وهو في المهد فقال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾﴾ [مريم:

---

(١) المصدر السابق.

(٢) العبادة، سليمان العثيم ص١٣ .

[٣٠].

يقول شارح الطحاوية رحمه الله: «واعلم أن كمال المخلوق في تحقيق عبوديته لله تعالى، وكلما ازداد العبد تحقيقًا للعبودية ازداد كماله وعلت درجته»[1].

ثانيًا: عمارة الأرض:

لاشك أن الغاية الأساسية من وجود الإنسان هي تحقيق العبودية لله تعالى، إذ يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[الذاريات: ٥٦].

ومع هذا فليست الغاية من الخلق محصورةً فقط على العبادة كما ظن كثيرٌ من الناس، حيث إن الآية لم يقصد منها الاقتصار على أداء الشعائر التعبدية فحسب، ولكن الله عز وجل هيأ الإنسان لأمرٍ آخر لا يتعارض مع تحقيق العبودية، ألا وهو عمارة الأرض واستخلافه.

فالله سبحانه وتعالى استخلف البشر في الأرض بقصد عمارة الكون وإنمائه واستغلال كنوزه وثرواته.

قال صالح عليه السلام مخاطبًا قومه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].

لكن ما معنى الاستعمار؟ وما حقيقته؟

الاستعمار لغةً: طلب التعمير والسعي لتحقيق العمران[2].

يقول الراغب الأصفهاني: «العمارة نقيض الخراب، يقال: عمر أرضه يعمرها عمارةً، قال تعالى: ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾[التوبة:١٩]. ويقال: عمرته فعمر فهو معمورٌ. قال: ﴿وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[الروم:٩].

﴿وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ۝٤﴾[الطور:٤].

وأعمرته الأرض واستعمرته: إذا فوضت إليه العمارة، قال: ﴿وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]»[3].

والمعنى الاصطلاحي للاستعمار لا يختلف عن معناه اللغوي، فيراد به: طلب التعمير والسعي لتحقيق العمران، ويراد به كذلك: التمكين والتسلط، كما هو واضحٌ من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ۝١٠﴾ [الأعراف: ١٠]. وقوله عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[البقرة: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾[الجاثية: ١٣].

وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [البقرة: ٢٢]. ﴿الَّذِي

(١) شرح العقيدة الطحاوية، ابن أبي العز الحنفي ص١٠٤.

(٢) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٢/ ٣٨٣، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣١٠١، تاج العروس ١٣/ ١٢٩.

(٣) المفردات، ص٣٤٧.

﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ٥٣﴾[طه: ٥٣].
﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾ [الملك: ١٥][(١)].

والمقصود بعمارة الأرض: «جعلها عامرةً غير خلاءٍ وذلك بالبناء والغرس والزرع»[(٢)].

ويعد إعمار الكون ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية، فلا بد للإنسان من أن يكتشف ويخترع من أجل تذليل العقبات التي تعترض طريقه، وتحول بينه وبين تحقيق ما يطمح إليه من سبل العيش الآمن والحياة الكريمة. قال ابن عاشور عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾[النمل: ٨٨].

قال: «وهذا استدعاءٌ لأهل العلم والحكمة لتتوجه أنظارهم إلى ما في الكون من دقائق الحكمة، وبديع الصنعة. وهذا من العلم الذي أودع في القرآن ليكون معجزةً من الجانب العلمي يدركها أهل العلم، كما كان معجزةً للبلغاء من جانبه النظمي»[(٣)].

وذكر الألوسي أن معنى قوله سبحانه: ﴿وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١].

أي: جعلكم عمارها وسكانها فالاستفعال بمعنى الإفعال، يقال: أعمرته الأرض واستعمرته إذا جعلته عامرها وفوضت إليه عمارتها. وذكر معنى آخر، وهو أنه أمركم بعمارة ما تحتاجون إليه من بناء مساكن، وحفر أنهار، وغرس أشجار، وغير ذلك، فالسين للطلب.

واستدل بالآية على أن عمارة الأرض واجبة لهذا الطلب». فلا تستقيم حياة الإنسان بدونها.

ولا يقصد هنا؛ أن تكون عمارة الأرض بالعلم المادي فقط، فلو كانت عمارة الأرض بالحضارة والتمدن والعلوم الدنيوية هي المقصود بحسن العمل، لما أرسل الله الرسل في التاريخ البشري أصلًا؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أثبت تميز الأمم أصلًا في عمارة الأرض وعمق علمها بالدنيا؛ كما قال تعالى عن الأمم السابقة:

﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾[الروم: ٩].

وقال عن علمهم المدني ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]. فالمقصود من عمارة الأرض تحكيم شريعة الله تعالى في أرضه؛ كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ

(١) انظر: الفقه الإسلامي وأدلته، وهبة الزحيلي ٨/ ٦٣٨٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ٥٧.
(٣) المصدر السابق ٢٠/ ٤٨-٤٩.

﴿وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١].

والقرآن الكريم يربط بين عمارة الأرض والأخذ بهدي الأنبياء- عليهم السلام-، كما أن البعد عن هذا الهدي السماوي يجلب فيما يجلب التعاسة والحروب، وسقوط الحضارة.

يقول تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

خلق الإنسان

يعد خلق الإنسان آيةً من آيات الله عز وجل العظيمة، خصوصًا إذا علمنا أن عملية الخلق هذه قد مرت بمراحل عديدةٍ وأطوار مختلفة.

قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾ [نوح: ١٤].

ومن الواضح أنه قبل عملية الخلق هذه، قد أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن فيه الإنسان شيئًا مذكورًا، فأوجده الله بعد أن لم يكن موجودًا، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾ [الإنسان: ١].

وقوله عز وجل: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾﴾ [مريم: ٦٧][1].

وقد خلق الله عز وجل الإنسان على أربعة أوجهٍ:

الأول: خلق آدم عليه السلام من غير ذكرٍ ولا أنثى.

الثاني: خلق حواء من ذكرٍ بلا أنثى.

الثالث: خلق المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام من أنثى بلا ذكر.

الرابع: خلق سائر البشر من ذكر وأنثى.

(١) الموسوعة القرآنية المتخصصة، مجموعة مؤلفين ص٧٧٩.

أولًا: خلق آدم عليه السلام:

أخبر الحق سبحانه وتعالى عن خلق آدم عليه السلام في مواضع عديدة من القرآن الكريم، وكذلك ورد الحديث عن خلق آدم في أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، ومن خلال الآيات القرآنية الكريمة وأحاديث المصطفى صلى الله عليه وسلم في خلق آدم عليه السلام يمكن أن نقول بأن «خلق آدم عليه السلام مر في ثلاثة أطوارٍ رئيسةٍ هي:

أولا: طور التخليق.

ثانيًا: طور التصوير.

ثالثًا: طور نفخ الروح»[1].

الطور الأول: طور التخليق.

ويتضمن أربع مراحل رئيسةٍ هي:

المرحلة الأولى: التراب.

يعد التراب المرحلة الأولى والبداية الحقيقية لخلق الإنسان الأول، أي: آدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾[آل عمران: ٥٩]. فهذه الآية صريحة في أن آدم عليه السلام خلق من تراب، فالهاء في قوله:﴿خَلَقَهُۥ﴾تعود على آدم عليه السلام .

(١) مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص١٦.

المرحلة الثانية: من طينٍ.

وهذه هي المرحلة الثانية التي يصير فيها التراب طينًا.

قال تعالى:﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ۝٧١﴾[ص:٧١].

وقال سبحانه: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ [السجدة: ٧]. والطين ناتج عن خلط التراب بالماء. ويلاحظ أن هذا الطين بالنسبة للإنسان الأول، وهو آدم عليه السلام ، كان: طينًا لازبًا. يصور ذلك قوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ ۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍۭ ۝١١﴾[الصافات: ١١].

واللازب: هو الثابت شديد الثبوت[2].

المرحلة الثالثة: خلقه من حمأ مسنونٍ.

بعد ذلك يتغير الطين اللازب إلى أن يصير طينًا متغير الرائحة أسود، وهو ما سماه القرآن الكريم بالحمأ المسنون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦﴾[الحجر: ٢٦].

المرحلة الرابعة: خلقه من صلصالٍ كالفخار.

والمراحل السابقة مجتمعة أدت إلى مرحلة الصلصال هذه: قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤﴾ [الرحمن: ١٤].

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٤٤٩.

والصلصال: الطين اليابس الذي تسمع له صلصلة، أي: صوتٌ إذا قرع بشيء[1].
وهذا الصلصال يشبه الفخار إلا أنه ليس فخارًا؛ لأن الفخار مطبوخ بالنار بخلاف الصلصال، فهو طين يابس غير مطبوخ بالنار.

هذا هو الطور الأول: طور التخليق، بمراحله الأربعة السابق ذكرها.

الطور الثاني: طور التصوير.

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَـٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَـٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّـٰجِدِينَ ⑪﴾ [الأعراف: ١١]. ويلاحظ من خلال هذه الآية الكريمة أن مرحلة التصوير ثانية بعد الخلق، حيث عطفت جملة صورناكم بحرف (ثم) الدالة على تراخي رتبة التصوير عن رتبة الخلق[2].

الطور الثالث: طور نفخ الروح.

بعد أن سوى الله عز وجل الإنسان الأول وصوره، وهو آدم عليه السلام أراد أن يبث فيه الحياة، نفخ فيه من روحه، فصار بشرًا حيًا. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ㉘ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ ㉙﴾ [الحجر: ٢٨-٢٩].

والنفخ: إجراء الريح في الشيء؛ وإنما سمى إجراء الروح فيه نفخًا؛ لأنها جرت في بدنه مثل جري الريح فيه[3].

[انظر: آدم: مراحل خلق آدم]

ثانيًا: خلق حواء:

لما خلق الله عز وجل آدم عليه السلام خلق له زوجه حواء عليها السلام.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ①﴾ [النساء: ١].

وقال سبحانه: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩].

وقال جل شأنه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ [الزمر: ٦].

فدلت هذه الآيات الكريمات على أن آدم عليه السلام قد خلق أولا، وأن حواء قد خلقت بعده. حيث ذكر جمهور المفسرين أن المراد ب (النفس الواحدة): آدم عليه السلام، والمراد بقوله تعالى: (زوجها): حواء عليها السلام[4].

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٢/ ١٩١، النكت والعيون، الماوردي ٣/ ١٥٧.
(٢) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٨/ ٣٦.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٤٠٠.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ١٠٧، الجامع

وقد اختلف العلماء في كيفية خلق حواء على قولين مشهورين، وهما:

القول الأول: وهو قول جمهور المفسرين، حيث ذهبوا إلى أن الآيات الكريمات قد نصت على أن حواء خلقت من آدم كما يقتضيه ظاهر قوله: ﴿مِنْهَا﴾، ولهذا قالوا بأن (من) في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ للتبعيض، ومعنى التبعيض أن حواء خلقت من جزءٍ من آدم عليه السلام[1].

واختلفوا في الجزء الذي خلقت منه حواء على قولين:

الأول: قالوا بأنها خلقت من ضلع آدم، وممن قال بهذا الرأي: جماعةٌ من مفسري السلف رضوان الله عليهم.

واحتجوا عليه بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إن المرأة خلقت من ضلعٍ، لن تستقيم لك على طريقةٍ، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوجٌ، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها»[2].

الثاني: قالوا بأنها خلقت من بقية الطينة التي خلق منها آدم.

وقد حكى هذا القول ابن عاشور[3]، وشهاب الدين الخفاجي في (حاشيته على تفسير البيضاوي)[4]، وابن عادل في تفسيره (اللباب في علوم الكتاب)[5].

القول الثاني: وهو اختيار أبي مسلمٍ الأصفهاني، أن المراد من قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ أي: من جنسها.

وهو كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ [النحل: ٧٢].

وكقوله: ﴿إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨][6].

والراجح - والله أعلم - أن حواء خلقت من جنس خلق آدم عليه السلام أي: من نفس العناصر التي خلق منها آدم، فالله خلق حواء من نفس نوع آدم كما خلق لنا من أنفسنا أزوجا.

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الروم: ٢١].

وأما ما جاء في الحديث (إن المرأة خلقت من ضلع) فلا يدل على أنه ضلع آدم، إنما يحمل على جهة التمثيل لاضطراب أخلاقهن، وكونهن لا يثبتن على حالة واحدة، أي: صعبات المراس، فهي كالضلع

لأحكام القرآن، القرطبي ٩/ ٤٠٨.

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٤/ ٢١٥.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الرضاع، باب الوصية بالنساء، رقم ١٤٦٨، ١/ ٦٧٣.

(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٢١٥.

(٤) حاشية شهاب الدين الخفاجي ٣/ ٢٤٥.

(٥) اللباب في علوم الكتاب ٦/ ١٤١.

(٦) تفسير أبي مسلم الأصفهاني ص٩٦.

العوجاء، كما جاء ﴿خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

ويؤيد هذا قوله (إن المرأة) فأتى بالجنس، ولم يقل حواء[1].

[انظر: آدم: كيف خلقت حواء]

ثالثًا: خلق عيسى عليه السلام:

يعد خلق عيسى عليه السلام من أم بلا أب معجزةً دالةً على عظيم قدرة الله التي لا تحدها حدود ولا يقف أمامها مانع ليظهر للناس أنه عز وجل على كل شيءٍ قدير. وقد تحدث القرآن الكريم عن خلق عيسى عليه السلام وحكى مراحل حياته المختلفة، وسأقتصر في حديثي عن خلق عيسى عليه السلام على أمرين:

الأول: البشارة بعيسى عليه السلام.

والثاني: الحمل بعيسى عليه السلام.

وفيما يأتي بيان لهذين الأمرين.

أولا: البشارة بعيسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦]

وقال سبحانه: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ١٦ - ٢١]

لما بلغت مريم عليها السلام مبلغ النساء، خرجت ذات يومٍ من محرابها، وسارت جهة شرقي بيت المقدس، فبينما هي تسير، وقد ابتعدت عن أهلها وقومها،إذ فاجأها شاب وضيء الوجه، حسن الصورة، مستوي الخلق، ففزعت واضطربت وخافت على نفسها منه، ثم قالت له: ﴿إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾﴾ [مريم: ١٨].

ولم يكن في خاطرها أنه ملك كريم، هو جبريل الأمين عليه السلام تمثل لها في صورة إنسان.قال سبحانه: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾﴾ [مريم: ١٧]

قال أبو حيان في تفسيره: « وإنما مثل لها الملك في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه، ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت، ولم تقدر على استماع كلامه، ودل على عفافها وورعها أنها تعوذت من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثيله

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٣/ ١٦٣.

على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبرًا لعفتها»[1].

وحين ظهر لمريم بعد ذلك أن الذي عرض لها في خلوتها ليس بشرًا إنما هو ملك كريم، أنست واستبشرت به، ولكنها تعجبت من قوله حين بشرها بالغلام: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ فهي امرأة بكر لم تتزوج ولم يقربها أحد من الرجال، ولا تزال عذراء. وهي عفيفة لم تقارف إثمًا، فكيف يمكن أن يأتيها غلام مع عدم اتصال رجل بها؟! ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾﴾

وقد كان جوابه لها أنها إرادة الله ومشيئته، فهو جل ثناؤه لا يعجزه شيء، وإذا أراد أمرًا فإنما يقول له كن فيكون، ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾﴾ [مريم: ٢١].

وقال سبحانه في آية أخرى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٧].

أي: كمثل هذا الخلق البديع يخلق الله ما يشاء، فإن من شأنه الاختراع والإبداع[2].

ثانيًا: الحمل بعيسى عليه السلام.

بعد أن سكنت مريم لأمر الله ورضيت بقضاء الله، وأيقنت أن تلك إرادة الله وحكمته، نفخ فيها روح القدس، كما قال تعالى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنبياء: ٩١].

وقال سبحانه: ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِ وَكَانَتْ مِنَ الْقَانِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢]

فالذي عليه الجمهور من العلماء: أن المراد بذلك النفخ: نفخ جبريل فيها بإذن الله فحملت، ولا ينافي ذلك إسناد الله جل وعلا النفخ المذكور لنفسه في قوله: ﴿فَنَفَخْنَا﴾؛ لأن جبريل إنما أوقعه بإذنه وأمره ومشيئته، وهو تعالى الذي خلق الحمل من ذلك النفخ؛ فجبريل لا قدرة له على أن يخلق الحمل من ذلك النفخ، بل من أجل كونه بإذنه ومشيئته وأمره تعالى. وذكر المفسرون أن جبريل عليه السلام لما نفخ في جيب درعها، نزلت النفخة إلى فرجها فحملت من فورها . قال تعالى: ﴿۞ فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾﴾ [مريم: ٢٢].

واختلف العلماء في مدة الحمل على أقوال مضطربة متناقضة لا حاجة إلى ذكرها، والصحيح أنها حملت به حملًا طبيعيًا كما تحمل سائر النساء، ووضعته كما تضع

(١) البحر المحيط، أبو حيان ٦/ ١٧٠.
(٢) النبوة والأنبياء ص٢٠١-٢٠٢.

النساء.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]. بينت هذه الآية الكريمة أن عيسى عليه السلام خلق بأمرين: بكلمة من الله، وروح منه.

الأمر الأول: خلق عيسى عليه السلام بكلمة الله (كن).

جاء في محكم التنزيل: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: ٥٩]. وبهذا يتبين أن الله سبحانه وتعالى خلقه بكلمةٍ منه، وهي (كن)، كما خلق آدم، وكان عيسى بهذا كلمة الله ؛ لأنه خلقه بها[١]. وقال سبحانه: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ۝٤٥﴾ [آل عمران: ٤٥].

إن الكلمة من الله المذكورة في الآية مفسرة بأنها المسيح عيسى ابن مريم، بدليل أن الضمير في كلمة (اسمه) جاء مذكرًا مع أنه يعود على مؤنث (كلمة)، فلم يقل: بكلمة منه اسمها المسيح؛ لأن المراد بالكلمة مذكر، وهو عيسى عليه السلام، فذكر مراعاة للمعنى[٢].

الأمر الثاني: خلق الله عيسى عليه السلام بروح من الله.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

ذكر الإمام فخر الدين الرازي وجوه اختلاف أهل العلم في تأويل قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾:

الأول: أنه جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئًا بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روحٌ، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل - عليه السلام- لا جرم وصف بأنه روح، والمراد من قوله (منه) التشريف والتفضيل، كما يقال: هذه نعمةٌ من الله، والمراد كون تلك النعمة كاملة شريفة.

الثاني: أنه كان سببًا لحياة الخلق في أديانهم، ومن كان كذلك وصف بأنه روحٌ. قال تعالى في صفة القرآن:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢].

الثالث: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أي رحمة منه، قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

أي: برحمة منه، فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث إنه كان يرشدهم إلى مصالحهم في دينهم ودنياهم

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ١٩٨٠.
(٢) مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص٣٣.

لا جرم سمي روحًا منه.

الرابع: أن الروح هو النفخ في كلام العرب، فإن الروح والريح متقاربان، فالروح عبارة عن نفخة جبريل، وقوله (منه) يعني أن ذلك النفخ من جبريل كان بأمرِ الله وإذنه فهو منه، وهذا كقوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾[الأنبياء: ٩١].

والراجح - والله أعلم - هو القول الأول، حيث إن عيسى عليه السلام سمي روحًا لكونه نشأ من الروح مباشرةً، ولأنه غلبت عليه الروحانية، وإن كان بشرًا كسائر البشر، يأكل ويشرب، ويمشي في الأسواق، و(من) هنا للابتداء، أي: أن الروح مرسل من عند الله تعالى، ونفخ بإذنه[1]. ويؤيد ذلك أن الآية جاءت في معرض الرد على النصارى الذين غالوا في المسيح عليه السلام .

رابعًا: خلق سائر بني آدم.

بعد أن خلق الحق سبحانه وتعالى الإنسان الأول وهو آدم عليه السلام ، وخلق منه زوجه حواء عليها السلام بين لنا في كتابه العزيز أطوار خلق ذرية آدم ؛ إظهارًا لعظمته سبحانه وتعالى وقدرته، وقد دلت نصوص القرآن الكريم على أن الإنسان يخلق على أطورٍ ومراحل متتاليةٍ. قال تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ۝١٤﴾[نوح: ١٤].

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٤/ ١٩٨١ .

وقال سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾[الزمر: ٦]، أي: طورًا من بعد طورٍ.

ولقد تعرض القرآن الكريم إلى أطوار خلق الإنسان بأساليب مختلفةٍ، فمرةً يذكر أطوار الخلق كلها، وأخرى يكتفي بذكر طورٍ واحدٍ أو طورين، فالقرآن تناول الخلق في كل مرةٍ من زاويةٍ؛ لتكتمل الصورة، وذلك لحكمةٍ بيانيةٍ وبلاغيةٍ، لما يحققه هذا الأسلوب من العبرة والموعظة في إثبات القدرة الإلهية في مخلوقاته، والتي يرفضها الملحدون، لقصورٍ عقليٍ أو عنادٍ أو غرورٍ[2]. ومن خلال تتبع الآيات القرآنية المتعلقة بأطوار خلق الإنسان، نجد أن القرآن الكريم حدد أطوار خلق الإنسان الأساسية في ثلاثة أطوارٍ[3]:

الطور الأول: طور النطفة.

النطفة- بضم النون- في لغة العرب: تعني القليل من الماء، وقيل: الماء القليل يبقى في القربة، وقيل: هي الماء الصافي

(٢) الإنسان وجوده وخلافته في الأرض في ضوء القرآن الكريم، عبدالرحمن المطرودي ص٥١.

(٣) الطور بالفتح: التارة، يقال: طورًا بعد طورٍ، أي تارةً بعد تارةٍ.
انظر: تاج العروس، ١٢/ ٤٣٩ .

قل أو كثر، والجمع نطفٌ ونطافٌ.[(١)] . وقد ورد التعبير بالنطفة في اثني عشر موضعًا من كتاب الله [(٢)] .

والنطفة أنواع ثلاثة:

١. نطفة الذكر: وهي الحيوانات المنوية الموجودة في المني.
٢. نطفة الأنثى: وهي البويضة.
٣. النطفة الأمشاج: وهي النطفة المختلطة من الحيوان المنوي الذي يلقح البويضة[(٣)] .

مراحل تكوين النطفة:

يبدأ مصطلح النطفة من الحيوان المنوي والبويضة، وينتهي بمرحلة الحرث والانغراس، وتمر النطفة خلال تكونها بمراحل، أطلق القرآن الكريم على كل مرحلةٍ منها تسمية تتناسب مع تلك المرحلة، والمراحل التي تمر بها النطفة أربع[(٤)]، وهي:

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٤٠، لسان العرب، ابن منظور ١٦/ ٤٤٦١، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٨٥٧.
(٢) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبدالباقي ص٧٩٨.
(٣) انظر: خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص١٠٩، إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٦٦.
(٤) انظر: علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، عبدالمجيد الزنداني ص١٧-٢٧، مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن الكريم، منى رفعت ص٥٧.

أولًا: مرحلة الماء الدافق.
ثانيًا: مرحلة السلالة.
ثالثًا: مرحلة النطفة الأمشاج.
رابعًا: مرحلة الحرث.

المرحلة الأولى من مراحل طور النطفة: مرحلة الماء الدافق.

قال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق: ٥ - ٦]

الدفق في كلام العرب صب الماء، وهو متعدٍ، يقال: دفقت الكوز فاندفق، وهو مدفوق. وأهل الحجاز يطلقون صيغة فاعل على المفعول كقولهم: هذا سرٌ كاتمٌ (أي مكتوم)، وهمٌ ناصبٌ (أي منصوب)[(٥)] .

و﴿دَافِقٍ﴾ بمعنى مدفوق، اسم الفاعل بمعنى مفعول[(٦)] . وقال الخليل وسيبويه: هو على النسب كـ(لابن، وتامر)، أي: ذي دفق وهو صادق على الفاعل والمفعول.

والراجح والله أعلم أن المراد: ماء ذي دفق؛ لأن تفسيرها على مدفوقٍ، يعد من صرف اللفظ عن ظاهره، فهم اعتبروا أن الماء الدافق مفعولًا وليس فاعلًا. ولكن الحقيقة أن للماء - بإذن الله- قوة دفق ذاتية. فهو بذلك فاعل وليس مفعولًا[(٧)] . فالدافق

(٥) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ٩/ ٥٢، لسان العرب، ابن منظور ٢/ ١٣٩٦، القاموس المحيط الفيروزآبادي ص٨٨٣.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٨٤.
(٧) انظر: مراحل تطور خلق الإنسان في القرآن،

هو المندفق بشدة قوته[1]. وقد أثبت العلم الحديث أن المنويات التي يحتويها ماء الرجل لابد أن تكون حيوية متدفقة متحركة كشرط أساسي للإخصاب. وأثبت العلم أيضًا أن ماء المرأة الذي يحمل البويضة يخرج متدفقًا إلى قناة الرحم (فالوب)، وأن اندفاعة البويضة لابد أن تكون حيوية متدفقة حتى يتم الإخصاب[2].

والمراد بالماء الدافق عند المفسرين: مني الرجل ومني المرأة، وعبر عنهما بماء وهو مفرد؛ لأن الإنسان مخلوقٌ منهما، ولكن جعلهما ماءً واحدًا لامتزاجهما[3].

وقد وصف الله سبحانه وتعالى هذا الماء في آياتٍ أخرى بأنه ماء مهينٌ ضعيفٌ ليس كالماء العادي المنطلق، قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾﴾ [المرسلات: ٢٠].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾﴾ [السجدة: ٨].

ووصفه الله جل وعلا في آيةٍ أخرى أنه نطفة أي قليل من الماء، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [القيامة: ٣٧].

وقال سبحانه: ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾﴾ [النجم: ٤٥ – ٤٦].

ثم وصف الحق سبحانه وتعالى ذلك الماء الذي هو النطفة، بأنه يخرج من بين الصلب والترائب، ذلك في قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾﴾ [الطارق: ٧].

والصلب في اللغة: جمعه أصلبٌ وأصلابٌ وهو فقار الظهر، وهو عظم من لدن الكاهل (الكاهل من الإنسان هو مابين كتفه) إلى العجب (أي:أصل الذنب، وهو العصعص). ويقال: هو من صلب فلان: أي من ذريته. والصلب: الشديد، وباعتبار الصلابة والشدة سمي الظهر صلبًا[4].

أما الترائب: فهي جمع تريبة، وقد اختلف في معناها على أقوالٍ[5].

والراجح- والله أعلم- هو ما ذهب إليه ابن جرير الطبري، وهو قول جمهور المفسرين، أن المراد بالترائب: هو موضع القلادة من الصدر، لأن ذلك هو المعروف

منى رفعت ص١٨٣، إعجاز آيات القرآن في خلق الإنسان، محمد فياض ص٦٧.

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ٢٠٦، اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ٢٦٢.

(٢) انظر: إعجاز آيات القرآن في خلق الإنسان، محمد فياض ص٦٧-٦٩، خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص ١٢٣-١٢٤.

(٣) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ٢٠٦، البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٤٤٩.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٤٧٦، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠٥، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٥١٩.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٤/ ٢٩٦، ، الكشف والبيان، الثعلبي ١٠/ ١٧٩، النكت والعيون، الماوردي ٦/ ٢٤٧.

من كلام العرب، وبه جاءت أشعارهم[(١)].

والمعنى: يخرج هذا الماء المنصب من موضع العمود الفقري وأضلاع الصدر التي تضع المرأة القلادة عليها[(٢)].

المرحلة الثانية من مراحل طور النطفة: مرحلة السلالة:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٨﴾ [السجدة: ٨].

هذه الآية تشير إلى المرحلة الثانية التي تمر بها النطفة عبر رحلتها الطويلة من المهبل إلى البويضة ليتم التلقيح وهي مرحلة السلالة. والسلالة في اللغة: على وزن (فعالةٌ)، من سللت الشيء من الشيء: إذا استخرجته منه، والسل: انتزاع الشيء وإخراجه في رفقٍ[(٣)]. وفعالة تأتي للقليل من الشيء، نحو: القلامة، والنخالة[(٤)]. والسلالة: الخلاصة، وأصلها ما ينسل ويخلص بالتصفية[(٥)].

ورُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٍ﴾ قال: صفو الماء[(٦)]. وقيل في تفسير السلالة إنها خلاصة وأصلها ما يسل ويخلص بالتصفية.

ومن خلال معاني لفظة (سلالة) نستطيع أن نتلمس مدى انطباق هذه المعاني على النطفة (الحيوانات المنوية للرجل والبويضة للمرأة)، فقد ذكر علماء الطب أنه من بين مئات الملايين من الحيوانات المنوية التي توجد عادة في نطفة الرجل، ينسل حيوان واحد فقط منها كلها ليلقح بويضة المرأة التي تنسل هي بدورها من حويصلة البويضة، لتلتقي بسلالة الرجل في أنبوب الرحم. وبذلك تنشأ البويضة الملقحة، ويبدأ الحمل[(٧)]. وهذا هو ما تدل عليه لفظة السلالة من (التصفية والانتقاء) وهذا يؤكد لنا أيضًا دلالة اللفظة على (القلة) فهي عبارة عن جزء يسير جدًا من نطفة الرجل والمرأة.

ومن هنا نفهم سر الإعجاز الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم: **(ما من كل الماء يكون الولد، وإذا أراد الله خلق شيءٍ لم يمنعه شيءٌ)**[(٨)].

فالحديث صريحٌ في أنه ليس من كل الماء يكون الولد، وإنما من جزءٍ يسيرٍ

(١) جامع البيان ٢٤/ ٢٩٦.
(٢) تفسير جزء عم، مساعد الطيار ص١١٥.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٢/ ٢٩٢، العين، الفراهيدي ٧/ ١٩٢، لسان العرب، ابن منظور ٣/ ٢٠٧٤، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص١٠١٥.
(٤) انظر: معاني القرآن، الزجاج ٤/ ٢٠٥، معاني القرآن، النحاس ٤/ ٤٤٦.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ١٢١، محاسن التأويل، القاسمي ١٣/ ٤٨١٢.
(٦) انظر: جامع البيان، الطبري ١٨/ ٦٠١.
(٧) من علم الطب القرآني، عدنان الشريف ص٤٠.
(٨) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب النكاح، باب حكم العزل، رقم ١٣٣، ١/ ٦٥٦.

منه[١].

ولم يكتشف الحيوان المنوي والبويضة إلا في القرن السابع عشر مع اكتشاف المجهر، ولم يعرف دورهما الحقيقي في تكوين الجنين إلا في القرن التاسع عشر. أما القرآن الكريم فقد أعطى الحيوان المنوي والبويضة اسم (السلالة) وهي التسمية الأبلغ والأسهل والأصح علميًا، إذ إنها تعني النخبة المستخلصة والمنسلة من الشيء، وهي من صفات الحيوان المني وميزاتهما[٢].

المرحلة الثالثة من مراحل طور النطفة: مرحلة النطفة الأمشاج.

أشار القرآن الكريم إلى هذه المرحلة من مراحل النطفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾﴾ [الإنسان: ٢].

والمشج في اللغة: الخلط، يقال: مشج يمشج مشجًا إذا خلط، والأمشاج: الأخلاط[٣].

قال ابن فارس: «الميم والشين والجيم أصلٌ صحيحٌ، وهو الخلط. ونطفةٌ أمشاجٌ، وذلك اختلاط الماء والدم. ويقال إن الواحد مشجٌ ومشج ومشيج»[٤].

ومن خلال استقراء أقوال أهل التفسير حول معنى (أمشاج) تبين أن أغلبهم متفقون على أن الأمشاج هي الأخلاط من ماء الرجل (الحيوان المنوي) وماء المرأة (بويضتها). ولكن الخلاف الذي وقع بين المفسرين هو في المقصود بذلك الخلط، وكيفيته. وهذه النطفة الأمشاج تعرف علميًا عند بدء تكوينها (بالزيجوت)[٥].

وقد كانت العرب وبعض الأمم تعتقد أن تكوين الجنين إنما يكون من الرجل، وليس للمرأة إلا الحمل والرعاية، وليس كذلك، بل إن الجنين يتكون من عملية التلقيح بين الحيوان المنوي للرجل والبويضة للأنثى ليكونا خلية واحدة تحمل الصفات الوراثية لكل منهما، وهي النطفة التي جاء وصفها في القرآن الكريم ب (النطفة الأمشاج)[٦].

ويمكن تقسيم النطفة الأمشاج إلى:

- **طور الخلق**: وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الطور في قوله تعالى: ﴿مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴿١٩﴾﴾ [عبس: ١٨ - ١٩]

(١) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص٣٨٧.
(٢) من علم الطب القرآني، عدنان الشريف ١٦٦.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ٥٥١، لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٢٠٧، تاج العروس، الزبيدي ٦/ ٢١٤.
(٤) مقاييس اللغة ٥/ ٣٢٦.
(٥) علم الأجنة في ضوء القرآن والسنة، عبدالمجيد الزنداني ص٤٤.
(٦) الإنسان وجوده وخلافته في الأرض، عبدالرحمن المطرودي ص٤٠.

✿ طور التقدير: ذكر الحق سبحانه وتعالى التقدير بعد الخلق مباشرة بوصفهما عمليتين متعاقبتين في أول تطورات النطفة الأمشاج، وهذا هو ما يتحقق يقينًا، فبعد ساعات من تخلق إنسان جديد، تبدأ عملية أخرى تتحدد فيها الصفات التي ستظهر على الجنين[1].

المرحلة الرابعة من مراحل طور النطفة: مرحلة الحرث (الانغراس).

هذه المرحلة هي آخر مرحلةٍ في طور النطفة، وبنهايتها تنتقل النطفة الأمشاج لتنغرس في بطانة الرحم بما يشبه انغراس البذرة في التربة في عملية الحرث، وبهذا الانغراس يبدأ طور الحرث، ويكون عمر النطفة حينئذٍ ستة أيامٍ[2].

والحديث عن مرحلة الحرث يقتضي الحديث عن المكان الذي تستقر فيه النطفة في جسد المرأة، ألا وهو رحم المرأة، وقد وصف الحق سبحانه وتعالى هذا المكان بوصفين جامعين في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝١٣﴾ [المؤمنون: ١٣].

وقوله جل وعلا: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝٢٠ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ۝٢١ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢٢ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ ۝٢٣﴾ [المرسلات: ٢٠ - ٢٣].

هذان الوصفان هما (قرار) و(مكين)، وهما يعبران أتم التعبير عن أهم خصائص الرحم ومميزاته. والقرار: المستقر، وهو موضع الاستقرار، والمراد بالقرار: الرحم، ومكينٌ: أي متمكنٌ قد هيئ لاستقراره فيه إلى بلوغ أمده الذي جعل له[3].

الطور الثاني: طور التخليق.

ويشمل هذا الطور أربع مراحل هي: العلقة، والمضغة، والعظام، واللحم.

ومن أهم ما يميز هذا الطور هو التكاثر السريع للخلايا ونشاطها الفائق في تكوين الأجهزة، ولأن هذه العمليات التخليقية تتم بسرعة كبيرة، فقد استعمل القرآن الكريم حرف الفاء للربط بين مراحل هذا الطور.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤][4].

المرحلة الأولى: مرحلة العلقة.

تطلق العلقة في اللغة على عدة معانٍ منها:

١. التشبث بالشيء، يقال: علق الصيد في

(١) إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٧٩.
(٢) المصدر السابق ص٨٠.

(٣) انظر: النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٨، التفسير البسيط، الواحدي ١٥/ ٥٣٨.
(٤) انظر: إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٨٥، مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص١٥٤.

الحبلة، وعلق دم فلانٍ بزيدٍ إذا كان زيد قاتله[1].

٢. دودة في الماء تمص الدم[2].

٣. الدم الجامد الغليظ[3].

وقد ورد ذكر العلقة في القرآن الكريم ست مراتٍ في خمسة مواضع على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾[الحج: ٥]

وقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾[المؤمنون: ١٢ – ١٤].

وقال جل وعلا: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [غافر: ٦٧].

وقال عز وجل: ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾﴾[القيامة: ٣٧ – ٣٨].

وقال تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾﴾[العلق: ١ – ٢]

وفي سبب تسميتها بذلك يقول ابن الجوزي: «سميت علقة لرطوبتها وتعلقها بما تمر به، فإذا جفت فليست علقة»[4].

ومن خلال تتبع أقوال المفسرين في تفسير معنى العلقة، تبين أن أغلبهم فسروا العلقة بالدم الجامد أو العبيط[5].

بيد أنه من المعروف علميًا أن الإنسان لا يمر بمرحلة الدم المتجمد أو كتلة الدم[6].

لكن إذا عرفنا أن حجم العلقة عند انغرازها لا يزيد عن ربع مليمتر أدركنا على الفور لماذا أصر المفسرون على أن العلقة هي الدم الغليظ. فالعلقة لا تكاد ترى بالعين المجردة، وهي مع ذلك محاطة بالدم من كل جهاتها، فتفسير العلقة إذن بالدم الغليظ ناتج عن الملاحظة بالعين المجردة، ولم يبعد بذلك المفسرون عن الحقيقة كثيرًا، فالعلقة العالقة بجدار الرحم والتي لا تكاد ترى بالعين المجردة محاطةٌ بدمٍ غليظٍ يراه كل ذي عينين[7].

وبعد أن تقدم العلم لاحظ العلماء أيضًا أن الجنين في هذه المرحلة يفقد شكله المستدير ويستطيل حتى يأخذ شكل دودة

(١) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٤٣.
(٢) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤/ ١٢٦، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٣٠٧٥.
(٣) انظر: المصادر السابقة.
(٤) زاد المسير، ابن الجوزي ٥/ ٤٠٦.
(٥) انظر: الكشاف ٤/ ١٧٧، مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٩، فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٥٩٥، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٧/ ١٩٧.
(٦) التوراة والإنجيل والقرآن والعلم، موريس بوكاي ص٢٤٢.
(٧) خلق الإنسان بين الطب والقرآن، محمد البار ص٢٠٦.

العلقة، وفي هذه المرحلة يتشبث الجنين بالمشيمة بواسطة ساقٍ موصلةٍ تصبح فيما بعد هي الحبل السري وهو ما يتفق مع معنى (التشبث بالشيء)[1].

وبهذا نلاحظ أن لفظة (علقة) جاءت مطلقةً في القرآن الكريم لتشتمل على كل المعاني اللغوية السابقة، حيث إن اسم (علقة) يتسع ليشمل وصف الهيئة العامة للجنين كدودة العلقة، كما يدل لفظ (علقة) على تعلق الجنين بالمشيمة. كذلك نجد أن المظهر الخارجي للجنين وأكياسه يتشابه مع الدم المتخثر الجامد الغليظ[2].

المرحلة الثانية: مرحلة المضغة.

المضغة في اللغة: فعلةٌ من مضغ، وهي تطلق على عدة معانٍ منها:

١. الشيء الذي لاكته الأسنان[3].

٢. الشيء الصغير من المادة، مأخوذةٌ من قولنا: مضغ الأمور، أي صغارها[4].

٣. القطعة من اللحم قدر ما يمضغ[5].

وقد ورد ذكر المضغة في القرآن الكريم ثلاث مراتٍ في موضعين على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَـٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَـٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَـٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَـٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤].

وفي سبب تسميتها بذلك يقول ابن قتيبة: «وسميت بذلك؛ لأنها بقدر ما يمضغ، كما قيل: غرفة لقدر ما يغرف»[6].

وقد فسرت المضغة بقطعة اللحم الصغيرة بقدر ما يمضغ[7]، وهو ما يتطابق مع المعاني اللغوية، وقد أوضح علم الأجنة الحديث مدى الدقة في اختيار القرآن الكريم لتسمية (مضغة) من حيث ارتباطها بالشكل الخارجي للجنين، وتركيباته الداخلية الأساسية. فقد وجد أنه بعد تخلق الجنين والمشيمة في هذه المرحلة، فإن

(١) إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٨٦.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٣٣٠، تاج العروس، الزبيدي ٢٢/ ٥٦٨، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ص٨٧٤.
(٤) لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٢٢٢.
(٥) تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٨-٢٠، الصحاح، الجوهري ٤/ ١٣٢٦، تاج العروس، الزبيدي ٢٢/ ٥٦٩.
(٦) غريب القرآن ص٢٩٦.
(٧) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٢٣/ ٩، روح المعاني، الألوسي ٩/ ١١٢.

الجنين يتلقى الغذاء والطاقة، وبذلك تتزايد عملية النمو بسرعةٍ، ويبدأ ظهور الكتل البدنية المسماة فلقات، والتي تتكون منها العظام والعضلات. ونظرًا لتعدد الفلقات التي تتكون، فإن الجنين يبدو وكأنه مادةٌ ممضوغة عليها طبعات أسنانٍ واضحة[1].

أطوار المضغة:

يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ﴾ [الحج: ٥]. يتضح من هذه الآية أن هناك طورين للمضغة هما، الأول:طور المضغة المخلقة. والثاني:طور المضغة غير المخلقة.

وقد اختلف المفسرون في تفسير قوله تعالى: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾، وهل هي من صفات النطفة أم من صفات المضغة[2].

والراجح- والله أعلم- أن معنى مخلقة، أي: تامة، وغير مخلقة، أي: غير تامة، وأن هذا من صفات المضغة، لأن ذلك تطورٌ من تطورات المضغة، والتخليق صيغةٌ تدل على تكرير الفعل، أي خلقًا بعد خلقٍ، والنطفة لا يمكن وصفها بذلك، كما أن تفسير (المخلقة) بتامة الخلق أو مستبينة الخلق، و(غير المخلقة): بغير ذلك، هو المشهور من كلام العرب.

المرحلة الثالثة: مرحلة العظام.

هذه المرحلة من أطوار خلق الإنسان وردت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾[المؤمنون: ١٤]

العظام: جمع عظمٍ، وهو ما منه تركيب الجسد للإنسان والدواب[3]. والعظام المرادة في الآية هي عظام الجنين، جعلها سبحانه متصلبة ؛ لتكون عمودًا للبدن على أشكال مخصوصة[4].

وفي قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا﴾ نلاحظ أن استعمال حرف (ف) يشير إلى أن مرحلة العظام تنمو بعد مرحلة المضغة بفترةٍ قصيرةٍ؛ لأن حرف الفاء يفيد الترتيب والتعقيب، بخلاف حرف (ثم) الذي يفيد الترتيب والتراخي[5].

والمعنى: أن المضغة بعد أن تخلقت،

(١) انظر:إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص٩٣، مراحل خلق الإنسان في آيات القرآن، منى رفعت ص١٧٠.

(٢) انظر: جامع البيان، الطبري ١٩/ ٤٦٢، الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي طالب ٧/ ٤٨٤٤، النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٧.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٥/ ١٢٣.

(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٣/ ٦٤٩.

(٥) إعجاز آيات القرآن في بيان خلق الإنسان، محمد فياض ص١٠١.

وتميزت أجزاؤها، جعلها الله تعالى عظامًا، أي: جعل من هذه المضغة عظامًا صلبةً تتحمل[1].

ومن ثم فإن المضغة لا تتحول كلها إلى عظام- كما ذكر ذلك بعض المفسرين-، وإنما يتحول جزءٌ منها فقط، وهذا متفقٌ مع ما كشفه علم الأجنة. قال الألوسي وأبو السعود: قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ﴾ أي: غالبها ومعظمها أو كلها[2].

المرحلة الرابعة: مرحلة اللحم.

بعد خلق العظام تأتي مرحلةٌ تاليةٌ تتميز بكساء جميع العظام باللحم من كل الجهات، فبذلك يتغير شكل الجنين، ويصير هنالك تناسقٌ بين الأعضاء، وهو ما عبر عنه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ [المؤمنون: ١٤].

أي: فأنبتنا عليها اللحم فصار لها كاللباس[3].

ومن خلال تتبع أقوال المفسرين نلاحظ أنهم لم يخوضوا في تفصيلات إنبات اللحم على العظم، وإنما اكتفوا بما ذكرناه أو نحوًا منه بإيجاز شديد.لكن السؤال الذي يرد هنا، هل هذا اللحم من لحم المضغة أم لحمًا آخر خلقه الله على العظام؟

ذكر الألوسي قولين في تفسيره: الأول: أن ذلك اللحم يحتمل أن يكون من لحم المضغة بأن لم تجعل كلها عظامًا، بل بعضها ويبقى البعض فيمد على العظام حتى يسترها.

الثاني: يحتمل أن يكون لحمًا آخر خلقه الله تعالى على العظام من دمٍ في الرحم[4].

هذان القولان مبنيان على ما سبق ذكره من كون بعض المفسرين ذهب إلى أن المضغة كلها تتحول إلى العظام، وبعضهم ذهب إلى أن التحويل يكون لجزءٍ منها. وقد مال البيضاوي إلى القول الأول قائلًا: «قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾ مما بقي من المضغة، أو مما أنبتنا عليها مما يصل إليها»[5].

الطور الثالث: طور النشأة.

قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: ١٤].

والإنشاء كما ذكر الراغب: إيجاد الشيء وتربيته[6].والإنشاء هو الإحداث حالاً بعد حالٍ من غير احتذاء على مثال، ومنه يقال: نشأ الغلام وهي ناشئ: إذا نما وزاد شيئًا فشيئًا، وقال بعضهم: الإنشاء: ابتداء الإيجاد من غير سبب[7].

(١) زهرة التفاسير ٩/ ٥٠٥٣.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٥٢، روح المعاني، الألوسي ٩/ ٢١٦.
(٣) مدارك التنزيل، النسفي ٢/ ٢٦١.
(٤) روح المعاني ٩/ ٢١٧.
(٥) أنوار التنزيل، البيضاوي ٢/ ٤٦٤.
(٦) المفردات ص٤٩٣.
(٧) الفروق اللغوية، العسكري ص٨٠.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ بيان لما انتهت إليه أطوار خلق الإنسان، أي: ثم صيرنا هذا الإنسان بشرًا سويًا، بعد أن كان نطفةً، فعلقةً، فمضغةً، فعظامًا، فلحمًا يكسو هذه العظام، وهذا كله يدل على كمال قدرة الله تعالى وعلى أنه حق، إذ قدرته -سبحانه- لا يعجزها شيء[1]. وعليه: فقد صير الله تعالى هذا الإنسان خلقًا مباينًا للخلق الأول، حيث جعله حيوانًا، وكان جمادًا،وناطقًا وسميعًا وبصيرًا، وكان بضد هذه الصفات[2].

(١) التفسير الوسيط، سيد طنطاوي ١٠/ ١٨.
(٢) البحر المديد، ابن عجيبة ٣/ ٥٦٥.

الإنسان بين الإيمان والكفر

خلق الله عز وجل الإنسان وسواه بيده، ونفخ فيه من روحه، وكرمه وفضله على كثيرٍ من المخلوقات.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

وكان من مظاهر تشريف وتكريم الله للإنسان تكليفه، ومنحه نعمة العقل التي بها يوازن بين ما ينفع وما يضر، وبها يتلقى دعوات الأنبياء وما نزل به الوحي من السماء، وجعله مختارًا يستطيع أن يختار بين البدائل ما يشاء دون قسرٍ أو إجبارٍ، فله حرية الاختيار بين الخير والشر، وبين الحق والباطل، وبين الانضواء في حزب الله أو حزب الشيطان.

وتظهر جليًا حرية الاختيار التي ميز الله بها الإنسان، من خلال قصة آدم عليه السلام الذي كان يملك القدرة على الاختيار بين طاعة الله ومعصيته.

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا

﴿تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١١٦ - ١٢١]

فالخطاب الموجه من الله تبارك وتعالى لآدم عليه السلام يدل دلالةً واضحةً على أنه موجه لمن يتمتع بحرية الاختيار، ولمن يمتلك الاستعداد نحو الطاعة والمعصية، ولمن هو موضع التكليف، ولذلك مارس آدم عليه السلام كامل حريته، وعصى الله، فالحرية مغروسةٌ في فطرة الإنسان منذ خلق الله تعالى آدم عليه السلام[(١)].

فالله تعالى أودع في الإنسان استعدادات وقدرات للتمييز بين الخير والشر وبين الهدى والضلال، ومن الآيات الدالة على فطرية الحرية الإنسانية.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾﴾ [البلد: ٨ - ١٠].

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢ - ٣].

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾ [الكهف: ٢٩].

وقوله عز وجل: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾﴾ [التكوير: ٢٧ - ٢٨].

وقوله سبحانه: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾﴾ [الزمر: ١٥].

وبناءً على ذلك فالإنسان حرٌّ في اختيار نوع الطريق الذي يسلكه في الحياة الدنيا، فإما أن يختار طريق الحق والاستقامة أو أن يختار طريق الغواية والضلال[(٢)]، لكن الحق سبحانه وتعالى إذ جعله مختارًا لم يتركه سدًى، وإنما أرسل له الرسل وأنزل له الكتب وأرشده إلى الطريق الصحيح.

وقد جعل الحق سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان صالحةً للميل إلى الخير كما أنها صالحة للميل إلى الشر، فقال تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾﴾ [الشمس: ٧ - ٨].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإنسان: ٢ - ٣].

(١) المبادئ التربوية لطبيعة الإنسان في القرآن، هشام بني خلف ص١١-١٢.

(٢) المصدر السابق.

وقرن سبحانه صلاحية طبيعته للفجور والتقوى بمنحه القدرة على تحقيق ما تميل إليه نفسه، وبين له أن نتيجة اختياره وثمرة عمله ستعود عليه، ومن نوع ما عمل.

قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس: ٩ - ١٠][1].

وإذا كانت طبيعة الإنسان صالحةً للميل إلى الخير وللميل إلى الشر، فإن الميل إلى الخير هو الجانب الأغلب في هذه الطبيعة، حيث إن الله عز وجل فطر الإنسان على الإخلاص والتوحيد إذ هو ما تقتضيه العقول السليمة.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠].

وإنما كفر من كفر لعارضٍ أخرجه عن أصل فطرته، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)**[2].

﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ [الروم: ٣٠].

يعني يخلق الله الفطرة التي خلق الناس عليها من الإيمان، ومعنى أن الله لا يبدلها أي: لا يخلق الناس على غيرها، ولكن يبدلها شياطين الإنس والجن بعد الخلقة الأولى[3].

وليس معنى قول الرسول صلى الله عليه وسلم: **(ما من مولودٍ إلا يولد على الفطرة)** أنه يخرج من بطن أمه وهو يعلم هذا الدين ويعرفه، ولكن المراد أن فطرته موجبةٌ ومقتضيةٌ لمعرفة كل ما هو حقٌّ، فقد صرح القرآن أن الإنسان يولد وهو لا يملك من المعرفة شيئًا، ثم يتم اكتساب مهارات وقيم من خلال أدوات الطاقة التي منحه الله تعالى إياها.

قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٧٨﴾ [النحل: ٧٨].

كما بين القرآن أن الإنسان إذا بلغ مبلغ الرشد، وأصبح مسئولًا عن تصرفاته فإنه ينقسم- بسبب اختياره وإرادته- إلى مؤمنٍ وكافرٍ، أو طائعٍ وعاصٍ، أو مهتدٍ وضالٍ، وتلك هي المرحلة التي نراها في كثيرٍ من آيات الله البينات، وقد حكم على الإنسان فيها بأحد الوصفين[4].

(١) انظر: مقومات الإنسانية في القرآن الكريم، أحمد مهنا، ص٨-٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب ما قيل في أولاد المشركين، ٢/ ١٠٠، رقم ١٣٨٥.

(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦٨، ١٦٧.

(٤) مقومات الإنسانية في القرآن الكريم، أحمد

ويلاحظ أن القرآن الكريم في تقسيمه الإنسان إلى مؤمنٍ وكافرٍ، إنما يفعل ذلك بعد أن يذكر بعض النعم التي أسبغها على عباده جميعًا مما يستلزم الشكر والاعتراف بالجميل والإقرار بالفضل.

ففي قوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ [الإنسان: ٢ – ٣].

نلمس المساواة بين الأفراد جميعًا في كل ما ذكر، ونجد أن النعم التي تحدث القرآن عنها لا دخل للفرد فيها، ولا إرادة له في الحصول عليها أو الحرمان منها، وإنما هي هبةٌ من الله له، أما ما بعد ذلك من قوله سبحانه في الآية نفسها: ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ فهو ينطق بإسناد الشكر أو الكفر إلى الإنسان، وهو ما يحقق التفرقة بين من يعترف بالجميل ومن يجحد الفضل ولا يقدر النعمة.

وفي قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]. لا تخطئ المساواة التامة في ذلك بين أفراد النوع كله.

لكن التفرقة جاءت في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾﴾ [التين: ٥ – ٦].

وهي تفرقةٌ مشروعةٌ ومسببة.

وفي قوله عز وجل: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠].

تبرز المكانة التي أعدها الله لهذا الإنسان في هذه الحياة، وهي مرحلة الاختبار والابتلاء، وكما قرر القرآن وقررت الأديان السماوية جميعًا، لا بد من نتيجةٍ لهذه المرحلة.

ولا بد من تفرقةٍ بين من شكر النعمة ومن جحد بها وأنكرها، وهو ما نجده في الآيتين التاليتين: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ۖ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾﴾ [الإسراء: ٧١ – ٧٢].

وفيما قصه القرآن الكريم من شأن آدم عليه السلام نجد هذا المنهج واضحًا جليًا، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [البقرة: ٣٧ – ٣٩].

وقوله عز وجل: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ

مهنا ص١٨-١٩.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾﴾ [طه: ١٢٣ - ١٢٤].

فهداية الله إلى عباده والممثلة في رسالاته وهديه عامةٌ وشاملة، أما أثر هذه الهداية في الناس فيختلف باختلاف موقفهم منها وعليهم تبعات هذا الموقف. وهذا الذي وجه إلى آدم عليه السلام في أول عهد الإنسان بالحياة، وجه إلى ذريته كذلك

يقول جل شأنه: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [الأعراف: ٣٥ - ٣٦][(١)].

ويلاحظ أنه ما من أمةٍ بعث الله إليها رسولًا إلا انقسم أهلها قسمين لا ثالث لهما: مؤمن وكافر، وإن تفاوتت درجاتهم في الدنيا واختلفت درجاتهم ودركاتهم في الآخرة. فالمؤمنون منهم السابقون، ومنهم أصحاب اليمين؛ والكافرون تختلف دركاتهم، فالمنافقون في الدرك الأسفل من النار، حيث يعلوهم إخوانهم الكفار.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾ [النحل: ٣٦].

بين سبحانه أنه ما ترك أمةً من غير نذيرٍ، بل بعث في كل أمةٍ رسولها بالحق، وهذا من رحمة الله بعباده، حيث لم يتركهم دون عون لهم في صراعهم المستمر طول وجودهم في هذه الحياة، بل أنار أمامهم الطريق وتعهدهم في أطوار حياتهم بالرسالات التي بينت لهم ما تتطلبه الحياة الصالحة في كل عصر.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [فاطر: ٢٤].

وقد تلقى الناس رسالة الرسل الهادية المرشدة ما بين مهتد مؤمن، وما بين ضالٍ قد حقت عليه الضلالة.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾ أي: فممن بعثنا فيهم رسلنا من هدى الله، فوفقه لتصديق رسله والقبول منها، والإيمان بالله، والعمل بطاعته، ففاز وأفلح، ونجا من عذاب الله، ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ أي: وممن بعثنا رسلنا إليه من الأمم، آخرون حقت عليهم الضلالة فجاروا عن قصد السبيل، فكفروا بالله، وكذبوا رسله، واتبعوا الطاغوت فأهلكهم بعقابه، وأنزل بهم بأسه الذي لا يرد عن القوم المجرمين[(٢)].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ

(١) المصدر السابق ص١٩-٢٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٢١٧.

﴿أَخَاهُمْ صَٰلِحًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [النمل: ٤٥].

يعني: مؤمنون وكافرون[(١)].

وقد ذكر الله عز وجل هذه الخصومة في قوله: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾ [الأعراف: ٧٥ – ٧٦].

وهذا أيضًا دليلٌ واضحٌ جدًا، على أنهم كانوا فريقًا واحدًا قبل أن يرسل الله إليهم صالحًا مجتمعين على الكفر، ثم انشق منهم فريقٌ آخر وهم نبي الله صالح ومن آمن به، ومن لم يؤمن بقي في الفريق الأول، ولا ثالث لهما.

صفات الإنسان

وصف الحق سبحانه وتعالى الإنسان بصفاتٍ عديدةٍ في القرآن الكريم، نتوصل من خلالها إلى فهم أنفسنا ومعرفتها، كي نحافظ على الجيد منها، ونعالج الرديء؛ ليستطيع الإنسان أداء رسالته، وهذه الصفات بعضها فطريٌّ جبليٌّ، وبعضها الآخر مكتسبٌ، وفي المطلبين الآتيين سأتناول تفصيل تلك الصفات.

أولًا: صفاتٌ فطرية:

١. الضعف.

وصف الله عز وجل الإنسان بأنه مخلوقٌ ضعيفٌ، فقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ [النساء: ٢٨].

أي خلقه الله والضعف ملازمٌ له، وليس الضعف المذكور هو الضعف البدني فقط، بل يشمل الضعف النفسي، وضعف العزيمة والإرادة، وضعف القدرة على الضبط الدائم تجاه دوافع نفسه وغرائزه وشهواته وأهوائه[(٢)].

وقال الراغب: ووصف الإنسان بأنه خلق ضعيفًا إنما هو باعتباره بالملأ الأعلى، نحو: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ [النازعات: ٢٧].

أو باعتباره بنفسه دون ما يعتريه من فيض

---

(١) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ٤٩٩، زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ١٨٠.

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٧٠.

الله ومعونته، أو اعتبارًا بكثرة حاجاته، وافتقار بعضهم إلى بعض، أو اعتبارًا بمبدئه ومنتهاه، كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ [الروم: ٥٤].

وأما إذا اعتبر بعقله، وما أعطاه من القوة التي يتمكن بها من خلافة الله في أرضه، ويبلغ بها في الآخرة إلى جواره تعالى فهو أقوى ما في هذا العالم،ولهذا قال تعالى: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ [الإسراء: ٧٠][1].

وإذ خلق الله الإنسان ضعيفًا، فقد قضت حكمته عز وجل أن يراعي هذا الواقع فيه، في أحكامه وشرائعه لعباده، وفي أصول وقواعد محاسبتهم ومجازاتهم على أعمالهم، وفي وسائل تربيتهم وتعليمهم.

٢ . العجلة.

قال تعالى: ﴿وَيَدْعُ الْإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ ۖ وَكَانَ الْإِنسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ [الإسراء: ١١].

أي في طبعه العجلة في الأمور، فيعجل بسؤال الشر كما يعجل بسؤال الخير.وكما في قوله سبحانه: ﴿خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧].

والعجل هو العجلة والتسرع والسبق إلى مخاطر الأمور من غير تفكير، ومعنى أنه خلق من عجل، المبالغة في عجلته، كما يقال: خلق من كرم مبالغة في الكرم، والعرب قد

(١) المفردات ص٢٩٥-٢٩٧.

تسمي المرء بما يكثر فيه. وليس أصل فطرة العجلة من النقائص في تكوين الإنسان الفطري؛ لأنها تمثل في الإنسان عنصرًا مهمًا من حوافز الجد والعمل، ولكنها تغدو من النقائص حين يسيء الإنسان إدارتها، أو يهملها، إذ المفروض فيها أن تكون خاضعة لعقل الإنسان وإرادته، فإذا انعكس الأمر فصارت هي المسيطرة على العقل والإرادة، اختل توازن الإنسان وجانب سبيل الحكمة في الأمور[2].

٣ . الجدل.

وصف الله عز وجل الإنسان بأنه أكثر شيءٍ جدلًا، فقال تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾ [الكهف: ٥٤].

أي: وكان الإنسان بحسب جبلته، أكثر الأشياء التي يتأتى منها الجدل[3].

قال الراغب: «الجدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من جدلت الحبل، أي: أحكمت فتله، ومنه الجديل، وجدلت البناء أحكمته، ودرعٌ مجدولةٌ»[4].

وذهب الألوسي إلى أن الأليق بالمقام أن يراد به هنا الخصومة بالباطل والممارة وهو الأكثر استعمالًا[5]. والسبب في

(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٩٠.
(٣) روح المعاني، الألوسي ٨/ ٣٨٣.
(٤) المفردات ص٨٩.
(٥) روح المعاني ٨/ ٣٨٣.

كون الإنسان أكثر شيءٍ جدلا أن القدرات الفكرية التي زود الله الإنسان بها، قد مكنته من استخدام حيلٍ كثيرةٍ، تعتمد على الإظهار والإخفاء، والمراوغة والمخادعة بمكرٍ عظيمٍ، فهو بذلك قادرٌ على أن يكون طويل النفس في المجادلة بالحق أو بالباطل[1].

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾[الكهف: ٥٤].

هذا وقع في قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالبٍ وزوجه فاطمة رضي الله عنها حين جاء إليهما ذات ليلةٍ ووجدهما نائمين فقال: (ألا تصليان)، قال علي رضي الله عنه : «إن أنفسنا بيد الله ولو شاء لأيقظنا»، فانصرف الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يضرب فخذه ويقول: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾﴾[2].

ولا شك أن الرسول صلى الله عليه وسلم يعلم أن أنفسهما بيد الله، والرسول عليه الصلاة والسلام قال في الفريضة: من نام عن صلاةٍ أو نسيها فليصلها إذا ذكرها. فعذر الناسي والنائم وهو يعلم عليه الصلاة والسلام ذلك، ولكنه يريد أن يحثهما، وأراد عليٌّ رضي الله عنه أن يدفع اللوم عنه وعن زوجه فاطمة رضي الله عنها[3].

٤ . التقتير.

وصف الله عز وجل الإنسان بأنه قتورٌ في أصل فطرته، فقال تعالى: ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾[الإسراء: ١٠٠].

والقتر والتقتير في اللغة: يعني الرمقة من العيش. والإقتار يقصد به: التضييق على الإنسان في الرزق، ولذا يقال: أقتر الله رزقه أي ضيقه وقلله. والقتر: ضيق العيش، يقال أيضًا: قتر الرجل على عياله: أي ضيق عليهم في النفقة[4].

وكلمة (قتور) صيغة مبالغةٍ على وزن فعول، وقد جاءت في القرآن دالةً على الإنسان البخيل الشحيح الذي يمسك عن الإنفاق.قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾﴾ أي: بخيلًا مضيقًا[5].

وبين الحق سبحانه وتعالى في آيةٍ أخرى أن بخل الإنسان سببه حبه للمال، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾﴾

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٦١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التهجد، باب تحريض النبي، صلى الله عليه وسلم، على قيام الليل، رقم ١٢٧، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ما روي فيمن نام أجمع حتى أصبح، رقم ٧٧٥.

(٣) تفسير القرآن الكريم، سورة الكهف، ابن عثيمين ص٩٧ .

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/ ٣٥٢٥.

(٥) انظر: جامع البيان، الطبري ١٥/ ٩٨، تفسير السمرقندي ٢/ ٢٨٥.

[العاديات: ٨].

ومما يدل كذلك على أن الشح صفةٌ ملازمةٌ للنفس الإنسانية بوجهٍ عام قوله تعالى: ﴿وَأُحْضِرَتِ الْأَنفُسُ الشُّحَّ﴾ [النساء: ١٢٨].

٥. الهلع.

وصف الحق سبحانه وتعالى الإنسان بأنه خلق هلوعًا، فقال تعالى: ﴿ ۞ إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج: ١٩].

والهلع: بعد الحرص. رجلٌ هلعٌ هلوعٌ هلواعٌ هلواعةٌ: جزوعٌ حريصٌ[١]. وقيل: الهلع: الجزع وقلة الصبر[٢]، وقيل: الهلع: أفحش الجزع[٣]، وقيل: الهلوع: الضجور[٤]، وقيل: الهلوع: الذي يفزع ويجزع من الشر[٥].

هذا ما فسر به بعض من أئمة اللغة لفظة (الهلع)، ولكن ابن عاشور علق على ما أورده أئمة اللغة قائلًا: « الجزع أثر من آثار الهلع وليس عينه، فإن ذلك لا يستقيم في قول عمرو بن معديكرب[٦]:

ما إن جزعتُ ولا هلعـ

ـتُ ولا يرد بكاي زندا

إذ عطف نفي الهلع على نفي الجزع، ولو كان الهلع هو الجزع لم يحسن العطف، ولو كان الهلع أشد الجزع كان عطف نفيه على نفي الجزع حشوًا. والذي استخلصته من تتبع استعمالات كلمة الهلع أن الهلع قلة إمساك النفس عند اعتراء ما يحزنها أو ما يسرها أو عند توقع ذلك والإشفاق منه»[٧].

وقد فسر أكثر المفسرين وأهل اللغة الهلع الموجود في فطرة الإنسان بأنه ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠ – ٢١].

فقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وغيرهما عن عكرمة قال: سئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الهلوع، فقال: هو كما قال الله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠ – ٢١].

وأخرج ابن المنذر عن الحسن أنه سئل عن ذلك أيضًا فقرأ الآية. وحكى نحوه عن ثعلب قال: قال لي محمد بن عبد الله بن طاهر: ما الهلع ؟ فقلت: قد فسره الله تعالى ولا يكون تفسير أبين من تفسيره سبحانه، يعني قوله تعالى: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج: ٢٠-٢١][٨].

(١) العين، الفراهيدي ١/ ١٠٧.
(٢) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٦٨٥.
(٣) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٧٧٦.
(٤) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١/ ١٤٣.
(٥) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٦٨٥.
(٦) البيت في ديوانه ص٥٩١.
(٧) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٦٧ .
(٨) انظر: روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٦٩.

٧. الظلم والجهل.

وصف الإنسان بالظلم وبالجهل في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢].

والظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه. والظلم: الميل عن القصد، والعرب تقول: الزم هذا الصواب ولا تظلم عنه، أي: لا تجر عنه(١). والظلم: الاعتداء على حق الغير، وأريد به هنا الاعتداء على حق الله الملتزم له بتحمل الأمانة، وهو حق الوفاء بالأمانة(٢).

والجهل في اللغة: هو عدم العلم أو هو نقيضه. وفي قوله تعالى: ﴿يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣](٣).

والمراد به هنا انتفاء علم الإنسان بمواقع الصواب فيما تحمل به(٤).

قال المفسرون: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾، أي: إنه كان مفرطًا في الظلم مبالغًا في الجهل -بحسب غالب أفراده-(٥) حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها، وضمنها ثم خان بضمانه فيها(٦).

وصفة الظلم والجهل أصل في الإنسان، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والإنسان خلق ظلومًا جهولًا ؛ فالأصل فيه عدم العلم، وميله إلى ما يهواه من الشر؛ فيحتاج دائمًا إلى علمٍ مفصلٍ يزول به جهله، وعدلٍ في محبته وبغضه، ورضاه وغضبه، وفعله وتركه، وإعطائه ومنعه»(٧).

٨. الطغيان.

بين الحق سبحانه وتعالى أن الإنسان من طبيعته الطغيان والتمرد متى رأى نفسه في غنًى، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾﴾ [العلق: ٦ - ٧]. والطغيان في اللغة: مجاوزة الحد في كل شيءٍ، يقال: طغى الماء وطغى السيل إذا جاء بماءٍ كثيرٍ، وطغى البحر: هاجت أمواجه، وطغى الإنسان طغيانًا: جاوز القدر في الكبر والمعصية والكفر، وفيه إفراط ومبالغة في الشر والكبر(٨).

قال ابن عاشور: «التعريف في (الإنسان) للجنس، أي من طبع الإنسان أن يطغى إذا أحس من نفسه الاستغناء، واللام مفيدة الاستغراق العرفي، أي أغلب الناس في ذلك

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤٦٨، لسان العرب، ابن منظور ٤/ ٢٧٥٦.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣٠.
(٣) انظر: لسان العرب ١/ ٧١٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٢/ ١٣٠.
(٥) انظر: روح المعاني، الألوسي ١١/ ٢٧١.
(٦) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٤٩.
(٧) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٤/ ٣٨.
(٨) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٣/ ٤١٢، تهذيب اللغة، الأزهري ٨/ ١٥٣.

الزمان إلا من عصمه خلقه أو دينه. وعلة هذا الخلق أن الاستغناء تحدث صاحبه نفسه بأنه غير محتاج إلى غيره وأن غيره محتاج، فيرى نفسه أعظم من أهل الحاجة، ولا يزال ذلك التوهم يربو في نفسه حتى يصير خلقًا لا وازع يزعه من دين أو تفكير صحيح، فيطغى على الناس لشعوره بأنه لا يخاف بأسهم»[(١)]. ولما كانت صفة الطغيان ملازمة لمن يرى من الناس أنه استغنى، كان من التربية الربانية للناس أن الله تبارك وتعالى قد جعل الإنسان حبيس الحاجة والافتقار، في كل أمرٍ من أموره، حتى يرجع دائمًا إلى ربه[(٢)].

٩. الكنود.

قال جل وعلا: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦].

والكنود في اللغة: وصف من أمثلة المبالغة من كند، يقال: كند يكند كنودًا: كفر النعمة؛ ورجلٌ كنادٌ وكنودٌ . وقيل: الكنود هو الجحود [(٣)].

وأصل الكنود الأرض التي لا تنبت شيئًا، شبه بها الإنسان الذي يمنع الخير ويجحد ما عليه من واجبات[(٤)]، ولغات العرب مختلفة في معناه، فهو في لغة مضر وربيعة: الكفور بالنعمة، وبلغة كنانة: البخيل، وفي لغة كندة وحضرموت: العاصي. والمعنى: لشديد الكفران لله[(٥)].

والتعريف في (الإنسان) تعريف الجنس وهو يفيد الاستغراق غالبًا، قال المفسرون: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾: أي طبع الإنسان على كفران النعمة[(٦)]، وهذا عارضٌ يعرض لكل إنسانٍ على تفاوت فيه، ولا يسلم منه إلا الأنبياء وكمل أهل الصلاح؛ لأنه عارض ينشأ عن إيثار المرء نفسه وهو أمرٌ في الجبلة لا تدفعه إلا المراقبة النفسية وتذكر حق غيره[(٧)].

وروي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: أتدرون ما الكنود؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: الكنود الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده[(٨)].

أي: أنه لا يعطي شيئًا مما أنعم الله به عليه، ولا يرأف بعباده كما رأف به؛ فهو كافر بنعمته، مجانف لما يقضي به العقل

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٤٤٤.
(٢) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ٣٧٩.
(٣) انظر: العين، الفراهيدي ٥/ ٣٣١، لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٩٣٦.
(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ٢٢٢.
(٥) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٠٢.
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ٤٣٦.
(٧) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٥٠٣.
(٨) أخرجه البخاري في الأدب المفرد، رقم ١٦٠، ص٦٥.

والشرع[1]. وسر هذه الجبلة- أن الإنسان يحصر همه فيما حضره، وينسى ماضيه، وما عسى أن يستقبله؛ فإذا أنعم الله عليه بنعمة غرته غفلته، وقسا قلبه، وامتلأ جفوة على عباده[2].

١٠. الفرح.

الفرح في اللغة: نقيض الحزن، وهو السرور، يقال: فرح يفرح فرحًا: سر وابتهج. وفي ذلك يقول تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ۝٤ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٤ - ٥].

والفرح أيضًا: البطر، يقال: فرح فلان: أي استخفته النعمة فأبطرته، فهو فرح وفرحان[3].

وقد وصف الإنسان في القرآن الكريم بالفرح على سبيل الذم وذلك بصيغة المبالغة (فرح) على وزن (فعل) للدلالة على بطر ذلك الإنسان الجاحد في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ۝١٠﴾ [هود: ١٠].

فلفظ (فرح) مثال مبالغة، أي: شديد الفرح. وشدة الفرح: تجاوزه الحد والبطر والأشر.

قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ۝٧٦﴾ [القصص: ٧٦][4].

فإن قيل ما وجه ذم الإنسان على الفرح وقد وصف الله الشهداء فقال: (فرحين)؟ أجاب عن ذلك ابن الأنباري فقال: إنما ذمه بهذا الفرح؛ لأنه يرجع إلى معنى المرح والتكبر عن طاعة الله.

قال الشاعر:

ولا ينسيني الحدثان عرضي
ولا ألقي من الفرح الإزارا

يعني من المرح. وفرح الشهداء فرحٌ لا كبر فيه ولا خيلاء، بل هو مقرون بالشكر فهو مستحسن[5].

وذهب بعض المفسرين إلى تمييز الفرح الممدوح من المذموم حسب وروده مقيدًا أو مطلقًا في القرآن، فقالوا: إن الفرح إذا جاء مطلقًا فهو مذموم، ولا يأتي ممدوحًا إلا مقيدًا بما فيه خير، كقوله: ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٧٠][6].

١١. الفخر.

الفخر في اللغة: التمدح بالخصال والافتخار وعد القديم، وهو المباهاة والتعاظم والتكبر، يقال: فخر فخرًا وفخارًا،

---

(١) تفسير المراغي ٣٠/ ٢٢٢.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٣٧٢.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٤.
(٥) زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٨١.
(٦) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٤/ ٥٤٧، البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ٢٠٧.

فهو فاخرٌ وفخورٌ: تباهى وتكبر[(١)].

قال الراغب: الفخر: المباهاة في الأشياء الخارجة عن الإنسان كالمال والجاه، ويقال له: الفخر، ورجلٌ فاخرٌ وفخورٌ وفخيرٌ على التكثير[(٢)].

وقد وصف الإنسان في القرآن الكريم بالفخر والمباهاة، وذلك بصيغة المبالغة (فخور) على وزن (فعول) ؛ للدلالة على شدة التكبر والتعاظم عند الإنسان الجاحد في قوله تعالى:﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاءَ بَعْدَ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [هود: ١٠].

وفي هذه الآية بيان لحال ذلك الإنسان إذا منحه الله الصحة والسلامة والغنى بعد أن كان في ضرٍ من فقرٍ أو مرضٍ أو خوفٍ، لم يقابل ذلك بما يليق به من الشكر لله سبحانه، بل يقول مباهيًا بجحوده: ذهب السيئات، أي المصائب التي ساءته، وأصبح بطرًا أشرًا، متعاظمًا على الناس بما أوتي من النعم مشغولًا بذلك عن القيام بحقها[(٣)].

والفخر فيه أمران مفسدان للنفس: الأمر الأول: المطاولة على الغير وغمط الناس حقوقهم. الأمر الثاني: إنكار نعمة المنعم

(١) انظر: القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٤٥٥.
(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص٣٧٤.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٦٧٧، روح المعاني، الألوسي ٦/ ٢١٦.

معتقدًا أنه مجهوده وعمله وليس بعطاءٍ من الله، وإن التفاخر يوهم صاحبه أنه في حالٍ لم يصل إليها غيره فيتخيل ما ليس عنده، وقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن هذا حين قال: **(كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير سرفٍ ولا مخيلةٍ)**، وقال تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [النساء: ٣٦][(٤)].

ثانيًا: صفاتٌ مكتسبةٌ.

١ . الكفر.

من أبرز وأكثر صفات الإنسان المكتسبة التي وردت في القرآن الكريم، صفة الكفر، وقد وردت خبرًا عن الإنسان في ستة مواضع، وهي صفةٌ قبيحةٌ ذمها الله تعالى حتى قال سبحانه: ﴿ قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴿١٧﴾ ﴾ [عبس: ١٧].

والكفر في اللغة: ستر الشيء، ووصف الليل بالكافر لستره الأشخاص،والزراع لستره البذر في الأرض، والكفر:نقيض الإيمان، وقيل: الكفر: كفر النعمة، وهو نقيض الشكر. ويقال: رجل كفار وكفورٌ: أي كافر، والكافر الجاحد لأنعم الله، ويطلق الكافر أيضًا على: البحر، والوادي العظيم، والنهر الكبير، والسحاب المظلم،

(٤) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٦٧٤.

والدرع[1].

وقال بعض أهل العلم: الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحود، وكفر معاندة، وكفر نفاق[2].

وقد عبر القرآن الكريم عن كفر الإنسان بصيغة المبالغة (كفار) على وزن (فعال) وهي تفيد كثرة المزاولة للفعل وتكراره، و(كفور) على وزن (فعول) وهي تفيد الدلالة على المبالغة مع التجدد والاستمرار[3]؛ وذلك للتشنيع على هذا الكفر الذي يقابل به الإنسان نعم ربه عليه.

ومن خلال استقراء أقوال المفسرين للمواضع الستة التي وردت فيها صفة الكفر خبرًا عن الإنسان، تبين أن كفر الإنسان في القرآن الكريم نوعان:

النوع الأول: الكفر المقابل للشكر، أو كفران النعمة، كما يدل عليه قوله عز وجل: ﴿وَإِنَّآ إِذَآ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾﴾ [الشورى: ٤٨].

وقوله سبحانه: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ﴿٩﴾﴾ [هود: ٩].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ [الإسراء: ٦٧].

وقد قرن القرآن بين الظلم وهذا النوع من الكفر لأنهما يتقاربان في هذا السياق: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾﴾ [إبراهيم: ٣٤].

والنوع الثاني: الكفر المقابل للإيمان، كما في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾﴾ [الإسراء: ٨٩].

ومن تجليات هذا الكفر عدم إخلاص العبادة لله وحده وإشراك غيره معه: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [الزخرف: ١٥].

وقد بالغ هنا في إظهار فظاعة هذا الكفر حين وصفه بالمبين؛ أي بين الكفر.

٢. الفجور.

وصف الإنسان في القرآن الكريم بصفة الفجور، وذلك في قوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾﴾ [القيامة: ٥].

والفجور في اللغة: الانبعاث في المعاصي، يقال: فجر الإنسان يفجر فجرًا وفجورًا: انبعث في المعاصي، وقيل: فجر: إذا ركب رأسه غير مكترث.[4] والفجور:

(١) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري ١٠/ ١٩٣-٢٠٢.

(٢) انظر: الوسيط، الواحدي ١/ ٨٣، معالم التنزيل، البغوي ١/ ٦٤.

(٣) انظر: معاني الأبنية في العربية ص٩٤-١٠٠.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٣٥٢.

فعل السوء الشديد ويطلق على الكذب، ومنه وصفت اليمين الكاذبة بالفاجرة[1]. وأصل الفجور: الميل، وسمي الفاسق والكافر: فاجرًا، لميله عن الحق[2].

والآية الكريمة التي عبرت عن فجور الإنسان تقفنا على حقيقة ذلك الإنسان الكافر الذي يرغب ألا يقيد أهواءه قيدٌ، بل يريد أن يمضي قدمًا على معاصي الله ما عاش راكبًا رأسه لا ينزع عنها ولا يتوب، ومن ثم فهو ينكر اليوم الآخر لما يترتب على إيمانه به من قيود وضوابط[3].

٣. المخاصمة.

صفة الخصام من صفات الإنسان المكتسبة، وقد عبر عنها القرآن بصيغة المبالغة ﴿خَصِيمٌ﴾ في موضعين؛ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٤﴾ [النحل: ٤].

وفي قوله جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝٧٧﴾ [يس: ٧٧].

خصيمٌ: صيغة مبالغةٍ على وزن (فعيلٌ) بمعنى: شديد الخصومة، أو كثير الخصام، ويجوز أن تكون بمعنى مخاصم، وإتيان الفعيل بمعنى المفاعل كثيرٌ في كلام العرب،كالخليط بمعنى المخالط، والقعيد بمعنى المقاعد، والجليس بمعنى المجالس، ونحو ذلك، ومعنى (خصيمٌ) جدول بالباطل[4]. ومبينٌ: اسم فاعل أبان اللازمة، بمعنى بان وظهر[5]. ومعنى المبين: المظهر لما يقوله، الموضح له بقوة عارضته وطلاقة لسانه[6].

وجاء التعقيب في الموضعين بذكر هذه الصفة بعد الحديث عن خلق الإنسان، والتنبيه على أن الله عز وجل خلقه من نطفة، أي من ماءٍ مهينٍ، وصوره ونقله من حالٍ إلى حالٍ، وأخرجه إلى ضياء الدنيا وغذاه ورزقه وقواه، حتى إذا استوى، كفر بخالقه وجحد نعمته، بل خاصمه في أمر عظيم كأمر البعث، فأنكره وساق حججه على ذلك فقال: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝٧٨﴾ [يس: ٧٨].

وعبد ما لا يضره وما لا ينفعه: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا ۝٥٥﴾ [الفرقان: ٥٥].ونسي خلقه، وانتقاله من ماء، إلى علقة، إلى مضغة، إلى عظم، إلى تصوير، إلى خروج إلى الدنيا، وضعف إلى قوة، وضعف بعد قوة[7].

---

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٩/ ٣٤١.
(٢) معالم التنزيل، البغوي ٨/ ٢٨١.
(٣) انظر: مفاتيح الغيب ٣٠/ ٢١٨، أنوار التنزيل، البيضاوي ٣/ ٤٧٢.
(٤) انظر: أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦١، التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٤/ ١٠٢.
(٥) أضواء البيان، الشنقيطي ٣/ ٢٦١.
(٦) فتح البيان، القنوجي ١١/ ٣٢٥.
(٧) انظر:الهداية إلى بلوغ النهاية، مكي بن أبي

وجاءت صفة الخصام في هذين الموضعين مقترنة بصفة الإبانة: ﴿مُّبِينٌ﴾ التي كانت من أعظم منن الله على الإنسان بعد منة الخلق: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمن: ٣ - ٤].

٤ . اليأس.

اليأس في اللغة: القنوط، ضد الرجاء أو قطع الأمل، يقال: يئس من الشيء ييأس: أي انقطع أمله. ويئست المرأة: أي عقمت فهي يائسة. ويقال: رجلٌ يائسٌ ويئوسٌ: أي شديد اليأس[١]. ويئوس: فعولٌ من قول القائل يئس فلانٌ من كذا فهو يئوس إذا كان صفة له[٢].

وقد ورد لفظ (يئوس) في القرآن الكريم في أكثر من موضع بصيغة المبالغة دالًا على وصف الإنسان باليأس الشديد إذا أصابه شرٌّ أو ضررٌ أو سلبت منه نعمة، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَٰهَا مِنْهُ إِنَّهُۥ لَيَـُٔوسٌ كَفُورٌ ۝٩﴾ [هود: ٩].

وقوله سبحانه: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾ [فصلت: ٤٩].

وقوله جل وعلا: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ۝٨٣﴾ [الإسراء: ٨٣]

ففي هذه الآيات الكريمة بيانٌ لحال الإنسان الكافر في اختبار الله له بزوال النعمة أو إصابته بالشدة والضر، فإنه يصير يئوسًا؛ وذلك لأنه يعتقد أن السبب في حصول تلك النعمة سبب اتفاقي، ثم إنه يستبعد حدوث ذلك الاتفاق مرة أخرى، فلا جرم يستبعد عود تلك النعمة فيقع في اليأس. وكل ذلك لأنه مادي لا يؤمن إلا بالمادة، ولا يرجو ما عند الله الذي يعطي ويمنع ويعز ويذل[٣].

٥ . القنوط.

القنوط في اللغة: مصدر قنط، يقال: قنط يقنط ويقنط قنوطًا، وقنط قنطًا وهو قانطٌ: يئس. فالقنوط: اليأس، وقيل: اليأس من الخير، وقيل: أشد اليأس من الشيء[٤].

وقد ورد لفظ (قنوط) بصيغة المبالغة في القرآن الكريم في موضع واحدٍ فقط، دالًا على شدة يأس الإنسان، في قوله جل وعلا: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ۝٤٩﴾ [فصلت: ٤٩].

أي: يئوس من الخير، قنوطٌ من الرحمة. وقيل: قنوطٌ أي: سيء الظن بربه، كأنه يقول: لا يكشف الله تعالى ما بي من البلاء

طالب ٦/ ٣٩٥٠.

(١) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٦/ ٤٩٤٥، القاموس المحيط، الفيروزآبادي ص٥٨٢.

(٢) جامع البيان، الطبري ١٢/ ٣٣٩.

(٣) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٧/ ١٩٩، زهرة التفاسير، أبو زهرة ٧/ ٣٦٧٣.

(٤) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٥/ ٣٧٥٢، تاج العروس، الزبيدي ٢٠/ ٥٦.

والشدة[1].

وقد فرق بعض المفسرين بين اليأس والقنوط؛ إذ لو كانت الكلمتان متطابقتين لاستغنى السياق القرآني عن واحدة منها، فقالوا: اليأس من صفة القلب، وهو قطع الرجاء من رحمة الله تعالى، والقنوط من صفة البدن، بأن يظهر أثر اليأس في بدنه، فيتضاءل ويحزن وينكسر ويتذلل[2].

وقال بعضهم: هما مترادفان؛ وذكرهما معًا للتأكيد[3].

وقد جاءت تربية الشريعة للأمة على ذم القنوط.

قال تعالى حكايةً عن إبراهيم: ﴿قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ۝٥٦﴾ [الحجر: ٥٦][4].

(١) تفسير القرآن، السمعاني ٥/ ٥٩.
(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٧/ ٤٨٢، التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١٠.
(٣) حدائق الروح والريحان، الهرري ٢٦/ ١٣.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٥/ ١١.

الإنسان والشيطان

بين لنا القرآن الكريم -في آياتٍ كثيرةٍ- أن علاقة الشيطان بالإنسان علاقة عداوة، وهي من سنن الله الكونية التي قررها الله عز وجل في قوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

والهدف منها واضحٌ جليٌّ ﴿إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝٦﴾ [فاطر: ٦].

ويرجع تاريخ تلك العداوة إلى اليوم الذي شكل الله عز وجل فيه آدم عليه السلام قبل أن ينفخ فيه الروح، فأخذ الشيطان يطيف به، ويقول: لئن سلطت علي لأعصينك، ولئن سلطت عليك لأهلكنك. فعن أنسٍ رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لما صور الله آدم في الجنة، تركه ما شاء الله أن يتركه، فجعل إبليس يطيف به، ينظر ما هو، فلما رآه أجوف عرف أنه خلق خلقًا لا يتمالك»[5]. فلما نفخ الله في آدم الروح، وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وكان إبليس يتعبد الله مع ملائكة السماء فشمله الأمر، فسجدوا جميعًا إلا إبليس أبى أن يسجد لآدم عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُواْ

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب،باب خلق الإنسان خلقًا لا يتمالك، رقم ٢٦١١، ٢/ ١٢١٠.

لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾ [البقرة: ٣٤]. فكان الاستعلاء والاستكبار من قبل إبليس ردًا على الأمر الإلهي بالسجود، إذ يعتقد بأفضليته وخيريته على آدم فقال: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

وقال: ﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿٦١﴾﴾ [الإسراء: ٦١]. والحسد على تكريم الله إياه، قال: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ﴾ [الإسراء: ٦٢].

فكان جزاؤه أن عامله الحق سبحانه وتعالى بنقيض قصده، حيث كان قصده التعاظم والتكبر، فأخرجه الله صاغرًا حقيرًا ذليلًا، ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣].

لكن إبليس لم يرد أن يترك جهلًا محادته لله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الأعراف: ١٤].

أي: أمهلني فلا تعجل بموتي إلى يوم يبعثون، وقد ذكر ما يريد عمله من ذلك الإمهال وهو إضلال الناس، فأجابه الله إلى طلبه ﴿قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأعراف: ١٥].

وقطع اللعين على نفسه عهدًا بإضلال آدم وذريته والكيد لهم: ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦ - ١٧].

وابتدأ اللعين يعد عدته ويدبر للفتك بآدم وذريته، فبعد أن أكرم الله عز وجل آدم بأنواع التكريم، وأسجد له ملائكته، وبعد ما تحقق من إبليس ما تسبب في طرده - لعنه الله - من الجنة، زاد حقده على آدم أن يسكن الجنة التي طرد منها بسببه.

فعقد العزم على إغواء أبينا آدم، فجاءه وزوجه بطريق الوسوسة: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِىَ لَهُمَا مَا وُۥرِىَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأعراف: ٢٠].

﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٠ - ١٢٣]

بل أقسم على إضلال آدم وذريته، كما أخبر القرآن الكريم على لسانه: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ

﴿جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٢ – ٦٥].

وقد أطال القرآن في تحذيرنا من الشيطان وبيان عداوته للإنسان، فقد ورد ذكره بصفة المفرد في سبعين آية، وبصفة الجمع في ثماني عشرة آية' وذلك لشدة عداوته وفتنته، ومهارته في الإظلال، ودأبه وحرصه على ذلك.

ومن خلال تتبع آيات القرآن الكريم في ذكره لكلمة (عدو) نجد أنها وردت مقرونة بوصف (مبين) تسع مراتٍ، ثمانية منها في شأن العداوة مع الشيطان.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾﴾ [البقرة: ١٦٨].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٠٨﴾﴾ [البقرة: ٢٠٨].

وقال جل وعلا: ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأنعام: ١٤٢].

وقال تعالى: ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قَالَ يَٰبُنَىَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾﴾ [يوسف: ٥].

وقال تعالى: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠].

قال تعالى: ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾﴾ [الزخرف: ٦٢].

وقال تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

ومعنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ بين العداوة لا يخفيها ولا يطويها، عداوته جلية واضحة[1].

والموضع الوحيد الذي وصفت فيه عداوة غير الشيطان بهذا الوصف هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ كَانُوا۟ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿١٠١﴾﴾ [النساء: ١٠١].

وزد على ذلك أن (الخسران) لم يوصف بأنه مبيّن إلا في سياق العلاقة مع الشيطان! وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٤٩٩.

﴿...ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾﴾ [النساء: ١١٩].

وعداوة الشيطان للإنسان مستمرةٌ لانهاية لها بل هي باقيةٌ أبد الدهر، بيد أنه لا يعدو الشيطان في حياة الإنسان أنه مخلوقٌ باستطاعته أن يوسوس في صدر الإنسان بالشر، ويزين له ارتكاب الخطيئة بإرادته، ويعد مسئولا عنها مسئولية تامة.ففي المفاهيم الإسلامية عدة حقائق عن الشيطان تبين موقعه في حياة الإنسان، وأثره على إرادته، والحكمة الربانية من وجوده.

الحقيقة الأولى: تتلخص في أن الشيطان ليس له سلطانٌ على إرادة الإنسان، إلا من سلم قيادة نفسه له وتبعه مختارًا لنفسه طريق الغواية، ونجد الدليل على هذه الحقيقة في عدة نصوصٍ قرآنية، منها قول الله تعالى يخاطب إبليس رأس الشياطين:

ومنها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [الحجر: ٤٢].

ومنها قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٥﴾﴾ [الإسراء: ٦٥].

ومنها قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل: ٩٨ – ١٠٠].

فمن الظاهر في هذه النصوص أن الله تبارك وتعالى لم يجعل للشيطان سلطانًا على الإنسان، وأن سلطانه لا يكون إلا على الذين يتولونه، ويجعلونه قائدًا لهم، ويتبعونه مختارين لأنفسهم طريق الغواية.

ومن أجل ذلك فإن الشيطان سيعلن هذه الحقيقة يوم القيامة للذين استجابوا لوساوسه في الدنيا.

ويدل على ذلك قول الله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [إبراهيم: ٢٢].

﴿مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أي: ما أنا بقادرٍ على إغاثتكم وما أنتم بقادرين على إغاثتي، حينما يصرخ كلٌّ منا طالبا من صاحبه أن يغيثه فيرفع عنه عذاب الله.

الحقيقة الثانية: تتلخص في أن وظيفة الشيطان في حياة الإنسان إنما هي الوسوسة في صدره وليس له قدرة على أكثر من ذلك،

ويشعر الإنسان بهذه الوسوسة في صورة خواطر تزين له الإثم والمعصية، وتزين له الانحراف عن سواء السبيل، وقد تصوغ له ذلك بحجج مغرية.

قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١ - ٦]

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ۙ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ۝٢٥﴾ [محمد: ٢٥].

أي: غرهم بالأماني والآمال في وساوسه وتسويفاته، وهذا ما فعله مع آدم وحواء، إذ كانا في الجنة فوسوس لهما فأخرجهما من الجنة. فكيد الشيطان في الإضلال كيدٌ ضعيفٌ، وبذلك وصفه الله بقوله: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦﴾ [النساء: ٧٦].

الحقيقة الثالثة: تتلخص في أن الله تبارك وتعالى جعل الشيطان في حياة الإنسان لإقامة التوازن بين دوافع الخير ودوافع الشر والمحرضات عليهما، وليطرح الإنسان عليه قسمًا من مسئولية الخطيئة التي يقع بها، فيجد لنفسه عذرًا بأن فعل الشر ليس من فطرته، وإنما كان بتأثير وساوس قرينه الشيطان الملازم له.وبهذا لا تظل صورة الخطيئة القبيحة ماثلةً في نفس الإنسان، إذ يشعر بأن القبح في العمل ليس من شأنه.

وهذا الشعور الذي يشعر به المخطئ، قد يساعده على تقويم نفسه، مستعيذًا بالله من الشيطان، ساعيًا في التخلص مما علق به من أدناس المعاصي، كما يساعده على نسيان خطيئته إذا هو استغفر الله وتاب إليه؛ إذ من وسائل الإصلاح التربوي فتح باب العذر لمن نربيه إذا ارتكب الخطيئة، ولو عاقبناه عليها نظرًا إلى مسئوليته، وذلك لنبقى له مجالًا يحتفظ فيه بصورة الكمال التي يجب أن يتصورها الناس فيه، ولنبق له مجالًا للارتقاء في مراتب الكمال الإنساني[١].

[انظر: آدم: آدم وإبليس]

(١) الأخلاق الإسلامية وأسسها، الميداني ١/ ١٧٣.

نداءات ووصايا للإنسان

جاءت النداءات والوصايا من الله عز وجل للإنسان في القرآن الكريم كي ترشد الإنسان إلى الطريق القويم ليفوز بالسعادة في الدنيا والآخرة، فالله عز وجل إذا كان قد جعل الإنسان مختارًا فإنه لم يتركه سدى، بل أرسل له الرسل، وأنزل له الكتب، وأرشده إلى الطريق الصحيح، ولذا كان حريٌ بالإنسان أن يعنى بتلك النداءات والوصايا، وقد ورد نداء الإنسان في القرآن في موضعين، وفي استخدام أسلوب النداء تلطفٌ بالمخاطب، بخلاف مواجهة المخاطب بالأمر والنهي مباشرة فإن فيها جفوة وقسوة، كما جاءت وصية الله للإنسان في ثلاثة مواضع جميعها توصية بالإحسان إلى الوالدين، وفي استخدام أسلوب الوصية أثرٌ بالغٌ في النفس وأقوى في الامتثال من أسلوب الأمر والتكليف، وفي المطلبين الآتيين بيان لتلك النداءات والوصايا.

أولًا: نداءات الله للإنسان:

ورد نداء الله عز وجل للإنسان في القرآن الكريم في موضعين:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦ - ٨].

النداء هنا للتنبيه، تنبيهًا يشعر بالاهتمام بالكلام والاستدعاء لسماعه، فليس النداء مستعملًا في حقيقته، إذ ليس مرادًا به طلب إقبال، ولا هو موجه لشخصٍ معينٍ أو جماعةٍ معينةٍ، بل مثله يجعله المتكلم موجهًا لكل من يسمعه بقصدٍ أو بغير قصدٍ[١].

والتعريف في (الإنسان) تعريف للجنس، وعلى ذلك حمله جمهور المفسرين، أي: ليس مرادًا إنسانًا معينًا، وقرينة ذلك سياق الكلام عقبه: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠﴾ [الانفطار: ٩ - ١٠][٢].

وهذا العموم مراد به الذين أنكروا البعث[٣].

وقد خاطب الله عز وجل الإنسان بصفة الإنسانية التي تميزه على المخلوقات؛ ليرعوي ويتذكر أنه إنسان مكرمٌ حريٌ به أن يستجيب لمن أكرمه بالنعم التي لا تعد ولا تحصى. ففي هذا الخطاب: استدعاء لمعاني الإنسانية التي أودعها الله سبحانه وتعالى في الإنسان، من قوى عاقلة مدركة، من شأنها أن تميز بين الخير والشر، وتفرق بين الإحسان والإساءة[٤].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٧٣.
(٢) المصدر السابق.
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٤، روح المعاني، الألوسي ١٥/ ٢٦٩.
(٤) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٨٤٠.

فتصدير الآية القرآنية بقوله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ﴾، أي: تنبه!!

إن الصفة التي أعطيتك إياها ما كان ينبغي أن يوجد معها الغرور، ومع ذلك وجد منك الغرور، واغتررت بربك الكريم، فلو أنك اغتررت بالذي وهب لو كان غير كريم لكان من الممكن أن تكون حفيظة نفسك قد أثرت فيك، ولكنه سبحانه وتعالى رب كريم، فما داعي الغرور إذًا؟!.

ويلاحظ أن جملة النداء وليها الجملة الاستفهامية ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ وهي تقرر وتوضح كرم الربوبية، وفي ذلك لفت وإثارة، والمعنى: أي شيءٍ خدعك وجرأك على عصيان ربك الكريم الذي أنعم عليك بنعمة الوجود والعقل والتدبر، ولا تزال أياديه تتوالى عليك، ونعمه تترى لديك؟[1].

روي أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ: ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ فقال: جهله، وقاله عمر رضي الله عنه وقرأ: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾ [الأحزاب: ٧٢][2].

وقيل: غره عدوه المسلط عليه. وقيل: غره ستر الله تعالى عليه. وقيل: غره كرم الله تعالى. وقيل: غره طمعه في عفو الله عنه[3].

(١) تفسير المراغي ٣٠/ ٦٦.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٥٤، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٢٢/ ١٢٢.
(٣) انظر: التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٤، مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٦١٠.

قال ابن جزي: «ولا تعارض بين هذه الأقوال؛ لأن كل واحدٍ منها مما يغر الإنسان، إلا أن بعضها يغر قومًا، وبعضها يغر قومًا آخرين»[4].

ثم يفصل الله عز وجل شيئًا من هذا الكرم الإلهي، الذي أجمله في النداء الموحي العميق الدلالة، المشتمل على الكثير من الإشارات المضمرة في التعبير. يفصل شيئًا من هذا الكرم الإلهي المغدق على الإنسان المتمثل في إنسانيته التي ناداه بها في صدر الآية، فيشير في هذا التفصيل إلى خلقه وتسويته وتعديله[5].

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾

وهذه صفاتٌ مقررةٌ للربوبية مبينةٌ وموضحةٌ لكرم الله على الإنسان.حيث إنه تعالى لما وصف نفسه بالكرم، ذكر هذه الأمور الثلاثة (الخلق والتسوية والتعديل)، كالدلالة على تحقق ذلك الكرم، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكَ﴾ لا شك أنه كرمٌ؛ لأنه وجود، والوجود خير من العدم، والحياة خير من الموت، كما قال تعالى: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٨].

وقوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰكَ﴾ أي: جعلك سويًا سالم الأعضاء، ونظيره قوله تعالى:

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٤.
(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٨٤٧.

﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ۝٣٧﴾ [الكهف: ٣٧].

أي: معتدل الخلق والأعضاء[١].

وقوله: ﴿فَعَدَلَكَ﴾ أي: عدل أعضاءك بعضها ببعض، أي وازن بينها، فلم يجعل إحدى اليدين أطول من الأخرى ولا إحدى العينين أكبر من الأخرى، ولا إحداهما كحلى والأخرى زرقاء، ولا بعض الأعضاء أبيض وبعضها أسود، وشبه ذلك من الموازنة[٢].

ويلاحظ في هذه الآية الكريمة تعدد الصلات وإن كان بعضها قد يغني عن البعض، فإن التسوية حالة من حالات الخلق، وقد يغني ذكرها عن ذكر الخلق كقوله: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

ولكن قصد إظهار مراتب النعمة، وهذا من الإطناب المقصود به التذكير بكل صلة والتوقيف عليها بخصوصها، ومن مقتضيات الإطناب مقام التوبيخ[٣].

ثم أجمل ما فصله أولًا بقوله: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾: أي ركبك في صورةٍ هي من أبهى الصور وأجملها، وأدلها على بقائك الأبدي في نشأة أخرى بعد هذه النشأة، فإن الكريم يوفي كل مرتبة من الوجود حقها، فمن خص بهذه المنزلة الرفيعة لا ينبغي أن يعيش كما يعيش سائر الحيوان، ويموت كما يموت الوحش وصغار الذر، وإنما الذي يليق بعقله وقوة نفسه أن تكون له حياة أبدية لا حد لها، ولا فناء بعدها، يوفى كل ذي حق حقه، وكل عامل جزاء عمله[٤].

نخلص من ذلك: إلى أن هذا النداء للإنسان فيه توبيخٌ له على جحود النعم وتحذيرٌ له من الانهماك في الدنيا، فالله عز وجل خلقه في أحسن تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾ [التين: ٤].

ومنحه من النعم ما لا يعد ولا يحصى ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وأهم هذه النعم ما يتعلق بنفسه، حيث خلقه الله من نطفة ولم يك شيئًا، وجعله سليم الأعضاء منتصب القامة، متناسب الأعضاء، وصوره في أحسن الصور وأعجبها، ومنحه عقلًا امتاز به على كثير من المخلوقات: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٢٠/ ١٩٨.
(٢) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٥٤، التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٥٤٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ١٧٥.
(٤) تفسير المراغي ٣٠/ ٦٦.

﴿٧٠﴾ [الإسراء: ٧٠]؛ كي يحقق العبودية لله تعالى، كما قال جل شأنه: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦].

فهل يليق بالإنسان بعد هذا الإكرام أن يكفر بنعمة المنعم أو يجحد إحسان المحسن؟.

والموضع الثاني: قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰ إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾ [الانشقاق: ٦ - ١٥]

والخطاب عام لكل إنسانٍ، فاللام في قوله (الإنسان) لتعريف الجنس وهو للاستغراق، كما دل عليه التفصيل في قوله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ﴿٧﴾﴾ إلى قوله: ﴿كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿١٥﴾﴾.[1] فهو يشمل كل فردٍ من أفراد الناس الموضوعين في الحياة الدنيا موضع الامتحان، بأسلوب الخطاب الإفرادي، لإعلام كل فرد فأنه محل عناية الرب في خطابه[2].

والمقصود الأول من هذا وعيد المشركين؛ لأنهم الذين كذبوا بالبعث. فالخطاب بالنسبة إليهم زيادة للإنذار، وهو بالنسبة إلى المؤمنين تذكير وتبشير[3].

وفي هذا الخطاب كذلك يستدعي الحق سبحانه وتعالى في الإنسان صفة الإنسانية التي تفرده في هذا الكون بخصائص من شأنها أن يكون أعرف بربه، وأطوع لأمره، ولعل في طبيعة هذا النداء ما يلفت الانتباه إلى هذه الربوبية، والدعوة للعودة إليها، بما يوحيه هذا النداء من بلاغةٍ في الخطاب، وذلك بما فيه من التخصيص لكل فردٍ فيه.

فهي دعوة تمتلئ شفقة ورحمة بالإنسان ليعود إلى ربه بما تحمله كلمة الرب من معاني العناية والرعاية، وكذلك بما توحيه أداة النداء التي للبعيد تنبيهًا على أن معاصيه أبعدته عن القرب من الله، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ﴿٦﴾﴾ [الانشقاق: ٦]

و(الكادح): العامل بشدةٍ وسرعة واجتهاد مؤثر، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم: (من سأل وله ما يغنيه، جاءت مسألته حدوثًا أو كدوحًا في وجهه يوم القيامة)[4].

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٢١.
(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر، الميداني ١٥/ ٩٣.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٣٠/ ٢٢١.
(٤) أخرجه أحمد في مسنده ٧/ ٢٥٩، رقم ٤٢٠٧، وأبو داود في سننه، كتاب الزكاة، باب من يعطى من الصدقة، ٢/ ١١٦، رقم ١٦٢٦، والنسائي في سننه، باب حد الغنى، ٥/ ٩٧، رقم ٢٥٩٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الزكاة، باب من سأل عن ظهر غنى،

والمعنى: يا أيها الإنسان المجد في سعيه، النشيط في عمله السريع في تحصيل معاشه وكسبه: إنك تكدح في طلب الدنيا، حتى استبطأت حركة الزمن، وكم تمنيت نهاية اليوم أو الشهر أو العام لتحصل على طلبك، أيها الإنسان ما أجهلك!!

ألم تعلم بأن هذا كله من عمرك، وأنت تكدح صائرًا إلى ربك، وتجدك واصلًا إلى نهايتك وموتك.

قال الشاعر:

يسر المرء ما ذهب الليالي

وكان ذهابهن له ذهابا

فأنت تجد في السير إلى ربك، فتلاقي عملك هناك أوضح من الشمس، فاعمل في دنياك على هذا الأساس. ستلاقي ربك يوم القيامة، وستلاقي عملك يوم يقوم الناس للعرض على الملك الجبار ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ۝١٨﴾ [الحاقة: ١٨][1].

وقد خلق الله الإنسان ضمن ظروف هذه الحياة الدنيا في محيط الكبد، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ ۝٤﴾ [البلد: ٤].

أي: في محيطٍ من الشدة والمشقة والضيق، لذلك فهو بحاجة لتحقيق مطالبه من خيرٍ أو شرٍ إلى الكدح، أي: إلى السعي والعمل بنصبٍ ومشقةٍ.

فالإنسان حريصٌ على البقاء، ومن أجل ذلك فهو يتحمل أنواعًا من الكدح والمكابدة، فلا نكاد نجد في الناس إنسانًا غير كادحٍ، وهذه حقيقةٌ مشاهدة في السلوك الدائم للإنسان.

وهي التي جعلت المعري يقول[2]:

تعبٌ كلها الحياة فما أع

جب إلا من راغبٍ في ازدياد

ولا يشترط أن يكون الكدح في عملٍ جسديٍ، بل قد يكون في حركاتٍ نفسيةٍ ذات مشقةٍ على النفس أكثر من حركات الكد الجسدي، فمن الكدح ما يعانيه الإنسان من أمراضٍ، وأوجاعٍ، وآلامٍ، جسديةٍ ونفسيةٍ. ومن الكدح ما يعانيه الإنسان من آلام المصائب في الأموال والأنفس، وفقد الأحبة.

ويستمر كدح الإنسانِ حتى اللحظات الأخيرة من حياته، وملاقاة ربه بالموت، وبعد ملاقاته ربه بالموت تبدأ مرحلة ملاقاة حسابه، وفصل القضاء بشأنه، ومجازاته على ما كسبه بإرادته في رحلة امتحانه، وأكبر ذلك ما يكون يوم الدين[3].

وما دام الإنسان في ظروف الحياة التي

١/ ٥٨٩، رقم ١٨٤٠.
وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، ١/ ٨٩٩، رقم ٤٩٩.

(١) انظر: المحرر الوجيز، ابن عطية ٨/ ٥٦٨.

(٢) معارج التفكر ودقائق التدبر، الميداني ١٥/ ٩٨.

(٣) المصدر السابق.

تتطلب منه أن يكون كادحًا في الخير أو في الشر، فإن العقل السديد والرأي الرشيد يوجبان عليه أن يكدح كدحًا يحقق له النجاح في الدنيا، وأكبر حظٍ من سعادة النفس فيها، ثم يحقق له مرضاة الله والسعادة الخالدة عنده يوم الجزاء الأكبر[1].

وقد فصّل الحق سبحانه وتعالى الإجمال الذي في قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ ۝٦﴾ مبينًا أحوال الإنسان عندما يلاقي ربه، ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ۝٩﴾[الانشقاق: ٧ - ٩].

أي: وهناك في موقف الحساب، يؤتى كل إنسانٍ كتابه: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝١٣ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾[١٣ - ١٤: الإسراء].

فأما من أوتى كتابه بيمينه، فهو من أهل السلامة والنجاة. إنه يحاسب حسابًا يسيرًا، لا رهق فيه، لا عسر. فما هو إلا أن يعرض في موقف الحساب، حتى يخلى سبيله. ففترة العرض والانتظار، هي هذا الحساب اليسير. ففي الحديث عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من حوسب يوم القيامة عذب). قالت: فقلت: يا رسول الله: أليس قد قال الله: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨﴾[الانشقاق: ٧ - ٨]. فقال: (ليس ذلك الحساب، إنما ذلك العرض، من نوقش الحساب يوم القيامة عذب)[2].

ثم ينقلب من هذا الحساب- وقد برئت ساحته- يزف إلى أهله من إخوانه المؤمنين بشرى نجاته وسلامته، وقد غمره السرور، وفاض عليه البشر فلا يملك إلا أن يهتف بكل من يلقاه من أهل المحشر: ﴿هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ۝١٩﴾[١٩: الحاقة][3].

يلحظ مما سبق أن النداء بـ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنسَانُ﴾ لم يأت إلا في موضعين؛ الموضع الأول: في سورة الانفطار، والموضع الثاني: في سورة الانشقاق، وقد جاء النداء فيهما بعد الحديث عن أهوال القيامة وبداية اللقاء الأخروي، وتذكيره بأمره وبمصيره الذي هو صائر إليه، وهذا يدل على الرعاية الحانية للإنسان كي يتنبه قبل فوات الأوان، وهذا واضحٌ جدًا من أسلوب الخطاب في الموضعين.كما يلحظ أن (الإنسان) عندما ينادى في القرآن فهو وإن كان عامًا إلا أن

(١) الأخلاق الإسلامية، الميداني ١/ ٣٤٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من سمع شيئًا فلم يفهمه، ١/ ٣٢، رقم ١٠٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها، باب إثبات الحساب، ٤/ ٢٢٠٤، رقم ٢٨٧٦.

(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١٦/ ١٥٠٣.

ملاحظة معنى الإنسانية مراد ومطلوب، بخلاف (الناس) فإن ملاحظة الجنس هي المطلوبة أولًا. وكلا النداءين يقتربان في أن المطلوب من الإنسان فيهما أن يعلم أنه ملاقٍ ربه فعليه أن لا يغتر بكرمه فيعمل ليوم الدين، كما ترشد إلى ذلك آية الانفطار، كذلك آية الانشقاق تلتقي مع أختها في ضرورة أن يعمل الإنسان في سعيه خيرًا فهو لا محالة ملاقٍ ربه.

ثانيًا: وصايا الله للإنسان:

الوصية كما عرفها الراغب الأصفهاني: «التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنًا بوعظٍ، من قولهم: أرضٌ واصيةٌ: متصلة النبات، ويقال: أوصاه ووصاه، قال: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ﴾[البقرة: ١٣٢].

وقرئ: (وأوصى) قال الله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [النساء: ١٣١].

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ [العنكبوت: ٨].

﴿مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَآ﴾ [النساء: ١٢].

﴿حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

ووصى: أنشأ فضله، وتواصى القوم: إذا أوصى بعضهم إلى بعض، قال: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: ٣].

﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ۝٥٣﴾ [الذاريات: ٥٣]»[1].

والوصية شأنها في نفس من تربى على الإيمان أعمق وأبعد أثرًا، لاسيما حينما تكون من صاحب نعمة، ومن صاحب الأمر والتدبير وموجد الخلق أجمعين، فهي تحمل معنى الأمر وتحمل معنى الالتزام.

والفرق بين الأمر الصريح والوصية، أن آخر ما استقر الأمر عليه الوصية، وبهذا تكون الوصية خالدة مخلدة، وهي أيضًا في قوتها أقوى من الأمر وفي أثرها أبلغ منه. ومن هنا كان أسلوب الإيصاء أقوى في البعث على الامتثال من أسلوب الأمر والتكليف.

وإذا كان هذا هو شأن الوصية، فقد وصى الله عز وجل الإنسان بالإحسان إلى والديه؛ لأنهما سبب وجوده، ولهما عليه غاية الفضل والإحسان، وذلك في ثلاثة مواضع من الكتاب العزيز:

الموضع الأول: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَـٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٨﴾ [العنكبوت: ٨]

الموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ۝١٤ وَإِن جَـٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى

(١) المفردات ص٥٢٥.

﴿الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝١٥﴾

[لقمان: ١٤-١٥]

الموضع الثالث: قوله جل شأنه: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ۝١٥ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ۝١٦﴾ [الأحقاف: ١٥-١٦]

وجاءت وصية الله عز وجل للإنسان بالفعل (وصى) المشدد فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾ للدلالة على المبالغة والتكثير، ووصية الله عز وجل للإنسان- في هذه المواضع الثلاثة- هي أمرٌ وعزيمةٌ وتكليفٌ.

ذكر بعض المفسرين: أن هذه المواضع الثلاثة التي ورد فيها توصية الله عز وجل الإنسان بوالديه نزلت في شأن سعد بن أبي وقاص[(١)]. والراجح- والله أعلم- أن الآيات عامة في جميع الناس، وإن كانت نزلت في شأن شخص عين، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب الذي نزلت الآية من أجله. ويكون المراد بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ﴾ جنس الإنسان.

فهي وصيةٌ صادرةٌ من خالق الإنسان لجنس الإنسان كله، قائمةٌ على أساس إنسانيته، وهي وصية بالإحسان إلى الوالدين مطلقة من كل شرطٍ ومن كل قيدٍ، فصفة الوالدية تقتضي هذا الإحسان بذاتها، دون الحاجة إلى أية صفة أخرى.

ولا ترد وصية الوالدين بالأولاد إلا نادرة، ولمناسبة حالات معينة؛ ذلك أن الفطرة وحدها تتكفل برعاية الوالدين للأولاد، رعاية تلقائية مندفعة بذاتها لا تحتاج إلى مثير[(٢)].

ونلحظ أن الآيات في الموضعين الأول والثالث جاءت منوهة بالحسن في وصيتها بلفظ ﴿حُسْنًا﴾ في الموضع الأول، وبلفظ ﴿إِحْسَانًا﴾ في الموضع الثالث، أما الموضع الثاني فقد تركت الوصية مفتوحة.

فما المراد بالإحسان؟ وهل هناك فرق بين لفظي ﴿حُسْنًا﴾ و ﴿إِحْسَانًا﴾؟

قال الراغب الأصفهاني: «الإحسان يقال على وجهين: أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلانٍ، والثاني: إحسانٌ في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا، وعلى هذا قول أمير المؤمنين

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٦/ ٢٥٧، روح المعاني، الألوسي ١٠/ ٣٤٤.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦١.

رضي الله عنه:(الناس أبناء ما يحسنون) أي: منسوبون إلى ما يعلمون وما يعملونه من الأفعال الحسنة»[1].

ومعنى ﴿حُسْنًا﴾ أي: وصيناه فعلًا ذا حسن، أو ما هو في ذاته حسن لفرط حسنه، والحسن خلاف القبح، ثم أقام الصفة مقام الموصوف؛ وهو الأمر، ثم حذف المضاف وهو (ذا) وأقام المضاف إليه مقامه، وهو (حسن)؛ من: حسن يحسن حسنًا، ومعنى ﴿إِحْسَانًا﴾ :أي تحسن إليهما إحسانًا، من: أحسن يحسن إحسانًا، والإحسان خلاف الإساءة[2].

وقد جاءت الوصية من الله عز وجل مباشرةً بالوالدين بالإحسان إليهما، فقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا﴾ [العنكبوت: ٨].

يأمر الحق سبحانه وتعالى الإنسان بالإحسان إلى الوالدين؛ لأنهما سبب وجود الإنسان، ولهما عليه غاية الإحسان، فالوالد بالإنفاق، والوالدة بالإشفاق.

ومع هذه الوصية بالرأفة والرحمة والإحسان إليهما، في مقابلة إحسانهما المتقدم، قال: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ [العنكبوت: ٨].

أي: وإن حرصا عليك أن تتابعهما على دينهما إذا كانا مشركين، فإياك وإياهما، لا تطعهما في ذلك، ﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⁽٨⁾﴾ فإن مرجعكم إلي يوم القيامة، فأجزيك بإحسانك إليهما، وصبرك على دينك، وأحشرك مع الصالحين لا في زمرة والديك، وإن كنت أقرب الناس إليهما في الدنيا[3].

وفي الموضع الثاني تأتي الوصية مفتوحة أو مطلقة ففي قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ ذكر عز وجل ضعف الأم بصفة الوهن، والوهن: الضعف وقلة الطاقة على تحمل شيء[4].

كأنه عز وجل لما ذكر ضعف الأم بوصفه ﴿وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ ترك الوصية مطلقةً فلم يحددها بالقول إحسانًا أو حسنًا، فإن مراتب هذه المفردات على سموها لا تفي حق الوالدين، وإن كان ذكر الأم على التخصيص دون الأب مع أن الوصية بكليهما؛ لأنه ادعى للشفقة، فهو لمما يدر هذه الشفقة تجاه الوالدين.كما أن هذا الحمل أظهر وأوضح في وقوعه، وهو أيضًا من الأشياء التي تنسى بسهولةٍ بعد حصولها، كما أنها هي الأصل الظاهر في وجود هذا الإنسان، وإن كان للأب لا شك دورٌ جوهريٌّ، أضف إلى ذلك عملية تعميق دور الأم ورسالتها بذكر الحمل

(١) المفردات ص١١٩.
(٢) انظر: الكشاف، الزمخشري ٤/ ٥٣٧، الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٦/ ٣٤٠.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ٢٦٥.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢١/ ١٥٧.

ووهنه على وجه الخصوص، ولذلك كان الوصف لصورة هذه الأم الواهنة الكارهة للحمل، ولكن الوصية للاثنين والشكر لهما معا، كما أن رفض الطاعة في الإشراك بالله لكليهما إن صدر من كليهما.

ونرى هذا التنديد بالشرك واضحًا عندما نبه على أن شكر الوالدين جاء مقرونًا بشكر الله، ثم نوه على المرجعية إليه في قوله: ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِي وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [لقمان:١٤].

وفي الآية اللاحقة أكد صراحةً رفض الشرك حينما قال: ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [لقمان: ١٥]

فالوصية بهم والإحسان إليهم لا يجب أن يؤدي بحالٍ من الأحوال إلى الشرك حتى في أقصى الظروف من مجاهدتهم إياكم، والسبيل إلى ذلك باتباع سبيل من أناب إلى الله وأدرك مرجعيته الحقة، وإن كان ولابد في كل هذه الظروف من الإبقاء على مصاحبة الوالدين بالمعروف.

وهنا تبرز قدرة المؤمنين على هذا التوازن الدقيق بين قوة الإيمان الرافضة للإشراك وهي قوة النفس المصاحبة بالحسن للأبوين المشركين بالمعروف المألوف[1].

وفي الموضع الثالث نجد أن الإحسان جاء في مقابلة الكره الذي تعانيه الأم، حيث يصور القرآن تلك التضحية النبيلة الكريمة الواهبة التي تتقدم بها الأمومة، والتي لا يجزيها أبدًا إحسان من الأولاد مهما أحسنوا القيام بوصية الله في الوالدين: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف:١٥].

وتركيب الألفاظ وجرسها يكاد يجسم العناء والجهد والضنى والكلال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ لكأنها آهة مجهد مكروب ينوء بعبء ويتنفس بجهد، ويلهث بالأنفاس!

إنها صورة الحمل وبخاصة في أواخر أيامه، وصورة الوضع وطلقه وآلامه! ويتقدم علم الأجنة فإذا به يكشف لنا في عملية الحمل عن جسامة التضحية ونبلها في صورة حسية مؤثرة[2].

كما توضح الآيات أن الإنسان تدرج في أطواره من وقت فصاله إلى أن بلغ أشده، فهو موصى بوالديه حسنًا في الأطوار الموالية لفصاله، فيوصيه وليه في أطوار طفولته، ثم

(١) ملامح الطبيعة الإنسانية في القرآن، أروى التل، ص٢٨٥.
(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٢٦٢.

عليه مراعاة وصية الله في وقت تكليفه[1].

فقال سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنۡ أَعۡمَلَ صَٰلِحٗا تَرۡضَىٰهُ وَأَصۡلِحۡ لِي فِي ذُرِّيَّتِيٓۖ إِنِّي تُبۡتُ إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٥﴾ [الأحقاف: ١٥].

والأشد: حالة اشتداد القوى العقلية والجسدية[2].

ويلحظ في الموضعين الثاني والثالث أن الله تعالى جعل لكلٍ من الأم والوالد نصيبًا من الوصية، ثم خصص الأم بدرجة ذكر الحمل، وبدرجة الرضاع، فتحصل للأم ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبه ذلك قول الرسول صلى الله عليه وسلم - حين قال له رجلٌ -: من أبر؟ قال: (أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: أمك، قال: ثم من؟ قال: ثم أبوك)[3]، فجعل له الربع من المبرة كالآية[4].

يتبين من خلال ما سبق: أن تلك الوصايا الصادرة من خالق الإنسان إنما هي لجنس الإنسان كله، حيث إنها قائمةٌ على أساس إنسانيته، توصيه بالإحسان لوالديه، مبينة على وجه الخصوص مبلغ متاعب الأم بولدها، فقد ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ وَهۡنًا عَلَىٰ وَهۡنٖ﴾ [لقمان: ١٤]، كما ﴿حَمَلَتۡهُ أُمُّهُۥ كُرۡهٗا وَوَضَعَتۡهُ كُرۡهٗاۖ﴾ [الأحقاف: ١٥].

إشعارًا بمبلغ استحقاقها للإحسان والرعاية، شكرًا لها على ما قدمت من عطاء دفعت إليه دوافع الرحمة.

ولما كانت العناية الربانية هي المهيمنة على الإنسان منذ نشأته، والمسايرة له مدى وجوده، كان من حقه على عباده أن يشكروه.

﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: ١٤].

فشكر الوالدين حق وواجب لكنه مسبوق وهو تابع. فإن اختلفت العقيدة سقط حق الطاعة لهما ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَآۚ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٨﴾ [العنكبوت: ٨].

﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشۡرِكَ بِي مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٞ فَلَا تُطِعۡهُمَاۖ وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٥﴾ [لقمان: ١٥].

موضوعات ذات صلة:

آدم، الأجل، الناس، النفس

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٦/ ٣١.
(٢) المصدر السابق.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب من أحق الناس بحسن الصحبة، رقم ٥٩٧١.
(٤) المحرر الوجيز، ابن عطية ٧/ ٤٧.



عناصر الموضوع

مفهوم الانصار	٣٨٢
الأنصار في الاستعمال القرآني	٣٨٣
الالفاظ ذات الصلة	٣٨٤
صفات الأنصار وأعمالهم	٣٨٦
فضائل الأنصار	٤٠٤

مفهوم الأنصار

أولًا: المعنى اللغوي:

الأنصار: جمع ناصر، كصاحب وأصحاب، كما تجمع ناصر على ناصرين ونصار، اسم فاعل من نصر.

أو جمع نصير، كشريف وأشراف، (ناصر أو نصير) وكلاهما صواب، والنصير: فعيل، بمعنى فاعل أو مفعول؛ لأن كل واحد من المتناصرين ناصر ومنصور.

ونصير: صيغة مبالغة من ناصر، ومعناه: المساعد، والمعين، والمناصر، والمؤيد.

يقال: نصره على عدوه ينصره نصرًا، واستنصره على عدوه: سأله أن ينصره عليهم، وتناصر القوم: إذا نصر بعضهم بعضًا، وانتصر منه: انتقم[(١)].

ولفظ الأنصار يأتي بمعنى: الأعوان المناصرين والمؤازرين والأتباع والحلفاء، وأهل الاتباع والتصديق.

وهذا اللفظ (الأنصار) بهذا المعنى اللغوي يمكن إطلاقه لغةً على كل من اتصف بهذا الوصف.

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

وفي المعنى الاصطلاحي الأمر ليس ببعيد عن المعنى اللغوي، فأنصار الرجل هم حلفاؤه وأتباعه ومؤيدوه في النزاعات، ومعاونوه على أمره.

ومن هنا جاء تعريف الأنصار في الاصطلاح الشرعي بأنهم الأوس، والخزرج من الأزد: سماهم الله عز و جل بذلك لما نصروا رسوله، وآووه، وكانوا له نعم الحلفاء والأتباع[(٢)].

فالأنصار اصطلاحًا: يطلق على من أسلم من أهل المدينة بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم من الأوس، والخزرج، ومزينة، وسليم، وجهينة، وغفار، وأسلم، فكل هؤلاء يسمون الأنصار، وهو اسم سماه الله تعالى لكل من ناصر نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم وآواه في المدينة[(٣)]، وأولادهم يدخلونه بالنسب؛ فيقال: الأنصاري للواحد منهم ومن أبنائهم.

---

(١) انظر: مختار الصحاح، ١/ ٦٨٨، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر، ٣/ ٢٢٢٠.
(٢) انظر: مغاني الأخيار في شرح أسامي رجال معاني الآثار، العيني ٣/ ٣٨٢.
(٣) انظر: المصدر السابق.



الأنصار في الاستعمال القرآني

وردت مادة (نصر) في القرآن (١٥٥) مرة، يخص موضوع البحث منها (١١) مرة[١].

والصيغ التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الجمع	١١	﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة:٢٧٠]

وجاءت كلمة (الأنصار) في الاستعمال القرآني بمعناها اللغوي، وهو: الأعوان[٢].

(١) انظر: المعجم المفهرس الشامل لألفاظ القرآن الكريم، عبد الله جلغوم، ص١٣٢٥-١٣٢٨.

(٢) انظر: بصائر ذوي التمييز، الفيروزآبادي ٥/ ٦٩.

الألفاظ ذات الصلة

١ الصحابة:

الصحابة لغة:

الصحابة بالفتح: جمع صاحب، ولم يجمع فاعل على فعالة إلا هذا[١].

الصحابة اصطلاحًا:

هو من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنًا به، ومات على الإسلام، ولو تخللت ردةٌ في الأصح[٢].

الصلة بين الأنصار والصحابة:

عند الحديث عن الفرق بين لفظة الأنصار ولفظة الصحابة وكذلك الألفاظ الثلاثة التالية يكون المقصود منه الاصطلاح الشرعي، فيكون لفظ الأنصار أخص من لفظ الصحابة، إذ الصحابة منهم المهاجرون والأنصار والطلقاء، ومن دخل في دين النبي صلى الله عليه وسلم من القبائل بعد الفتح.

١ المهاجرون:

المهاجرون لغة:

جمع مهاجر، والمهاجر هو كل من فارق رباعه من بدوي أو حضري وسكن بلدًا آخر[٣].

ا لمهاجرون اصطلاحًا:

هم الذين صلوا إلى القبلتين، أو شهدوا بدرًا، أو أسلموا قبل الهجرة[٤].

الصلة بين الأنصار والمهاجرين:

الأنصار هم أهل المدينة الذين آووا النبي صلى الله عليه وسلم ومن هاجر إليهم من أهل الإسلام من مكة، والمهاجرون هم الذين قدموا المدينة مع النبي صلى الله عليه وسلم، أو هاجروا إليه منها بعد ذلك، وقبل انتهاء أجل الهجرة.

(١) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، ابن الأثير، ٣/ ١٢.
(٢) انظر: نزهة النظر، ابن حجر العسقلاني، ص١٤٠.
(٣) انظر: تهذيب اللغة، الأزهري،٦/ ٢٩، معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار عمر،٣/ ٢٣٢٥.
(٤) انظر: الكليات، الكفوي، ص٨٨٣.

١ الطلقاء:

الطلقاء لغة:

أطلقت الأسير، وهو طليق، وهو من الطلقاء. وأطلقت الناقة من عقالها فطلقت[(١)].

الطلقاء اصطلاحًا:

هم أهل مكة الذين أسلموا بعد فتحها.

الصلة بين الأنصار والطلقاء:

الأنصار من أهل المدينة وإسلامهم متقدم على إسلام الطلقاء، أما الطلقاء فهم أهل مكة وإسلامهم كان بعد فتح مكة.

١ التابعون:

التابعون لغة:

جمع تابع، وهو التالي، ومنه التتبع والمتابعة، والإتباع، والتتبع، تقول: تتبعت علمه، أي: اتبعت آثاره[(٢)].

التابعون اصطلاحًا:

من لقي الصحابي، وإن لم تطل صحبته[(٣)].

الصلة بين الأنصار والتابعين:

الأنصار صحبوا النبي صلى الله عليه وسلم ورأوه وهم من قرن النبي صلى الله عليه وسلم، بينما التابعون هم من صحبوا الصحابة بعد موت النبي، أو قبل ذلك ولم يحصل لهم شرف الصحبة.

(١) انظر: أساس البلاغة، الزمخشري، ١/ ٦١١، تاج العروس، الزبيدي، ٢٦/ ١٠٢.
(٢) انظر: العين، الفراهيدي، ٢/ ٧٨.
(٣) انظر: الضوء اللامع المبين عن مناهج المحدثين، أحمد ناجي، ص، ١٦٨.

صفات الأنصار وأعمالهم

تحدث القرآن الكريم عن صفات الأنصار وأعمالهم، وسوف نتناول ذلك بالبيان فيما يأتي:

أولًا: أبرز صفات الأنصار:

اصطفى الله سبحانه لهذا الدين رجالًا، كان لهم الحظ الأوفر، والشرف العظيم في نصرة الدين والنبي صلى الله عليه وسلم وإيوائه بعد أن خذله الناس، ألا وهم الأنصار، فهم من آوى الرسول ونصر، وكبت المشركين وقهر؛ ولهذا فحبهم ثابت في قلب كل مسلم، وبغضهم متقد في قلب كل منافق.

وقد شهد الكتاب العزيز بفضلهم، وبرضوان الله عليهم؛ لما قدموا من خدمة لهذا الدين، فخلد الله مديحهم ورضوانه عليهم في كتابه.

ولو تأملنا في صفات الأنصار في القرآن الكريم، وأمعنا النظر لوجدنا فضائلهم جمة، ومناقبهم عظيمة، بلغوا فيها غاية الكمال، ونالوا بها رضا ربهم الكريم المنان، فهو تارة يصفهم بالسابقين الأولين، وتارة بالإيواء والنصرة والإيمان، وتارة يصفهم بالفلاح، وتارة يثني على جهادهم وصبرهم وإيثارهم، وتارة يخبر بالرضا والتوبة عنهم.

وقد أشار إلى بعض أفعالهم وصفاتهم، ومنها: تبوءهم المدينة، وحبهم للمهاجرين، وإيثارهم إياهم، وسلامة صدورهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

وأشار إليهم في قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

فقوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: «وقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني: أهل مكة، قاله ابن عباس وسعيد بن المسيب والضحاك وقتادة والسدي وغير واحد، وقوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ أي: إن يكفر بهذه النعم من كفر بها من قريش وغيرهم من سائر أهل الأرض، من عرب وعجم، ومليين وكتابيين، فقد وكلنا بها قومًا آخرين، أي: المهاجرين والأنصار، وأتباعهم إلى يوم القيامة»[(١)].

وكذا قال البغوي: «أن المراد بقوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ يعني:

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ٢٦٨.

الأنصار وأهل المدينة»[1]. وقال القرطبي: «﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا﴾ جواب الشرط، أي: وكلنا بالإيمان بها ﴿قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ يريد الأنصار من أهل المدينة، والمهاجرين من أهل مكة»[2].

وقال الطبري بعد أن ذكر عدة أقوال في المراد بقوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾: «وأولى هذه الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قول من قال: عنى بقوله: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰؤُلَاءِ﴾ كفار قريش ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ يعني به: الأنبياء الثمانية عشر الذين سماهم الله تعالى ذكره في الآيات قبل هذه الآية، وذلك أن الخبر في الآيات قبلها عنهم مضى، وفي التي بعدها عنهم ذكر، فما بينها بأن يكون خبرًا عنهم، أولى وأحق من أن يكون خبرًا عن غيرهم»[3]. وعلى كل حال لا يوجد ما يمنع من دخول الأنصار في المراد من الآية، والله أعلم.

وأشير إليهم أيضًا في قوله تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ۚ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢].

أي: قواك بنصره، يريد: يوم بدر، وبالمؤمنين، قال النعمان بن بشير: نزلت في الأنصار ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٣].

أي: جمع بين قلوب الأوس والخزرج، وكانت تألف القلوب مع العصبية الشديدة في العرب من آيات النبي صلى الله عليه وسلم، ومعجزاته؛ لأن أحدهم كان يلطم اللطمة فيقاتل عليها حتى يستقيدها، وكانوا أشد خلق الله حمية، فألف الله بالإيمان بينهم، حتى قاتل الرجل أباه وأخاه بسبب الدين، وقيل: أراد التأليف بين المهاجرين والأنصار، والمعنى متقارب[4].

ونزل فيهم قوله -جل وعلا-: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٢].

فعن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: نزلت هذه الآية فينا: ﴿إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا﴾ قال: نحن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما أحب أنها لم تنزل، والله يقول: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾ وقال سفيان مرةً: وما يسرني أنها لم تنزل؛ لقول الله: ﴿وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا﴾[5].

«وقال الحسن البصري: هما طائفتان

(١) معالم التنزيل، البغوي ٣/ ١٦٦.
(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٧/ ٣٤.
(٣) جامع البيان، الطبري ١١/ ٥١٨.

(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٤٢.
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب قوله: (إذ همت طائفتان منكم)، ٥/ ٩٦، رقم ٤٠٥١ ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار، رضي الله عنهم، رقم ٢٥٠٥.

من الأنصار همتا بذلك، فعصمهما الله، وقيل: لما رجع عبد الله ابن أبي في أصحابه يوم أحد همت الطائفتان باتباعه، فعصمهما الله»[1].

والمقصود أن الله تبارك وتعالى بين في هذه الآيات فضائل الأنصار التي بيَّنَها القرآن الكريم، فقد نص على مجموعة من صفاتهم الحميدة، ومنها:

١ . سبق الأنصار إلى الإيمان والنصرة.

وصف الله الأنصار في القرآن الكريم بالسبق، فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحۡسَٰنٖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي تَحۡتَهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ذهب جمهور العلماء إلى أن السابقين في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾[التوبة: ١٠٠].

هم هؤلاء الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة»[2].

وبين ابن العربي رحمه الله الأمور التي يكون فيها السبق، فقال: «السبق يكون بثلاثة أشياء: الصفة، وهو الإيمان، والزمان، والمكان، وأفضل هذه الوجوه سبق الصفات، والدليل عليه قوله صلى الله عليه وسلم في الصحيح: (نحن الآخرون الأولون، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، وأوتيناه من بعدهم، فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فاليهود غدًا، والنصارى بعد غد)[3]»[4].

وقال الرازي: «اختلفوا في السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار من هم؟ وذكروا وجوهًا. . . »، ثم قال: «والصحيح عندي أنهم السابقون في الهجرة وفي النصرة، والذي يدل عليه أنه ذكر كونهم سابقين، ولم يبين أنهم سابقون في ماذا؟ فبقي اللفظ مجملًا، إلا أنه وصفهم بكونهم مهاجرين وأنصارًا، فوجب صرف ذلك اللفظ إلى ما به صاروا مهاجرين وأنصارًا، وهو الهجرة والنصرة، فوجب أن يكون المراد منه السابقون الأولون في الهجرة والنصرة؛ إزالة للإجمال عن اللفظ... ثم قال: و أيضًا فالسبق إلى الهجرة طاعة عظيمة من حيث إن الهجرة فعل شاق على النفس، ومخالف للطبع، فمن أقدم عليه أولًا صار

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ١/ ٤٤٩.
(٢) منهاج السنة النبوية ١/ ١٥٤.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجمعة، باب فرض الجمعة، ٢/ ٢، رقم ٨٧٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب هداية هذه الأمة ليوم الجمعة ٢/ ٥٨٥، رقم ٨٥٥.
(٤) أحكام القرآن، ابن العربي ٤/ ٤٠٦.

قدوة لغيره من هذه الطاعة، وكان ذلك مقويًا لقلب الرسول عليه الصلاة والسلام، وسببًا لزوال الوحشة عن خاطره، وكذلك السبق في النصرة، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام لما قدم المدينة، فلا شك أن الذين سبقوا إلى النصرة والخدمة، فازوا بمنصب عظيم»[(١)].

وما ذكر قبل من الأقوال هو من باب التمثيل، فيكون هذا من باب اختلاف التنوع، لا اختلاف التضاد؛ ولهذا قال الشوكاني رحمه الله: «ولا مانع من حمل الآية على هذه الأصناف كلها»[(٢)].

٢. رضوان الله عن الأنصار ورضاؤهم عنه.

أخبر سبحانه أنه رضي عن (المهاجرين والأنصار وعن أفعالهم، ورضوا عنه سبحانه؛ لما أجزل لهم من الثواب على طاعاتهم وإيمانهم به ويقينهم، فقال تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

فقوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ يعم الكل، قال الزجاج: رضي الله أفعالهم، ورضوا ما جازاهم به[(٣)] فحين ذكر سبحانه وتعالى الجزاء الذي أعده لهؤلاء، وحين كانت نفوسهم زاكية راقية؛ قابلوا الجزاء بالشكر، والتزود من الطاعة، فذكر سبحانه أنهم: ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ وهذا أرقى المراتب التي يسعى إليها المؤمنون، ويتنافس فيها المتنافسون، أن يرضى الله تعالى عنهم، ويرضيهم، يقول الطبري: «رضي الله عن جميعهم لما أطاعوه، وأجابوا نبيه إلى ما دعاهم إليه من أمره ونهيه، ورضي عنه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان لما أجزل لهم من الثواب على طاعتهم إياه، وإيمانهم به وبنبيه عليه السلام»[(٤)].

ففي هذه الآية إخبار بأن الله رضي عنهم ورضوا عنه، وفي هذا دليل على عدالتهم، ووجه الدلالة: أن الله تعالى أخبر فيها برضاه عنهم، ولا يثبت الله رضاه إلا لمن كان أهلًا للرضا، ولا توجد الأهلية لذلك إلا لمن كان من أهل الاستقامة في أموره كلها، عدلًا في دينه.

يقول ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عن رضاه عن السابقين من المهاجرين والأنصار، والتابعين لهم بإحسان، ورضاهم عنه بما أعد لهم من جنات النعيم، والنعيم المقيم»[(٥)].

ويقول أيضًا: «فقد أخبر الله العظيم أنه قد

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٢٧.
(٢) فتح القدير ٢/ ٥٧٧.
(٣) زاد المسير، ابن الجوزي ٣/ ٤٩١.
(٤) جامع البيان، ١٤/ ٤٣٩.
(٥) تفسير القرآن العظيم، ٤/ ٢٠٣.

رضي عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، فيا ويل من أبغضهم أو سبهم، أو أبغض أو سب بعضهم»[1].

وقال تعالى في جزاء هؤلاء السابقين: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

أي: وأعد لهم في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار، ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أي: مقيمين فيها من غير انتهاء، ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي: ذلك هو الفوز الذي لا فوز وراءه.

قال في البحر: لما بين تعالى فضائل الأعراب المؤمنين بين حال هؤلاء السابقين، ولكن شتان ما بين الثناءين، فهناك قال: ﴿أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ٩٩].

وهنا قال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ﴾ وهناك ختم ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩٩].

وهنا ختم: ﴿ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠][2].

وهذا الرضوان للأنصار، وما أعد لهم من الجنات والنعيم، هو جزاء ما قدموه لهذا الدين، وما تركوا من دورهم وأهليهم، وجزاء ما أعطوه للمهاجرين من أموالهم؛ لأن الهجرة أمر شاق على النفس، لمفارقة الأهل والعشيرة، والنصرة منقبة شريفة؛ لأنها إعلاء كلمة الله، ونصر رسوله وأصحابه، والإحسان من أحوال المقربين أو مقاماتهم.

وفي هذه الآية ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٠] فوائد:

الأولى: في الآية دليل على أن للصحابة مراتب، وأن الفضل للسابق إلى الإسلام والهجرة، وأن السابقين من الصحابة أفضل ممن تلاهم.

الثانية: قيل: المراد بالسابقين الأولين جميع المهاجرين والأنصار، فـ(من) بيانية؛ لتقدمهم على من عداهم، وقيل: بعضهم، وهم قدماء الصحابة و(من) تبعيضية، وقد اختار كثيرون الثاني، واختلفوا في تعيينهم.

الثالثة: تقديم المهاجرين؛ لفضلهم على الأنصار، كما ذكر في قصة السقيفة، ومنه علم فضل أبي بكر رضي الله عنه على من عداه؛ لأنه أول من هاجر معه صلى الله عليه وسلم[3].

الرابعة: وفيها دليل على تنزيل الناس منازلهم.

الخامسة: وفيها دليل على أن أفضلية العمل على قدر رجوع منفعته إلى الإسلام والمسلمين.

(١) المصدر السابق.
(٢) صفوة التفاسير، الصابوني ١/ ٣٧٤.
(٣) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٥٠.

السادسة: رضا الله عن السابقين من المهاجرين والأنصار، والمعنى: أنه رضي عنهم بما عملوه من الطاعات الخالصة له، ورضوا عنه بما جازاهم به مما لا يخطر لهم على بال، ولا تتصوره عقولهم، والرضا منه سبحانه هو أرفع درجات النعيم، وأعلى منازل الكرامة.

٣. حب الأنصار للمهاجرين.

قد شهد الله تعالى لهم بذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

فمن جملة أوصاف الأنصار الجميلة أنهم: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

وهذا لمحبتهم لله ولرسوله أحبوا أحبابه، وأحبوا من نصر دينه، وهذه المحبة هي آصرة أقوى من آصرة النسب، وأقوى من رابطة الدم؛ لأنها تجمع على الإيمان بالله واليوم الآخر؛ ولأنها تستل كل الأحقاد والضغائن من الصدور؛ ولأنها تجعل من محبة الفرد لأخيه المسلم طاعة يتقرب بها، وينال بها الأجر والثواب من الله عز وجل، ويحصل بها على المنازل الرفيعة في الآخرة.

وأن هذه الرابطة أقوى من رابطة الدم واللغة والمصالح الاقتصادية، والعلاقات المتبادلة، يقول سيد قطب في الكلام على هذه الآية: «وهذه كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار، هذه المجموعة التي تفردت بصفات، وبلغت إلى آفاق، لولا أنها وقعت بالفعل، لحسبها الناس أحلامًا طائرة، ورؤى مجنحة، ومثلًا عليا قد صاغها خيال محلق. . .، ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثًا جماعيًا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة؛ لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين»[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ الواو استئنافية و ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ مبتدأ، وخبره ﴿يُحِبُّونَ﴾ والجملة مستأنفة.

وقوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾ [الحشر: ٩].

خبر عن اسم الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ والمعنى: يحبونهم من حيث مهاجرتهم إليهم لمحبتهم الإيمان؛ قال ابن كثير: «أي: من كرمهم وشرف أنفسهم يحبون المهاجرين، ويواسونهم بأموالهم»[2].

وقوله: ﴿مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ أي: إلى المدينة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه حال الأنصار، فقلوبهم مملوءة

(١) في ظلال القرآن ٧/ ١٦٥.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٨/ ٦٩.

بالحب للمهاجرين، ولا يحملون في صدورهم شيئًا على إخوانهم المهاجرين؛ لكونهم فضلوا عليهم ببعض الفضائل.

قال القاسمي: وقوله: ﴿يُحِبُّونَ﴾ أي: لوجود الجنسية -أي المجانسة- في الصفاء، والموافقة في الدين والإخاء، قال الشهاب: المراد بمحبتهم المهاجرين هنا مواساتهم، وعدم الاستثقال والتبرم منهم، إذا احتاجوا إليهم، فالمحبة كناية عما ذكر[(١)].

ويقول العيني: «في قوله: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ [الحشر: ٩]، أي: من المسلمين، حتى بلغ من محبتهم أن نزلوا لهم عن نسائهم، وشاطروهم أموالهم ومساكنهم»[(٢)].

وفي مقابل هذا الحب منهم أحبهم المهاجرون، وأحبهم الرسول صلى الله عليه وسلم، حتى قال للأنصار: **(والذي نفسي بيده إنكم أحب الناس إلي)**[(٣)] مرتين.

بل جعل الرسول حبهم من دلائل الإيمان، كما في حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: **(آية الإيمان حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار)**[(٤)].

ففي هذا الحديث دلالة أن حب المؤمن لقبيلة الأنصار شعبة من شعب الإيمان، وعلامة عليه، فلا يحبهم إلا مؤمن، وأن بغضهم وكرههم شعبة من شعب النفاق والكفر، فلا يبغضهم إلا منافق.

وعن البراء قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله)**[(٥)].

وليس المراد بالبغض في هذا الحديث البغض الناتج من العداء الشخصي لأفرادهم، وإنما المراد بغضهم بسبب الصفة التي مدحوا بها، وهي نصرتهم للنبي صلى الله عليه وسلم، فمن أبغضهم من جهة هذه الصفة، وهي: كونهم نصروا رسول الله صلى الله عليه وسلم أثر ذلك في تصديقه، فيصح أنه منافق[(٦)].

---

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٢/ ٥٠.

(٢) عمدة القاري ٢٤/ ٤١١.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم للأنصار:(أنتم أحب الناس إلي)، ٥/ ٣٢، رقم ٣٧٨٦، ومسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل الأنصار، ٤/ ١٩٤٨، رقم ٢٥٠٨.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب علامة الإيمان حب الأنصار، ١/ ١٢، رقم ١٧، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق ١/ ٨٥، رقم ٧٤.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب حب الأنصار، ٥/ ٣٢، رقم ٣٧٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الدليل على أن حب الأنصار وعلي رضي الله عنهم من الإيمان وعلاماته، وبغضهم من علامات النفاق ١/ ٨٥، رقم ٧٥.

(٦) انظر: فتح الباري، ابن حجر ١/ ٦٣.



وكذلك الحب يقال فيه مثل ما يقال في البغض.

وهذا الحب من الأنصار لإخوانهم المهاجرين دافعه وجه الله تعالى، ومعرفتهم فضل الأخوة في الله، ومكانتها في الدين، فالأخوة في الله مبدأ عظيم من مبادئ الإسلام، يقوم عليه الولاء والبراء، والحب والبغض.

وتجلت هذه الأخوة في أبهى صورها، وأجمل حللها، في تلك المواقف السمحة التي عامل بها الأنصار إخوانهم المهاجرين، وهذا التآخي لم يكن مجرد شعار للمزايدة، ودغدغة العواطف، والالتفاف حول المعاني السامية بالأكاذيب والتدليس والتلبيس، لكنه معنى خالط قلوبهم ومشاعرهم، ولحمهم ودمهم، برز ذلك في سلمهم وحربهم، وفقرهم وغناهم، مستضعفين وممكن لهم، أفرادًا وجماعات.

وهذا الأنموذج من الأخوة الصادقة حرص النبي صلى الله عليه وسلم عليه وأكده، وكان من أوائل الأمور التي قام بها بعد وصوله المدينة أن آخى بين المهاجرين والأنصار؛ ليذهب عن المسلمين المهاجرين وحشة الغربة، ويؤنسهم عن مفارقة الأهل والعشيرة، ويشد بعضهم أزر بعض.

٤. الإيثار عند الأنصار.

الإيثار من أعظم الصفات التي اتصف بها المجتمع الإسلامي؛ ولهذا يقول بعض المفكرين: بأن كلمة الإيثار يصعب ترجمتها إلى لغات أخرى، أي: ليس لها مرادف في اللغات الأخرى مرادف يؤدي معناها، ويحقق كل معانيها، وكأن هذه الخصلة هي من الخصال التي أتى بها هذا الدين الحنيف، وزكى غرسها، وحث عليها، ودعا إليها.

وأعظم الناس إيثارًا في التاريخ الإسلامي هم الأنصار، فقد جاءهم المهاجرون إلى المدينة وهم لا يملكون من أمر الدنيا شيئًا، قد تركوا أموالهم وما يملكون خلف ظهورهم، وأقبلوا على ما عند الله عز وجل، يرجون رحمته، ويخافون عذابه، فاستقبلهم الأنصار الذين تبوءوا الدار، وأكرموهم أيما إكرام، ولم يبخلوا عليهم بشيء من حطام الدنيا، بل قاسموهم الأموال والمتاع، وشاطروهم بيوتهم وأرضهم وأموالهم، بطيب نفس، وسلامة صدر، في صورة يعجز عن وصفها اللسان، ويضعف عن تعبيرها البيان، وقابل المهاجرون هذا الإيثار الرائع بحسن الخلق والتعفف.

وقد امتدح الله جل وعلا خلق الإيثار عند الأنصار، فقال: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

ففي قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

أي: إن من أوصاف الأنصار التي فاقوا بها غيرهم، وتميزوا بها على من سواهم الإيثار، وهو أكمل أنواع الجود، وهو الإيثار بمحاب النفس من الأموال وغيرها، وبذلها للغير مع الحاجة إليها، بل مع الضرورة والخصاصة، وهذا لا يكون إلا من خلق زكي، ومحبة لله تعالى مقدمة على محبة شهوات النفس ولذاتها.

والمراد بقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ [الحشر: ٩].

أي: الأنصار، والإيثار لغة: مصدر من قولهم: آثره عليه يؤثره إيثارًا، بمعنى: فضله وقدمه، والمآثر: ما يروى من مكارم الإنسان، وفي التنزيل: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]. وآثر أن يفعل كذا: فضل وقدم، وضده الأثرة من قولهم: استأثر بالشيء انفرد به، أو اختص به نفسه.

واصطلاحًا: قال القرطبي: «الإيثار: هو تقديم الغير على النفس في حظوظها الدنيوية؛ رغبة في الحظوظ الدينية، وذلك ينشأ عن قوة اليقين، وتوكيد المحبة، والصبر على المشقة»[١].

وفي قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ [الحشر: ٩]. مفعول الإيثار محذوف، والتقدير: ويؤثرونهم بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم.

جاء في البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، أصابني الجهد، فأرسل إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **(ألا رجل يضيف هذه الليلة يرحمه الله)**، فقام رجل من الأنصار، فقال: أنا يا رسول الله، فذهب إلى أهله، فقال لامرأته: ضيف رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا تدخريه شيئًا، فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصبية، قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم، وتعالي فأطفئي السراج، ونطوي بطوننا الليلة، ففعلت، ثم غدا الرجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: **(لقد عجب الله عز وجل، أو ضحك من فلان وفلانة)**، فأنزل الله عز وجل: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][٢].

وفي رواية في البخاري أيضًا: **(ضحك الله الليلة، أو عجب من فعالكما)**، فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩][٣].

(١) الجامع لأحكام القرآن، ١٨/ ٢٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (ويؤثرون على أنفسهم)، ٦/ ١٤٨، رقم ٤٨٨٩.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب قوله: (ويؤثرون على أنفسهم)، ٥/ ٣٤، رقم ٣٧٩٨.

وجاء في سبب نزولها: أن رجلًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أهدي له رأس شاةٍ، فقال: إن أخي فلانًا وعياله أحوج إلى هذا، فبعث به إليه، فلم يزل يبعث به واحد إلى واحد، حتى تناولها سبعة أهل أبيات، حتى رجعت إلى أولئك، فنزلت هذه الآية.

وروي نحو هذه القصة عن أنس بن مالك قال: أهدي لبعض الصحابة رأس شاةٍ مشوي، وكان مجهودًا، فوجه به إلى جارٍ له فتناوله تسعة أنفس، ثم عاد إلى الأول، فنزلت هذه الآية[1].

وذكر ابن جزي في سبب نزولها قصة الفيء، فقال: «وروي أن سبب هذه الآية أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قسم هذه القرى على المهاجرين دون الأنصار، قال للأنصار: (إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم، وشاركتموهم في هذه الغنيمة، وإن شئتم أمسكتم أموالكم وتركتم لهم هذه)[2]، فقالوا: بل نقسم لهم من أموالنا، ونترك لهم هذه الغنيمة، وروي أيضًا أن سببها أن رجلًا من الأنصار أضاف رجلًا»[3]. وذكر القصة التي في البخاري.

وهذا ما رجحه الرازي، حيث قال: «وذكر المفسرون أنواعًا من إيثار الأنصار للضيف بالطعام، وتعللهم عنه حتى يشبع الضيف، ثم ذكروا أن الآية نزلت في ذلك الإيثار، والصحيح أنها نزلت بسبب إيثارهم المهاجرين بالفيء، ثم لا يمتنع أن يدخل فيها سائر الإيثارات»[4].

قوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩]. الخصاصة: هي الفقر[5].

والمعنى: ولو كان بهم حاجة وفاقة إلى ما آثروا به من أموالهم على أنفسهم، فبين أن هذا الإيثار ليس عن غنى، وعن المال، ولكنه عن حاجة وخصاصة، وهي: الفقر[6].

وهذا هو واقع الأنصار، فهم مع ما هم عليه من الخصاصة -وهي الفاقة والفقر-، ومع شدة احتياجهم وافتقارهم إلى ما في أيديهم، حيث أن المهاجرين كانوا أهل تجارة، وكانوا أهل ثراء في أوطانهم في مكة، بينما الأنصار كانوا في الحقيقة أهل زراعة، وما كانوا بالثراء الذي كان عليه أهل مكة؛ ولذلك عبر عنهم القرآن بهذا التعبير: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فلئن يقدم الإنسان حاجة غيره عليه وهو مستغنٍ عن تلك الحاجة فهذا لا يستغرب،

(١) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٤/ ٢٥٨.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٨/ ٢٥.
(٣) التسهيل لعلوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ٣٦٠.
(٤) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٨.
(٥) المصدر السابق.
(٦) انظر: المصدر السابق.

ومع ذلك فإن الله تعالى قد أمر به في كتابه الكريم، حينما قال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

أي: الزيادة، ما فضل عن نفقاتكم الضرورية اللازمة عليكم، لكن هذه المرتبة أعلى، وهي أن يجود الإنسان بما عنده لأخيه مع كونه محتاجًا إليه، شديد الاحتياج، شديد الرغبة فيه، فهذا المعنى هو الذي تتحدث عنه الآية.

وقوله: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

قال الرازي: «واعلم أن الفرق بين الشح والبخل هو أن البخل نفس المنع، والشح هو الحالة النفسانية التي تقتضي ذلك المنع، فلما كان الشح من صفات النفس لا جرم قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩]»[(١)].

ووقاية شح النفس يشمل وقايتها الشح في جميع ما أمر به، فإنه إذا وقي العبد شح نفسه سمحت نفسه بأوامر الله ورسوله، ففعلها طائعًا منقادًا منشرحًا بها صدره، وسمحت نفسه بترك ما نهى الله عنه وإن كان محبوبًا للنفس، تدعو إليه، وتطلع إليه، وسمحت نفسه ببذل الأموال في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، وبذلك يحصل الفلاح والفوز، بخلاف من لم يوق شح نفسه، بل ابتلي بالشح بالخير الذي هو أصل الشر ومادته.

فهذان الصنفان الفاضلان الزكيان هم الصحابة الكرام والأئمة الأعلام، الذين حازوا من السوابق والفضائل والمناقب ما سبقوا به من بعدهم، وأدركوا به من قبلهم، فصاروا أعيان المؤمنين، وسادات المسلمين، وقادات المتقين.

ووصف الله من يتصف بهذه الصفة بقوله: ﴿فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: الظافرون بما أرادوا، والمقصود بهم: الأنصار، ومن أتصف بهذه الصفات من غيرهم، والمفلحون: هم الفائزون بكل مطلوب، الناجون من كل مهروب، قال ابن كثير: أي: من سلم من الشح فقد أفلح وأنجح[(٢)].

«والفلاح: اسم لسعادة الدارين، والجملة اعتراض وارد لمدح الأنصار والثناء عليهم، فإن الأوصاف المذكورة في حقهم، فلهم جلائل الصفات، ودقائق الأحوال. . .، قال السهروردي في العوارف: السخاء صفة غريزية في مقابلة الشح، والشح من لوازم صفة النفس، حكم الله بالفلاح لمن يوقى الشح، أي: لمن أنفق وبذل، والنبي عليه الصلاة والسلام نبه بقوله: **(ثلاث مهلكات، وثلاث منجيات)** فجعل إحدى المهلكات

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٩/ ٥٠٨.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ٨/ ٧١.

(شحًا مطاعًا)[1] ولم يقل: مجرد الشح يكون مهلكًا، بل إنما يكون مهلكًا إذا كان مطاعًا، فأما كونه موجودًا في النفس غير مطاع لا ينكر ذلك؛ لأنه من لوازم النفس، مستمد من أصل جبلتها الترابي، وفي التراب قبض وإمساك، وليس ذلك بالعجب من الآدمي، وهو جبلي فيه، وإنما العجب وجود السخاء في الغريزة»[2].

وهكذا يصور القرآن الكريم هذا الوضع غير المسبوق في أبلغ عبارة وأجزلها، وتظهر الآيات الكريمة صدق الأخوة بين المهاجرين والأنصار، لا تلوثه أطماع، ولا حب دنيا، ولا أثرة، ولا شح أو حرص، ولا حاجة إنما هو أخوة تدور بين سلامة الصدر والإيثار، ولا شك أن المرء يقف مبهورًا أمام هذه الصورة الرائعة من الأخوة المتينة، والإيثار المتبادل، الذي لا نشهد له مثيلًا في تواريخ الأمم السابقة.

ولقد كان دافع الأنصار لهذا الإيثار هو رغبتهم فيما عند الله، وحبهم لإخوانهم المهاجرين؛ ولهذا صدر الله هذه الصفات للأنصار في هذه الآية بأنهم يحبون من هاجر إليهم، فالمحبة هي باعث هذا الإيثار؛ ولذلك لا يمكن أن تتصور الإيثار دون أن تتصور المحبة بين الناس، المحبة التي تنشأ في القلوب، ثم يتبع هذه المحبة رغبة صادقة في أن ينال الخير أخاك؛ ولذلك فلا يجد الواحد منهم غضاضة في نفسه أن يقدم إخوانه في الخير الذي لديه.

وكيف لا يؤثر الأنصار وقد بايعوا الرسول صلى الله عليه وسلم على الإيثار؟!

فقد جاء عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: **(بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله)**[3].

فالسمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره: لهم معه، ومع الأئمة بعده، والأثرة: عدم منازعة الأمر مع الأئمة بعده خاصة.

ولو ذهبنا نلتمس الأسباب وراء هذا الإخاء والحب والإيثار فلن نجد إلا مسبب الأسباب، وأن ذلك كان بفضل الله ورحمته، لا بصنع بشر وحكمته وسياسته، وصدق الله حيث قال: ﴿وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ﴾[الأنفال: ٦٣].

(١) أخرجه البزار في مسنده، رقم ٧٢٩٣ والطبراني في المعجم الأوسط ٥٧٥٤. وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب ٢/ ٣٥٦، رقم ٢٦٠٧.

(٢) روح البيان، إسماعيل حقي ٩/ ٣٥٣.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية ٣/ ١٤٧٠، رقم ١٧٠٩.

فلم يلتق النبي صلى الله عليه وسلم بالأنصار إلا في سويعات تحت جنح الليل، واكتفى فيها بعرض الإسلام، وأخذ العهود والمواثيق، ولم يطل لقاؤه معهم قبل الهجرة حتى يكون هذا الذي فعلوه بسبب تربية النبي إياهم، وطول تعهده لهم كما فعل تجاه المهاجرين حتى كون منهم رجالًا، فلم يكن بين دخول الأنصار الإسلام وقيامهم بهذه المآثر إلا أقل من عام.

فالأنصار قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، لقد فتحوا للمهاجرين قلوبهم قبل أن يفتحوا لهم بيوتهم، ووسعوهم بصدورهم قبل أن يسعوهم بأموالهم، وتسابقوا إلى لقائهم وإكرامهم، وضربوا في باب الإيثار، وسخاء النفس، وكرم الطبع مثلًا عليا، لا تزال تذكرها لهم الأجيال المتعاقبة، بالإكبار والإعظام.

٥. سلامة صدورهم.

أثنى الله على الأنصار بسبب سلامة صدورهم رضي الله عنهم، فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

فقوله: ﴿وَلَا يَجِدُونَ﴾ [الحشر: ٩]. الضمير في (يجدون) للأنصار، قال ابن العربي: «قال الخلق بأجمعهم: يريد بذلك الأنصار الذين آووا رسول الله صلى الله عليه وسلم حين طرد، ونصروه حين خذل، فلا مثل لهم، ولا لأجرهم»[(١)].

وقوله: ﴿حَاجَةً﴾ أي: حزازة وغيظًا وحسدًا، قال الشوكاني في فتح القدير: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا﴾ [الحشر: ٩]. «أي: لا يجد الأنصار في صدورهم حسدًا وغيظًا وحزازة»[(٢)].

وفي الكلام مضاف محذوف: أي لا يجدون في صدورهم مس حاجة، أو أثر حاجة، وكل ما يجده الإنسان في صدره مما يحتاج إليه فهو حاجة[(٣)].

وقوله: ﴿مِّمَّآ أُوتُوا﴾ أي: مما أعطوا، والضمير للمهاجرين، والمراد (فيما أوتوه) هو مال الفيء، حيث قسم النبي صلى الله عليه وسلم أموال بني النضير بين المهاجرين، ولم يعط من الأنصار غير ثلاثة نفر، كانت بهم حاجة، فطابت أنفس الأنصار بتلك القسمة، أو يكون المراد (فيما أوتوه) هو: الفضل والتقدم[(٤)].

قال شيخ الإسلام في الفتاوى: «وبهذا أثنى الله تعالى على الأنصار، فقال: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

(١) أحكام القرآن، ابن العربي ٧/ ٣٠٨.
(٢) فتح القدير ٥/ ٢٠١
(٣) المصدر السابق ٥/ ٢٨٢.
(٤) انظر: زاد المسير، ابن الجوزي ٨ / ٢١٢.

أي: مما أوتي إخوانهم المهاجرون، قال المفسرون: لا يجدون في صدورهم حاجة أي: حسدًا وغيظًا، مما أوتي المهاجرون، ثم قال بعضهم: من مال الفيء، وقيل: من الفضل والتقدم»[1].

يعني: لا يحسدون المهاجرين على ما خصوا به من مال الفيء وغيره، ويحتمل أن يريد به: ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا إذا كان قليلًا، بل يقنعون به، ويرضون عنه، وقد كانوا على هذه الحال حين حياة النبي صلى الله عليه وسلم، ثم كانوا عليه بعد موته صلى الله عليه وسلم.

وقد أنذرهم النبي صلى الله عليه وسلم قائلًا: (سترون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض)[2][3].

فالأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما خصص به المهاجرون من الفيء، ولا يحسدونهم على ذلك، ولا يعترضون بقلوبهم على حكم الله بتخصيص المهاجرين حتى لو كانت بهم حاجة، أو اختلال أحوال[4].

وعلى هذا ففي الآية بيان حال الأنصار، وأنهم لا يحسدون المهاجرين على ما آتاهم الله من فضله، وخصهم به من الفضائل والمناقب التي هم أهلها، وهذا يدل على سلامة صدورهم، وانتفاء الغل والحقد والحسد عنهم.

ويدل ذلك أيضًا على أن المهاجرين أفضل من الأنصار؛ لأن الله قدمهم بالذكر، وأخبر أن الأنصار لا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا، فدل على أن الله تعالى آتاهم ما لم يؤت الأنصار ولا غيرهم؛ لأنهم جمعوا بين النصرة والهجرة.

ثانيًا: أبرز أعمال الأنصار:

الأنصار: ما أجملها من كلمة! إنها كلمة تحمل معاني شريفة جليلة، اتصف بها قوم ضرب بهم المثل في الكمال الإنساني، إنها علمٌ على قوم عملوا أعمالًا استحقوا بها أن يكونوا من أنصار الرسول الكريم.

ومن أبرز هذه الأعمال:

١. الإيواء والنصرة.

لما هاجر المسلمون من مكة هجروا المحبوبات والمألوفات من الديار والأوطان والأحباب والخلان والأموال، وتجردوا من كل شيء إلا من الإيمان؛ رغبةً

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ١٠/ ١١٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الجزية، باب ما أقطع النبي صلى الله عليه وسلم من البحرين، وما وعد من مال البحرين والجزية، ولمن يقسم الفيء والجزية ٤/ ٩٨، رقم ٣١٦٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب الأمر بالصبر عند ظلم الولاة واستئثارهم ٣/ ١٤٧٤، رقم ١٨٤٥.

(٣) أحكام القرآن، ابن العربي ٧/ ٣١٠.

(٤) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٥٦١.

في الله، ونصرةً لدين الله، ومحبةً لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فوصلوا إلى أرضٍ جديدة، وواقعٍ مختلف، وكان من أثر هذه الرحلة نشوء عدد من المشكلات الجديدة، ليس أقلها: الشعور بالغربة، ومفارقة الأهل والديار، وترك معظم الأموال والممتلكات في مكة، وطبيعة الوضع المعيشي والاقتصادي الجديد، أضف إلى ذلك الآثار الصحية والبدنية التي أحدثها الانتقال المفاجئ إلى بيئةٍ أخرى؛ مما أدى إلى ظهور الأمراض في صفوفهم كالحمى وغيرها، كل هذا ترك في أنفسهم وحشة وغربة، حتى أصبح وضعهم يحتاج إلى حل عاجل وسريع.

فترجم الأنصار ما تعاقدوا عليه من أقوال في البيعتين إلى جملة أفعال، حيث فتح الأنصار أبواب بيوتهم وقلوبهم، واستعدوا لاحتضان من جاءهم مهاجرًا تحت ظاهرة عظيمة من التكافل الاجتماعي، فحوى المسكن الواحد تحت سقفه الأنصاري والمهاجر، وهم يتقاسمون كل شيء المسكن والمال والطعام.

فلم يعرف تاريخ البشرية حادثًا جماعيًا كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم، وبهذا البذل السخي، وبهذه المشاركة الرضية، وبهذا التسابق إلي الإيواء، واحتمال الأعباء، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجر في دار أنصاري إلا بقرعة؛ لأن عدد الراغبين في الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين، وهم لا يجدون في أنفسهم شيئًا من حسد، أو ضيق من هذا، والإيثار على النفس مع الحاجة قيمة عليا، وقد بلغ بها الأنصار مبلغًا لم تشهد له البشرية نظيرًا.

وهنا ظهر دور الأنصار الذين أبدوا من التضحية وضروب الإيثار ما استحق التخليد في كتاب الله.

قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٢].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فجمع الله تعالى في هاتين الآيتين الذين كانوا دعامة الإسلام، وعليهم هدى الرسول قام بنيانه، وشيدت أركانه، وهم المهاجرون والأنصار، فالمهاجرون ابتدأ بهم تكوين الجماعات الأولى التي صبرت وصابرت، وتلقت الصدمة الأولى من المشركين.

والأنصار وهم الذين آووا ونصروا، وأعزوا كلمة التوحيد، وأغلوها وأعلوها، فإذا كان المهاجرون هم الذين أظلوا شجرة

الإسلام ابتداءً، فالأنصار هم الذين حموا ثمرتها، وقامت دولة الإسلام في أرضهم وحراستهم، وإذا كان المهاجرون قد لاقوا العنت في مكة فقد لقوا الإيواء في المدينة.

وإذا كانوا هم دعامة الإسلام فالأنصار دولته، وفي رحابهم قامت المدينة الفاضلة التي أقامها محمد صلى الله عليه وسلم في ديارهم، وإذا كان المهاجرون قد جاهدوا ابتداءً بالصبر والمصابرة، فقد كان جهادهم في المدينة مع إخوانهم الأنصار بذلك وبالقتال في المدينة، والفريقان اختارهم الله للتأليف حتى تكونت منهم أطهر جماعة رأتها الإنسانية وأقواها.

فبعد أن ذكر الله تعالى هنا في الآيتين الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، عقب بذكر الأنصار، وهم الذين آووا ونصروا.

فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَاوَوا﴾ [الأنفال: ٧٤].

المراد: بهم الأنصار، أي: وطنوا المهاجرين، وأنزلوهم منازلهم، وبذلوا إليهم أموالهم، وآثروهم على أنفسهم، ونصروهم على أعدائهم[(١)].

فإذا كانوا قد نقصوا عن إخوانهم -المهاجرين- فضل الهجرة، فقد عوضوا عن ذلك بفضل الإيواء والنصرة[(٢)].

حيث استقبل الأنصار المهاجرين، فشاطروهم المال والديار؛ بكرم وسخاء، وضربوا مثلًا رائعًا في التكافل، وبناء الجماعة المسلمة، وآووا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومنعوه من الأحمر والأسود، وتبوءوا دار الهجرة والإيمان، حتى صارت موئلًا ومرجعًا يرجع إليه المؤمنون، ويلجأ إليه المهاجرون، ويسكن بحماه المسلمون؛ إذ كانت البلدان كلها بلدان حرب وشرك وشر.

فلم يزل أنصار الدين يأوون إلى الأنصار، حتى انتشر الإسلام وقوي، وجعل يزيد شيئًا فشيئًا، وينمو قليلًا قليلًا، حتى فتحوا القلوب بالعلم والإيمان والقرآن، والبلدان بالسيف والسنان.

وقوله في الآية: ﴿وَنَصَرُوٓا﴾ أي: نصروا الرسول وأصحابه على أعدائهم الكفار، وما سموا بالأنصار إلا لذلك؛ ولقد قال حسان رضي الله عنه في مدح الأنصار أنهم ما سموا أنصارًا إلا لنصرتهم الدين[(٣)]:

سماهم الله أنصارًا بنصرهم
دين الهدى وعوان الحرب تستعر
وسارعوا في سبيل الله واعترفوا
للنائبات وما خافوا وما ضجروا

وقد ذكر الله تعالى هذه الصفة وهي (النصرة) في آيتين، فقال: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) محاسن التأويل، القاسمي ٢٣/ ٢.
(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة ١/ ٣٢٠١.
(٣) انظر: ديوان حسان بن ثابت ص٩٩.

﴿وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]. وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢].

والنصرة في المدلول القرآني واللغوي والتاريخي بمعنى: العون، والظفر، والمنع، والانتقام، والانتصار، وشد الأزر، ولقد شرف الله سبحانه وتعالى المسلمين الأول بشرف لا يدانيه شرف، حيث أجزل لهم الثواب، وأحسن لهم المدح والثناء في أعظم كتاب، وخص كلًّا من الفريقين المتآخيين (المهاجرين والأنصار) بعمل عظيم جليل، ناداهم به فسموا مهاجرين وأنصارًا، وما ذلك إلا للهجرة والنصرة، فالهجرة كانت إعلانًا للدولة، وانتقالًا لدار الإسلام، والنصرة هي التي هيأت للهجرة ولوجود دار الإسلام، فكيف يغفل أحد من المسلمين عن فضل الهجرة أو النصرة، وهو يتلو كتاب الله الذي يذكر المهاجرين والأنصار وفضلهما؟!

وكانت هذه النصرة وفاء منهم لمبايعة النبي صلى الله عليه وسلم لهم في بيعة العقبة الثانية، حيث ثبت أنه قال لهم: (أبايعكم على أن تمنعوني -إذا قدمت عليكم- مما تمنعون منه نساءكم، وأبناءكم، ولكم الجنة)[1].

فبايعوه على النصرة والمنعة، فقام منهم اثني عشر نقيبًا كفلاء على قومهم، ثم استمر الحال حتى أذن الله للمسلمين بالهجرة، وقامت أول دولة للمسلمين[2].

ونلحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يطلب النصرة لأمرين مهمين في غاية الأهمية:

أولهما: حماية الدعوة، حتى تسير بين الناس محمية الجانب، بعيدة عن الإساءة إلى أتباعها.

ثانيهما: إيجاد مكان آمن لدولته صلى الله عليه وسلم القادمة؛ ليتسلم خلالها مقاليد الحكم والسلطان على وفق مقتضيات النبوة على أساس الدعوة.

وختم الله تعالى الآية الأخرى بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[الأنفال: ٧٢]]. أي: إن هاتين الفرقتين (المهاجرين والأنصار) بعضهم أنصار بعض، وأعوان على من سواهم من المشركين، وأيديهم واحدة على من كفر بالله، وبعضهم إخوان لبعض دون أقربائهم الكفار.

وقد قيل: إنما عنى بذلك أن بعضهم أولى بميراث بعض، وأن الله ورث بعضهم من بعض بالهجرة والنصرة دون القرابة

(١) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٥/ ٩٢، رقم ١٥٧٨٩.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ٢/ ١٩٧-٢٠٩.

والأرحام، وأن الله نسخ ذلك بعد، بقوله: ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] وهذا القول لابن عباس رضي الله عنه[(١)].

قال الشوكاني: «أي: بعضهم أولياء بعض في النصرة والمعونة، وقيل المعنى: إن بعضهم أولياء بعض في الميراث، وقد كانوا يتوارثون بالهجرة والنصرة، ثم نسخ ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأنفال: ٧٥]»[(٢)].

فالولاية محبة ومودة ومناصرة، وقد اجتمعت كل هذه الأحوال في ولاية المؤمنين المهاجرين والأنصار، فقد اجتمعت فيهم المودة فتوادوا وتحابوا، وتناصروا وجاهدوا جميعًا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، ولقد جمعت المؤاخاة معنى المودة والمحبة والإيثار، وجمع الجهاد معنى النصر والتبعات بالجهاد في سبيل الله[(٣)].

وقد ذكر الله بعد ذلك شأن الذين يهاجرون ويؤمنون من بعد، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا مَعَكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُوْلُوا ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [الأنفال: ٧٥].

فهذا يدل على أن باب الإيمان مفتوح، وباب الهجرة مفتوح، وميدان الجهاد متسع للجميع، فلم يغلق على المجاهدين الأولين من المهاجرين والأنصار فقط، بل هو مفتوح، وهذه الآية الكريمة تلحق الذين يؤمنون من بعد ويهاجرون بالأولين الذين هم المؤمنون حقًا.

وإذا كان هذا الوصف (النصرة) في الأنصار، فالمهاجرون من باب أولى، فهم أنصار في المعنى، فمعنى النصرة حاصل للكل، ومن الكل، فهم قد هجروا ديارهم وأموالهم، كما قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ [الحشر: ٨].

وأثنى عليهم بأنهم يطلبون فضلًا من الله ورضوانًا، فقال: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ وأثبت لهم صفة النصرة، فقال: ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ وأثنى عليهم بالصدق، فقال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ فرضي الله عن المهاجرين والأنصار ومن تبعهم بإحسان.

---

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ٥١، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ٩٥.
(٢) فتح القدير ٢/ ٤٧٨.
(٣) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٦/ ٣٢٠٢.

فضائل الأنصار

عرض القرآن الكريم فضائل الأنصار وهذا ما سنبينه فيما يأتي:

أولًا: وصفهم بالإيمان الحق:

وصف الله تعالى الأنصار بالإيمان الحق، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَٰهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَاوَوا وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤].

فقوله: ﴿وَّنَصَرُوٓا أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ الإشارة إلى السابقين الأولين (من المهاجرين والأنصار) والإشارة إلى الموصوف إشارة إلى أوصافه، وجعلها مناط الحكم، أي: أولئك الذين هاجروا بعد الإيمان، وجاهدوا في سبيل الله، والذين آووا ونصروا هم المؤمنون حقًّا، أي: إيمانًا ثابتًا صادقًا حقًّا، تلاقت أقوالهم وقلوبهم وأعمالهم[(١)].

فسبق منهم هجرة وجهاد، وإيواء ونصرة، وهذا هو الإيمان الحق، وفي الكلام قصر، أي: من كانوا على هذه الصفات هم وحدهم المؤمنون حقًّا، أي: لا مؤمنون حقًّا غيرهم، ومن هم على صفاتهم.

وفي هذه الآية وصفٌ لعموم المهاجرين والأنصار بالإيمان الحق، فجمع الله فيها الفضل لفريقي الصحابة، وهم المهاجرون والأنصار، من هاجر، ومن آوى، فاستوى الأنصار مع المهاجرين في عامل النصرة، وفي صدق الإيمان، فشهد لهم بحقيقة الإيمان، ووعدهم بالمغفرة والرزق الواسع، ومن شهد الله له بهذه الشهادة، فقد بلغ أعلى مرتبة العدالة.

ثم قال: ﴿لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٤]. ذكر الله تعالى هنا ما كتب لهم من خيري الدنيا والآخرة، وهذا يتضمن جزاءين:

أولهما: المغفرة السابقة، ووراءها الرحمة والنعيم المقيم.

ثانيهما: رزق كريم واسع في الدنيا بعد المشقة التي تحملوها، وهذا شأن المهاجرين الذين آمنوا، وشأن الأنصار الذين آووا ونصروا[(٢)].

فيكون الله قد أثنى عليهم ها هنا من ثلاثة أوجه:

أولها: قوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ فقوله: ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ يفيد الحصر، وقوله: ﴿حَقًّا﴾ يفيد المبالغة في وصفهم بكونهم محقين محققين في طريق الدين، وقد كانوا كذلك؛ لأن من لم يكن محقًّا في دينه لم يتحمل ترك الأديان السالفة، ولم يفارق الأهل والوطن، ولم

---

(١) المصدر السابق ٦/ ٣٢٠٦.

(٢) انظر: المصدر السابق ٦/ ٣٢٠٩.

يبذل النفس والمال، ولم يكن في هذه الأحوال من المسارعين المسابقين.

وثانيها: قوله: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ والتنكير يدل على الكمال، أي: مغفرة تامة كاملة.

وثالثها: قوله: ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ والمراد منه: الثواب الرفيع الشريف[1].

وعن السائب بن يزيد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (يا معشر الأنصار، ألم يمن الله عليكم بالإيمان، وخصكم بالكرامة، وسماكم بأحسن الأسماء: أنصار الله، وأنصار رسوله؟!)[2].

فالأنصار إذن حازوا شرفين: شرف سبقهم إلى الإيمان، وشرف استضافتهم للإيمان وأهله في أرضهم.

ومدحهم بأنهم أناس سكنوا الإيمان، وسكن الإيمان في قلوبهم، فقال: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩].

فقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ الأظهر أن (الذين) هنا عطف على (المهاجرين) -في الآية السابقة-، أي: والذين تبوءوا الدار هم الأنصار[3].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُو﴾ من مادة (بواء) على وزن (دواء) وهي في الأصل بمعنى تساوي أجزاء المكان، وبعبارة أخرى يقال: (بواء) لترتيب وتسوية مكان (ما) وفي هذا التعبير كناية لطيفة لهذا المعنى، وهو أن طائفة الأنصار -أهل المدينة- قد هيئوا الأرضية المناسبة للهجرة.

وقوله: ﴿الدَّارَ﴾ الدار تطلق على البلاد، وأصلها: موضع القبيلة من الأرض، وأطلقت على القرية.

قال تعالى في ذكر ثمود: ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

أي: في مدينتهم، وهي حجر ثمود، والتعريف هنا للعهد؛ لأن المراد بالدار: المدينة النبوية، والمعنى: الذين هم أصحاب الدار[4]، أي: دار الهجرة مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد تبوأها الأنصار قبل المهاجرين، كما تبوءوا فيها الإيمان، وكأنه منزل لهم ودار، وهو تعبير ذو ظلال، وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان، لقد كان دارهم ونزلهم ووطنهم الذي تعيش فيه قلوبهم، وتسكن إليه أرواحهم، ويثوبون إليه، ويطمئنون له، كما يثوب المرء ويطمئن إلى الدار.

وفي قوله: ﴿الدَّارَ﴾ هذا تشريف للمدينة، حيث سماها الله الدار، فكأنها هي دار الإيمان؛ لأن الإيمان أوى إليها، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الإيمان ليأرز إلى المدينة كما تأرز الحية إلى

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ١٥/ ٥١٩.
(٢) أخرجه الطبراني في الكبير ٧/ ١٥١، رقم ٦٦٦٥.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٩٠.
(٤) المصدر السابق.

جحرها)[١].

فالتعريف في ﴿ٱلدَّارَ﴾ للتنويه كأنها الدار التي تستحق أن تسمى دارًا، وهي التي أعدها الله تعالى لهم؛ ليكون تبوؤهم إياها مدحًا لهم.

وذكر بعضهم أن الدار علمٌ بالغلبة على المدينة، كالمدينة، وأنه أحد أسمائها، ومنها: طيبة، وطابة، ويثرب، وجابرة[٢].

وفي ذكر الدار -وهي المدينة- مع ذكر الإيمان إيماء إلى فضيلة المدينة، بحيث جعل تبوؤهم المدينة قرين الثناء عليهم بالإيمان، ولعل هذا هو الذي عناه مالك -رحمة الله- فيما رواه عنه ابن وهب قال: سمعت مالكًا يذكر فضل المدينة على غيرها من الآفاق، فقال: إن المدينة تبوأت بالإيمان والهجرة، وإن غيرها من القرى افتتحت بالسيف. ثم قرأ: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ٩] الآية[٣].

وجاء عنه صلى الله عليه وسلم: (أمرت بقرية تأكل القرى)[٤].

والمقصود: المدينة، أي: يغلب أهلها، وهم الأنصار بالإسلام على غيرها من القرى، وينصر الله دينه بأهلها، ويفتح القرى عليهم، ويغنمهم إياها فيأكلونها[٥].

وقوله: ﴿وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ [الحشر: ٩] أي: سكنوا الإيمان، والإيمان لا يسكن، وإنما شبه الإيمان كأنه دار سكنوها؛ لأن الدار يستقر فيها الإنسان، فهؤلاء الأنصار سكنوا الإيمان، بمعنى: استقر الإيمان في قلوبهم، والإنسان يلازم داره، بمعنى: يستقر ويطمئن ويستريح فيه، وهؤلاء لازموا الإيمان كملازمة الإنسان لمسكنه، وهذه شهادة لهم بالإيمان -رضي الله تعالى عنهم-، فهم مؤمنون صادقون، استقر الإيمان في قلوبهم.

قال ابن جزي: «فإن قيل: كيف قال: تبوءوا الدار والإيمان، وإنما تتبوأ الدار، أي: تسكن ولا يتبوأ الإيمان؟

فالجواب من وجهين:

الأول: أن معناه تبوءوا الدار، وأخلصوا الإيمان، فهو كقولك:

علفتها تبنًا وماء باردًا[٦].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب الإيمان يأرز إلى المدينة ٣/ ٢١، رقم ١٨٧٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا، وأنه يأرز بين المسجدين ١/ ١٣١، رقم ١٤٧.

(٢) روح المعاني، الألوسي ٢٠/ ٤٢٥.

(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٢٨/ ٩١.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل المدينة، باب فضل المدينة وأنها تنفي الناس ٣/ ٢٠، رقم ١٨٧١، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب المدينة تنفي شرارها، ٢/ ١٠٠٦، رقم ١٣٨٢.

(٥) انظر: النهاية في غريب الأثر، ابن الأثير ١/ ١٤٤.

(٦) البيت في خزانة الأدب ٣/ ١٣٩، وفي العباب الزاخر ١/ ٤٨١، وتمامه: «حتى شتت همالةً

تقديره: علفتها تبنًا، وسقيتها ماء باردًا.

والثاني: أن المعنى: أنهم جعلوا الإيمان كأنه موطن لهم؛ لتمكنهم فيه، كما جعلوا المدينة كذلك»[1].

فيكون في عطف الإيمان على الدار ستة أوجه:

أحدها: أنه ضمن ﴿تَبَوَّءُو﴾ معنى: لزموا، فيصح عطف الإيمان عليه؛ إذ الإيمان لا يتبوأ.

الثاني: أنه منصوب بمقدر، أي: واعتقدوا، أو وألفوا، أو وأحبوا، أو وأخلصوا؛ كقوله:

علفتها تبنًا وماءً باردًا

وقوله:

متقلدًا سيفًا ورمحا[2]

أي: وحاملًا رمحًا.

الثالث: أنه يتجوز في الإيمان، إن الإيمان مجاز عن المدينة، سمي محل ظهور الشيء باسمه مبالغة، فيجعل اختلاطه بهم وثباتهم عليه كالمكان المحيط بهم، فكأنهم نزلوه، وعلى هذا فيكون جمع بين الحقيقة والمجاز في كلمة واحدة، وفيه خلاف مشهور.

الرابع: أن يكون الأصل: دار الهجرة ودار الإيمان، فأقام (لام) التعريف في (الدار) مقام المضاف إليه، وحذف المضاف من دار الإيمان، ووضع المضاف إليه مقامه.

الخامس: أن يكون سمى (المدينة)؛ لأنها دار الهجرة ومكان ظهور الإيمان.

السادس: أنه منصوب على المفعول معه (الواو للمعية) أي: مع الإيمان معًا، والمراد تبوءوا الدار مع إيمانهم، أي: تبوءوها مؤمنين[3].

والضمير في قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الحشر: ٩].

للمهاجرين، والجار متعلق بتبوء، أي: من قبل أن يهاجر المهاجرون إليهم، وقد أسلم كثير من الأنصار قبل المهاجرين، لكن المقصود -والله وأعلم- بقوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الحشر: ٩] أي: من قبل أن يهاجر المهاجرون، وأن الأنصار أسلم كثير من كبارهم وسادتهم على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه قبل أن يهاجر كثير من المهاجرين -رضي الله تعالى عنهم-، وقبل أن تصبح المدينة دار الهجرة التي أوى إليها النبي عليه الصلاة والسلام، فكثير من الأنصار كان قد أسلم، ودخل الإيمان في قلوبهم، واستقر على يد مصعب بن عمير رضي الله عنه، فهو من فتح الله به المدينة

عيناها».

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ٣/ ١٥٧.

(٢) البيت في الكامل في اللغة ١/ ٢٩١ وشرح ديوان الحماسة ص ٨٠٥ غير منسوب لقائل، وصدره: «يا ليت بعلك قد غدا».

(٣) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٥/ ٢٠١.

المنورة بدعوته إلى الله، وسلوكه الطيب، حتى ما بقي بيت من بيوت المدينة إلا ودخله الإيمان.

وقد أورد ابن جزي إشكالًا، وأجاب عليه، حيث قال: «فإن قيل: قوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الحشر: ٩].

يقتضي أن الأنصار سبقوا المهاجرين بنزول المدينة وبالإيمان، فأما سبقهم لهم بنزول المدينة فلا شك فيه؛ لأنها كانت بلدهم، وأما سبقهم لهم بالإيمان فمشكل؛ لأن أكثر المهاجرين أسلم قبل الأنصار.

قال: والجواب من وجهين:

أحدهما: أنه أراد بقوله: ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ [الحشر: ٩] من قبل هجرتهم.

والآخر: أنه أراد تبوءوا الدار مع الإيمان معًا، أي: جمعوا بين الحالتين قبل المهاجرين؛ لأن المهاجرين إنما سبقوهم بالإيمان لا بتبوء الدار، فيكون الإيمان على هذا مفعولًا معه، وهذا الوجه أحسن؛ لأنه جواب عن هذا السؤال، وعن السؤال الأول فإنه إذا كان الإيمان مفعولًا معه لم يلزم السؤال الأول؛ إذ لا يلزم إلا إذا كان الإيمان معطوفًا على الدار»(١).

وجعل الألوسي ذلك من قبل تقدير مضاف، حيث قال: «والكلام بتقدير مضاف، أي: من قبل هجرتهم، فنهاية ما يلزم سبق الإيمان الأنصار على هجرة المهاجرين، ولا يلزم منه سبق إيمانهم على إيمانهم؛ ليقال: إن الأمر بالعكس، وجوز أن لا يقدر مضاف، ويقال: ليس المراد سبق الأنصار لهم في أصل الإيمان، بل سبقهم إياهم في التمكن فيه؛ لأنهم لم ينازعوا فيه لما أظهروه.

وقيل: الكلام على التقديم والتأخير، والتقدير: تبوءوا الدار من قبلهم والإيمان، فيفيد سبقهم إياهم في تبوء الدار فقط، وهو خلاف الظاهر، على أن مثله لا يقبل ما لم يتضمن نكتة سرية، وهي غير ظاهرة ها هنا؛ وقيل: لا حاجة إلى شيء مما ذكر، وقصار ما تدل الآية عليه تقدم مجموع تبوء الأنصار وإيمانهم على تبوء المهاجرين وإيمانهم، ويكفي في تقديم المجموع تقدم بعض أجزائه، وهو ها هنا تبوء الدار، وتعقب بمنع الكفاية، ولو سلمت لصح أن يقال: بتقدم تبوء المهاجرين وإيمانهم على تبوء الأنصار وإيمانهم؛ لتقدم إيمان المهاجرين»(٢).

ووصف الله الأنصار أيضًا بالإيمان والاستجابة لله، كما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمۡ﴾ [الشورى: ٣٨].

أنها نزلت في الأنصار، حين دعاهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى الإيمان، فاستجابوا

(١) التسهيل لعلوم التنزيل، ٣/ ١٥٧.

(٢) روح المعاني، ٢٠/ ٤٢٥.

له؛ أي: لرسول الله من صميم القلب، كما هو المفهوم من إطلاق الاستجابة، وفيه إشارة إلى أن الاستجابة للرسول استجابة للمرسل، فهو من عطف الخاص على العام لمزيد التشريف، وذلك لأن الاستجابة داخلة في الإيمان[1].

قال الألوسي: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

قيل: نزلت في الأنصار، دعاهم الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم للإيمان به وطاعته سبحانه، فاستجابوا له، فأثنى عليهم -جل وعلا- بما أثنى، وعليه فهو من ذكر الخاص بعد العام؛ لبيان شرفه؛ لأيمانهم دون تردد وتلعثم، والآية إن كانت مدنية فالأمر ظاهر، وإذا كانت مكية فالمراد بالأنصار من آمن بالمدينة قبل الهجرة، أو المراد بهم أصحاب العقبة[2].

وقال الشوكاني: «قال ابن زيد: هم الأنصار بالمدينة استجابوا إلى الإيمان بالرسول حين أنفذ إليهم اثني عشر نقيبًا منهم قبل الهجرة، وأقاموا الصلاة لمواقيتها بشروطها وهيئاتها»[3].

ووصف الله الأنصار بالإيمان والعمل الصالح، كما جاء عن ابن عباس في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [محمد: ١]. قال: هم أهل مكة، ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [محمد: ٢]. قال: هم أهل المدينة الأنصار ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢]. قال: أمرهم[4].

ووصفوا بأنهم رجال؛ وسماهم الله رجال، فقال: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

فقد جاء ما يدل أنها نزلت في الأنصار، فعن أبي أيوب وجابر وأنس رضوان الله عليهم أن هذه الآية حين نزلت: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ [التوبة: ١٠٨].

قال النبي صلى الله عليه وسلم: **(يا معشر الأنصار إن الله قد أثنى عليكم في الطهور، فما طهوركم؟) قالوا: نتوضأ للصلاة، ونغتسل من الجنابة، ونستنجي بالماء، قال: (فهو ذاك، فعليكموه)**[5].

وعن موسى بن أبي كثير قال: بدء حديث هذه الآية في رجال من الأنصار، من أهل قباء[6].

(١) روح البيان، إسماعيل حقي ٨/ ٢٥٣.
(٢) روح المعاني ٢٥/ ٤٦.
(٣) فتح القدير ٤/ ٧٦٩.
(٤) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٤٧.
(٥) أخرجه ابن ماجه في كتاب الطهارة وسننها، باب الاستنجاء بالماء ١/ ١٢٧، رقم ٣٥٥ وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه، ١/ ٦٣.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٤/ ٤٨٨.

وقوله: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ [التوبة: ١٠٨].

أي: من الأحداث والجنابات والنجاسات...، وقالوا: المراد منه: الطهارة بالماء بعد الحجر، وقيل: المراد منه: الطهارة من الذنوب والمعاصي، وقيل: محمول على الأمرين[١].

فتكون جملة: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا﴾ ثناء على مؤمني الأنصار الذين يصلون بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبمسجد قباء، وجاء الضمير مفردًا مراعاة للفظ (مسجد) الذي هو جنس[٢].

ثانيًا: توبة الله على الأنصار، وتجاوزه عن تقصيرهم:

قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧].

نزلت هذه الآية في غزوة تبوك التي كانت قبل الشام، وكان فيها جيش العسرة من المهاجرين والأنصار، ومن غيرهم من القبائل التي حول المدينة ومكة، ولكنهم خصوا بالثناء والتوبة؛ لأنهم لم يترددوا، ولم يتثاقلوا، ولا شحوا بأموالهم، فكانوا أسوة لمن ائتسى بهم من غيرهم من القبائل[٣].

ففي قوله: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ خبر مؤكد بلام القسم على حرف التحقيق (قد) بين فيه تعالى فضل عطفه على نبيه وأصحابه المؤمنين الصادقين من المهاجرين والأنصار، وتجاوزه عن هفواتهم في هذه الغزوة، وفي غيرها لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء منها، وإنما كانت هفواتهم هذه مقتضى الطباع البشرية، واجتهاد الرأي فيما لم يبينه الله تعالى بيانًا قطعيًا يعد مخالفه عاصيًا.

يقول ابن عاشور: «وافتتاح الله هذه الآية بحرف التحقيق (لقد)؛ تأكيدًا لمضمونها المتقرر فيما مضى من الزمان، حسبما دل عليه الإتيان بالمسندات كلها أفعالًا ماضية.

ومن المحسنات افتتاح هذا الكلام بما يؤذن بالبشارة لرضا الله على المؤمنين الذين غزوا تبوك، وتقديم النبي صلى الله عليه وسلم في تعلق فعل التوبة بالغزاة؛ للتنويه بشأن هذه التوبة، وإتيانها على جميع الذنوب؛ إذ قد علم المسلمون كلهم أن النبي صلى الله عليه وسلم قد غفر الله ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٤].

---

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ١٠/ ٢١٠.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١١/ ٣٢.

(٣) انظر: المصدر السابق.

(٤) السابق ١١/ ٤٩.

وهذه التوبة التي تابها الله على النبي والمهاجرين والأنصار -كما قال ابن عباس-: كانت التوبة على النبي لأجل إذنه للمنافقين في القعود، ودليله قوله: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣].

وعلى المؤمنين من ميل قلوب بعضهم إلى التخلف عنه، وقيل: توبة الله عليهم استنقاذهم من شدة العسرة.

وقيل: خلاصهم من نكاية العدو، وعبر عن ذلك بالتوبة وإن خرج عن عرفها لوجود معنى التوبة فيه، وهو الرجوع إلى الحالة الأولى[1].

يقول شيخ المفسرين الطبري: «يقول تعالى ذكره: لقد رزق الله الإنابة إلى أمره وطاعته نبيه محمدًا، والمهاجرين ديارهم وعشيرتهم إلى دار الإسلام، وأنصار رسوله في الله الذين اتبعوا رسول الله في ساعة العسرة منهم من النفقة والظهر والزاد والماء»[2].

فيكون معنى توبته على النبي أي: بإذنه للمنافقين بالتخلف عنه[3].

وقال أهل المعاني: هو مفتاح كلام، وذلك أنه لما كان سبب توبة التائبين ذكر معهم، كقوله: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٤١][4].

وهذه التوبة على المهاجرين والأنصار في ساعة العسرة سببها كما قال الرازي: «ربما وقع في قلوبهم نوع نفرة عن تلك السفرة، وربما وقع في خاطر بعضهم أنا لسنا نقدر على الفرار، ولم يعزموا عليه، بل وساوس كانت تقع في قلوبهم، فالله تعالى بين في آخر هذه السورة أنه بفضله عفا عنها، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧].

والوجه الثاني في الجواب: أن الإنسان طول عمره لا ينفك عن زلات وهفوات، إما من باب الصغائر، وإما من باب ترك الأفضل، ثم إن النبي وسائر المؤمنون لما تحملوا مشاق هذا السفر ومتاعبه، وصبروا على تلك الشدائد والمحن، أخبر الله تعالى أن تحمل تلك الشدائد صار مكفرًا لجميع الزلات التي صدرت عنهم في طول العمر، وصار قائمًا مقام التوبة المقرونة بالإخلاص عن كلها.

والوجه الثالث في الجواب: أن الزمان لما اشتد عليهم في ذلك السفر، وكانت الوساوس تقع في قلوبهم، فكلما وقعت وسوسة في قلب واحد منهم تاب إلى الله منها، وتضرع إلى الله في إزالتها عن قلبه، فلكثرة إقدامهم على التوبة بسبب

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٨٧.
(٢) جامع البيان، ١٤/ ٥٣٩.
(٣) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ١٠٤.
(٤) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٨٧.

خطرات تلك الوساوس ببالهم، قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧]...الآية.

والوجه الرابع: لا يبعد أن يكون قد صدر عن أولئك الأقوام أنواع من المعاصي، إلا أنه تعالى تاب عليهم، وعفا عنهم لأجل أنهم تحملوا مشاق ذلك السفر، ثم إنه تعالى ضم ذكر الرسول عليه الصلاة والسلام إلى ذكرهم؛ تنبيهًا على عظم مراتبهم في الدين، وأنهم قد بلغوا إلى الدرجة التي لأجلها ضم الرسول عليه الصلاة والسلام إليهم في قبول التوبة»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ﴾ [التوبة: ١١٧].

﴿كَادَ﴾ من أفعال المقاربة، تعمل في اسمين (عمل كان) واسمها هنا ضمير شأن مقدر، وخبرها هو جملة الخبر عن ضمير الشأن، وإنما جعل اسمها هنا ضمير شأن؛ لتهويل شأنهم حين أشرفوا على الزيغ.

واختلف في معنى (تزيغ) فقيل: تتلف بالجهد والمشقة والشدة، وقيل: تعدل -أي تميل- عن الحق في الممانعة والنصرة، وقيل: من بعد ما هم فريق منهم بالتخلف والعصيان ثم لحقوا به، وقيل: هموا بالقفول فتاب الله عليهم، وأمرهم به[(٢)].

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ هذا تأكيد ظاهر، واعتناء بشأن التوبة، هذا إن كان الضمير راجعًا إلى من تقدم ذكر التوبة عنهم، وإن كان الضمير إلى الفريق فلا تكرار[(٣)]. والمعنى: قيل: توبته عليهم أن تدارك قلوبهم حتى لم تزغ، وكذلك سنة الحق مع أوليائه إذا أشرفوا على العطب، ووطنوا أنفسهم على الهلاك أمطر عليهم سحائب الجود، فأحيا قلوبهم[(٤)].

فإن قيل: ذكر التوبة في أول الآية وفي آخرها، فما فائدة التكرار؟

فالجواب من وجوه:

أحدها: أنه تعالى ابتدأ بذكر التوبة قبل ذكر الذنب؛ تطييبًا لقلوبهم، ثم لما ذكر الذنب أردفه مرة أخرى بذكر التوبة؛ تعظيمًا لشأنهم.

وثانيها: إذا قيل: عفا السلطان عن فلان ثم عفا عنه، دل على أن ذلك العفو متأكد، بلغ الغاية القصوى في الكمال والقوة. . .، وهذا معنى قول ابن عباس في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ﴾ يريد ازداد عنهم رضًا، قال ابن عباس: من تاب الله عليه لم يعذبه أبدًا.

وثالثها: أنه قال: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١١٧].

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ١٧٠.
(٢) انظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٨١.
(٣) انظر: فتح القدير، الشوكاني ٢/ ٥٩٩.
(٤) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٨١.

وهذا الترتيب يدل على أن المراد أنه تعالى تاب عليهم من الوساوس التي كانت تقع في قلوبهم في ساعة العسرة،

ثم إنه تعالى زاد عليه فقال: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [التوبة: ١١٧].

فهذه الزيادة أفادت حصول وساوس قوية، فلا جرم أتبعها تعالى بذكر التوبة مرة أخرى؛ لئلا يبقى في خاطر أحدٍ شك في كونهم مؤاخذين بتلك الوساوس[(١)].

وفي قصة توبة الله على النبي والمهاجرين والأنصار وعلى الثلاثة، فوائد ومسائل، منها:

في هذه الآيات دليل على أن توبة الله على العبد أجل الغايات، وأعلى النهايات، فإن الله جعلها نهاية خواص عباده، وامتن عليهم بها، حين عملوا الأعمال التي يحبها ويرضاها، وفيها لطف الله بهم، وتثبيتهم في إيمانهم عند الشدائد والنوازل المزعجة.

وفي الآيات أيضًا دليل على أن العبادة الشاقة على النفس لها فضل ومزية ليست لغيرها، وكلما عظمت المشقة عظم الأجر، وأن توبة الله على عبده بحسب ندمه وأسفه الشديد، وأن من لا يبالي بالذنب، ولا يحرج إذا فعله، فإن توبته مدخولة، وإن زعم أنها مقبولة.

وأن علامة الخير وزوال الشدة إذا تعلق القلب بالله تعالى تعلقًا تامًا، وانقطع عن المخلوقين.

وأن من لطف الله بالثلاثة أن وسمهم بوسم ليس بعار عليهم، فقال: ﴿خُلِّفُواْ﴾ إشارة إلى أن المؤمنين خلفوهم، أو خلفوا عن من بت في قبول عذرهم، أو في رده، وأنهم لم يكن تخلفهم رغبة عن الخير؛ ولهذا لم يقل: (تخلفوا).

ومن فوائد الآيات: أن الله تعالى من عليهم بالصدق؛ ولهذا أمر بالاقتداء بهم، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩][(٢)].

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: واعلم أن لله تعالى على عبده توبتين؛ التوبة الأولى: قبل توبة العبد؛ وهي التوفيق للتوبة؛ والتوبة الثانية: بعد توبة العبد؛ وهي قبول التوبة؛ وكلاهما في القرآن؛ قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [التوبة: ١١٨].

فقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي: وفقهم للتوبة، وقوله تعالى: ﴿لِيَتُوبُوٓاْ﴾ أي: يقوموا بالتوبة إلى الله؛ وأما توبة القبول

(١) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٨٩.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص٣٥٤.

ففي قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُوا عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

ومن فوائد الآيات:

- الإنسان إذا صدق في تفويض الأمر إلى الله، ورجوعه إلى طاعة الله، فإن الله تعالى يتوب عليه؛ وهذا له شواهد كثيرة، فالله أكرم من عبده؛ من تقرب إليه ذراعًا تقرب الله إليه باعًا، ومن أتاه يمشي أتاه هرولة؛ فكرم الله عز وجل أعلى، وأبلغ من كرم الإنسان.
- إثبات هذين الاسمين الكريمين: التواب والرحيم؛ وما تضمناه من صفة وفعل.
- اختصاص الله بالتوبة والرحمة؛ بدليل ضمير الفصل؛ ولكن المراد اختصاصه بالتوبة التي لا يقدر عليها غيره؛ لأن الإنسان قد يتوب على ابنه وأخيه وصاحبه، وما أشبه ذلك؛ لكن التوبة التي لا يقدر عليها إلا الله، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥]. هذه خاصة بالله، وكذلك الرحمة المراد بها الرحمة التي لا تكون إلا لله؛ أما رحمة الخلق بعضهم لبعض فهذا ثابت، لا يختص بالله عز وجل [(١)].

ثالثًا: ثناء الله عليهم لمتابعتهم الرسول في جميع الأحوال:

اتسم الأنصار رضوان الله عليهم بالطاعة الكاملة لأوامر الله تعالى، وأوامر رسوله صلى الله عليه وسلم، فقد كانوا يقرءون القرآن، وكأنه ينزل على كل واحد منهم، رجلًا كان أم امرأة، غضًا طريًا، فولد الأثر القوي في نفوسهم، وسرعة الاستجابة التامة لتعاليمه وأحكامه، فكان جيل الأنصار قادرًا على التخلص من عادات الجاهلية وتقاليدها وأعرافها، حتى لو كانت العادات قد استقرت منذ قرون، وصارت عرفًا مشروعًا، وتقليدًا مقبولًا.

ولقد كان اتباع الأنصار للنبي صلى الله عليه وسلم ليس في ساعة الرخاء والميسرة فقط، بل اتبعوه في ساعة العسرة والشدة والضيق، وهذا دليل على كمال الاتباع والانقياد والبذل والعطاء.

ولهذا امتدح الله تعالى ذلك الاتباع منهم، فقال: ﴿لَّقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧].

فأثنى الله تعالى عليهم هنا لمتابعتهم النبي صلى الله عليه وسلم في ساعة العسرة.

وقوله: ﴿اتَّبَعُوهُ﴾ يجوز فيه وجهان:

أحدهما: أنه اتباعٌ حقيقي، ويكون عليه الصلاة والسلام خرج أولًا، وتبعه أصحابه.

---

(١) انظر: تفسير القرآن الكريم، ابن عثيمين ٣/ ٩١.

وأن يكون مجازًا، أي: اتبعوا أمره ونهيه[١].

والمقصود منه وصف المهاجرين والأنصار بأنهم اتبعوا الرسول عليه الصلاة والسلام في الأوقات الشديدة، والأحوال الصعبة؛ وذلك يفيد نهاية المدح والتعظيم[٢].

ففي هذه الآية يبين الله عز وجل توبته الواسعة على المهاجرين والأنصار الذين اتبعوا الرسول في آخر غزوة له، وهي غزوة العسرة (غزوة تبوك) وكان عدد المسلمين فيها ثلاثون ألفًا، ولم يتخلف فيها من المهاجرين والأنصار إلا معذور بعجز، أو فقر، أو المخلفين وهم ثلاثة، فهجرهم النبي عليه الصلاة والسلام، وأمر المسلمين بهجرهم حتى من الله عليهم بالتوبة.

والمهاجرون والأنصار: هم مجموع أهل المدينة، وكان جيش العسرة منهم ومن غيرهم من القبائل التي حول المدينة ومكة، ولكنهم خصوا بالثناء لأنهم لم يترددوا ولم يتثاقلوا ولا شحوا بأموالهم، فكانوا أسوة لمن ائتسى بهم من غيرهم من القبائل، ووصف (المهاجرون) و(الأنصار) بـ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ للإيماء إلى أن لصلة الموصول تسببًا في هذه المغفرة، ومعنى اتبعوه: أطاعوه، ولم يخالفوا عليه، فالاتباع مجازي.

والعسرة: هي شدة الأمر وضيقه وصعوبته، وكان ذلك في غزة تبوك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم خرج في شدة الحر، وقلة من الماء، حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل؛ ليعتصروا الفرث الذي في كرشه، ويبلوا به ألسنتهم، وعسرة في الزاد؛ إذ كانت عند انتهاء فصل الصيف الذي نفدت فيه مؤنتهم، وأول فصل الخريف الذي بدأ فيه إرطاب الموسم الجديد، ولا يمكن حمل شيء منه، فكان يكتفي الواحد منهم أو الاثنان بالتمرة الواحدة من التمر القديم، ومنه اليابس، وقد تزود بعضهم أيضًا بالشعير المسوس والإهالة السنخة.

وعسرة في الظهر حتى كان العشرة يعتقبون بعيرًا واحدًا، وعسرة في الزمن؛ إذ كان في حرارة القيظ، وشدة الحر.

فخص الذين اتبعوه في ساعة العسرة بذكر التوبة لعظم منزلة الاتباع في مثلها، وجزيل الثواب الذي يستحق بها لما لحقهم من المشقة مع الصبر عليها، وحسن البصيرة واليقين منهم في تلك الحال؛ إذ لم تغيرهم عنها صعوبة الأمر، وشدة الزمان.

وقد ذكر المفسرون في المراد بساعة العسرة قولين:

---

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٨٧.

(٢) انظر: المصدر السابق.

الأول: أنها غزوة تبوك، والمراد منها الزمان الذي صعب الأمر عليهم جدًا في ذلك السفر، والعسرة: تعذر الأمر وصعوبته، قال جابر: حصلت عسرة الظهر، وعسرة الماء، وعسرة الزاد.

والثاني: يجوز أن يكون المراد بساعة العسرة جميع الأحوال، والأوقات الشديدة على الرسول، وعلى المؤمنين؛ فيدخل فيه غزوة الخندق وغيرها[1].

ولعل التعبير بساعة العسرة للتذكير بذلك الوقت العصيب، قال ابن عباس لعمر رضي الله عنهم: حدثنا من شأن ساعة العسرة، فقال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك في قيظ شديد، فنزلنا منزلًا فأصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستقطع، حتى إن كان الرجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده، فقال أبو بكر الصديق: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيرًا فادع لنا، فرفع يديه فلم يرجعهما حتى قالت السماء، فأهطلت، ثم سكبت، فملئوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر[2].

وللاتباع في ساعة العسرة فضله، وليس الاتباع في ساعة عسرة كالاتباع في ساعة رخاء، وللصدقة في ساعة عسرة فضلها، وليست الصدقة في ساعة عسرة وفاقة كصدقة في ساعة غنى ووجدٍ؛ ولهذا ما ضر عثمان ما فعل بعد أن جهز جيش العسرة، كما جاء في حديث عبد الرحمن بن سمرة، قال: جاء عثمان رضي الله عنه إلى النبي صلى الله عليه وسلم بألف دينار حين جهز جيش العسرة، ففرغها عثمان في حجر النبي صلى الله عليه وسلم، قال: فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقلبها، ويقول: **(ما ضر عثمان ما عمل بعد هذا اليوم)**. قالها مرارًا[3].

وهكذا فقد تربى الأنصار -كما تربى المهاجرون- على مبدأ التلقي للتنفيذ والامتثال والاتباع، فطاعتهم لله ورسوله طاعة مطلقة، مهما تغيرت الأحوال، وتبدلت الظروف، وعلى ذلك بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ ولأن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم من حب الله تعالى، فلا يكون محبًا لله عز وجل إلا من اتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ لأن الرسول عليه الصلاة والسلام لا يأمر إلا بما يحب الله تعالى، ولا يخبر إلا بما يحب الله عز وجل، فمن كان محبًا لله تعالى لزم أن يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم، فيصدقه فيما أخبر، ويتأسى به فيما

(١) انظر: اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٨/ ٣٨٧.

(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن كثير ٤/ ١٦.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب المناقب، ٥/ ٦٢٦، رقم ٣٧٠١.
وحسنه الألباني في تعليقه على المشكاة، رقم ٦٠٦٤.

فعل، وبهذا الاتباع يصل المؤمن إلى كمال الإيمان وتمامه، ويصل إلى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذا ما استقر في النفوس الكبيرة لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، الذين اتبعوه في ساعات العسرة والشدة في بدايات الدعوة الإسلامية غير مبالين بما يصيبهم من أذى المشركين، وعنت الكفار، ولو كانوا آباءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم.

فقد بايع الأنصار الرسول صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة، فسمعوا وأطاعوا، كما قال عبادة بن الصامت رضي الله عنه: (دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه؛ فقال فيما أخذ علينا: أن بايعنا على السمع والطاعة، في منشطنا ومكرهنا، وعسرنا ويسرنا، وأثرة علينا)[1].

ففي قوله: (بايعنا) متضمن معنى العهد، أي: على أن نسمع كلامك، ونطيعك في مرامك، وكذا من يقوم مقامك من الخلفاء من بعدك، و(المنشط والمكره): (مفعل) من النشاط والكراهة، أي: حالة انشراح صدورنا، وطيب قلوبنا، وما يضاد ذلك، و(الأثرة علينا): اسم من الاستئثار، والمراد على الصبر على أثرة علينا، أي: بايعنا على أن نصبر إن أوثر غيرنا علينا، والضمير في (علينا): كناية عن جماعة الأنصار.

فهم بهذه المبايعة على السمع الطاعة علموا أن هذا بمنزلة من يبايع الله على ذلك، سواء في بيعة العقبة التي تمت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم، أم في غيرها من البيعات.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[الفتح: ١٠].

فقد شعر كل فرد من الأنصار وهو يبايع الرسول ويضع يده في يده برقابة الله تهيمن عليه، وكأن يده سبحانه فوق أيديهم، وهو على يقين بأن الله حاضر البيعة شاهد عليها، وهو الذي أخذها على المبايعين، وبالتالي فإن قدرته القاهرة مهيمنة على المتبايعين.

ولا شك أن هذه الصورة تستأصل من النفس أي خاطر للنكث بهذه البيعة، ولو غاب شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، فالله حاضر لا يغيب، وهو عليهم رقيب، فمن نقض البيعة فهو الخاسر؛ لأنه رجع عن تلك الصفقة التي عقدها مع ربه.

وبشر الله الموفين بالعهد بأن لهم أجرًا عظيمًا، فلم يفصله ولم يحدده، ولكنه اكتفى بوصفه (أنه عظيم) عظيم بحساب الله وميزانه ووصفه الذي لا يرتقي إلى تصوره

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الفتن، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: (سترون بعدي أمورًا تنكرونها)، ٩/ ٤٧، رقم ٧٠٥٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب وجوب طاعة الأمراء في غير معصية، وتحريمها في المعصية، ٣/ ١٤٧٠، رقم ١٧٠٩.

أهل الأرض.

فالتزم الأنصار بالبيعة للرسول صلى الله عليه وسلم، ثم للخلفاء الراشدين من بعده، وكان للبيعة قيمة عالية عندهم، فهي التزام حر، وتعاقد بين الطرفين، وقد دللوا دائمًا على صدق التزامهم، فلبوا داعي الجهاد، وخاضوا غمار المعارك في أماكن نائية عن ديارهم، ودفن كثير منهم في أطراف الأرض، وما عرفوا القعود عن الجهاد، والحفاظ على الكرامة والذود عن العقيدة، فجزاهم الله عن هذه الأمة وهذا الدين خير الجزاء، وسلك بنا سبيلهم، وحشرنا في زمرتهم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين.

فهذه نفحات من نفحات الأنصار، وتلكم مشاهد من مشاهدهم، ومآثر من مآثرهم، نستذكرها كلما قرأنا القرآن والسيرة، ونستشعر حضورهم كلما مررنا بالمدينة، ونستحضر صنيعهم كلما رأينا الإسلام مستضعفًا في الأرض، وكلما شاهدنا المسلمين مستذلين في ديارهم.

ونستعظم قدرهم، ونقدر دورهم كلما رأينا تلك الفئات، وأولئك الرجال والشباب الذين يقفون اليوم إلى جانب إسلامهم، وإلى جانب دعوتهم، وإلى جانب أمتهم في هذا الزمان، زمن غربة الإسلام في دياره، وفي وقت يقل فيه النصير لهذا الدين.

إن درس الأنصار هذا يقول لنا: أن نركب مركبهم في نصرة دعوة الله تعالى، وأن نسير مسيرهم في نصرة حملة هذا الدين، وأتباع نبيه الأمين صلى الله عليه وسلم في مشارق الأرض ومغاربها، لا أن نكون من المرجفين، ولا من المخذلين، ولا من المخذولين.

إن درس الأنصار يقول للجميع: إن نصرة دعوة الإسلام دين في أعناقكم، إن نصرة سنة نبيكم وحمل رسالته في ذممكم جميعًا، فليست نصرة الإسلام منوطة في ديننا بفئة محددة، ولا بلافتة معينة، بل هي في عنق كل من في عنقه بيعة الإسلام، في عنق كل من يؤمن بنبي الإسلام صلى الله عليه وسلم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصف: ١٤].

يقول ابن كثير: «يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم، بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم»[1]. فهذا هو درس الأنصار الأكبر أن تنصر دين الله أيها المؤمن.

موضوعات ذات صلة:

الصحابة، الصحبة، محمد صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرآن الكريم، ٨/ ١١٣.





عناصر الموضوع

مفهوم الإنصاف	٤٢٠
الألفاظ ذات الصلة	٤٢١
أنواع الإنصاف	٤٢٣
آداب الإنصاف في الحوار	٤٣٨
نماذج قرآنية في الإنصاف	٤٥٤
فوائد الإنصاف على الفرد والمجتمع	٤٦٣



مفهوم الانصاف

أولًا: المعنى اللغوي:

(نصف) النون والصاد والفاء أصلان صحيحان، أحدهما: يدل على شطر الشيء، والآخر على جنس من الخدمة والاستعمال، فالأول نصف الشيء ونصيفه: شطره...، والإنصاف في المعاملة كأنه الرضا بالنصف، والنصف الإنصاف أيضًا[(١)].

وأنصف الرجل أي: عدل[(٢)]. يقال: أنصف ينصف إنصافًا فهو منصف.

وأنصفت الرجل إنصافًا إذا أعطيته الحق، وتناصف القوم إذا تعاطوا الحق بينهم.

والخلاصة: أن (أنصف) من الجذر (ن ص ف) الذي يدل على النصف والعدل والقسط والاستواء، يقال: أنصفت الرجل إنصافًا: عاملته بالعدل والقسط[(٣)].

وأنصف المظلوم من الظالم: استوفى له حقه منه[(٤)]. ويقال: أنصف فلانًا من فلان استوفى له حقه منه، و(ناصفه) الشيء قاسمه نصفه[(٥)].

ثانيًا: المعنى الاصطلاحي:

الإنصاف بكسر الهمزة: العدل.

عرفه ابن الأعرابي بأنه: أن تعطيه من الحق كالذي تستحقه لنفسك[(٦)].

وعرفه المناوي بقوله: الإنصاف في المعاملة العدل، بأن لا يأخذ من صاحبه من المنافع إلا مثل ما يعطيه، ولا ينيله من المضار إلا كما ينيله، وقيل: هو استيفاء الحقوق لأربابها، واستخراجها بالأيدي العادلة، والسياسات الفاضلة، وهو والعدل توأمان، نتيجتهما علو الهمة، وبراءة الذمة، باكتساب الفضائل، واجتناب الرذائل[(٧)].

ولم يرد مصطلح (الإنصاف) في القرآن الكريم، ولكن القرآن تحدث عنه بعبارات بمختلفة، كما سيأتي معنا في ثنايا هذا البحث.

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/ ٤٣١.
(٢) لسان العرب، ابن منظور ٩/ ٣٣٢.
(٣) المصباح المنير، الفيومي ٢/ ٦٠٨.
(٤) معجم اللغة العربية المعاصرة، أحمد مختار ٣/ ٢٢٢٢.
(٥) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية ٢/ ٩٢٦.
(٦) انظر: تاج العروس، الزبيدي ٢٤/ ٤١٣.
(٧) التوقيف ص ٦٥.

الألفاظ ذات الصلة

١ العدل:

العدل لغة:

العدل مصدر عدل يعدل عدلًا، وهو مأخوذ من مادة (ع د ل) التي تدل على معنيين متقابلين:أحدهما يدل على الاستواء، والآخر على الاعوجاج[١]، ويرجع لفظ العدل هنا إلى المعنى الأول.

العدل اصطلاحًا:

أصله ضد الجور[٢]. قال في دستور العلماء: العدل: ضد الظلم، وإحقاق الحق، وإخراج الحق عن الباطل، أي: ممتازًا عنه، والأمر المتوسط بين الإفراط والتفريط[٣]. وعرفه الجرجاني بقوله: العدل: عبارة عن الأمر المتوسط بين طرفي الإفراط والتفريط...، وقيل: العدل، مصدر بمعنى: العدالة، وهو الاعتدال والاستقامة، وهو الميل إلى الحق[٤].

الصلة بين العدل والإنصاف:

الإنصاف إعطاء النصف، والعدل يكون في ذلك وفي غيره، ألا ترى أن السارق إذا قطع قيل: إنه عدل عليه، ولا يقال: إنه أنصفه[٥].

والمقصود: أن الإنصاف بمعنى العدل -وإن كنا لا نعدم فرقًا طفيفًا بينهما- كما سبق، وكما هو مبين في كتب اللغة؛ ولهذا فسوف يكون الكلام في هذا البحث متداخلًا ومشتركًا بينهما، حيث يستدل للإنصاف بمثل ما استدل للعدل من آيات القرآن.

٢ القسط:

القسط لغة:

القسط بالكسر: العدل، يقال أقسط يقسط؛ فهو مقسطٌ:إذا عدل، وقسط يقسط فهو قاسطٌ:إذا جار، والقسط أيضًا:مكيال، وهو نصف صاع[٦].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس، ٤/ ٢٤٦، مجمل اللغة، ابن فارس، ١/ ٦٥١.
(٢) الكليات ص ٦٣٩.
(٣) دستور العلماء ٢/ ٢٢٠.
(٤) التعريفات ص ١٤٧.
(٥) الفروق اللغوية، العسكري ص ٢٣٤.
(٦) انظر: الصحاح، الجوهري ٣/ ١١٥٢، لسان العرب، ابن منظور، ٥/ ٣٦٢٦.

القسط اصطلاحًا:

«القسط بالكسر: النصيب بالعدل»[1].

الصلة بين القسط والإنصاف:

لفظ (الإنصاف) -كما سبق- يفيد معنى العدل، والقسط، والاستواء، والاستقامة؛ فهو على ارتباط وثيق بهذه المعاني كلها، فيشترك معها في كثيرٍ من الدلالات اللغوية، وإن كنا لا نعدم فرقًا طفيفًا بين كل واحدٍ منها، فالقسط هو:العدل البين الظاهر، ومنه سمي المكيال قسطًا، والميزان قسطًا؛ لأنه يصور لك العدل في الوزن حتى تراه ظاهرًا، وقد يكون من العدل ما يخفى؛ ولهذا قلنا:إن القسط هو النصيب الذي بينت وجوهه، وتقسط القوم الشيء تقاسموا بالقسط[2].

٣ الجور:

الجور لغة:

(جور) الجيم والواو والراء أصل واحد، وهو الميل عن الطريق[3].

الجور اصطلاحًا:

قال السيوطي: الجور: الخروج عن الوسط بزيادة أو نقصان[4]، وقال بعضهم:الجائر من الناس هو الذي يمنع من التزام ما يأمر به الشرع[5].

الصلة بين الجور والإنصاف:

الجور والإنصاف لفظان متقابلان، يدل أحدهما على ضد ما يدل عليه الآخر، فالإنصاف والنصف والنصفة: العدل، والجور: الظلم والتعدي.

وقيل:نقيض الظلم الإنصاف، ونقيض الجور العدل[6].

(١) التوقيف، المناوي ص٢٧١.
(٢) انظر: الفروق اللغوية، العسكري، ص٢٣٤.
(٣) مقاييس اللغة، ابن فارس ١/ ٤٩٣.
(٤) مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، ص ٢٠٧.
(٥) انظر: الموسوعة القرآنية، إبراهيم الأبياري ٨/ ١١٦.
(٦) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ٤٩٣.



أنواع الإنصاف

الإنصاف قيمة عليا من قيم الإسلام، وخلق من أخلاقه الرئيسة السامية، والإنصاف كمفهوم شامل واجب مطلقًا مع كل أحد، والمسلم مأمورٌ بالإنصاف والعدل، وهو إعطاء كل أحد ما يستحقه دون حيف أو ظلم، ويدخل في الإنصاف خمسة أنواع:

أولًا: إنصاف العبد ربَه:

لما كان حقيقة الإنصاف هو استيفاء الحقوق لأربابها، والاعتراف لهم بها، دون بخس ولا هضم، وكان من أعظم الحقوق على العبد على الإطلاق حق الخالق سبحانه وتعالى، كان أعظم أنواع الإنصاف وأجلها قدرًا أن ينصف العبد ربه، بأن يوفيه حقه -قدر استطاعته- دون بخس أو نقص، وإلا فكيف يستقيم أن يؤمر العبد أن ينصف عبدًا مثله، ويترك إنصاف ربه سبحانه، الخالق المنعم، فهو أولى بالإنصاف، ويكون ذلك بعبادته، والقيام بأمره، والوفاء بحقوقه.

والله تعالى قد أمر بالعدل -وهو الإنصاف- أمرًا عامًا مطلقًا، دون تحديد مع من يكون هذا العدل؟ ولا تحديد بزمن معين، بل هو عدل مع كل أحد، وفي كل وقت، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾ [النحل: ٩٠].

قال ابن جرير: يقول تعالى ذكره: إن الله يأمر في هذا الكتاب الذي أنزله إليك يا محمد بالعدل، وهو الإنصاف، ومن الإنصاف: الإقرار بمن أنعم علينا بنعمته، والشكر له على إفضاله، وتولي الحمد أهله، وإذا كان ذلك هو العدل ولم يكن للأوثان والأصنام عندنا يد تستحق الحمد عليها؛ كان جهلًا بنا حمدها وعبادتها، وهي لا تنعم فتشكر، ولا تنفع فتعبد، فلزمنا أن نشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له؛ ولذلك قال من قال: العدل في هذا الموضع: شهادة أن لا إله إلا الله[1].

وتفسير العدل في هذه الآية بهذا النوع من العدل، وهو العدل مع الله، وهي شهادة التوحيد، قال به كثير من المفسرين، ولا جرم فهو أعظم أنواع العدل والإنصاف، وضده وهو الشرك، أعظم أنواع الظلم، وقد بدأ به السمعاني في الكلام عن المراد بالعدل في هذه الآية، حيث قال: في الآية أقوال:

أحدها: أن العدل هو: شهادة أن لا إله إلا الله، وهذا مروي عن ابن عباس وغيره، وقيل: إنه التوحيد، وهو في معنى الأول[2].

وكذا بدأ به ابن الجوزي، ثم قال: قال أبو سليمان: العدل في كلام العرب: الإنصاف، وأعظم الإنصاف: الاعتراف للمنعم

(١) جامع البيان، ١٤/ ٣٣٤.
(٢) تفسير القرآن، السمعاني ٣/ ١٩٥.

بنعمته[1].

وقال الشنقيطي بعد أن ذكر الأقوال في هذه الآية: فإذا عرفت هذا، فاعلم أن أقوال المفسرين في الآية الكريمة راجعة في الجملة إلى ما ذكرنا؛ كقول ابن عباس رضي الله عنهما: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض؛ لأن عبادة الخالق دون المخلوق هي عين الإنصاف والقسط، وتجنب التفريط والإفراط، ومن أدى فرائض الله على الوجه الأكمل فقد أحسن.

ولذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الرجل الذي حلف لا يزيد على الواجبات: **(أفلح إن صدق)**[2].

وكقول علي رضي الله عنه: العدل: الإنصاف، والإحسان: التفضل[3].

إلى غير ذلك من أقوال السلف[4].

وقال ابن العربي: العدل بين العبد وربه: إيثار حقه تعالى على حظ نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر، والامتثال للأوامر[5].

(١) زاد المسير ٢/ ٥٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الزكاة من الإسلام، ١/ ١٨، رقم ٤٦، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام ١/ ٤٠، رقم ١١.

(٣) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٢٩١. وانظر: الدر المنثور، السيوطي ٥/ ١٦٠.

(٤) أضواء البيان ٢/ ٤٣٧.

(٥) أحكام القرآن، ٣/ ١٥٤.

والمقصود: أن هذه الآية من جوامع الكلم القرآنية الرائعة، فيما يجب أن يفعله المؤمن، وينتهي عنه.

فالمتبادر أن العدل في الآية في مقامه، وبخاصة والآية مكية لم يقصد به العدل في القضاء، أو لم يقصد به ذلك وحسب، بل قصد به العدل المطلق الذي يتناول معاني الإنصاف، وعدم الإجحاف، وعدم تجاوز الحق قولًا وفعلًا، في كل موقف ومناسبة، ومع كل أحد، ويدخل فيه إنصاف الرب سبحانه وتعالى[6].

فمن أعظم الإنصاف المطالب به العبد إنصافه صاحب الفضل الأكبر عليه، وهو خالقه وموجده، والمنعم عليه بسائر النعم.

إذ العدل مطلوب في أمور التكليف كلها، في الأمور العقدية التي هي عمل القلب، وكذلك مطلوب في الأمور العملية التي هي أعمال الجوارح، وفي حركة الحياة كلها[7].

ومن الأوامر الإلهية العامة بالعدل والإنصاف، والتي يدخل فيها هذا النوع من الإنصاف، وهو إنصاف الرب عز وجل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف:٢٩].

والقسط: العدل، ويقع ذلك في حق

(٦) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٥/ ١٦٨.

(٧) انظر: تفسير الشعراوي ١٣/ ٨١٥٨.

الله تعالى، وفي حق الخلق، وفي حق النفس، فالعدل في حق الله الوقوف على حد الأمر، من غير تقصير في المأمور به، أو إقدام على المنهي عنه، ثم ألا تدخر عنه شيئًا مما خولك، ثم لا تؤثر عليه شيئًا فيما أحل لك[1]. فلا إنصاف ولا نصفة أجمل وأحق من الاعتراف بمن أنعم علينا بنعمه، والشكر له على إفضاله، وحمده، وهو أهل للحمد.

فلله تبارك وتعالى على العبد حقوقٌ عظيمة، ونعمٌ جسيمة، فهو من أنشأه من العدم، وأوجده حتى صار شيئًا مذكورًا، بعد أن كان عدمًا.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ۝٨﴾ [الانفطار: ٦-٨].

فمن الإنصاف أن يعترف العبد بالخالق الموجد من العدم، ويقوم بعبادته على الوجه المأمور به شرعًا.

يقول ابن القيم في هذا النوع من الإنصاف، وهو إنصاف الخالق سبحانه وتعالى: فصل: طوبى لمن أنصف ربه، فأقر له بالجهل في علمه، والآفات في عمله، والعيوب في نفسه، والتفريط في حقه، والظلم في معاملته، فإن آخذه بذنوبه رأى عدله، وإن لم يؤاخذه بها رأى فضله، وإن عمل حسنة رآها من منته وصدقته عليه، فإن قبلها فمنة وصدقة ثانية، وإن ردها فلكون مثلها لا يصلح أن يواجه به، وإن عمل سيئة رآها من تخليه عنه، وخذلانه له، وإمساك عصمته عنه؛ وذلك من عدله فيه، فيرى في ذلك فقره إلى ربه، وظلمه في نفسه، فإن غفرها له فبمحض إحسانه، وجوده وكرمه[2].

وقال: ولو أنصف العبد ربه، وأنى له بذلك! لعلم أن فضله عليه فيما منعه من الدنيا ولذاتها ونعيمها أعظم من فضله عليه فيما آتاه من ذلك، فما منعه إلا ليعطيه؛ ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصافيه، ولا أماته إلا ليحييه، ولا أخرجه إلى هذه الدار إلا ليتأهب منها للقدوم عليه؛ وليسلك الطريق الموصلة إليه[3].

ثانيًا: إنصاف النبي صلى الله عليه وسلم:

إن أعظم نعم الله على هذه الأمة إظهار محمد صلى الله عليه وسلم لهم، وبعثته، وإرساله إليهم.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ

(١) لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٥٢٩.

(٢) الفوائد ص ٣٣.

(٣) المصدر السابق ص ٥٧.

﴿مُّبِينٍ ١٦٤﴾ [آل عمران: ١٦٤].

فإن النعمة على الأمة بإرساله أعظم من النعمة عليهم بإيجاد السماء والأرض، والشمس والقمر، والرياح، والليل والنهار، وإنزال المطر، وإخراج النبات، وغير ذلك؛ فإن هذه النعم كلها قد عمت خلقًا من بني آدم كفروا بالله، وبرسله، وبلقائه، فبدلوا نعمة الله كفرًا، وأما النعمة بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم فإن بها تمت مصالح الدنيا والآخرة، وكمل بسببها دين الله الذي رضيه لعباده، وكان قبوله سبب سعادتهم في دنياهم وآخرتهم[١].

ولهذا كان من أعظم أنواع الإنصاف إنصاف المسلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنصافه يكون بالإيمان به، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

قال تعالى: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

ونظير هذه الآية آيات كثيرة، جاءت تأمر بالإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم، ونلحظ منها: أن الله تعالى قرن الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم مع الإيمان به، وفي هذا دليل على أن الإيمان بالنبي صلى الله عليه وسلم واجب متعين، بل لا يتم إيمان المرء إلا به، ولا يصح إسلام إلا معه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَـٰفِرِينَ سَعِيرًا ١٣﴾ [الفتح: ١٣].

ولما كان الإيمان بالله هو الأصل يتفرع عنه الإيمان بالرسول والنبي بدأ به، فقال: ﴿فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ ثم أتبعه بالإيمان بالرسول، فقال: ﴿وَرَسُولِهِ﴾ ثم أتبع ذلك بالإشارة إلى المعجز الدال على نبوته، وهو كونه أميًا ﴿ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ﴾ وظهر عنه من المعجزات في ذاته ما ظهر من القرآن الجامع لعلوم الأولين والآخرين، مع نشأته في بلد عارٍ من أهل العلم لم يقرأ كتابًا، ولم يخط، ولم يصحب عالمًا، ولا غاب عن مكة غيبة تقتضي تعلمًا[٢].

وفي نهاية الآية يخبر الله تعالى أن النبي الأمي- صلوات الله وسلامه عليه- يؤمن بالله وكلماته، ومع أن هذه بديهية، إلا أن هذه اللفتة لها مكانها، ولها قيمتها، فالدعوة لا بد أن يسبقها إيمان الداعي بحقيقة ما يدعو إليه، ووضوحه في نفسه، ويقينه منه؛ لذلك يجيء وصف النبي المرسل إلى الناس جميعًا بأنه: ﴿ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَـٰتِهِۦ﴾ وهو نفس ما يدعو الناس إليه ونصه، ثم يتضمن أخيرًا لفتة إلى مقتضى

(١) تفسير ابن رجب الحنبلي ١/ ٢٢٢.

(٢) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٥/ ١٩٧.

هذا الإيمان الذي يدعوهم إليه، وهو اتباعه فيما يأمر به ويشرعه، واتباعه كذلك في سنته وعمله، وهو ما يقرره قول الله سبحانه: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ فليس هناك رجاء في أن يهتدي الناس بما يدعوهم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا باتباعه فيه، ولا يكفي أن يؤمنوا به في قلوبهم ما لم يتبع الإيمان الاتباع العملي، وهو الإسلام[1].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم وجوب طاعته.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [الأنفال:٢٠].

وقال: ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [آل عمران: ٣٢].

وقال: ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٢] .

والآيات في هذا كثيرة.

فجعل الله تعالى في هذه الآيات طاعة رسوله طاعته، وقرن طاعته بطاعته، ووعد على ذلك بجزيل الثواب، وأوعد على مخالفته بسوء العقاب، وأوجب امتثال أمره، واجتناب نهيه.

قال القاضي عياض رحمه الله: وأما وجوب طاعته فإذا وجب الإيمان به، وتصديقه فيما جاء به، وجبت طاعته؛ لأن ذلك مما أتى به[2].

ولما كانت طاعة الرسول هي طاعة الله لأنه إنما يدعوه إليه، وإنما خلقه القرآن، وحد الضمير، فقال: ﴿وَلَا تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ﴾ ولم يقل: عنهما، وهو كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة:٦٢].

والمراد: ولا تولوا عن الرسول في حال من الأحوال، وفي أمر من الأوامر، من الجهاد وغيره، ومن الغنائم وغيرها، خف أو ثقل، سهل أو صعب[3].

وأصله: (ولا تتولوا) فحذف إحدى التاءين تخفيفًا ﴿وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ أي: وأنتم تسمعونه، أو ولا تتولوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تخالفوا وأنتم تسمعون، أي: تصدقون؛ لأنكم مؤمنون لستم كالصم المكذبين من الكفرة[4].

ونلحظ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]أنه كرر قوله: ﴿أَطِيعُوا۟﴾ ولم يقل: أطيعوا الله والرسول، وإنما أعيد فعل ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ مع أن حرف العطف يغني عن إعادته؛ وذلك إظهارًا للاهتمام بتحصيل طاعة الرسول؛ لتكون أعلى مرتبة من طاعة

(١) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٣/ ١٣٨٠.

(٢) الشفا بتعريف حقوق المصطفى ٢/ ١٦.
(٣) نظم الدرر، البقاعي ٨/ ٢٤٧.
(٤) مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٦٣٨.

أولي الأمر؛ ولينبه على وجوب طاعته فيما يأمر به، ولو كان أمره غير مقترن بقرائن تبليغ الوحي؛ لئلا يتوهم السامع أن طاعة الرسول المأمور بها ترجع إلى طاعة الله فيما يبلغه عن الله دون ما يأمر به في غير التشريع، فإن امتثال أمره كله خير، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا أبا سعيد بن المعلى وأبو سعيد يصلي، فلم يجبه، فلما فرغ من صلاته جاءه، فقال له: (ما منعك أن تأتيني؟) فقال: «كنت أصلي» فقال: (ألم يقل الله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال:٢٤])[١].

ولذلك كان الصحابة إذا لم يعلموا مراد الرسول من أمره ربما سألوه: أهو أمر تشريع أم هو الرأي والنظر؟ كما قال له الحباب بن المنذر يوم بدر حين نزل جيش المسلمين: أهذا منزل أنزلكه الله، ليس لنا أن نجتازه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: (بل الرأي والحرب والمكيدة..)[٢] الحديث[٣].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم: امتثال سنته، والاقتداء بهديه.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران:٣١].

فجعل المحبة في اتباعه، وجعل جزاء اتباعه محبته لعباده، وهي أعلى الكرامة[٤].

نعم فحب الله ليس دعوى باللسان، ولا هيامًا بالوجدان، إلا أن يصاحبه الاتباع لرسول الله، والسير على هداه، وتحقيق منهجه في الحياة، وإن الإيمان ليس كلمات تقال، ولا مشاعر تجيش، ولا شعائر تقام، ولكنه طاعة لله والرسول، وعمل بمنهج الله الذي يحمله الرسول[٥].

ومن حقه صلى الله عليه وسلم عليهم أن يتحاكموا إليه؛ لأنه رسول الله، وهو مأمور بأن يحكم بين الناس بما أراه الله في وحيه، وما هداه إليه في اجتهاده.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ [النساء:٦٥].

أي: ينقادون لحكمك، يقال: سلم واستسلم وأسلم إذا انقاد.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾﴾ [الممتحنة:٦].

فالأسوة في الرسول الاقتداء به، والاتباع

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، باب قوله: (ولقد آتيناك سبعًا من المثاني والقرآن العظيم)، ٦/ ٨١، رقم ٤٧٠٣.
(٢) انظر: السيرة النبوية، ابن هشام ١/ ٦٢٠.
(٣) انظر: التحرير والتنوير، ابن عاشور ٥/ ٩٧.
(٤) لطائف الإشارات، التستري ص ٧٩.
(٥) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٣٨٧.



لسنته، وترك مخالفته في قول أو فعل.

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم: لزوم محبته، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤].

ففي هذه الآية الكريمة حض وتنبيه بالغ على وجوب محبته، وعظم شأنها، واستحقاقه لها؛ إذ قرع سبحانه وتعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وأوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: أمر تعالى رسوله أن يتوعد من آثر أهله وقرابته وعشيرته على الله ورسوله، وجهاد في سبيله، فقال: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا﴾ أي: اكتسبتموها وحصلتموها ﴿وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾ أي: تحبونها لطيبها وحسنها، أي: إن كانت هذه الأشياء ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: فانتظروا ماذا يحل بكم من عقابه ونكاله بكم؛ ولهذا قال ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[1].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم وجوب مناصحته، قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩١].

قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿إِذَا نَصَحُوا۟﴾ النصح: إخلاص العمل من الغش، ومنه التوبة النصوح، قال نفطويه: نصح الشيء إذا خلص، ونصح له القول أي أخلصه له، وفي صحيح مسلم عن تميم الداري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (الدين النصيحة) ثلاثًا، قلنا: لمن؟ قال: (لله ولكتابه ولرسوله)[2].

قال العلماء: النصيحة لرسوله: التصديق بنبوته، والتزام طاعته في أمره ونهيه، وموالاة من والاه، ومعاداة من عاداه، وتوقيره، ومحبته، ومحبة آل بيته، وتعظيمه، وتعظيم سنته، وإحياؤها بعد موته بالبحث عنها، والتفقه فيها، والذب عنها، ونشرها، والدعاء إليها، والتخلق بأخلاقه الكريمة صلى الله عليه وسلم[3].

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٤/ ١٢٤.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، ١/ ٧٤، رقم ٥٥.
(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٨/ ٢٢٧.

وقال أبو بكر الآجري: النصح له يقتضي نصحين: نصحًا في حياته، ونصحًا بعد مماته، ففي حياته نصح أصحابه له بالنصر والمحاماة عنه، ومعاداة من عاداه، والسمع والطاعة له، وبذل النفوس والأموال دونه[1].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم توقيره، وبر آله، وذريته، وأمهات المؤمنين أزواجه.

قال تعالى: ﴿وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ [الفتح:٩].

وقال عن أهل بيته: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب:٣٣].

وقال تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب:٦].

قال القاضي: ومن توقيره وبره: بر آله وذريته وأمهات المؤمنين أزواجه، كما حض عليه، وسلكه السلف الصالح رضي الله عنهم[2].

ومن إنصافه صلى الله عليه وسلم: تنفيذ ما أمر به، واجتناب مخالفة أمره وتبديل سنته، قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [٦٣:].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وقوله: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ أي: عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان[3].

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء:١١٥].

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية: وقوله: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ﴾ أي: من سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم فصار في شق، والشرع في شق؛ وذلك عن عمد منه بعدما ظهر له الحق، وتبين له، واتضح له[4].

والمقصود: أن حق النبي صلى الله عليه وسلم على أمته عظيم، فالواجب إنصافه، وإعطائه حقه، من التعظيم والإجلال، والطاعة والاتباع، والمحبة والنصرة، وقد دل القرآن على كل ذلك في آيات كثيرة.

ثالثًا: إنصاف العبد نفسه من نفسه:

ومن أنواع الإنصاف: إنصاف المرء نفسه من نفسه.

---

(١) انظر: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض ٢/ ٣٣.
(٢) المصدر السابق ٢/ ١٠٤.
(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٦/ ١١٩.
(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤١٢.



ومما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النساء:١٣٥].

ففي هذه الآية أمر الله تعالى بالقسط، وهو العدل الذي من معانيه الإنصاف، ثم قال: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ وهذا من الإنصاف للنفس، والنصح لها.

قال ابن كثير في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾: أي: اشهد الحق، ولو عاد ضررها عليك، وإذا سئلت عن الأمر فقل الحق فيه، وإن كان مضرة عليك[1].

و﴿قَوَّٰمِينَ﴾ صيغة مبالغة، أي: ليتكرر منكم القيام بالقسط، وهو العدل في شهادتكم على أنفسكم، وهو الإقرار بما عليكم من الحقوق[2].

وهنا يحاول المنهج الإلهي تجنيد النفس في وجه ذاتها، وفي وجه عواطفها، تجاه ذاتها أولًا، وتجاه الوالدين والأقربين ثانيًا، وهي محاولة شاقة، أشق كثيرًا من نطقها باللسان، ومن إدراك معناها ومدلولها بالعقل، إن مزاولتها عمليًا شيء آخر غير إدراكها عقليًا، ولا يعرف هذا الذي نقوله إلا من يحاول أن يزاول هذه التجربة واقعًا، ولكن المنهج يجند النفس المؤمنة لهذه التجربة الشاقة؛ لأنها لا بد أن توجد في الأرض، ولا بد أن يقيمها ناس من البشر.

ثم هو يجند النفس كذلك في وجه مشاعرها الفطرية أو الاجتماعية حين يكون المشهود له أو عليه فقيرًا، تشفق النفس من شهادة الحق ضده، وتود أن تشهد له معاونة لضعفه، أو من يكون فقره مدعاة للشهادة ضده بحكم الرواسب النفسية الاجتماعية، كما هو الحال في المجتمعات الجاهلية، وحين يكون المشهود له أو عليه غنيًا، تقتضي الأوضاع الاجتماعية مجاملته، أو قد يثير غناه، وتبطره النفس ضده، فتحاول أن تشهد ضده! وهي مشاعر فطرية، أو مقتضيات اجتماعية لها ثقلها حين يواجهها الناس في عالم الواقع، والمنهج يجند النفس تجاهها كذلك كما جندها تجاه حب الذات، وحب الوالدين والأقربين[3].

ومما يدل على هذا النوع من الإنصاف -وهو إنصاف النفس- عموم الأمر بالعدل الذي من معانيه الإنصاف، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ﴾ [النحل:٩٠].

والعلماء يقسمون العدل إلى أربعة أنواع:

١. عدل مع الخالق.
٢. عدل مع الرسول.
٣. عدل مع الخلق.
٤. عدل مع النفس.

والعدل في حق النفس يكون بإدخال

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٤٣٣.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ١/ ٦٠٤.
(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٢/ ٧٧٦.

العتق عليها، وسد أبواب الراحة بكل وجه عليها، والنهوض بخلافها على عموم الأحوال[1].

قال ابن القيم في هذا النوع من الإنصاف، وهو إنصاف العبد نفسه: ويدخل في هذا إنصافه نفسه من نفسه، فلا يدعي لها ما ليس لها، ولا يخبثها بتدنيسه لها، وتصغيره إياها، وتحقيرها بمعاصي الله، وينميها ويكبرها، ويرفعها بطاعة الله وتوحيده، وحبه وخوفه ورجائه، والتوكل عليه، والإنابة إليه، وإيثار مرضاته ومحابه على مراضي الخلق ومحابهم، ولا يكون بها مع الخلق...، ويكون بالله لا بنفسه في حبه وبغضه وعطائه ومنعه وكلامه وسكوته ومدخله ومخرجه، فينجي نفسه من البين، ولا يرى لها مكانة يعمل عليها...، فالعبد المحض ليس له مكانة يعمل عليها، فإنه مستحق المنافع والأعمال لسيده، ونفسه ملك لسيده، فهو عامل على أن يؤدي إلى سيده ما هو مستحق له عليه، ليس له مكانة أصلًا، بل قد كوتب على حقوق منجمة، كلما أدى نجمًا حل عليه نجم آخر، ولا يزال المكاتب عبدًا ما بقي عليه شيء من نجوم الكتابة.

والمقصود: أن إنصافه من نفسه يوجب عليه معرفة ربه، وحقه عليه، ومعرفة نفسه، وما خلقت له، وأن لا يزاحم بها مالكها وفاطرها، ويدعي لها الملكة والاستحقاق، ويزاحم مراد سيده، ويدفعه بمراده هو، أو يقدمه ويؤثره عليه، أو يقسم إرادته بين مراد سيده ومراده، وهي قسمة ضيزى، مثل قسمة الذين قالوا: ﴿هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا ۖ فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ ۖ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ ۗ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام:١٣٦].

فلينظر العبد لا يكون من أهل هذه القسمة بين نفسه وشركائه، وبين الله لجهله وظلمه، وإلا لبس عليه وهو لا يشعر، فإن الإنسان خلق ظلومًا جهولًا، فكيف يطلب الإنصاف ممن وصفه الظلم والجهل؟ وكيف ينصف الخلق من لم ينصف الخالق؟...

ثم كيف ينصف غيره من لم ينصف نفسه، وظلمها أقبح الظلم، وسعى في ضررها أعظم السعي، ومنعها أعظم لذاتها من حيث ظن أنه يعطيها إياها، فأتعبها كل التعب، وأشقاها كل الشقاء، من حيث ظن أنه يريحها ويسعدها، وجد كل الجد في حرمانها حظها من الله، وهو يظن أنه ينيلها حظوظها، ودساها كل التدسية، وهو يظن أنه يكبرها وينميها، وحقرها كل التحقير وهو يظن أنه يعظمها، فكيف يرجى الإنصاف ممن هذا إنصافه لنفسه؟ إذا كان هذا فعل العبد بنفسه فماذا تراه بالأجانب يفعل.

(١) انظر: لطائف الإشارات، القشيري ١/ ٥٢٩.

والمقصود: أن قول عمار رضي الله عنه: «ثلاث من جمعهن فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار»[1] كلام جامع لأصول الخير وفروعه[2].

رابعًا: إنصاف العباد:

ومن أنواع الإنصاف: إنصاف الخلق، ومما يدل على ذلك قوله تعالى: . ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ ۝١ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ يُخۡسِرُونَ ۝٣﴾ [المطففين:١-٣].

ففي هذه الآية تهديد شديد لمن لا ينصفون الناس في الكيل، ويقاس على الكيل غيره، قال الرازي: واعلم أنه سبحانه جمع في هذه الآية أنواعًا من التهديد:

فقال أولًا: ﴿وَيۡلٞ لِّلۡمُطَفِّفِينَ﴾ وهذه الكلمة تذكر عند نزول البلاء.

ثم قال ثانيًا: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ [المطففين:٤] وهو استفهام بمعنى الإنكار.

ثم قال ثالثًا: ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [المطففين:٥] والشيء الذي يستعظمه الله لا شك أنه في غاية العظمة.

ثم قال رابعًا: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين:٦] وفيه نوعان من التهديد:

أحدهما: كونهم قائمين مع غاية الخشوع، ونهاية الذلة والانكسار.

والثاني: أنه وصف نفسه بكونه ربًا للعالمين، ثم ها هنا سؤال، وهو كأنه قال قائل: كيف يليق بك مع غاية عظمتك أي تهيئ هذا المحفل العظيم الذي هو محفل القيامة لأجل الشيء الحقير الطفيف؟ فكأنه سبحانه يجيب، فيقول: عظمة الإلهية لا تتم إلا بالعظمة في القدرة، والعظمة في الحكمة، فعظمة القدرة ظهرت بكوني ربًا للعالمين، لكن عظمة الحكمة لا تظهر إلا بأن أنتصف للمظلوم من الظالم؛ بسبب ذلك القدر الحقير الطفيف، فإن الشيء كلما كان أحقر وأصغر كان العلم الواصل إليه أعظم وأتم، فلأجل إظهار العظمة في الحكمة أحضرت خلق الأولين والآخرين في محفل القيامة، وحاسبت المطفف لأجل ذلك القدر الطفيف[3].

ولفظ المطفف يتناول: الذي ينقص الكيل والوزن، وأراد بهذا الذين يعاملون الناس، فإذا أخذوا لأنفسهم استوفوا، وإذا دفعوا إلى من يعاملهم نقصوا، ويتجلى ذلك في الوزن والكيل، وفي إظهار العيب، وفي القضاء والأداء والاقتضاء، فمن لم يرض لأخيه المسلم ما لا يرضاه لنفسه

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الإيمان، باب إفشاء السلام من الإسلام، ١/ ١٥.

(٢) زاد المعاد ٢/ ٣٧٢-٣٧٤.

(٣) مفاتيح الغيب، ٣١/ ٨٥.

فليس بمنصف، وأما الصديقون فإنهم كما ينظرون للمسلمين، فإنهم ينظرون لكل من لهم معهم معاملة، والصدق عزيز، وكذلك أحوالهم في الصحبة والمعاشرة؛ فالذى يرى عيب الناس ولا يرى عيب نفسه فهو من هذه الجملة -جملة المطففين-...، ومن اقتضى حق نفسه دون أن يقضي حقوق غيره مثلما يقتضيها لنفسه فهو من جملة المطففين، والفتى من يقضي حقوق الناس ولا يقتضي من أحد لنفسه حقًّا[(١)].

وهذه من حكمة وضع الميزان في الأرض، أن يقوم الناس بالقسط، وينصف بعضهم بعضًا.

قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۞ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۞ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۞﴾ [الرحمن:٧-٩].

قال الرازي: وذكر في منافع الميزان أن يقوم الناس بالقسط، والقسط والإقساط هو الإنصاف، وهو أن تعطي قسط غيرك كما تأخذ قسط نفسك[(٢)].

وسمي العدل ميزانًا لأن الميزان آلة الإنصاف، والتسوية بين الخلق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر الله تعالى بالوفاء، ونهى عن البخس[(٣)].

وفي قوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ قال مجاهد: أراد بالميزان العدل والإنصاف، والمعنى: أنه أمر بالعدل، يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: لا تجاوزوا العدل، وقال الحسن وقتادة والضحاك: أراد به الذي يوزن به ليوصل به إلى الإنصاف والانتصاف، وأصل الوزن التقدير، وقوله: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا﴾ يعني: لئلا تميلوا وتظلموا وتجاوزوا الحق في الميزان، ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ بالعدل، وقال أبو الدرداء وعطاء: معناه أقيموا لسان الميزان بالعدل، قال سفيان بن عيينة: الإقامة باليد، والقسط بالقلب ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾ ولا تنقصوا الميزان، ولا تطففوا في الكيل والوزن[(٤)].

والمقصود: أن من أنواع الإنصاف إنصاف الخلق بعضهم بعضًا، إذا تعاطوا الحقوق بينهم، فلا يبخس بعضهم بعضًا، ولا يأخذ ما ليس له، ولا يحيف ولا يجور، بل ينبغي أن تؤدى الحقوق كاملة كما أمر الله تعالى.

خامسًا: إنصاف المخالفين:

ومن أنواع الإنصاف التي حث عليها القرآن إنصاف المخالفين، وانظر كيف أنصف القرآن أهل الكتاب مع مخالفتهم

(١) لطائف الإشارات، القشيري ٣/ ٦٩٩.
(٢) مفاتيح الغيب، ٢٩/ ٤٧١.
(٣) الوسيط، الواحدي ٤/ ٤٨.
(٤) معالم التنزيل، البغوي ٤/ ٣٣١.

الشديدة لدين الله.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾ [آل عمران: ٧٥].

فهذا من إنصاف وعدل القرآن، ودقته في الحكم بالفساد على الأمم؛ إذ يحكم على الأكثر بالفساد، ثم يستثني الصالحين منهم بعد إطلاق الحكم العام، فمن إنصافه هنا أنه أخبر عن أهل الكتاب أن منهم من يؤدي الأمانة وإن كثرت، ومنهم من لا يؤديها وإن قَلَّتْ.

فالآية فيها دلالة على إنصاف الرب تبارك وتعالى، وأن الله جل وعلا حكم عدل، فاليهود قوم بهت نعتوا ربهم بأقبح المعايب تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

ومع ذلك يقرر الله في هذه الآية أن اليهود على ما فيهم من معايب منهم من لو أمنته فوضعت عنده قنطارًا -والقنطار: الآلاف من الدنانير- ثم طلبتها منه لردها إليك، رغم أنه يهودي، وإخبار الله بهذا دلالة على إنصاف الرب جل وعلا، وأن الله لا يظلم الناس مثقال ذرة.

فقول الله: ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ أي: إن وضعت عنده قنطارًا أمانة رده إليك تامًا، كما هو رغم أنه كتابي، يهودي وإما نصراني، فكفره لم يمنعه من تأدية الأمانة.

إنها خطة الإنصاف والحق، وعدم البخس والغبن، يجري عليها القرآن الكريم في وصف حال أهل الكتاب الذين كانوا يواجهون الجماعة المسلمة حينذاك، والتي لعلها حال أهل الكتاب في جميع الأجيال؛ ذلك أن خصومة أهل الكتاب للإسلام والمسلمين، ودسهم وكيدهم وتدبيرهم الماكر اللئيم، وإرادتهم الشر بالجماعة المسلمة، وبهذا الدين.

كل ذلك لا يجعل القرآن يبخس المحسنين منهم حقهم، حتى في معرض الجدل والمواجهة، فهو هنا يقرر أن من أهل الكتاب ناسًا أمناء، لا يأكلون الحقوق مهما كانت ضخمة مغرية ﴿وَمِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيْكَ﴾ ولكن منهم كذلك الخونة الطامعين المماطلين، الذين لا يردون حقًا -وإن صغر- إلا بالمطالبة والإلحاح والملازمة.

ثم هم يفلسفون هذا الخلق الذميم، بالكذب على الله عن علم وقصد ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَيْسَ عَلَيْنَا فِى ٱلْأُمِّيِّۦنَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

وهذه بالذات صفة يهود، فهم الذين يقولون هذا القول، ويجعلون للأخلاق

مقاييس متعددة، فالأمانة بين اليهودي واليهودي، أما غير اليهود ويسمونهم الأميين، وكانوا يعنون بهم العرب (وهم في الحقيقة يعنون كل من سوى اليهود) فلا حرج على اليهودي في أكل أموالهم، وغشهم وخداعهم، والتدليس عليهم، واستغلالهم بلا تحرج من وسيلة خسيسة، ولا فعل ذميم!

ومن العجب أن يزعموا أن إلههم ودينهم يأمرهم بهذا، وهم يعلمون أن هذا كذب، وأن الله لا يأمر بالفحشاء، ولا يبيح لجماعة من الناس أن يأكلوا أموال جماعة من الناس سحتًا وبهتانًا، وألا يرعوا معهم عهدًا ولا ذمة، وأن ينالوا منهم بلا تحرج ولا تذمم، ولكنها يهود! يهود التي اتخذت من عداوة البشرية والحقد عليها ديدنًا ودينًا[1].

والحاصل: أن في هذا التعبير القرآني إنصافًا للنصارى فصفة الخير لهم لا ينكرها الله، بل يشيعها في قرآنه الذي يتلى إلى يوم الدين؛ وذلك ليصدق أيضًا أهل الكتاب أي أمر سيء تنزل فيه آيات من القرآن؛ لأن القرآن منصف مطلق الإنصاف، فما دام قد قال خصلة الخير فيهم فلا بد أن يكون صادقًا عندما يقول الأمور السيئة التي اتصفوا بها.

وهكذا عادة القرآن فهو لا يعمم حكمه إلا حيث يكون التعميم هو الحق الذي لا شك فيه، وإن كان في قوم من هم جديرون بالثناء ذكرهم، وكذلك كان الشأن في ذكر أهل الكتاب، وهم من أعظم الناس مخالفة لشرع الله، ففي هذه الآية يذكر بالخير طائفة من هؤلاء، فيقول الحكم العدل تعالت كلماته.

ومن نماذج إنصاف المخالف في القرآن أيضًا، قوله تعالى حكاية عن فرعون: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾﴾ [الشعراء:١٨-٢٠].

فقول موسى عليه السلام: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ من أروع وأعظم نماذج الإنصاف في القرآن، حيث علق على الثانية، ولم يعلق ويرد على الأولى؛ لأن الأولى حق، فقد تربى وتغذى في بيت فرعون حقًا.

وفي هذه الآية إرشاد للعباد: أن الحق يقبل، ولو صدر من الخصم.

ومن إنصافه أنه قال: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾ أي: قال موسى في جوابه على فرعون: أنا لا أنكر أني قد فعلت هذه الفعلة التي تذكرني بها، ولكني فعلتها وأنا في ذلك الوقت من الضالين، أي: فعلت ذلك قبل أن يشرفني الله بوحيه، ويكلفني بحمل رسالته، وفضلًا عن ذلك فأنا كنت أجهل أن هذه الوكزة ستؤدي إلى قتل ذلك الرجل من

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/ ٤١٧.

شيعتك، لأني ما قصدت قتله، وإنما قصدت تأديبه، ومنعه من الظلم لغيره[1].

ثم إنه لم ينكر تربيته في بيت فرعون، بل بين له أنه وإن أسدى النعمة إليه فقد أساء إلى شعبه عامة، فقال: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾﴾ [الشعراء:٢٢].

أي: وما أحسنت إلي وربيتني إلا وقد أسأت إلى بني إسرائيل جملة، فجعلتهم عبيدًا وخدمًا، تصرفهم في أعمالك، وأعمال رعيتك الشاقة[2].

ومن نماذج إنصاف المخالف في القرآن كذلك قوله تعالى حكاية عن المشركين: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً قَالُوا۟ وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الأعراف:٢٨].

فنلحظ هنا أن الله تعالى رد مقولتهم الثانية ونفاها، وسكت عن الأولى؛ لأنهم فعلًا وجدوا آباءهم يفعلون هذه الفاحشة، وهي كما ما ذكر أهل التفسير طوافهم بالبيت عراة[3].

قال ابن عاشور: فأعرض عن رد قولهم: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَآ ءَابَآءَنَا﴾ لأنه إن كان يراد رده من جهة التكذيب فهم غير كاذبين في قولهم؛ لأن آباءهم كانوا يأتون تلك الفواحش، وإن كان يراد رده من جهة عدم صلاحيته للحجة فإن ذلك ظاهر؛ لأن الإنكار والنهي ظاهر انتقالهما إلى آبائهم؛ إذ ما جاز على المثل يجوز على المماثل[4].

وقد يكون السكوت هنا أتى من باب الذم لهذا الاحتجاج بالآباء وتحقيره، قال الرازي: أما الحجة الأولى: فما ذكر الله عنها جوابًا؛ لأنها إشارة إلى محض التقليد، وقد تقرر في عقل كل أحد أنه طريقة فاسدة؛ لأن التقليد حاصل في الأديان المتناقضة، فلو كان التقليد طريقًا حقًا للزم الحكم بكون كل واحد من المتناقضين حقًا، ومعلوم أنه باطل؛ ولما كان فساد هذا الطريق ظاهرًا جليًا لكل أحد لم يذكر الله تعالى الجواب عنه[5].

والمقصود: أن من الإنصاف أن ينصف المرء من يخالفه، ولا تكون المخالفة مدعاة لظلمه، أو هضم حقوقه، أو التعدي عليه، وستأتي في المطالب التالية أمثلة قرآنية كثيرة على إنصاف المخالفين.

(١) التفسير الوسيط، طنطاوي ١٠/ ٢٣٩.
(٢) تفسير المراغي ١٩/ ٥٢.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ١٠/ ١٣٧ وتفسير ابن أبي حاتم ٥/ ١٤٦١.
(٤) التحرير والتنوير ٨/ ٨٤.
(٥) مفاتيح الغيب، الرازي ١٤/ ٢٢٥.

آداب الإنصاف في الحوار

من مجالات الإنصاف البارزة في القرآن مجال الحوار، والدعوة، والحكم على الناس، وقد أولى القرآن هذا الجانب أهمية كبيرة، فحث القرآن على الإنصاف في الحوار، والعدل في الحكم على الناس، والحكم على الأفكار.

أولًا: تحري القصد الحسن:

مما ينبغي على المحاور والداعية حتى يكون منصفًا أن يتحرى القصد الحسن من حواره ودعوته، بأن يكون هدفه إظهار الحق، والرغبة في الوصول إليه، وانظر إلى نبي الله شعيب عليه السلام بعد المحاورة الطويلة لقومه، كيف بين مقصوده من حواره، ودعوته لهم، حيث أخبر الله عنه أنه قال: ﴿يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨].

فقوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ يعني: هذا هدفي ومقصدي من دعوتي لكم، وهو قصد حسن، وهكذا ينبغي أن يكون قصد كل محاور وداعية ومتكلم، أن يكون قصده الإصلاح لا الإفساد، وإحقاق الحق، وإبطال الباطل.

يقول السمرقندي: في قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ﴾ أي: ما أريد إلا العدل[1].

والعدل من معاني الإنصاف.

وقد فضح سوء نواياهم الداعية لهم إلى الإعراض عن دعوته عقب إظهار حسن نيته مما دعاهم إليه، بقوله: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ﴾ [هود:٨٨].

مصادفًا محز جودة الخطابة؛ إذ رماهم بأنهم يعملون بضد ما يعاملهم به[2].

ولما بين لهم حقيقة عمله، وكان في بيانه ما يجر الثناء على نفسه، أعقبه بإرجاع الفضل في ذلك إلى الله، فقال: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [هود:٨٨].

فسمى إرادته الإصلاح توفيقًا، وجعله من الله، لا يحصل في وقت إلا بالله، أي: بإرادته وهديه[3].

والمقصود: أن من متطلبات الإنصاف في الحوار تحري القصد الحسن من المحاورة، أو من الدعوة؛ وهذا من علامة الإخلاص لله، والرغبة في طلب الحق.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البينة:٥].

فمن الإنصاف أن يكون الداعي مقصده صالحًا، وغرضه حسنًا، بالحرص على ظهور الحق، وهداية الخلق، فهذا له أثر

(١) تفسير السمرقندي ٢/ ١٦٧.
(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٢/ ١٤٧.
(٣) المصدر السابق ١٢/ ١٤٥.

عظيم في قبول الحق، فمتى علم الناس من الداعية حسن القصد، ونبل الهدف، أثر ذلك فيهم تأثيرًا عجيبًا.

ثانيًا: التثبت والتبين:

من لوازم الإنصاف التثبت والتبين، حتى لا يخرج المسلم عن العدل والإنصاف في قوله وحكمه، أو يتسرع في الحكم على قول أو فعل أو شخص دون تبين وتثبت.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾ [الحجرات:٦].

قال الشافعي رحمه الله: فأمر الله من يمضي أمره على أحد من عباده أن يكون مستبينًا قبل أن يمضيه[١]. حتى لا يجانب العدل والإنصاف.

وها هنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه، ورد شهادته جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر، فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته، وكثير من الفاسقين يصدقون في أخبارهم ورواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يرد خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما من فسقه من جهة الكذب، فإن أكثر منه وتكرر، بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة أو مرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمهم الله[٢].

وخصص الفاسق بالتبين والتثبت في قوله لأنه مظنة الكذب، وحتى لا يشيع الشك بين الجماعة المسلمة في كل ما ينقله أفرادها من أنباء، فيقع ما يشبه الشلل في معلوماتها، فالأصل في الجماعة المؤمنة أن يكون أفرادها موضع ثقتها، وأن تكون أنباؤهم مصدقة مأخوذًا بها، فأما الفاسق فهو موضع الشك حتى يثبت خبره؛ وبذلك يستقيم أمر الجماعة وسطًا بين الأخذ والرفض؛ لما يصل إليها من أنباء، ولا تعجل الجماعة في تصرف بناء على خبر فاسق، فتصيب قومًا بظلم عن جهالة وتسرع، فتندم على ارتكابها ما يغضب الله، ويجانب الحق والعدل في اندفاع[٣].

ولهذا قال: ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ لأن المؤمن إذا وقع في هذا المحظور المنهي عنه، وهو ظلم الناس،

(١) تفسير الإمام الشافعي ٣/ ١٢٧٠.

(٢) التفسير القيم ص ٤٧٩.

(٣) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٤١.

أو أذية الناس بسبب تناقل الأخبار يندم على ذلك، وبخاصة وأن قبول خبر الفاسق يؤدي إلى الرغبة في الانتقام من هذا الفاعل أو معاقبته أو أذيته، فإذا بادرت وعاقبته وتعجلت بناءً على هذا الخبر من الفاسق، فربما يتبين لك بعد ذلك أنه كان مظلومًا، فيملؤك الندم على ما فعلت من ترك التثبت، وعدم الحيطة، وقبول خبر الفاسق.

فلا يعجل من بلغه خبر، وبخاصة إن كان عن حميم أو قريب لمجرد قوله ذلك، فكم حدث في التاريخ القديم والحديث نتيجة أنباء الفسقة الكاذبين من قتل بظلم، وسجن بظلم، وأخذ مال بظلم، وحصل الندم، ولكن بعد فوات الأوان، فإن كان الأذى موتًا فلا حيلة في إحيائه مرة أخرى، وإن كان ضربًا وإيذاءً فلا حيلة في زوال ذلك الضرب، وقد أوذي المرء وأهين.

وهذه الآية ستبقى دستورًا للأخبار والمعاملات للرواة وللمحدثين ولأهل العلم وللحكومات وللقضاة وللمتتبعين للأخبار، بحيث يستوثقون من أي خبر جاء، خاصة إذا كان المخبر يأخذ مالًا، ويأخذ راتبًا على هذه الأخبار، فهو عندما لا يجد خبرًا، ولا يسمع نبأ، يذهب ويكذب ويخترع ليحوز المال، فهو كاذب، ولا يفرح لمثل هذا، فانتقام الله منه يكون عظيمًا في الدنيا قبل الآخرة[1].

والمراد من التبين التعرف والتفحص، ومن التثبت: الأناة، وعدم العجلة، والتبصر في الأمر الواقع، والخبر الوارد حتى يتضح ويظهر...، وقوله: ﴿أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ﴾ أي: كراهة أن تصيبوا، أو لئلا تصيبوا؛ لأن الخطأ ممن لم يتبين الأمر ولم يتثبت فيه هو الغالب وهو جهالة؛ لأنه لم يصدر عن علم، والمعنى: متلبسين بجهالة بحالهم، فتصبحوا على ما فعلتم بهم من إصابتهم بالخطأ نادمين على ذلك، مغتمين له، مهتمين به[2].

والمقصود: إن من الإنصاف التثبت والتبين من خبر الفاسق قبل الحكم على الناس، أو اتهامهم، أو عقابهم، حتى لا يقع المسلم في الظلم والجور، ثم يندم حيث لا ينفع الندم.

ثالثًا: إحسان الظن:

ومن لوازم الإنصاف حسن الظن بالمسلم.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

فنهى الله تعالى عن كثير من الظن السوء بالمؤمنين، فإن بعض الظن إثم؛ وذلك كالظن الخالي من الحقيقة والقرينة،

(١) تفسير المنتصر الكتاني ٣٥٣/ ٧.
(٢) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٧١.

وكظن السوء الذي يقترن به كثير من الأقوال والأفعال المحرمة، فإن بقاء ظن السوء بالقلب لا يقتصر صاحبه على مجرد ذلك، بل لا يزال به حتى يقول ما لا ينبغي، ويفعل ما لا ينبغي، وفي ذلك أيضًا إساءة الظن بالمسلم، وبغضه وعداوته، المأمور بخلاف ذلك منه[1].

قال ابن كثير: يقول تعالى ناهيًا عباده المؤمنين عن كثير من الظن، وهو التهمة والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله؛ لأن بعض ذلك يكون إثمًا محضًا، فليجتنب كثير منه احتياطًا[2].

فالآية تأمر المؤمنين باجتناب كثير من الظن، فلا يتركوا نفوسهم نهبًا لكل ما يهجس فيها حول الآخرين من ظنون وشبهات وشكوك، وتعلل هذا الأمر ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ وما دام النهي منصبًا على أكثر الظن، والقاعدة أن بعض الظن إثم، فإن إيحاء هذا التعبير للضمير هو اجتناب الظن السيئ أصلًا؛ لأنه لا يدري أي ظنونه تكون إثمًا؟! بهذا يطهر القرآن الضمير من داخله أن يتلوث بالظن السيئ، فيقع في الإثم، ويدعه نقيًا بريئًا من الهواجس والشكوك، أبيض يكن لإخوانه المودة التي لا يخدشها ظن السوء، والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك، والطمأنينة التي لا يعكرها القلق والتوقع.

وما أروع الحياة في مجتمع بريء من الظنون! ولكن الأمر لا يقف في الإسلام عند هذا الأفق الكريم الوضيء في تربية الضمائر والقلوب، بل إن هذا النص يقيم مبدأ في التعامل، وسياجًا حول حقوق الناس الذين يعيشون في مجتمعه النظيف، فلا يؤخذون بظنة، ولا يحاكمون بريبة، ولا يصبح الظن أساسًا لمحاكمتهم، بل لا يصح أن يكون أساسًا للتحقيق معهم، ولا للتحقيق حولهم، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: (**إذا ظننت فلا تحقق**)[3].

ومعنى هذا أن يظل الناس أبرياء، مصونة حقوقهم وحرياتهم واعتبارهم، حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه، ولا يكفي الظن بهم لتعقبهم بغية التحقق من هذا الظن الذي دار حولهم! فأي مدى من صيانة كرامة الناس وحرياتهم وحقوقهم واعتبارهم ينتهي إليه هذا النص؟! وأين أقصى ما تتعاجب به أحسن البلاد ديمقراطية وحرية وصيانة لحقوق الإنسان فيها من هذا المدى الذي هتف به القرآن الكريم للذين آمنوا، وقام عليه المجتمع الإسلامي فعلًا،

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٠١.
(٢) تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٣٧٧.
(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، ٣/ ٢٢٨، رقم ٣٢٢٧.
وضعفه الألباني في ضعيف الجامع، ص ٣٧٢، رقم ٢٥٢٧.

وحققه في واقع الحياة، بعد أن حققه في واقع الضمير[1].

والمقصود: أن المسلم لكي يكون منصفًا مع الخصم أو مع الناس عمومًا لا بد أن يترك الظن السيئ بهم، بل لا بد من حسن الظن بالطرف الآخر واحترامه، وهذا مما يسهل الوصول إلى قلبه، وتملكه وإقناعه.

وسبب تحريم سوء الظن: أن أسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب، فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف لك بعيان لا يقبل التأويل، فعند ذلك لا يمكنك ألا تعتقد إلا ما علمت وشاهدت بنفسك، وما لم تشاهده بعينك ولم تسمعه بأذنك ثم وقع في قلبك، فإنما يلقيه إليك الشيطان.

وللأسف الشديد هذا شائع في مجتمعنا، أعني: سهولة تداول الطعن في الأعراض في المجالس، فما أن تقع خطوبة بين طرفين، أو يفتح الكلام على ذلك -ولو لم يتحقق- حتى تجد من يقبل هذا الكلام، وربما حققه وقطع به، وبنى عليه أحكامه، ثم يشيعها في الناس، هذا شائع وموجود! فهذا من الظلم، وهذا مما يخالف هذا التوجيه القرآني.

ومن الناس من يتلقى الخبر من الجرائد، ومن المشاهدة للإعلام، فيظل يروج بكلام كثير جدًا، فينبغي أن يتحرى المؤمن هذا الذي ينقله، أو يبني عليه أحيانًا، ولا بد من تجنب الظنون السيئة ما لم يشاهد بعينه، ولم يسمع بأذنه.

فليس لك أن تعتقد في غيرك سوءًا إلا إذا انكشف بعيان لا يقبل التأويل؛ لأننا نحن البشر، بل كل الخلق لا يستطيع أحد منهم أن يطلع على أسرار القلوب، فأسرار القلوب لا يعلمها إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى، أما البشر فليس لهم إلا الظاهر، فإذا ظهر من شخص شيء، وبان لك عيانًا ببينة، فهنا يحق لك أن تظن ما يليق بهذا الذي ظهر منه، أما إذا لم يظهر منه شيء ولا أمارة صحيحة على ذلك، فليس من حقك أن تظن به، وإلا فقد ظلمته واستحققت عقاب الله تبارك وتعالى.

رابعًا: القول الحسن:

ومن آداب الإنصاف في الحوار والجدال الحرص على القول الحسن.

قال تعالى: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل:١٢٥].

والمعنى: ادع أيها النبي الناس إلى دين الله، وشريعة ربك، وهي الإسلام، بالحكمة، أي: بالقول المحكم، والموعظة الحسنة، أي: بالعبرة والتوجيه والكلمة المؤثرة في القلوب، والتلطف بالإنسان، بإحلاله وتنشيطه؛ ليحذر الناس بأس الله

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٦/ ٣٣٤٥.

تعالى، ويحققوا لأنفسهم النجاح، وجادلهم بالتي هي أحسن، أي: وحاججهم محاجة تتصف بالحسن، والإقناع والإنصاف، وبالرفق واللين، ولطف الخطاب، والصفح عن المسيء، وقابل الإساءة بالإحسان، واقصد من الجدال الوصول إلى الحق، دون رفع الصوت أو السب، أو التعيير، أو التهكم والاستهزاء[١].

ومما يبين ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦].

فقوله: ﴿إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ أي: ألطف وأرفق، وهو الجميل من القول، والدعاء إلى الله، والبينة على آيات الله وحججه[٢]. كمعاملة الخشونة باللين، والغضب بالحلم، والمشاغبة، أي: تحريك الشر وإثارته بالنصح، أي بتحريك الخير وإثارته، والعجلة بالتأني والاحتياط على وجه لا يؤدي إلى الضعف، ولا إلى إعظام الدنيا الدنية[٣].

والجدال: هو الخصام، أي: لا تخاصموهم، ولا تناقشوهم، ولا تحاوروهم إلا بالكلمة الطيبة، فلا تعنيف، ولا شتيمة، ولا صراخ، ولا تقبيح، ولا شتم وذم.

فالله جل جلاله أمرنا عند محاورة أهل الكتاب من اليهود والنصارى أن نجادلهم، وأن نستدل عليهم بالتي هي أحسن، أي: بالكلمة الحسنة والطيبة، من غير أن يكون هناك خصام ولا شتيمة.

وأن ندعوهم إلى القرآن وإلى الإسلام وإلى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم بالكلمة الطيبة[٤].

ومن الآيات التي تدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُواْ ٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الإسراء:٥٣].

أي: وقل لعبادي يقولوا في مخاطباتهم ومحاوراتهم مع خصومهم من المشركين وغيرهم: الكلام الأحسن للإقناع، مع البعد عن الشتم والسب والأذى[٥].

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ يَنزَغُ بَيۡنَهُمۡ﴾ يقول: إن الشيطان يسوء محاورة بعضهم بعضًا، وينزغ بينهم، أي: يفسد بينهم، ويهيج بينهم الشر[٦].

قال ابن كثير: يأمر تبارك وتعالى عبده ورسوله صلى الله عليه وسلم أن يأمر عباد الله المؤمنين أن يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلام الأحسن، والكلمة الطيبة، فإنهم إن لم يفعلوا ذلك نزغ الشيطان بينهم، وأخرج الكلام إلى الفعال، وأوقع الشر والمخاصمة والمقاتلة، فإنه عدو

(١) انظر: التفسير الوسيط، الزحيلي ٢/ ١٣١٩.
(٢) الكشف والبيان، الثعلبي ٧/ ٢٨٤.
(٣) روح البيان، إسماعيل حقي ٦/ ٤٧٧.
(٤) انظر: تفسير المنتصر الكتاني ١٦٧/ ٢.
(٥) تفسير المراغي ١٥/ ٥٩.
(٦) جامع البيان، الطبري ١٧/ ٤٦٩.

لآدم وذريته من حين امتنع عن السجود لآدم، وعداوته ظاهرة بينة؛ ولهذا نهى أن يشير الرجل إلى أخيه المسلم بحديدة، فإن الشيطان ينزع في يده، أي: فربما أصابه بها[1].

ونظيره قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة:٨٣]يعني: حقًا[2] والحق فيه دلالة على الإنصاف.

والحاصل: أن كلمة حسنًا واسعة الدلالة، فهي ترمز لمعانٍ شتى، من أعظمها الإنصاف في القول، فالإنصاف في القول من أعظم المحاسن.

وكلمة الناس في قوله: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ عامة، أي: للناس كلهم[3].

والمقصود: أن من آداب الإنصاف اتخاذ هذا الأسلوب من الجدال، بالتي هي أحسن، كي يستخفه السمع، ويقبله الطبع، فالجدال والنقاش بالأسلوب الحسن، وبالحكمة والموعظة الحسنة أدعى عند العقلاء إلى توفير القناعة، والوصول إلى الإيمان، وتحقيق الهدف المقصود.

فالآيات السابقة تأمر بالجدال بالتي هي أحسن إذا لزم الجدال، وبالتزام الحكمة، والموعظة الحسنة في الدعوة إلى سبيل الله. فالخير كل الخير هو في تلك الخطة، فإذا كان من الكفار من يشذ ويعنف، ورأى بعض المسلمين ضرورة للمقابلة، فلتكن في حدود المماثلة، والصبر مع ذلك هو الأفضل، وعلى المسلمين أن يملكوا زمام أنفسهم، فلا يخرجوا عن حد الاعتدال والإنصاف، ولا يحزنوا، ولا يضق صدرهم بما يرونه من مكر الكفار، ومواقفهم وتعنتهم، وعليهم بتقوى الله، والعمل الحسن الذي يرضيه، وإنه لمع المتقين المحسنين[4].

فهؤلاء أهل الكتاب من احتاج منهم إلى مناظرة وجدال، فليكن بالوجه الحسن، برفق ولين، وحسن خطاب، واصفح عمن أساء في القول، وترفق بهم في الخطاب، وقابل السوء بالحسنى، واقصد من الجدال الوصول إلى الحق، دون رفع الصوت، وسب الخصم أو الأذى، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ فهذا أمر للنبي صلى الله عليه وسلم بلين الجانب، ولطف الخطاب، كما أمر به موسى وهارون عليهما السلام حين بعثهما إلى فرعون في قوله: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ [طه:٤٤].

فعلى كل داعية امتثال هذا الأمر الإلهي في دعوته[5].

وهكذا دعا النبي صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرآن العظيم، ٥/ ٨٠.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان ١/ ١١٩.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢/ ٢٩٧.
(٤) انظر: التفسير الحديث، محمد عزت دروزة ٥/ ٢٠٥.
(٥) التفسير المنير، الزحيلي ١٤/ ٢٧٠.



أهل الكتاب إلى كلمة سواء، ينصف فيها بعضهم بعضًا، كما حكى القرآن بقوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران: ٦٤].

وإذا كان قد دعاهم إلى هذا الإنصاف، وإلى ترك التعصب جانبًا، وعدم الخضوع لأسبابه، فإن حال الذين يخاطبهم إحدى حالين: إما أن يخلصوا في طلب الحق، ويجيبوا داعيه، وتلك خير الخصلتين، وإما أن لا يجيبوا داعيه، وتلك هي السوأى، فإن كانت الأولى فتلك هداية الله، وإن كانت الثانية، فإن الله تعالى قد كتب عليهم الشقوة، ولا سبيل لأن يدخل قلوبهم، فإن من طلب منه الإنصاف، فأعرض عنه فلا سبيل إلى هدايته، والجدل معه لا يجدي؛ ولذا قال سبحانه وتعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: فإن أعرضوا، ونأوا بجانبهم عن إجابة داعي الإنصاف، والدعوة بالتي هي أحسن، فلا تجادلوهم، ولا تحاجوهم، فإن الجدل مع من لم يجب داعي العدالة لا يزيده إلا لجاجة وعنادًا؛ وإن الحقائق تتبعثر على ألسنة المتجادلين، ويتبدد رونقها، ويذهب بهاؤها، وتفقد النفس عند الجدل الإيمان بالحقائق، والإذعان لها.

بل أمرهم الله تعالى بقوله: ﴿فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أي: يقول النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين لأولئك الذين مردوا على الجدال، وبعثرة الحقائق في حومة الجدل: اشهدوا بأنا مسلمون، مذعنون لطلب الحق، فلا تحاولوا أن تغيرونا عما اعتقدنا، وقد أنصفناكم بالدعوة إلى كلمة الحق والإنصاف، فلم تجيبوا، والآن ننصفكم مرة أخرى بأن نشهدكم بأننا مخلصون في طلب الحق، مذعنون له.

ومن جانبنا فإن أذعنتم مثلنا فنعما هي، وإن لم تذعنوا فلنا ديننا، ولكم دينكم، والله يحكم بيننا، وهو خير الحاكمين، وإن إعلان الإذعان للحق من جانب المؤمنين فيه دعوة للحق بإعلان المثل الواضح البين السامي، وهو يؤثر في الدعوة إلى الحق أكثر من الجدل؛ إذ يكون فيه ذكرى لمن له قلب، أو ألقى السمع وهو شهيد، وإن الجدل يثير غبارًا يجعل الوصول إلى الحق عسيرًا وسط عجاجة المتجادلين.

وإن هذه الآية الكريمة صورة سامية من الدعوة إلى الحق؛ ولذا كان يتخذها النبي صلى الله عليه وسلم منهاجه في دعوته، فقد كانت في الصيغة التي اختارها في دعوة

الملوك والحكام الكبراء إلى الإسلام[1].

خامسًا: ترك الجدال المذموم:

ومن آداب الإنصاف ترك الجدال المذموم، والجدل لأجل دفع الحق ورده، بل متى استبان الحق، وظهرت معالمه، فمن الإنصاف قبوله، والتسليم له، وقد أمر الله بالمجادلة بالحسنى، قال تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل:١٢٥].

قال القاسمي: دل قوله تعالى: ﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ على الحث على الإنصاف في المناظرة، واتباع الحق، والرفق والمداراة، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق، وإزهاق الباطل، وأن لا غرض سواه[2].

فالمنصف إذا تجلت له الحجة، وبان له الحق لم يتوقف عن قبول الحق، ولم يستمر في العناد والجدال.

وقد ضرب لنا القرآن الكريم أمثلة كثيرة في الإنصاف حال الجدال والمناظرة مع الخصم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿۞ قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُلِ ٱللَّهُۖ وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ:٢٤].

وهذه ملاطفة، وتنزل في المجادلة، إلى غاية الإنصاف، كقولك: الله يعلم أن أحدنا على حق، وأن الآخر على باطل، ولا تعين بالتصريح أحدهما، ولكن تنبه الخصم على النظر، حتى يعلم من هو على الحق، ومن هو على الباطل، والمقصود من الآية: أن المؤمنين على هدى، وأن الكفار على ضلال مبين[3].

قال السمين الحلبي بعد أن ذكر وجهين في تفسير هذه الآية: وهذان الوجهان لا ينبغي أن يحملا على ظاهرهما قطعًا؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشك أنه على هدى ويقين، وأن الكفار على ضلال، وإنما هذا الكلام جار على ما يتخاطب به العرب، من استعمال الإنصاف في محاوراتهم، على سبيل الفرض والتقدير، ويسميه أهل البيان: الاستدراج، وهو أن يذكر لمخاطبه أمرًا يسلمه، وإن كان بخلاف ما يذكر، حتى يصغي إلى ما يلقيه إليه؛ إذ لو بدأه بما يكره لم يصغ، ونظيره قولهم: أخزى الله الكاذب مني ومنك[4].

ونظير الآية السابقة قوله تعالى: ﴿قُل لَّا تُسۡـَٔلُونَ عَمَّآ أَجۡرَمۡنَا وَلَا نُسۡـَٔلُ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ٢٥﴾ [سبأ:٢٥].

قال البيضاوي: هذا أدخل في الإنصاف، وأبلغ في الإخبات، حيث أسند الإجرام إلى

(١) زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٢٦٠.
(٢) محاسن التأويل، القاسمي ٦/ ٤٢٣.
(٣) التسهيل في علوم التنزيل، ابن جزي ٢/ ١٦٦.
(٤) الدر المصون ٩/ ١٨٣.

أنفسهم، والعمل إلى المخاطبين[1]. فسمى فعله جرمًا -كما يزعمون- مع أنه مثاب مشكور، وسمى فعلهم عملًا، مع أنه مزجور عنه محظور[2].

وفي هذا التعبير القرآني محاسنة للمشركين، ورفق بهم، وإطفاء لحمية الجاهلية التي تعمي عليهم السبيل إلى الهدى، وهذا هو الأسلوب الحكيم في مخاطبة الجاهلين، وهو أسلوب الدعوة الإسلامية، والصميم من رسالة رسولها، كما يقول سبحانه وتعالى لنبيه الكريم: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥][3].

ومن الأمثلة على الإنصاف في المناظرة: قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ [غافر:٢٨]فهذا أيضًا نوع من أنواع التنزل، أو ما يسمى باستدراج الخصم في المناظرة حتى يقر بالحق.

فلما صرح بالإنكار عليهم بقوله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ غالطهم بعد ذلك، في أن قسم أمره إلى كذب وصدق، وأدى ذلك في صورة احتمال ونصيحة، وبدأ في التقسيم بقوله: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ مداراة منه، وسالكًا طريق الإنصاف في القول، وخوفًا إذا أنكر عليهم قتله أنه ممن يعاضده ويناصره، فأوهمهم بهذا التقسيم والبداءة بحالة الكذب حتى يسلم من شرهم، ويكون ذلك أدنى لتسليمهم.

ومعنى: ﴿فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: لا يتخطاه ضرره ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾[4]. من العذاب، ولم يقل: كل الذي يعدكم، مع أنه وعد من نبي صادق القول، مداراةً لهم، وسلوكًا لطريق الإنصاف، فجاء بما هو أقرب إلى تسليمهم له، وليس فيه نفي إصابة الكل، فكأنه قال لهم: لعل ما يكون في صدقه أن يصيبكم بعض ما يعدكم، وهو العذاب العاجل، وفي ذلك هلاككم[5].

قال الشهاب الخفاجي: ففيه من الإنصاف والأدب ما لا يخفى، فإنه نبي صادق، فلا بد أن يصيبهم كل ما وعد به لا بعضه؛ لكنه أتى بما هو أذعن لتسليمهم وتصديقهم؛ لما فيه من الملاطفة في النصح، بكلام منصف، غير مشتط مشدد، أراهم إنه لم يعطه حقه، ولم

(١) أنوار التنزيل، البيضاوي ٤/ ٢٤٧.
(٢) البحر المحيط، أبو حيان ٨/ ٥٤٨.
(٣) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ١١/ ٨١٠.
(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٩/ ٢٥٢.
(٥) مدارك التنزيل، النسفي ٣/ ٢٠٨.

يتعصب له، ويحامي عنه، حتى لا ينفروا عنه؛ ولذا قدم قوله: ﴿كَٰذِبًا﴾[1].

والمقصود: أن هذا من أعظم الإنصاف في المجادلة والمناظرة، حيث فرض لهم أسوأ الفروض، ووقف معهم موقف المنصف أمام القضية، تمشيًا مع أقصى فرض يمكن أن يتخذوه ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ أي: هو يحمل تبعة عمله، ويلقى جزاءه، ويحتمل جريرته، وليس هذا بمسوغ لهم أن يقتلوه على أية حال!

وهناك الاحتمال الآخر، وهو أن يكون صادقًا، فيحسن الاحتياط لهذا الاحتمال، وعدم التعرض لنتائجه ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ وإصابتهم ببعض الذي يعدهم هو كذلك أقل احتمال في القضية، فهو لا يطلب إليهم أكثر منه، وهذا منتهى الإنصاف في الجدل والإفحام[2].

ونظير ما سبق قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۝١٣٥﴾ [الأنعام:١٣٥].

ترديد بينه عليه السلام وبينهم، ومعلوم أن هذا التهديد والوعيد مختص بهم، وأن عاقبة الدار الحسنى هي له عليه السلام، ولكنه أجري مجرى قوله: فشركما لخيركما الفداء[3].

وقد علم ما هو شر، وما هو خير؛ ولكنه أبرز في صورة الترديد؛ إظهارًا لصورة الإنصاف، ورميًا بالكلام على جهة الاشتراك؛ اتكالًا على فهم المعنى[4].

والحاصل: أن على من اضطر إلى المناظرة والمجادلة فليكن منصفًا، عادلًا، قابلًا للحق، ممن جاء به، ولتكن مناظرته ومجادلته بالحسنى، فالجدال والحجاج غير مذموم مطلقًا، بل حسب كيفيته، والقصد منه، وقد قص لنا القرآن محاجة إبراهيم عليه السلام وغيره، حيث قال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾ [البقرة:٢٥٨].

قال القرطبي: وتدل الآية على إثبات المناظرة والمجادلة، وإقامة الحجة، وفي القرآن والسنة من هذا كثير لمن تأمله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة:١١١]. وقال: ﴿إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي ٤/ ٤٦.

(٢) انظر: في ظلال القرآن، سيد قطب ٥/ ٣٠٧٩.

(٣) البيت لحسان بن ثابت، في ديوانه ص٩، وصدر البيت: أتهجوه ولست له بكفو.

(٤) البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٦٥٤.

بِهَٰذَآ﴾ [يونس:٦٨].

أي: من حجة، وقد وصف خصومة إبراهيم عليه السلام قومه ورده عليهم في عبادة الأوثان، كما في سورة الأنبياء وغيرها.

وقال في قصة نوح عليه السلام: ﴿قَالُواْ يَٰنُوحُ قَدْ جَٰدَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَٰلَنَا﴾ [هود:٣٢] الآيات... إلى قوله: ﴿وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُجْرِمُونَ﴾ [هود:٣٥].

وكذلك مجادلة موسى مع فرعون إلى غير ذلك من الآي، فهو كله تعليم من الله عز وجل السؤال والجواب والمجادلة في الدين؛ لأنه لا يظهر الفرق بين الحق والباطل إلا بظهور حجة الحق، ودحض حجة الباطل.

وفي قول الله عز وجل: ﴿فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [آل عمران:٦٦].

دليل على أن الاحتجاج بالعلم مباح شائع لمن تدبر، قال المزني صاحب الشافعي: ومن حق المناظرة أن يراد بها الله عز وجل، وأن يقبل منها ما تبين، وقالوا: لا تصح المناظرة، ويظهر الحق بين المتناظرين حتى يكونوا متقاربين، أو مستويين في مرتبة واحدة، من الدين والعقل والفهم والإنصاف، وإلا فهو مراء ومكابرة[١].

وقد أخبر الله تعالى عن نبيه أنه دعى قومه إلى كلمة سواء، يكون فيها الإنصاف والعدل.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [آل عمران:٦٤].

أي: قل لأهل الكتاب من اليهود والنصارى ﴿تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هلموا نجتمع عليها، وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون، ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، ليست مختصة بأحدنا دون الآخر، بل مشتركة بيننا وبينكم، وهذا من العدل في المقال، والإنصاف في الجدال[٢].

وقد كان عليه السلام حريصًا على إيمانهم، فكأنه تعالى قال: يا محمد اترك ذلك المنهج من الكلام، واعدل إلى منهج آخر، يشهد كل عقل سليم، وطبع مستقيم، أنه كلام مبني على الإنصاف، وترك الجدال، و﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: هلموا إلى كلمة فيها إنصاف من بعضنا لبعض، ولا ميل فيه لأحد على صاحبه، وهي ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ﴾[٣].

وكأنه لما أورد الدلائل عليهم أولًا،

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ٣/ ٢٨٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ١٣٣.

(٣) مفاتيح الغيب، الرازي ٨/ ٢٥١.

ثم باهلهم ثانيًا، عدل في هذا المقام إلى الكلام المبني على رعاية الإنصاف، وترك المجادلة، وطلب الإفحام والإلزام، ومما يدل عليه أنه خاطبهم ها هنا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهذا الاسم من أحسن الأسماء، وأكمل الألقاب، حيث جعلهم أهلًا لكتاب الله.

ونظيره ما يقال لحافظ القرآن: يا حامل كتاب الله، وللمفسر: يا مفسر كلام الله، فإن هذا اللقب يدل على أن قائله أراد المبالغة في تعظيم المخاطب، وفي تطييب قلبه، وذلك إنما يقال عند عدول الإنسان مع خصمه عن طريقة اللجاج والنزاع إلى طريقة طلب الإنصاف.

أما قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ﴾...، فالسواء هو العدل والإنصاف؛ وذلك لأن حقيقة الإنصاف إعطاء النصف، فإن الواجب في العقول ترك الظلم على النفس وعلى الغير؛ وذلك لا يحصل إلا بإعطاء النصف، فإذا أنصف وترك ظلمه أعطاه النصف، فقد سوى بين نفسه، وبين غيره، وحصل الاعتدال، وإذا ظلم وأخذ أكثر مما أعطى زال الاعتدال، فلما كان من لوازم العدل والإنصاف التسوية جعل لفظ التسوية عبارة عن العدل، ثم قال الزجاج: ﴿سَوَآءِۭ﴾ نعت للكلمة، يريد: ذات سواء، أي: كلمة عادلة مستقيمة مستوية، فإذا آمنا بها نحن وأنتم كنا على السواء والاستقامة[1].

والحاصل: أن الأمثلة القرآنية السابقة كلها تدل على استخدام الإنصاف أثناء المناظرة والمجادلة، واستخدام الملاطفة في النصح، والإتيان بكلام منصف غير مشدد، ولا متعصب.

قال ابن باديس: لما كان أهل الباطل لا يجدون في تأييد باطلهم إلا الكلمات الباطلة، يموهون بها، والكلمات البذيئة القبيحة يتخذون سلاحًا منها، ولا يسلكون في مجادلتهم إلا الطرق الملتوية المتناقضة، فيتعسفون فيها، ويهربون إليها؛ لما كان هذا شأنهم، أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يجتنب كلماتهم الباطلة والقبيحة، وطرائقهم المتناقضة والملتوية، وأن يلتزم في جدالهم كلمة الحق، والكلمات الطيبة البريئة، وأن يسلك في مدافعتهم طريق الرفق والرجاحة والوقار والإنصاف، دون فحش ولا طيش ولا فظاظة.

وهذه الطريقة في الجدال هي التي هي أحسن من غيرها، في لفظها ومعناها، ومظهرها وتأثيرها، وإفضائها للمقصود من إفحام المبطل وجلبه، ورد شره عن الناس، وإطلاعهم على نقصه، وسوء قصده...، فالجدال يكون عند وجود ما يقتضيه؛ ولهذا كانت الدعوة بوجهيها محمودة على

(١) المصدر السابق.

كل حال، وكان الجدال مذمومًا في بعض الأحوال.

وذلك فيما إذا استعمل عند عدم الحاجة إليه، فيكون حينئذٍ شاغلًا عن الدعوة، ومؤديًا في الأكثر إلى الفساد والفتنة، فإذا كان جدالًا لمجرد الغلبة والظهور فهو شر كله، وأشد شرًا منه إذا كان لمدافعة الحق بالباطل.

وفي هذه الأقسام الممنوعة جاء مثل قوله: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف:٥٦].

وقوله: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨].

فالمدافعة والمغالبة من فطرة الإنسان، ولهذا كان الإنسان أكثر شيء جدلًا، غير أن التربية الدينية هي التي تضبط خلقه، وتقوم فطرته، فتجعل جداله بالحق عن الحق.

فلنحذر من أن يطغى علينا خلق المدافعة والمغالبة، فنذهب في الجدل شر مذاهبه، وتصير الخصومة لنا خلقًا، ومن صارت الخصومة له خلقًا أصبح يندفع معها في كل شيء، ولأدنى شيء، ولا يبالي بحق ولا باطل، وإنما يريد الغلب بأي وجه كان...، فمن ضبط نفسه، وراقب ربه، لا يجادل إذا جادل إلا عن الحق، وبالتي هي أحسن[(١)].

والحاصل: أن في هذه الأمثلة القرآنية حثًا على الإنصاف في المناظرة، واتباع الحق، والرفق والمداراة، على وجهٍ يظهر منه أن القصد إثبات الحق، وإزهاق الباطل، لا نصرة الرأي، وهزيمة الرأي الآخر.

سادسًا: الإقرار بالحق إذا قاله المخالف:

ومن الإنصاف أن يقر المرء بالحق، وإن صدر من الخصم، فالحق أحق أن يتبع، ومما يبين ذلك: ما جاء في قصة السحرة مع موسى عليه السلام حيث حكى الله قصتهم.

قال تعالى: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾﴾ [طه:٧١-٧٣].

وما ذكره جل وعلا عنهم في هذا الموضع من ثباتهم على الإيمان، وإنصافهم للحق، وعدم مبالاتهم بتهديد فرعون ووعيده، رغبة فيما عند الله، قد ذكره في غير هذا الموضع، كقوله في الشعراء عنهم في القصة بعينها: ﴿قَالُوا۟ لَا ضَيْرَ ۖ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾﴾ [الشعراء:٥٠]وقوله في الأعراف: ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ

(١) تفسير ابن باديس١/ ٣٢٤.

﴿ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرٗا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ١٢٦﴾ [الأعراف: ١٢٥-١٢٦].

فهؤلاء كانوا في الغداة كفارًا سحرة، وأمسوا أخيارًا بررة، لما عرفوا الحق اتبعوه وأنصفوه، ويا له من إنصاف عظيم! تحملوا معه التبعات العظام، هددهم فرعون بالقطع والقتل والصلب، ومع هذا ما خافوا وما استكانوا، بل آثروا الحق وقبلوه، مع أنه جاء عن طريق من كان خصمًا لهم في نظرهم.

قال الرازي: اعلم أنه تعالى لما حكى تهديد فرعون لأولئك حكى جوابهم عن ذلك بما يدل على حصول اليقين التام، والبصيرة الكاملة لهم في أصول الدين، فقالوا: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات.

وذلك يدل على أن فرعون طلب منهم الرجوع عن الإيمان وإلا فعل بهم ما أوعدهم، فقالوا: ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ﴾ جوابًا لما قاله، وبينوا العلة، وهي أن الذي جاءهم بينات وأدلة، والذي يذكره فرعون محض الدنيا، ومنافع الدنيا ومضارها لا تعارض منافع الآخرة ومضارها[1].

والمقصود: أن هذه إجابة حاسمة قاطعة، تقطع أمله في رجوعهم، والإيمان إذا دخل القلب، وأشرب حبه كان أثبت من الرواسي، وهو إيمان بحجة وبينة وبرهان ﴿لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: لن نتركه لأجلك أيها الطاغي الباغي، وهذا معنى مؤكد، لأن (لن) تفيد النفي المؤكد...، فلا تطمع في رجوعنا عن الحق والإيثار والتفضيل، أي: لن نفضلك على البينات، وهي الدلالات الواضحات التي جاءتنا، وفي هذا إشارة إلى أن ما عنده باطل وأوهام، وكيف نفضل الأوهام على الدليل والبرهان؟!

وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ والذي فطرنا هو الله، يعني: لن نؤثرك على الحق الواضح، ولن نؤثرك على الله تعالى جل جلاله، فهو القادر على كل شيء، فلن نؤثر الضعيف الظاهر على الله القادر العادل القهار، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَٱلَّذِي فَطَرَنَا﴾ أي: أنشأنا ولم نكن شيئًا، فتكون الواو للقسم لا للعطف، والمعنى: لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والله الذي أنشأنا من عدم، فمن تكون أنت أيها المخلوق الضعيف، ولو كنت فرعون الطاغي المتجبر بصلفك وعتوك؟!

وقد رتبوا على عزمتهم النابعة من قلوب مؤمنة تفويضهم الأمور إلى ربهم، والاستهانة بفرعون وبتهديده، فقالوا: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ لأنه قضاء الحياة الدنيا، وهي فانية، والآخرة هي الباقية.

وقالوا ما يدل على الاستهانة بحكمه القاصر ﴿إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾

(١) مفاتيح الغيب، ٢٢/ ٧٧.

والمعنى: إن قضاءك هو في هذه الحياة الدنيا فقط، فهو قضاء تنفيذه وقت قصير، ومن بعده خير طويل، فإنما الحياة الدنيا متاع قليل، والآخرة خير وأبقى، وإن هذا يدل على كمال الإيمان بالله، والاستهانة بفرعون وعذابه[1].

والمقصود: أن هؤلاء لما عرفوا الحق أنصفوه واتبعوه وآثروه، فيا له من إيثار! وما أعظمه من إنصاف!

هددهم وتوعدهم بالقتل والصلب، وفنون من العذاب الصعب، وهكذا هي عادة المنهزم، إذا عجز عن الحجة لجأ إلى القوة.

فكان ردهم له أن قالوا له: لن نختارك يا فرعون، ولن نرضى بأن نكون من حزبك، ولن نقدم سلامتنا من عذابك، على ما ظهر لنا من المعجزات التي جاءنا بها موسى، والتي على رأسها عصاه التي ألقاها فإذا هي تبتلع حبالنا وعصينا.

وفي قول فرعون: ﴿أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ إشارة إلى ما تهدد به موسى السحرة، قبل أن تبدأ المعركة، وذلك في قوله: ﴿وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ [طه:٦١].

فالعذاب الذي تهددهم به موسى هو عذاب مؤجل ليوم القيامة، وهذا العذاب لا يدرك مداه إلا من يؤمنون بالله وباليوم الآخر.

أما العذاب الذي سيأخذهم به فرعون فهو عذاب حاضر واقع في الحال، وهو عذاب -على تلك الصورة- فظيع مهول! ولهذا وازن فرعون بين عذابه، والعذاب الذي توعد موسى السحرة به، وأراهم أن عذابه أشد ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أعذابي الحاضر أم العذاب الذي يهددكم به موسى؟ وأنا أم موسى ﴿أبقى﴾ لكم، وأملك لأمركم، وأقدر على التسلط عليكم؟

فكان جوابهم هذه العبارة: ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ وهكذا الإيمان إذا جاء إلى الإنسان، أو جاء إليه الإنسان عن طريق النظر والبحث والتحليل والتعليل، إنه حينئذٍ إيمان يخالط المشاعر، ويملك القلوب، ويأسر العقول، ويجعل من الإنسان الفقير الضعيف، قوة هائلة، تتحدى الجبابرة، وتستخف بأعظم الأهوال، وأشد الخطوب، وهل كان يقع في الحسبان أن جماعة من رعايا فرعون وعابديه الذين ولدوا -كما ولد آباؤهم- في ظل ربوبيته، وسلطان ألوهيته، هل كان يقع في الحسبان أن يجيء يوم يقف فيه هؤلاء (العباد) في وجه هذا (الإله) موقف التحدي، بل والاستخفاف والسخرية؟ ولكنه الإيمان، يفعل المعجزات، ويقلب

(١) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٧٥٣.

الأوضاع والمواضعات![1].

ألقى الله جل وعلا في قلوبهم الإيمان واليقين، ووجدوا حلاوته، رغم أنه ليس لهم أيامًا، ولا شهورًا، ولا أعوامًا في الطاعة والإيمان والعمل الصالح، لكن تلك الحظوة الإلهية نالوها ببركة سجودهم، حتى يعلم أثر العمل الصالح على قلب العبد، ثم ردوا عليه بطريقته...، قد يكون الله أعطاك سلطانًا على الدنيا، لكن ليس لك سلطان على حياتنا في الآخرة والدنيا، وسواء قضيت علينا أو لم تقض علينا فمردنا أصلًا إلى الموت فلا نخوف بشيء، لكن العبرة بالحياة الأخروية.

وهل نفذ فيهم تهديده؟ الآيات لم تذكر ذلك، لكن ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده، فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم، فماتوا على الإيمان، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا في أول النهار سحرة، وفي آخر النهار شهداء بررة[2].

نماذج قرآنية في الإنصاف

الدعوة إلى الإنصاف، والحث على سلوكه مبدأ قرآني، فقد جاء في القرآن الكريم صور كثيرة، ونماذج عديدة في الإنصاف، ومن النماذج القرآنية البارزة في الإنصاف:

أولًا: إنصاف القرآن لطائفة من قوم موسى عليه السلام:

مع أن اليهود هم أشد الناس عداوة للإسلام وأهله، وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم مبينةً كفرهم، وخبثهم، وعنادهم، وقتلهم الأنبياء، وقولهم على الله ما قالوا، حتى لعنهم الله بما قالوا، إلا أن هذه العداوة، وهذه الصفات التي حملوها، لم تمنع القرآن الكريم من إنصاف بعضٍ منهم.

ومن مظاهر هذا الإنصاف:

١. ثناؤه عز وجل على طائفة من قوم موسى.

قال تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف:١٥٩].

فكونهم أشد الناس عداوة للمسلمين لم يمنع ذلك من إنصافهم، والإشادة بمن أحسن منهم.

وقوم موسى هم أتباع دينه من قبل بعثة

(١) التفسير القرآني للقرآن، عبدالكريم الخطيب ٨/ ٨٠٧.

(٢) التفسير المنير، الزحيلي ١٦/ ٢٤١.

محمد صلى الله عليه وسلم، فمن بقي متمسكًا بدين موسى عليه السلام بعد بلوغ دعوة الإسلام إليه فليس من قوم موسى، ولكن يقال: هو من بني إسرائيل أو من اليهود؛ لأن الإضافة في قوم موسى تؤذن بأنهم متبعو دينه الذي من جملة أصوله ترقب مجيء الرسول الأمي صلى الله عليه وسلم[1].

والآية تبين أنهم جماعة؛ لأن لفظ (الأمة) يدل على الكثرة، وهم في الواقع قليل.

قال في اللباب: فإن قيل: إنهم كانوا قليلين في العدد، ولفظ (الأمة) ينبئ عن الكثرة، فالجواب: إنهم لما أخلصوا في الدين جاز إطلاق لفظ (الأمة) عليهم؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل:١٢٠][2].

فمدحهم الله بقوله: ﴿يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ﴾ أي: يهدون الناس من بني إسرائيل، أو من غيرهم، ببث فضائل الدين الإلهي، وهو الذي سماه الله بالحق، و﴿وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ أي: يحكمون حكمًا لا جور فيه...، والمعنى: أنهم يحكمون بالعدل على بصيرة وعلم، وليس بمجرد مصادفة الحق عن جهل، فإن القاضي الجاهل إذا قضى بغير علم كان أحد القاضيين اللذين في النار، ولو صادف الحق؛ لأنه بجهله قد استخف بحقوق الناس، ولا تنفعه مصادفة الحق؛ لأن تلك المصادفة لا عمل له فيها[3].

والحاصل: أن الله أخبر عن صفة لقوم موسى الذين رغبهم الله تعالى باتباع ملة محمد صلى الله عليه وسلم، وهي أن بعضهم أمة مؤمنة يهدون بالحق، وبه يعدلون، وهذا فيه إنصاف لهم، وشهادة صريحة من الله تعالى، تبين أن من قوم موسى جماعة تهدي بالحق، وتؤمن بالإيمان الحق، وترشد الناس إلى الإيمان الصحيح والخير، وتدل على منهج الاستقامة، وتحكم بمقتضى العدل الإلهي الواجب اتباعه في القضاء، دون جور أو ظلم، هؤلاء الجماعة اهتدوا واتقوا وعدلوا، فأشاد القرآن بهم، وهذا من إنصاف القرآن وعدله.

٢. ثناؤه على طائفة من أهل الكتاب.

قال تعالى: ﴿۞ لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [آل عمران:١١٣-١١٥].

فقوله: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ هذا أيضًا من

(١) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٤٢.
(٢) اللباب في علوم الكتاب، ابن عادل ٩/ ٣٤٨.
(٣) التحرير والتنوير، ابن عاشور ٩/ ١٤٢.

إنصاف القرآن، فهو لا يعمم حكمه إلا حيث يكون التعميم هو الحق الذي لا شك فيه، وإن كان في قوم من هم جديرون بالثناء ذكرهم...، ففي هذه الآية يذكر بالخير العظيم طائفة من هؤلاء، فيقول الحكم العدل تعالت كلماته: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً﴾ أي: ليسوا متساوين في هذه الأعمال، وتلك الأخلاق، أو ليسوا متساوين مطلقًا، فليسوا جميعًا أشرارًا، وإن الله سبحانه وتعالى لم يخلق طائفة كبيرة من الناس اجتمعت على الشر اجتماعًا مطلقًا، بحيث يرتضيه الجميع ويقصدونه ويريدونه ويبتغونه، عامدين مريدين معتدين، بل إن منهم الضال، ومنهم المضل، ومنهم الناطق بالحق الذي لا يجد داعيًا، أو يحمل على السكوت في وسط نكران الضالين...، وبعد أن ذكر سبحانه أنهم ليسوا سواء، وقد ذكر أحوال أشرارهم أخذ يبين أحوال أخيارهم، فقال: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ اللَّهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب الذين ذكرنا أوصاف الكثرة منهم، طائفة قائمة...، وفسر الزمخشري كلمة ﴿قَآئِمَةٌ﴾ بمعنى مستقيمة عادلة، من قولك: أقمت العود فقام، بمعنى استقام[1]، وقد ذكر سبحانه وتعالى في هذا الجزء من الآية الكريمة وصفين اثنين:

الأول: أنهم يتلون آيات الله.

والثاني: أنهم يسجدون.

ومعنى يسجدون، أي: يخضعون ويتطامنون للحق، ولا يجحدون، ويتجهون إلى ربهم، يرجون رضاه، ولا يستكبرون عن نداء الحق إذا دعوا، فكنى بالسجود عن الخضوع المطلق الذي يعد السجود مظهره.

ويصح أن يراد به السجود الذي يقع في صلاة المسلمين.

وقد ذكر ذلك الوصف مصدرًا بـ﴿هم﴾ إذ يقول: وهم يسجدون، فلم يقل: ويسجدون؛ للإشارة إلى أن الخضوع والإذعان للحق شأن من شئونهم، وليس حالًا تعرض لهم؛ إذ إن ذكر الضمير فيه تقوية الإسناد، وتوثيق لدوامه واستمراره[2].

وفي الآية قولان ذكرهما ابن كثير، حيث قال:

عن ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَآءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ﴾ قال: لا يستوي أهل الكتاب، وأمة محمد صلى الله عليه وسلم.

والمشهور عند كثير من المفسرين كما ذكره محمد بن إسحاق وغيره، ورواه العوفي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآيات نزلت فيمن آمن من أحبار أهل الكتاب، كعبد الله بن سلام، وأسد بن عبيد

(١) الكشاف، ١/ ٤٠٢.

(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٣/ ١٣٦٦.

وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية وغيرهم، أي: لا يستوي من تقدم ذكرهم بالذم من أهل الكتاب، وهؤلاء الذين أسلموا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ أي: ليسوا كلهم على حد سواء، بل منهم المؤمن، ومنهم المجرم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي: قائمة بأمر الله، مطيعة لشرعه، متبعة نبي الله، فهي قائمة، يعني: مستقيمة[١].

وقد ذكر ابن جرير أن قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ إلى آخر الآيات الثلاث: أنها نزلت في جماعة من اليهود أسلموا فحسن إسلامهم[٢]. ولا يمنع أن تشمل أيضًا النصارى.

فقد قال ابن عاشور: وعدل عن أن يقال: «منهم أمة قائمة» إلى قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ليكون هذا الثناء شاملًا لصالحي اليهود وصالحي النصارى، فلا يختص بصالحي اليهود، فإن صالحي اليهود قبل بعثة عيسى كانوا متمسكين بدينهم، مستقيمين عليه، ومنهم الذين آمنوا بعيسى واتبعوه، وكذلك صالحو النصارى قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم كانوا مستقيمين على شريعة عيسى، وكثير منهم أهل تهجد في الأديرة والصوامع، وقد صاروا مسلمين بعد البعثة المحمدية[٣].

٣. ذكر أن عند بعضهم أمانة.

قال سبحانه: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَّا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ [آل عمران: ٧٥].

قال أبو جعفر الطبري: هذا خبر من الله عز وجل أن من أهل الكتاب، وهم اليهود من بني إسرائيل، أهل أمانة، يؤدونها، ولا يخونونها، ومنهم الخائن أمانته، الفاجر في يمينه[٤].

فهذا مطلق الإنصاف الإلهي، فإذا كان الحق قد كشف للرسول بعضًا من مكر أهل الكتاب، فذلك لا يعني أن هناك حملة على أهل الكتاب، وكأنهم كلهم أهل سوء، لا، بل منهم من يتميز بالأمانة، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله المنصف العدل[٥].

والمقصود: أن هذا من إنصاف القرآن، وعدله في الحكم عليهم، فلم يخف بعض صفاتهم الحسنة، بل أشاد بها، وذكرها بكلام يتلى إلى قيام الساعة.

ثانيًا: إنصاف بعض النصارى:

ومن النماذج القرآنية في الإنصاف، إنصافه لبعض النصارى، فقد أثنى عليهم

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/ ٩٠.
(٢) جامع البيان، ٧/ ١٢٠.
(٣) التحرير والتنوير ٤/ ٥٧.
(٤) جامع البيان، ٦/ ٥١٩.
(٥) تفسير الشعراوي ٣/ ١٥٤٢.

بقوله: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [المائدة: ٨٢-٨٥].

أي: هم ألين عريكة، وأقرب ودًا، ولم يصفهم بالود إنما جعلهم أقرب من اليهود والمشركين...، واليهود ليسوا على شيء من أخلاق النصارى، بل شأنهم الخبث واللي بالألسنة، وفي خلال إحسانك إلى اليهودي يترقب ما يغتالك به، ألا ترى إلى ما حكى تعالى عنهم ذلك بأنهم قالوا: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ [آل عمران: ٧٥].

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾ إشارة إلى أنهم ليسوا متمسكين بحقيقة النصرانية، بل ذلك قول منهم وزعم، ووصف العداوة بالأشد، والمودة بالأقرب دليل على تفاوت الجنسين بالنسبة إلى المؤمنين، فتلك العداوة أشد العداوات وأظهرها، وتلك المودة أقرب وأسهل.

فظاهر الآية يدل على أن النصارى أصلح حالًا من اليهود، وأقرب إلى المؤمنين مودة، وعلى هذا الظاهر فسرت هذه الآية[1].

فالظاهر أن النصارى على الجملة أصلح حالًا من اليهود، وقد ذكر المفسرون ما فضل به النصارى على اليهود من كرم الأخلاق، والدخول في الإسلام سريعًا، وليس الكلام واردًا بسبب العقائد، وإلا فكلهم كفار، وإنما ورد بسبب الانفعال للمسلمين...

وصدر الآية يقتضي العموم؛ لأنه قال: ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ﴾.

ثم أخبر أن من هذه الطائفة علماء وزهاد ومتواضعين، وسريعي استجابة للإسلام، وكثيري بكاء عند سماع القرآن، واليهود بخلاف ذلك، والوجود يصدق قرب النصارى من المسلمين وبعد اليهود.

وذكر العلة في ذلك فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾.

والإشارة بذلك إلى أقرب المودة عليه، أي: منهم علماء وعباد، وأنهم قوم فيهم تواضع واستكانة، وليسوا مستكبرين، واليهود على خلاف ذلك، لم يكن فيهم قط

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٨/ ٥٩٤، معالم التنزيل، البغوي ٢/ ٧٥، تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٣/ ١٥٠.

أهل ديارات ولا صوامع وانقطاع عن الدنيا، بل هم معظمون متطاولون لتحصيلها، حتى كأنهم لا يؤمنون بآخرة؛ ولذلك لا يرى فيهم زاهد[1].

والآيات التي جاءت في إنصاف أهل الكتاب -غير ما سبق- كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [البقرة:١٢١] قال ابن الجوزي: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها نزلت في الذين آمنوا من اليهود، قاله ابن عباس.

والثاني: في المؤمنين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، قاله عكرمة وقتادة[2].

ومن الآيات: قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ ۚ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾﴾ [العنكبوت:٤٧] قال ابن جرير في قوله: ﴿فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ من قبلك من بني إسرائيل ﴿يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَٰؤُلَاءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ يقول: ومن هؤلاء الذين هم بين ظهرانيك اليوم من يؤمن به كعبد الله بن سلام، ومن آمن برسوله من بني إسرائيل[3].

وقوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [القصص:٥٢-٥٤].

قال ابن أبي حاتم: قوله: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ قال: يعني: من آمن بمحمد صلى الله عليه وسلم من أهل الكتاب[4].

ثالثًا: إنصاف ذي القرنين:

ومن النماذج القرآنية في الإنصاف إنصاف ذي القرنين، كما حكى الله تعالى عنه بقوله: . ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾﴾ [الكهف:٨٦-٨٨].

يحكي الله عن ذي القرنين أنه لما وصل إلى هؤلاء القوم، ووجدهم كفارًا، خير في أمرهم ﴿إِمَّا أَن تُعَذِّبَ﴾ أي: تهلكهم، وتستأصلهم بكفرهم، بحيث لا يبقى منهم

---

(١) انظر: البحر المحيط، أبو حيان ٤/ ٣٤٣.
(٢) زاد المسير، ١/ ١٠٧.
(٣) جامع البيان، ٢٠/ ٥٠.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩٨٨.

أحد ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ﴾ وتصنع ﴿فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾ شرعًا ودينًا، كما في سائر المؤمنين.

ثم لما خير ذو القرنين في أمرهم، وفوض أمرهم إليه، قال على مقتضى العدل والإنصاف، الذي قد جبله الحق عليه: أدعوهم أولًا إلى الإيمان، وألقي عليهم كلمة التوحيد، ثم بعد ذلك ﴿مَن ظَلَمَ﴾ وتولى وأبى وأصر على ما عليه من الكفر والهوى ﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أو نقتله حدًا بعد عرض الإسلام...، ﴿وَأَمَّا مَنۡ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ المثوبة العظمى، والدرجة العليا، والمقام الأسنى ﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنۡ أَمۡرِنَا يُسۡرٗا﴾ قولًا سهلًا معتدلًا بين إفراط القتل، والاستئصال، وتفريط الإبقاء على الكفر والضلال مداهنة. وهذا غاية في العدل والإنصاف.

وهكذا أقام ذو القرنين العدل، بتعذيب الظالم، وتكريم المؤمن، صاحب العمل الصالح.

وفي الآية دلالة على أن من قدر على أعدائه وتمكن منهم فلا ينبغي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال، بل يعامل المحسن بإحسانه، والمسيء بقدر إساءته، فإن ما حكي عن الإسكندر ها هنا من قوله: ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾... إلى آخره، نهاية في العدل، وغاية الإنصاف[1].

وبين الله تعالى اتصاف ذي القرنين بصفتي العدل والإنصاف ليحتذى حذوه، ويقتدى به في ذلك.

والمقصود: أن هذا هو قانون العدل والإنصاف، وهو أن يجازي المسيء على إساءته، والمحسن بإحسانه، هذا ما استقر عليه أمره واعتزمه؛ ولذا قال معتزمًا تنفيذه: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾...، هذا هو جزاء المسيء في قانون العدل الذي سنه ذو القرنين لنفسه، لا يفلت المسيء، وكذلك لا ينقص المحسن من جزاء حسن[2].

إنها سياسة العدل التي تورث التمكين في الحكم والسلطة، وفي قلوب الناس الحب والتكريم للمستقيمين، وإدخال الرعب في قلوب أهل الفساد والظلم، فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم، ويكون بطانته وموضع عطفه وثقته، ورعاية مصالحه، وتيسير أموره، أما المعتدي المتجاوز للحد، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض، فسيجد العذاب الرادع من الحاكم في الحياة الدنيا، ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يداه في حياته الأولى.

---

(١) انظر: محاسن التأويل، القاسمي ٧/ ٦٨.
(٢) انظر: زهرة التفاسير، أبو زهرة ٩/ ٤٥٨٠.

ولم يعين السياق القوم الذين اتخذ فيهم ذو القرنين هذه السياسة الحكيمة، كما أهمل ذكر المدة التي مكثها بينهم، والنتائج التي توصل إليها، وكأن الأمر المفروغ منه أن تثمر هذه السيرة العادلة، والمبادئ السامية حضارة ربانية، وتقدمًا، وسعادة وطمأنينة؛ لذا لا داعي لذكرها، والوقوف عندها[1].

رابعًا: إنصاف موسى عليه السلام لصاحبه الخضر:

ومن النماذج القرآنية في الإنصاف إنصاف موسى لصاحبه الخضر، حيث قال له عندما اشترط عليه في مصاحبته له: ألا يسأله عن شيء حتى يخبره هو به: ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا ۝٧٦﴾ [الكهف: ٧٦].

فقوله: ﴿فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ أي قال منصفًا له: لك الحق بعد ذلك في ترك مصاحبتي، فإن فارقتني لا لوم عليك ألبتة؛ لوضوح العذر منك إلي.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد أنك قد أعذرت فيما بيني وبينك، وقد أخبرتني: أني لا أستطيع معك صبرًا، وهذا إقرار من موسى بأن الخضر قد قدم إليه ما يوجب العذر عنده، فلا يلزمه ما أنكره[2].

فلما عاد موسى لنفسه وجد أنه خالف وعده مرتين، فاندفع وقطع على نفسه الطريق، وجعلها آخر فرصةٍ أمامه ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَٰحِبْنِي﴾ أي: إن أنكرت عليك بعد هذه المرة، واعترضت على ما يصدر منك فلا تصحبني معك ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ أي: قد أعذرت إلي في ترك مصاحبتي، فأنت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات، وهذا من إنصافه عليه السلام على نفسه، مع أن ذلك حرمه كثيرًا من العجائب التي كان سيراها في رحلته العجيبة تلك مع الخضر.

قال النيسابوري: ونهاه عن المصاحبة حينئذٍ، مع حرصه على التعلم لظهور عذره، كما قال: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ وهذا كلام نادم شديد الندامة، جره المقال، واضطره الحال إلى الاعتراف، وسلوك سبيل الإنصاف[3].

وقال ابن عاشور: وأنصف موسى؛ إذ جعل لصاحبه العذر في ترك مصاحبته في الثالثة؛ تجنبًا لإحراجه[4].

خامسًا: الإنصاف في القصاص:

أمر الله تعالى برعاية العدل والإنصاف في استيفاء الحقوق والحدود، وجعل القصاص بالمثل، قال تعالى: ﴿فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ

(١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي، مصطفى مسلم ص ٣٠٥.
(٢) الوسيط، الواحدي ٣/ ١٥٩.
(٣) غرائب القرآن ٤/ ٤٥٠.
(٤) التحرير والتنوير، ابن عاشور ١٦/ ٦.

عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤].

وقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ [النحل:١٢٦].

قال الرازي: اعلم أنه تعالى أمر برعاية العدل والإنصاف في هذه الآية، ورتب ذلك على أربع مراتب:

المرتبة الأولى: قوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ يعني: إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقنعوا بالمثل، ولا تزيدوا عليه، فإن استيفاء الزيادة ظلم، والظلم ممنوع منه في عدل الله ورحمته.

والمرتبة الثانية: الانتقال من التعريض إلى التصريح، وهو قوله: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ [النحل:١٢٦].

وهذا تصريح بأن الأولى ترك ذلك الانتقام؛ لأن الرحمة أفضل من القسوة، والإنفاع أفضل من الإيلام.

المرتبة الثالثة: وهو ورود الأمر بالجزم بالترك، وهو قوله: ﴿وَٱصْبِرْ﴾ [النحل: ١٢٧]؛ لأنه في المرتبة الثانية ذكر أن الترك خير وأولى، وفي هذه المرتبة الثالثة صرح بالأمر بالصبر؛ ولما كان الصبر في هذا المقام شاقًا شديدًا ذكر بعده ما يفيد سهولته، فقال: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ [النحل:١٢٧] أي: بتوفيقه ومعونته، وهذا هو السبب الكلي الأصلي المفيد في حصول الصبر، وفي حصول جميع أنواع الطاعات[(١)].

فالله تعالى أمر المحقين برعاية العدل في العقاب، وترك الزيادة فيه، فقال: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ﴾ أي: وإن عاقبتم أيها المؤمنون من ظلمكم فلكم في العقاب إحدى طريقين:

- أن تعاقبوه بمثل الذي نالكم به ظالمكم من العقوبة.
- أن تصبروا، وتتجاوزوا عما صدر منه من الذنب، وتصفحوا عنه، وتحتسبوا عند الله ما نالكم به من الظلم، وتكلوا أمركم إليه، والله يتولى عقوبته.

والصبر خير للصابرين من الانتقام؛ لأن الله ينتقم من الظالم بأشد مما كان ينتقم منه لنفسه، فإن الزيادة ظلم، والظلم لا يحبه الله، ولا يرضى به، وإن تجاوزتم عن العقوبة، وصفحتم فذلك خير وأبقى، والله هو الذي يتولى عقاب الظالم، ويأخذ بناصر المظلوم.

وهذا كقوله: ﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] أمر الله برعاية العدل والإنصاف في باب استيفاء الحقوق، يعني: إن رغبتم في استيفاء القصاص فاقتصوا بالمثل، ولا تزيدوا عليه، فإن الزيادة ظلم[(٢)].

(١) مفاتيح الغيب، الرازي ٢٠/ ٢٨٩.
(٢) لباب التأويل، الخازن ٣/ ١٠٨.

فوائد الإنصاف على الفرد والمجتمع

للإنصاف والعدل فوائد جليلة، وآثار عظيمة، وثمار كثيرة، سواء على مستوى الفرد، أو على مستوى المجتمع.

أولًا: ثمار الإنصاف على الفرد:

١ . الإنصاف موصل للتقوى:

من ثمار وفوائد الإنصاف والعدل تحقيق التقوى التي هي مطلب كل مسلم، ومرغوب كل مؤمن، والتي أعد الله تعالى لأصحابها جنة عرضها السماوات والأرض.

قال تعالى: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨].

والعدل هنا مطلق، يتناول معنى الإنصاف، وعدم الإجحاف، وعدم تجاوز الحق، قولًا وفعلًا، في كل موقف ومناسبة.

قال ابن جرير: وأما قوله: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ فإنه يعني بقوله: ﴿هُوَ﴾ العدل عليهم، أقرب لكم أيها المؤمنون إلى التقوى، يعني: إلى أن تكونوا عند الله باستعمالكم إياه من أهل التقوى، وهم أهل الخوف والحذر من الله أن يخالفوه في شيء من أمره، أو يأتوا شيئًا من معاصيه، وإنما وصف جل ثناؤه العدل بما وصف به من أنه أقرب للتقوى من الجور؛ لأن من كان عادلًا كان لله بعدله مطيعًا، ومن كان لله مطيعًا كان لا شك من أهل التقوى، ومن كان جائرًا كان لله عاصيًا، ومن كان لله عاصيًا كان بعيدًا من تقواه، وإنما كنى بقوله: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ﴾ عن الفعل، والعرب تكني عن الأفعال إذا كنت عنها بـ(هو وبذلك) كما قال جل ثناؤه: ﴿فَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾ [البقرة:٢٧١]. ﴿ذَٰلِكُمۡ أَزۡكَىٰ لَكُمۡ﴾ [البقرة:٢٣٢][١].

وفي الآية ثلاثة مؤكدات على العدل والإنصاف:

- أنه نهاهم أولًا أن تحملهم البغضاء على ترك العدل.
- ثم استأنف فصرح لهم بالأمر بالعدل، تأكيدًا وتشديدًا.
- ثم استأنف فذكر لهم وجه الأمر بالعدل، وهو قوله تعالى: ﴿هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾.

وفيه تنبيه على أن وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله إذا كان بهذه الصفة من القوة، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وأحباؤه[٢].

قال البيضاوي: صرح لهم بالأمر بالعدل، وبين أنه بمكان من التقوى بعد ما نهاهم عن الجور، وبين أنه مقتضى الهوى[٣].

والمقصود: أن من ثمار العدل والإنصاف في الفرد أنه يدخله مداخل التقوى، ويقيمه

(١) جامع البيان، ٨/ ٢٢٤.
(٢) انظر: مدارك التنزيل، النسفي ١/ ٤٣٢.
(٣) أنوار التنزيل، ٢/ ١١٧.

مقام المتقين.

قال السعدي: ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾ [المائدة:٨] أي: كلما حرصتم على العدل، واجتهدتم في العمل به، كان ذلك أقرب لتقوى قلوبكم، فإن تم العدل كملت التقوى[(١)].

٢. الإنصاف سبب في محبة الله للعبد:

ومن ثمار الإنصاف والعدل نيل محبة الله تعالى، التي هي أعظم العطايا، وأحب المطالب للمسلم، قال تعالى: ﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩] والقسط من معاني الإنصاف.

قال الرازي: والقسط العدل والنصفة[(٢)].

والمعنى: أي: واعدلوا، إن الله يحب العادلين، ومحبته لهم تستلزم مجازاتهم بأحسن الجزاء[(٣)].

وفي الآية إظهار المحبة للمقسطين على شرف منزلتهم، وفضيلة أفعالهم.

وأي منزلة أعلى في الوجود من هذه المحبة التي تتضمن الرضا، ورضوان الله أكبر من كل شيء.

قال السعدي: فإن محبة الله للعبد هي أجل نعمة أنعم بها عليه، وأفضل فضيلة، تفضل الله بها عليه، وإذا أحب الله عبدًا يسر له الأسباب، وهون عليه كل عسير، ووفقه لفعل الخيرات، وترك المنكرات، وأقبل بقلوب عباده إليه بالمحبة والوداد[(٤)].

وقال ابن عطية: ومحبة الله للعبد أمارتها للمتأمل أن يرى العبد مهديًا مسددًا، ذا قبول في الأرض، فلطف الله بالعبد ورحمته إياه هي ثمرة محبته، وبهذا النظر يتفسر لفظ المحبة حيث وقعت من كتاب الله عز وجل[(٥)].

فالعبد إذا بلغ في الطاعة إلى حيث يفعل كل ما أمره الله، وكل ما فيه رضاه، وترك كل ما نهى الله، وزجر عنه، فكيف يبعد أن يفعل الرب الرحيم الكريم مرة واحدة ما يريده العبد، بل هو أولى؛ لأن العبد مع لؤمه وعجزه لما فعل كل ما يريده الله، ويأمره به فلأن يفعل الرب الرحيم مرة واحدة ما أراده العبد كان أولى؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ [البقرة:٤٠][(٦)].

وفي الآية إثبات صفة المحبة لله عز وجل على الحقيقة، كما يليق بجلاله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾

قال ابن العثيمين: وهي محبة حقيقية على ظاهرها؛ وليس المراد بها الثواب؛ ولا إرادة الثواب خلافًا للأشاعرة، وغيرهم من أهل

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٢٤.
(٢) مفاتيح الغيب، ٩/ ٤٨٥.
(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/ ٧٤.
(٤) تيسير الكريم الرحمن ص ٢٣٥.
(٥) المحرر الوجيز، ابن عطية ١/ ٤٢٢.
(٦) مفاتيح الغيب، الرازي ٢١/ ٤٣٥.

التحريف الذين يحرفون هذا المعنى العظيم إلى معنًى لا يكون بمثابته؛ فإن مجرد الإرادة ليست بشيء بالنسبة للمحبة؛ وشبهتهم أن المحبة إنما تكون بين شيئين متناسبين؛ وهذا التعليل باطل، ومخالف للنص، ولإجماع السلف، ومنقوض بما ثبت بالسمع والحس من أن المحبة قد تكون بين شيئين غير متناسبين؛ فقد أثبت النبي صلى الله عليه وسلم أن أحدًا -وهو حصى- (جبل يحبنا ونحبه)[1].

والإنسان يجد أن دابته تحبه وهو يحبها؛ فالبعير إذا سمعت صوت صاحبها حنت إليه، وأتت إليه؛ وكذلك غيره من المواشي؛ والإنسان يجد أنه يحب نوعًا من ماله أكثر من النوع الآخر[2].

والمقصود: أن من ثمار الإنصاف حصول المنصف على محبة الله تعالى، ويا لها من نعمة عظيمة! وثمرة جليلة، وهي صفة لله تعالى، تستلزم الرضا والرحمة والإكرام والثناء وغيرها من العطايا، ولا يجوز تعطيل صفة المحبة، وصرفها عن ظاهرها إلى الثواب، فيقال مثلًا: «يحببكم الله: بمعنى يثبكم الله» بل الصواب أن يقال: إن الله يحبكم، وإذا أحبكم يثبكم؛ لأن المثوبة من آثار المحبة لا عين المحبة.

٣. الإنصاف أمان للفرد من الضلال:

ومن ثمار الإنصاف والعدل الأمن من الوقوع في الضلال، واتباع الهوى، والميل عن الحق.

وقد قال تعالى لنبيه داود: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ [ص:٢٦].

قال أبو جعفر: قوله: ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني: بالعدل والإنصاف ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ يقول: ولا تؤثر هواك في قضائك بينهم على الحق والعدل فيه، فتجور عن الحق ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ يقول: فيميل بك اتباعك هواك في قضائك على العدل، والعمل بالحق عن طريق الله الذي جعله لأهل الإيمان فيه، فتكون من الهالكين بضلالك عن سبيل الله[3].

قال الواحدي: قوله: ﴿بِمَا نَسُوا۟﴾ أي: تركوا القضاء بالعدل[4].

﴿فَيُضِلَّكَ﴾ الهوى، فيكون سببًا لضلالك ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ عن دلائله

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب أحد يحبنا ونحبه، ٥/ ١٠٣، رقم ٤٠٨٣، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب أحد جبل يحبنا ونحبه، ٢/ ١٠١١، رقم ١٣٩٢.
(٢) تفسير القرآن الكريم، الفاتحة والبقرة ٢/ ٣٩١.
(٣) جامع البيان، الطبري ٢١/ ١٨٩.
(٤) الوسيط، الواحدي ٣/ ٥٥٠.

التي نصبها في العقول، وعن شرائعه التي شرعها وأوحى بها[1].

وقال الرازي: وتفسيره أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، والضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب، فينتج أن متابعة الهوى توجب سوء العذاب.

أما المقام الأول: وهو أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، فتقريره: أن الهوى يدعو إلى الاستغراق في اللذات الجسمانية، والاستغراق فيها يمنع من الاشتغال بطلب السعادات الروحانية التي هي الباقيات الصالحات؛ لأنهما حالتان متضادتان، فبقدر ما يزداد أحدهما ينقص الآخر.

أما المقام الثاني: وهو أن الضلال عن سبيل الله يوجب سوء العذاب، فالأمر فيه ظاهر؛ لأن الإنسان إذا عظم إلفه بهذه الجسمانيات، ونسي بالكلية أحواله الروحانيات، فإذا مات فقد فارق المحبوب والمعشوق، ودخل ديارًا ليس له بأهل تلك الديار إلف، وليس لعينه قوة مطالعة أنوار تلك الديار، فكأنه فارق المحبوب، ووصل إلى المكروه، فكان لا محالة في أعظم العناء والبلاء، فثبت أن متابعة الهوى توجب الضلال عن سبيل الله، وثبت أن الضلال عن سبيل الله يوجب العذاب، وهذا بيان في غاية الكمال[2].

٤ . الإنصاف سبب في صلاح العمل ومغفرة الذنوب:

ومن ثمار تحري الإنصاف والعدل في جميع الأقوال والأعمال، صلاح الأعمال وغفران الذنوب.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

والقول السديد: هو القول العدل.

قال ابن الجوزي: «قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ فيه أربعة قوال:

أحدها: صوابًا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

والثاني: صادقًا، قاله الحسن.

والثالث: عدلًا، قاله السدي.

والرابع: قصدًا، قاله ابن قتيبة.

ثم في المراد بهذا (القول) ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه (لا إله إلا الله) قاله ابن عباس وعكرمة.

والثاني: أنه العدل في جميع الأقوال والأعمال، قاله قتادة»[3].

وهذه الأقوال كلها صحيحة، فالقول السديد هو القول الصواب، المستقيم، العدل، الصادق، القاصد، المنصف.

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/ ٨٩.

(٢) مفاتيح الغيب ٢٦/ ٣٨٦.

(٣) زاد المسير ٣/ ٤٨٧.



والمعنى: قولوا قولًا قاصدًا غير جائر، حقًا غير باطل[1].

قال ابن حجر: «والسداد: بفتح أوله، العدل، المعتدل، الكافي، وبالكسر ما يسد الخلل»[2].

وقوله: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ يقول تعالى ذكره للمؤمنين: اتقوا الله، وقولوا السداد من القول، يوفقكم لصالح الأعمال، فيصلح أعمالكم ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ أي: ويعف لكم عن ذنوبكم، فلا يعاقبكم عليها[3].

فيكون في قوله: ﴿يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ﴾ وجهان:

أحدهما: يصلحها بالقبول.

الثاني: بالتوفيق[4].

والمقصود: أن في قوله: ﴿قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ أي: عدلًا مستقيمًا، قاصدًا إلى الحق، والمآل واحد، يعني: صدقًا غير كذب، ولا مجازفة فيه، ولا ظلم ولا حيف، فإن الكذب يمحق، والصدق يبقى، فمن يلتزم السداد والإنصاف في أقواله كلها، فإنه يوفق لصلاح العمل، ومغفرة الذنوب، كما في هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ [الأحزاب:٧٠-٧١].

ثانيًا: ثمار الإنصاف على المجتمع:

كما أن للإنصاف ثمارًا وفوائد تعود في الفرد، فكذلك له ثمار في المجتمع، ومنها:

الأمن من العذاب والهلاك:

إن مجتمعًا يسوده الإنصاف، فينصف الناس بعضهم بعضًا، ينصف الرجل المرأة، والمرأة الرجل، وينصف الحاكم الرعية، والرعية تنصف الراعي، وهكذا، ويسود العدل والإنصاف بين أفراده جميعًا، فإنهم عند ذلك يأمنون من غضب الله وعقابه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ ۝١١٧﴾ [هود:١١٧].

قوله: ﴿وَأَهۡلُهَا مُصۡلِحُونَ﴾ أي: فيما بينهم لا يتظالمون، ولكنهم يتعاطون الحق بينهم، وإن كانوا مشركين، إنما يهلكهم إذا تظالموا[5].

فالله لم يكن ليهلكهم وهم يتعاطون الحق فيما بينهم، وإن كانوا مجرمين[6].

فيكون معنى الآية على هذا: إنه لم يكن من شأن ربك أيها الرسول المصلح، ولا من سنته في خلقه أن يهلك العواصم والمدائن بظلم منه، أو بشرك من أهلها، والحال أنهم

(١) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٥.
(٢) فتح الباري ١١/ ٣٠٠.
(٣) انظر: جامع البيان، الطبري ٢٠/ ٣٣٦.
(٤) النكت والعيون، الماوردي ٤/ ٤٢٨.
(٥) جامع البيان، ١٥/ ٥٣٠.
(٦) انظر: تفسير السمرقندي ٢/ ١٧٥.

مصلحون في أحكامهم وأعمالهم...، وهؤلاء البقية لا تخلو منهم أمة، فهم حجة الله على الأقوام، ومتى قلوا في أمة غلب عليها الفساد، وقرب انتقام الله منها[1].

والحاصل: أن للمفسرين في معنى الآية قولان:

أحدهما: أن الله تعالى لا يهلك القرى إلا إذا شذت عن الصلاح، فكفرت بالله، وكذبت الرسل، واقترفت المنكرات.

وثانيهما: أن الله لا يهلك القرى إذا كان أهلها مصلحين، يتعاطون الحق بينهم، ولا يتظالمون، وإن كانوا غير مؤمنين بالله ورسله، وإنما يهلكهم إذا تظالموا، وهذا القول هو المشهور، كما قال السمعاني كما سبق، والأثر السابق يؤيده، لكنه لم يرد في كتب السنة المعتمدة.

وهذا القول أيضًا هو الأوجه، كما هو المتبادر، ومضمون هذه الآية والآية التي قبلها يدعمه دعمًا قويًا، حيث اقتصر الكلام فيهما على الفساد في الأرض، والإجرام، والظلم، واتباع الشهوات، وأسباب الترف، وجملة: ﴿وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾ [هود:١٠٢] من السورة نفسها تدعم ذلك أيضًا.

وللسيد رشيد رضا قول سديد في ذلك، حيث يحمل الجملة على معنى الصلاح الاجتماعي والعلمي والعمراني، أو يجعل ذلك من ضمن ما يحمله معنى الجملة، ويعلل بذلك عدم تذكير الله تعالى الأمم الصالحة على هذا الوجه، مع كفرها وشركها، ويقول: إن الأمم تبقى مع الكفر، ولا تبقى مع الظلم، وشيء من مثل هذا ملموح في كلام بعض المفسرين القدماء، كالطبري وابن كثير والزمخشري[2].

وقال أبو زهرة في معنى الآية: وأهلها مصلحون فيما بينهم، يتعاونون، ويقيم الحق في معاملاتهم، حتى لقد قال بعضهم: إن الشرك مع إقامة العدل لا يهلك، والإيمان مع ظلم التعامل يهلك الأمم.

وقال بعض المفسرين: إن المراد -والظاهر أنه مراد- أنه ما كان ربك ليهلك القرى ظالمًا لها، وأهلها مصلحون، يعدلون فيما بينهم، ولا يشركون بالله، ولا يكون منهم ظلم، بل نصفة وعدل، فما كان الله ظالمًا لعباده[3].

موضوعات ذات صلة:

الظلم، العدل

(١) المنار، محمد رشيد رضا ٩/ ٢٠.

(٢) انظر: التفسير الحديث، دروزة محمد عزت ٣/ ٥٥٣.

(٣) زهرة التفاسير ٧/ ٣٧٧٣.

